فن الاختزال

في

القرآن الكريم

بقلم

سليم الجابي

ماجستير علم الأديان المقارن

فنّ الاختزال

في القرآن الكريم

فن الاختزال
في القران الكريم

بقلم
سليم الجابي
ماجستير علم الأديان المقارن

فن الاختزال في القرآن
الطبعة الأولى ١٩٩٤ . عدد النسخ / ٢٠٠٠/

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف.
عنوان المؤلف: دمشق، هاتف ٧٧٤١١٣ ـ ص.ب ٥٤٢٥

تصميم الغلاف : م. نعيم الجابي.
التنضيد الالكتروني: دار سلام، دمشق ، هاتف ٦٦٦٩١٢٧
الطباعة: يوسف نضر، هاتف ٢٢٢٣٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة الكتاب

لم تقع عيني، من خلال ماقرأته من كتب التّفسير أو أيّ علمٍ من علوم القرآن الكريم، على بحثٍ تناول الكلام على ما افتُتحت به سور القرآن من أحرف المقطّعات، كأحرف (آلم) وأحرف (الر) و (آلمص). . فدلّ على المنهج أو الفنّ الذي اتّبعه فيها الله الذي أنزلها، عدا محاولاتٍ يسيرة على هذا الصّعيد، لم تنتهِ إلى الكشف عن أيّ نهجٍ من هذا القبيل.

فما أسباب هذا النقص؟ وهل لأحرف المقطّعات فنٌّ أو نهجٌ صدرت عنه؟ أو هل هي مُجرّد "ألغازٍ" لاسبيل إلى فهمها والإحاطة بدلالاتها؟

وأجيب عن هذه التساؤلات جوابًا هو في غاية الإيجاز. وهو أنّ أحدًا من العلماء لم يهتدِ إلى الكشف عن ذلك، لتسليمه باحتمال احتواء الكتاب ألغازًا لا يمكن أن تُفهم أو تُدرك.

قال الله عزّ وجلّ متحديًا: ﴿قلْ لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لايأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيرًا﴾ (الإسراء ٨٨). وقد أعقب الله، عزّ وجلّ، تحدّيه المذكور، بأن وضّح للنّاس نوع هذا التحدّي، وحدوده، فقال: ﴿ولقد صرّفنا في هذا القرآن من كل مثلٍ، فأبى أكثر الناس إلا كُفورًا﴾. وعن فعل (صرّفنا)، قال سيبويه: «التّصريف، على ماحُكي عن العرب، هو أن تبني من الكلمة بناءً لم تبنِهِ العرب على وزنٍ ماتبنيه أنت، ثم تعمل في البناء الذي تبنيه على مايقتضيه قياسُ كلامهم.» وجمعُه تصاريف. ندرك من خلال قوله تعالى ﴿صرّفنا. . . من كلِّ مَثَل. .﴾ آخذين بعين الاعتبار أنّ (المَثَل) هو الشّبيه والنّظير، أنه تعالى قد أعلن عن حقيقتين لامجال للنّقاش فيهما:

١ ـ الحقيقة الأولى هي نفيُه تعالى أن يكون في وحي القرآن الكريم «ألغازٌ» لايعلَمُها إلاّ هو.

٢ ـ الحقيقة الثانية تذكيره تعالى طُلاّب الحقيقة أنّ عليهم أن يتدبّروا كلام الله تدبُّرًا كاملاً. لذلك أتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿... فأبى أكثر النّاس إلاّ كُفورا﴾. ففي اللغة العربية: أبى الطّعام يأباه إباءً معناه: انتهى عن الطّعام من غير شِبَع، فلم يرضَهُ، وامتنع عنه، وكفر بنعمته (محيط المحيط)

ثم إنّ ألفاظ: (بمثل هذا القرآن)، أطلقت التّحدي الإلهيّ، ليشمل تحدّيه تعالى لُغةَ القرآن ومضمونه في آنٍ واحد.

وبناءً على ماتقدّم، كان من واجب من يتصدّى لتفسير القرآن المجيد أن ينطلق من مُنطلق أنّ أحرف المقطّعات (الٓمٓ، الٓر، والٓمص) وسواها من أحرف فواتح سُوَر القرآن المجيد، تمثّل ماتعارف عليه عرب الجاهليّة من فنّ اختزالٍ، له قواعده لديهم وخطّته أيضًا. وأنّ الله، عزّ وجلّ، أتى بفنّ اختزاله، على حسب ماذكره سيبويه «.. على مايقتضيه قياس كلامهم... (بناء) لم تبنِه العرب.»

هذا والتحدّي الإلهي الذي أوردَته آية سورة (الإسراء) هو، من حيث اللغةُ وصياغة الكلام، لايكتمل مالم يُصرَّف كلامُه في مُختلف فنون لُغة الضادّ، ومنها فنّ الاختزال. وماالنّقص الحاصل فيما أتى به المفسِّرون بشأن أحرف المقطّعات إلاّ لأنهم ظلّوا يعتقدون أنّ القرآن قد يتضمن ألفاظًا وجُملاً وحروفًا يخفى سِرُّها على كل أحد.

هذا، وإنّ من المؤسف حقًّا أن نُضطَرّ إلى الاعتراف بأنّ من المفسِّرين من لم يلتزم نهجًا موضوعيًّا في تفسيره، ولم يكن عند الكثيرين منهم مُعطيات مافي عصرنا من علوم، وإن التزم بعضهم ببعض أصول التّفسير.

والمهمّ في الأمر هو أنّ فواتح سوَر القرآن المجيد، من أحرف المقطّعات، تُمثّل في رأيي واجتهادي فنًّا اختزاليًّا قرآنيًّا، يناظر ويُضاهي فنّ الاختزال الذي درج عليه شعراء ماقبل الإسلام، وله قواعده وخطّته نفسها. إنّما بناه الله، عزّ وجلّ، في كتابه القرآن (بناءً) لم تبنِه العرب. فقد جاء فيه مُحلًّى، مزركَشًا، جذّابًا، على مستوى التحدّي القرآنيّ. والذي حاولته في مؤلّفي هذا هو توضيح ذلك كُلّه ليس إلاّ.

وقد كان من الطبيعيّ جدًّا، وأنا أتصدى لهذا الأمر، أن أعمد إلى عرض وِجهاتِ نظر من سَبَقني، وأن أناقشها نقاشًا موضوعيًّا. وعلى هذا، فقد عمدت في

الفصل الأوّل، من الباب الأول النّظري، إلى عرض آراء المفسِّرين ونقدها ومُناقشتها.

وقد تحتّم عليّ في خُطوتي التّالية أن أعمد إلى التّعريف بفنّ الاختزال الذي كشفتُ النّقاب عنه: مفهومه، وقواعده، وخطّته التي التزم بها شعراء ماقبل الإسلام. وهكذا عمدت إلى تخصيص الفصل الثاني بتعريف فنّ الاختزال، وبيان قواعده وخطّته وأصوله.

ورُبَّ معترض يقول: مامعنى أن يُعطي الله، عزّ وجلّ، فنّ الاختزال مثلَ هذا الشّأن، وهو الفنّ اللغويّ الذي لم يكن له قبل الإسلام كبير شأنٍ وشيوع؟

وهذا الاعتراض، على وجاهته الظّاهرة، ليس على شيء من الشأن، إذا لاحظنا ماآلت إليه علوم عصرنا من التّشابُك، ومالفنّ الاختزال فيها من مقام. فليس ثمّة علمٌ في عصرنا لايحتاج علماؤه إلى الاستعانة بهذا الفنّ. وقد كان في علم الله الغيبيّ أن هذا الفنّ سيحتلّ هذه الصّدارة، وهذه المنزلة المرموقة، وقد أنزل كتابه العزيز لكلّ زمانٍ ومكان. ففي هذا بعض الحكمة في اهتمام القرآن بفنّ الاختزال. وهذا ماأوجب تخصيص الفصل الثالث بيانًا وتوضيحًا لأهميّة هذا الفنّ واستعمالاته، وعلى صعيد عصرنا بالذات.

ولمّا كنت قد قلت في مستهَلّ مقدّمة هذا الكتاب أنّ الله، عزّ وجلّ، قد أورد فنّ الاختزال بثوب مُحلًّى ومُزركش جذّاب، فقد أصبح لزامًا عليّ توضيح قولي المذكور، بإعطاء فكرةٍ واضحة المعالم عن فنّ الاختزال القرآني نفسه، وعن نهجه وخطّته أيضًا. وهذا الأمر استدعى منّي تخصيص الفصل الرّابع لهذا الغرض. فاختصرت في نهايته الأُسس الأربعة التي قام عليها فنّ الاختزال القرآني، ممّا ستلحظه في الفصل المذكور.

وقد بيّنت لقارئي العزيز في الفصل الخامس أنّ في فنّ الاختزال القرآني مايشدُّ الفكر إليه، لأنّه عمليّة تدبُّر ذهنيّة، تخضع لقواعد وخطّة مرسومة. وعمليّةُ «التّدبُّر» هذه شملها قول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿أفلا يتدبَّرون القرآن أم على قلوب أقفالُها﴾ (النساء ٨٢) ـ وكلّ مايحتاج إليه هذا الإنسان المُتدبِّر أحرف الاختزال القرآنيّة هو الإلمام بما كان لهذا الفنّ من قواعد وخطّةٍ دَرَجَ عليها أُدباء ماقبل الإسلام.

أقول: قد جمع الباب الأوّل النّظريّ من هذا الكتاب في فصوله الخمسة ماتناولتُه بالنّقاش والبيان في مقدّمتي هذه، حتى اللّحظة. وقد أفردت بابًا ثانيًا تطبيقيًّا، عرضت فيه لجميع سُور القرآن الكريم، وماستُهلّت به السُّوَر من أحرف

اختزال. وقمت بعمليّة تطبيقيّة لِما طرحتُهُ نظريًا في الباب الأول. والتزمت في عمليّة التّطبيق هذه بنهج واضح، عمادُه اختزال «الحروف المقطّعة» من أسماء الله الحُسنى، وذلك استنادًا إلى الأسس الثلاثة التّالية:

أولاً - إيضاح الرّابطة أو الوشيجة التي تربط بين كُلِّ سورتين من سُوَر القرآن الكريم.

ثانيًا - أن تكون عمليّة الاختزال هذه وفقًا لقواعد الاختزال وخطّته.

ثالثًا - إثبات حقيقة دلالة الحرف المُختزل، ممّا تضّمنته آيات السورة نفسها، والتي استُهلّت بحرفٍ من أحرف الاختزال.

وهذا مع العلم أنّ الباحث يظلّ مُقصّرًا في مجال بحثه، إذا هو لم يقم بإثبات ماطرحه على الصّعيد التطبيقيّ. فلو أنّ من قال بكرويّة الأرض كان يملك من وسائل التّطبيق مايملكه أبناء عصرنا لَمَا ظلّت نظريّته آنذاك محلّ اختلاف وجدال. وقد عاد أحدنا ينظر إلى نظريّة كروية الأرض اليوم على أنّها إحدى البديهيّات. ذلك أنّ الطيّران، والمركبات الفضائية، والأقمار الصناعية، أغنتنا عن مناقشة نظريّة كرويّة الأرض، وجعلتنا نتوقّف عن معاداة صاحبها. بل إنّ هذه المعطيات العلمية قد أعانتنا أيضًا على تفسير ماأورده القرآن المجيد عن الأرض من آيات.

وعلى هذه الشّاكلة لم أكتف بما تضمّنته الفصول الخمسة من الباب النّظري، بل قمت بإثبات صحّة ماطرحته بأسلوبٍ عمليٍّ تطبيقيٍّ في الباب الثاني الذي استغرق فصله الأوّل الشّطر الأكبر من هذا الكتاب. وللقارىء إذا شاء أن يُتابع ماقمت به، مُخلصًا وناقدًا، ليدحضه إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وأفردت بابًا ثالثًا لتلخيص جميع ما أوردته في الباب الثاني التطبيقيّ إعانةً مني للقارىء على الفهم بشكل إجماليّ.

وقد كان من الواجب عليّ تبيان نظرتي الشخصيّة إلى ترتيب سور القرآن المجيد. وقد جاء مُرتّبًا على فاتحةٍ وسوَرٍ قُسّمت إلى ثلاثين جُزءًا.

فاجتهادي هو أنّ سورة (الفاتحة) هي بمثابة مُقدّمة وخلاصة لهذا الكتاب السّماوي، وأنّ سُوَرَ المعوّذات الثلاث الأخيرة منه (الإخلاص والفلق والناس) هي بمثابة خلاصةٍ ثانية لهذا الكتاب العظيم.

أمّا عن سورة (الفاتحة) فقد صيغت، على قلّة آياتها، على ثلاثة أقسام. فأعطت آيات القسم الأول فكرةً هي في غاية الإيجاز والغِنى العلميّ عن ذات الخالق وماتحمله من أسماء وصفات. وقد أتت آيات هذا القسم الأول مَصوغةً بصيغة الحمد لله والثناء على عطاياه، من مُنطلق أنه ربّ العالمين. والآيات التي

عبرت عن هذا القسم الأوّل من سورة (الفاتحة) هي: ﴿الحمد للّه ربّ العالمين - الرّحمن الرحيم - مالك يوم الدّين﴾.

أمّا القسم الثاني من علوم سورة (الفاتحة)، فقد خصّصه ربّنا، جلّ شأنه، لبيان مدى عجز الإنسان المخلوق، وحاجته الماسّة إلى مَعونة ربّه وهدايته له، من ذلك عونٌ على تعرُّف خالقه، وطلب قُربه ونعمائه. وقد أتت آيات هذا القسم أيضًا في غاية الإيجاز والدلالة، وصيغت بأسلوب التوسّل والتضرُّع والدُّعاء. وعبّرت عن هذا القسم الثاني من سورة (الفاتحة) الآيات: ﴿إيّاك نعبُد وإيّاك نستعين - اهدنا الصراط المستقيم - صراط الذين أنعمت عليهم﴾ - علمًا بأنّ المقصود بالمنعَم عليهم ماأوردته سورة (النّساء): ﴿ومن يُطع الله والرّسول فأولئك مع الذّين أنعم الله عليهم من النبيِّين والصّديقين والشهداء والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقًا - ذلك الفضل من الله، وكفى بالله عليمًا﴾ (٦٩ - ٧٠).

والقسم الثالث من مواضيع سورة (الفاتحة) أتى الله، جلّ شأنه، به على صيغة الدّعاء، ولكن ليس طلبًا لشيءٍ بذاته، بل طلبًا للوقاية من الشّرور، والحماية من عواقبها. واحتوى على هذا القسم الثالث الآية الأخيرة من سورة (الفاتحة) وهي: ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضّالّين﴾.

ولم يأتِ الله، جلّ شأنه، بسورة (الفاتحة) من دون رابطةٍ تربطها بأوّل سورة أتت بعدها، وهي سورة (البقرة). وقد تمّ ربطهما بوشيجةٍ متينةٍ. فالله تعالى، إذ علّمنا في سورة (الفاتحة) دعاء ﴿اهدنا الصراط المستقيم - صراط الذين أنعمت عليهم﴾ استهلّ سورة (البقرة) بقوله تعالى: ﴿الم - ذلك الكتاب لاريب فيه هُدىً للمُتّقين﴾ ليقول بألفاظ أخرى: هذا هو الكتاب كامل التعاليم الّذي أنبأتُ عن نزوله على لسان موسى فوق جبل الطّور، وهو يحمل تعاليم (الصراط المستقيم)، صراط الذين أنعمت عليهم، لذلك أضحى هذا الكتاب (هدى للمُتّقين). ولم يقف عند هذا الحدّ من البيان والرّبط بين سورتَي (الفاتحة والبقرة)، بل مضى يشرح في الآيات التالية النهجَ الذي وضعه للمُتّقين، وهو نهج الصراط المستقيم.

هذا وإنّ فاتحة الكتاب، التي أتت بهذا التّقسيم، وهذه الدلالات، تُعتبر بحقٍّ خلاصة موجزة لجميع مااحتوى عليه القرآن الكريم من تعاليم. ذلك أنّ ثُلُثَ آياته يدور حول توحيد الله تعالى في ذاته وصفاته، وثُلثَها الثاني محوره إطلاع هذا الإنسان على نواحي ضعفه واحتياجه معونةَ خالقه، وهدايتُه الهداية اللازمة له لفتح باب التضرُّع بين يديه، عزّ وجلّ، للاستعانة به تعالى في كل مايساعده على

تحقيق المقصد من حياته. أما الثّلث الأخير من تعاليم هذا الكتاب فيوضّح للإنسان مايتهدّده من أخطار خارجةٍ عنه، وأخطارٍ داخليّة تنبع من داخله، وتتدفق من ميوله وأهوائه وشهواته كالسيول الهادرة. فلا يتأتّى له استغلالها إلاّ بوضع سدود توجّهها الوجهة المثمرة، وإلاّ أتت على كلّ مايبنيه الإنسان ويشيّده.

وأنا أنظر إلى السُّوَر الثلاث الأخيرة من هذا الكتاب السّماوي (سُوَر الإخلاص والفلق والناس) على أنها خاتمة القرآن الكريم، وخلاصته الأخيرة التي هي في موازاة فاتحة الكتاب. وهذا على مادرج عليه الكُتّاب حين يُقدِّمون لكتابهم المقدمة الأولى، ويُنهونه بالخلاصة الأخيرة.

والسُّوَر الثلاث الأخيرة المُشار إليها تناولت سورة (الإخلاص) منها موضوع توحيد الله في ذاته وصفاته والبراهين القاطعة المؤيّدة له.

وتناولت سورة (الفَلق) أهم الأمور التي ستواجهها الدعوة الإسلامية، عبر مسيرتها الطويلة، ومايواجه حملتها من أخطار خارجيّة. فعدّدت هذه الأخطار الخارجيّة، وحددت معالمها، بأسلوبٍ فريد، موجز، بليغ العبارة، جليّ البيان.

أما سورة (النّاس)، فقد تناولت أهمّ مايواجهه الإنسان من داخله، من أخطار، وكشفت عن أُسسٍ توجيه البواعث الدّاخلية توجيهًا سليمًا وحكيمًا، وبأسلوب موجز، فريد أيضًا، بليغ يأخذ بالألباب.

والله الحكيم الخبير قد استهلّ هذه السّور الثلاث الأخيرة جميعها بصيغة الأمر (قُلْ)، أي بلِّغْ أيها الرسول مااحتوته هذه السّور من تعاليم، واشرحْها لأصحابك المؤمنين. وليس هذا وحسب، بل احمِل تعاليم هذه الرسالة وبلِّغها إلى الناس أجمعين. وهذا، على حسب قولك: أقرىء فُلانًا سلامي. فهذه هي دلالة فعل الأمر (قلْ)، الذي استُهلّت به هذه السّوَر الثلاث. وليس بمعنى اقرأ، كما ذهب ذهن بعضهم إليه. هذا وإنّ الحكمة من هذا الأسلوب في الاستهلال هي تنبيه أذهان المؤمنين إلى أنّهم مسؤولون عن نشر الدّعوة الإسلاميّة. ذلك أنّ الإسلام دين دعوة، وماهو دين عبادات وحسب، أي أنّه يحمل بين جوانبه فكرًا ناضجًا لايدانيه فيه سواه.

ولمّا كانت هاتان الخُلاصتان القرآنيّتان: فاتحة الكتاب وسُور المعوِّذات، في منتهى الاختصار والإيجاز لكتابٍ ضخم ضمّ بين دفّتيه ثلاثين جزءًا فقد استدعى ذلك من الله، عزّ وجلّ، الذي أنزله هُدىً للنّاس ورحمة، أن يُخصّص آخر جُزء منه لتلخيص كتابه بشكلٍ مُوسَّعٍ، قبل أن يعمد إلى تلخيصه ضمن سور المعوِّذات الثلاث.

هذا، ولم تكن بي من حاجةٍ لتناول هذا الجزء الأخير بالبحث، على اعتبار أنّ سُوَره جاءت غير مُستهَلّة بأحرف اختزال. ولعلمي أيضًا أني سأكتب، إن حالفني توفيق الله تعالى، تفسيرًا مُوسَّعًا لهذا الجزء لأثبت بذلك ماذكرت وذهبت إليه، والله خير المُستعان.

فمن هذا المنظور والفهم انطلقت أبحاثُ هذا المُؤلَّف. ولا أخفي سرًّا إذا قلت: إنّ هذا المؤلَّف قد كشف أمورًا ماكنت أهدف لكشفها، ولاكنت بصدد التّعرُّض لها. وإنّما هدفت في هذا المُؤلَّف إلى هدفٍ رئيس هو أن أُثبت رأيي بأنّ أحرف المُقطّعات التي تؤلِّف فواتح سُوَر القرآن المجيد إنّما تُبرز في نظري فنّ اختزالٍ قرآنيّ قد اقتضاه مضمون التحدّي القرآنيّ نفسه. وهو أن يأتي هذا التحديّ شاملاً جميع فنون لغة الضّاد.

والذي كشفه مُؤلِّفي هذا هو أنّ الله تعالى عمد في سُوَر كتابه العزيز الأُوَل، وحتى سورة (الكهف)، إلى مُخاطبة الناس كافّة، بجميع أديانهم ومذاهبهم. على حين مضى في آيات سورة (الكهف) الأُوَل ينبّه أذهان عباده إلى أن من مَهمّة محمد، رسوله الأمين، أن يُنذر طائفتين رئيستين من النّاس بصورة خاصّة. الأولى منهما قوم محمّدٍ بالذّات. أما الطائفة الثانية المُنذَرة فستظهر في طريق الدعوة الإسلامية في مُستقبَل الأيام، وبعد ألف عام على أقلّ تقدير. ويتحقّق ظهور هذه الطائفة من الناس إثر انقسام المسلمين على أنفسهم، وحين يسوء مُجتمعهم ويفسد، وتذهب ريحهم. وأصحاب هذه الطائفة الثانية هم الأقوام الغربيّة المسيحيّة ممّن قالوا ﴿. . . اتّخذ الله ولدًا ـ مالهم به من علمٍ ولا لآبائهم، كبُرت كلمةً تخرج من أفواههم، إن يقولون إلاّ كَذبًا﴾ (الكهف ٤ ـ ٥).

والمدهش أن تتحقّق هذه الأنباء في زمننا المعاصر وينجلي عنها الخفاء. ذلك أنّ المسلمين انحدروا إلى ماأنبأ القرآن به، وظهرت الأمم الغربية التي تدّعي المسيحية، والمسيح براء منها، إلى مستوى كُتلةٍ تُهيمنُ على العالم بأسره، فلا ترى الشّعوب المقهورة من سُلطان هؤلاء مَخْرجًا.

هذا وإنّ الذي يتدبّر مؤلَّفي هذا بإمعانٍ تتجلّى لعينيه أبعاد هذا الكشف الذي كشفته. ويقيني أنّ كتاب الله القرآن سيزداد عظمة في عينَيه، فتلوح له بوارق الأمل من خلال معالم هذا الكشف، وينسخ باليقين آية الشّك بوجود المملكة السّماويّة، فلا تعترضهُ في ذلك شُبهة، ولاينقطع له رجاء برحمة الله ربِّه، ربِّ العالمين ، أو يضمر اليأس من لطفه وعفوه.

وأرجو من الله، عزّ وجلّ، أن يكون مؤلَّفي هذا قد كشف أنّ هذا الإنذار

الإلهيّ الثاني هو في صالح دينه ودعوته، وأن يجعله أداة خير وسلام لجميع عباده، لإحقاق العدالة والمساواة بين النّاس في نهاية المطاف.

وبالتالي، إن القرآن الكريم وقد أنذر الأمم الغربيّة المُعربِدة بعذاب شديد من لدنه إن هم لم يتوبوا ويرجعوا إلى خالقهم وماأنزل لهم وللناس جميعًا من هدى وبُشرى، فلا بد أن يُنزِل بهم ماأنذرهم به من العذاب الشديد، عاجلاً أم آجلاً. ويَثبُتُ من ذلك صدق قوله، عزّ وجلّ: ﴿إنّا نحن نزّلنا الذِّكر، وإنّا له لحافظون﴾، وأنّ هذا الكتاب السّماويّ قد أُنزِل آخِرَ الشرائع السّماويّة، ولكلّ زمانٍ ومكان.

وأُبشِّر القارىء الكريم الذي يتدبّر مااحتواه مؤلَّفي هذا بأنّه سيشعر شعورًا أكيدًا، وكأنه قد وُضِعَ من عالم الغيب مفتاحٌ بين يدَيه ليفهم القرآن الكريم بنهج جديدٍ مُعاصر، تبدو فيه موضوعات القرآن المجيد مُتتابعة الحلقات، وسُوَرُه مُحكمةٌ الآيات، ومُفصّلات، يستحيل إلاّ أن تكون قد صدرت عن الله العزيز الحكيم الخبير.

ولامناص من الاعتراف أخيرًا بأنّني عبدٌ ضعيفٌ من عباد الله تعالى، لاأدّعي الكمال فيما بحثتُه وناقشتُه، ومعاذ الله أن أدّعي ذلك. فالكمال لله ربِّ العالمين وحدَه. فهو القادر على مايشاء، لايعجزه شيء، ولايفوته مطلوب، ولانُحيط بشيءٍ من علمه إلاّ بما شاء.

وكُلُّ ماأرجوه هو أن يجد القارىء في مؤلَّفي هذا هُدىً من هُدى الله، جلّ شأنه، واللهُ من وراء القصد، وآخِر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالمين.

دمشق، الجمعة، ١٦ المحرّم ١٤١٥هـ.

٢٤ حزيران ١٩٩٤م.

سليم الجابي

★ ★ ★

الباب الأول

البحث النظري

حروف المقطعات

الفصل الأوّل

مناقشة آراء المفترين

ماإن ينتهي المؤمن من تلاوة سورة (الفاتحة)، ويشرعُ في تلاوة سورة (البقرة) حتى تعترضه، في مُستهلِّ هذه السورة، الأحرف (آلم)، فيتلو كل حرفٍ منها منفصلاً عن الحرف الذي يليه. وتؤلِّف جملةُ هذه الأحرف أوّلَ آية من هذه السورة أيضًا. وقد أطلق المفسرون على هذه الحروف وأمثالها الواردةِ في مُستهلِّ السّوَر عامّة مُصطلحَ «الحروف المقطَّعة»، معتبرين أنّ كلّ حرف من هذه الحروف لابدّ أن تكون له دلالته، أو أنّه اجتُزِيء من كلمة من الكلمات.

والمفسرون، وقد اصطلحوا هذا المصطلح، لم يُولُوه كبير عناية وتدبُّر، فقد وقفوا عند ظاهر هذه الأحرف، ولم يتبيّنوا ماوراءها فنًا ومنهجًا. وهم لم يصيبوا كَبِد الحقيقة بتسميتها (الحروف المقطّعة)، وإن قاربوها. وقد كان أولى بهم أن يُعيروا الأمر اهتمامًا أكثر، ومن جوانب وزوايا لم يلتفتوا إليها.

وإن كلمة (اختزال)، ومصطلح (أحرف الاختزال) أدقّ، في رأيي واجتهادي، من مُصطلح (حروف المقطّعات) دلالةً على ماترمي إليه هذه الحروف التي استهلّ بها ربُّنا سُوَرَ كتابه العزيز.

فالاختزال عند أهل المعاني يُفيد حذف كلمة. ومثاله قوله تعالى: ﴿واسأل القرية التي كُنّا فيها. . .﴾ (يوسف ٨٢). والمقصود: واسأل أهل القرية. وكلمة (أهل) محذوفة بقرينة القرية التي لا لسان لها للنُّطق. وقد يُفيد الاختزال عند أهل المعاني حذف كلمتين أيضًا. ومثاله قوله تعالى: ﴿لايُسأل عمّا يفعلُ، وهم يُسألون. . .﴾ (الأنبياء ٢٣). والمراد أنهم يُسألون عمّا يفعلون.

والاختزال عند الشعراء إجراء اقتطاعٍ من الأجزاء الشّعريّة. هذا ماأورده صاحب (محيط المحيط). فكلمة اختزال إذنً هي أصّح دلالةً من دلالة (حروف المقطّعات)، وذلك لدلالة الاختزال على القطع والحذف بكافة أشكاله. وهذا هو السبب في أنّي اعتمدت كلمة اختزال على هذه الحروف المقطّعة، ورفعت شعار (فنّ الاختزال القرآني)، في مختلف نواحي هذا البحث موضوع هذا الكتاب.

أعود إلى المفسِّرين ومافهموه من دلالات أحرف الاختزال القرآنيّة أو ماسمَّوه (الحروف المقطّعة). فقد ذهبوا في ذلك مذاهب شتّى، مُختلفة ومتضادّة، ولم يصدُروا في جميع المعاني التي ذهبوا إليها عن منهج واضح معيَّن، ولااستندوا في ذلك إلى أصول. وسأتناول هنا تلك المعاني واحدة فواحدة، أناقشها نقاشًا موضوعيًا، وأنقضها بمحاكمات عقليّة منطقيّة. وحين أنتهي من هذه العمليّة، أنتقل إلى طرح المنهج الذي فهمته، والتزمت به، في موضوع فنّ الاختزال القرآني، وعرض هذا المنهج بأسلوب هو أقرب إلى التناول وأدنى إلى الفَهم. علمًا بأني أقوم بمجرّد محاولة، عسى أن تكون ناجحة، فيكون فيها فصل الخطاب.

فيما يلي المعاني التي طرحها المفسّرون رحمهم الله تعالى وأجزل لهم الثواب:

المعنى الأول: مفاده أنّ الله تعالى أعلم بمراده، وهو جلَّ شأنه قد استأثر بعلم دلالات هذه الحروف المقطّعة لنفسه، وأنّه، سبحانَه، لم يُطلع عليها أحدًا من عباده، حتى أقرب المقرّبين. اتّخذ هذا الرأي القرطبي، وأسند رأيه هذا إلى ابن مسعود، وانتهى به إلى عليّ وعثمان وعمر وأبي بكر، رضي الله عنهم أجمعين. ولم يوفّق القرطبيّ فيما ذهب إليه، في نظري، وفي محكّ القرآن الكريم نفسه. فما دام الله تعالى قد حضّنا على تدبُّر كتابه العزيز، بقوله: ﴿أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالُها. .﴾ (محمد ٢٤)، ولم يستثنِ ربّنا من هذا التدبُّر شيئًا، كالأحرف المقطّعة المذكورة، فلا يُعقل أن يكون قد استأثر الله تعالى بعلم دلالاتها لنفسه، فلم يُطلع عليها أحدًا من عباده، حتى أقرب المُقرَّبين. ثم إنّ كتاب الله، لم ينزله ربُّنا للتبرُّك بتلاوته، بل لتدبُّره وفهمِ ماتضمّنه للاستفادة ممّا أنزل فيه من علوم وأحكام والعمل بهذه التعاليم. فلا يُعقل أن يكون ربُّنا قد استأثر بعلم هذه الحروف، فلم يترك لنا منها سوى تلاوتها والتبرُّك بها. وعليه فإنّ هذا الرأي مرفوض.

المعنى الثاني: ومفادُه أن (حروف المقطّعات) هي مجرد أسماء لسور + القرآن الكريم. ورأيُ هذا المفسِّر لو صَحَّ لكان ربّنا ابتدأ كلّ سورة بحرفٍ من هذه الحروف. ثم إنّه لايصحّ أن يوضع للسورة القرآنيّة مايُعتبر اسمًا لها، ولايكون لهذا الاسم معنى واضحٌ ومفيد. وعليه، فهذا الرأي في نظري مرفوض أيضًا.

المعنى الثالث: ومفاده أنّ حروف المقطّعات هي مجرّد فواتح، افتتح الله تعالى بها سُوَرَ كتابه العزيز، وأنّها أسماء من أسماء القرآن.

ويتهافت هذا الرأي من وجهاتٍ عديدة، أولها: أنّه لم يسبق أن عمد أحدٌ من أهل اللغة العربيّة إلى افتتاح مؤلَّفه بأحرف مُقطّعة ليأتي ربُّنا لمعاجزته. وثانيها: أنه لاحاجة بربّنا أن يفتح سور كتابه بأحرف ليست على التّعيين. وثالثها: أنه لايصِحّ أن يفتتح ربُّنا كلّ سورة بأحرف لامعنى لها ولا دلالات. ورابعها: أنه يبعد أن يكون ﴿آلمص﴾ مثلاً اسمًا للقرآن كلّه، ذلك لأنّ المتبادر إلى فهم سامع من يقول: قرأت ﴿آلمص﴾ أنه إنّما يتحدّث عن سورة (الأعراف) لاعن جُملة القرآن. ومثلها بقيّة الحروف المقطّعة. وعليه فإن هذا الرأي مرفوض في نظري أيضًا.

المعنى الرابع: وهو رأي الشعبيّ والسّديّ وابن جرير وابن عباس. ومفادُه أن الحروف المقطّعة هي أسماء من أسماء الله الحسنى.

وليس هذا الرأي أقرب إلى الصّواب، في نظري واجتهادي، ممّا سبقه من آراء، ذلك لأنّ اسم الله تعالى يجلّ عن أن يكون حرفًا لامعنى له ولا دلالة. أو أن يكون حرفًا يؤلِّف لُغزًا من الألغاز. خصوصًا وأنّ أحرف المقطّعات تتداخل ضمن ألفاظ اللغة العربيّة، وتختلف دلالاتها باختلاف محالّها وأوضاعها. وعليه، فليس هذا هو الرأي المقبول.

المعنى الخامس: وقد قال به ابن جرير وعكرمة. ومفاده أنّ ﴿آلم﴾ قَسَمٌ أقسم الله به. وهو من أسماء الله الحُسنى.

والقول في هذا الرأي ماقلته في سواه من حيث إنّ للقَسم ألفاظًا وحروفًا خاصة به، دالّةً عليه. ولايدخل في هذه الحروف ﴿آلم﴾. وعليه فليس هو الرأي المقبول.

المعنى السادس: وقد عبّر عنه أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أَنَس عن أبي العالية بطريق تفسير ابن كثير الذي نقل قوله: «هذه الأحرف الثلاثة من التسعة والعشرين حرفًا، دارت فيها الألسن كلُّها، ليس منها حرف إلّا وهو مفتاح اسمٍ من أسمائه، وليس منها حرف إلّا وهو من آلائه، وبلألائه، وليس منها حرف إلّا وهو في مُدّة أقوام وآجالهم. قال عيسى بن مريم، عليه السلام، وعَجِب: "أعجبُ

أنّهم ينطقون بأسمائه، ويعيشون في رزقه، فكيف يكفرون به؟"
فالألِف سنة، واللّام ثلاثون سنة، والميم أربعون سنة.»

وليس هذا بشيء في نظري واجتهادي، من حيث إنه لم يأت بتفسير واضح للأحرف المقطّعة، سوى زعمه أن كلّ حرفٍ من هذه الحروف يؤلّف مفتاحًا لاسم من أسماء الله تعالى. فلو أننا سلّمنا جدلاً بهذا الزعم، لزم أن نجد لذلك منهجًا يوجّهنا في ذلك الوجهة الصحيحة، عند محاولتنا الإحاطة بمعنى كل حرفٍ من هذه الحروف. ثم إن صاحب هذا الرأي حشر عيسى بن مريم في هذا الكلام. وأين عيسى من زمن محمد رسول الله (ﷺ)، وأين السّند وأين الدّليل؟ وعلى ذلك فليس هو الرأي المقبول.

المعنى السابع: وقد رواه ابن جرير. ومفاده أن لامنافاة ولاتضادّ بين جميع هذه المعاني السابقة التي أتينا على ذكرها. إذ يمكن الجمع بينها، والأخذ بها في وقت واحد. وقدّم ابن جريرٍ دليلاً على دعواه، هو أن الكلمة الواحدة في اللغة العربيّة تُطلق على معاني كثيرة. أي أنّ لأحرف المقطّعات معاني كثيرة أيضًا، وهي جميع هذه المعاني التي ذكرناها. فهي أسماء سُوَر القرآن، وهي أسماء الله الحسنى، وهي فواتح سُور القرآن، وهي تدلّ على مُددٍ زمنيّة أيضًا.

ويبدو هذا الرأي في ظاهره معقولاً لكنه يتهافت في رأيي واجتهادي من حيث إن اللفظ الواحد، وإن تعدّدت معانيه، لا بد أن يدلّ في كُلّ موطنٍ من القرآن الكريم على معنى يدلّ عليه سياق الكلام. فلمّا حمل اللفظ على جميع معانيه في كل مَوطن، فأمرٌ لم يقل به أحدٌ من علماء التفسير.

المعنى الثامن: وهو رأي بعض أهل اللغة العربيّة. ومفاده أن حروف الاختزال أو الحروف المقطّعة هي حروف من حروف المعجم استُغني بذكر ماذُكر منها في أوائل السّوَر عن ذكر بواقيها التي هي تتمّة الثمانية والعشرين حرفًا هجائيًا.

إنّ هذا الرأي إذ قُصِد به فنّ الاختزال نفسه فحرف المقطّعات حروفٌ مختزَلة من كلمات. ولابدّ، والحال هذه، من وجود منهج يصل بنا إلى معرفة أصل هذه الكلمات. ومادام صاحب هذا الرأي لم يقدِّم لنا، في هذا المجال، المنهج المطلوب يظلّ رأيه المذكور موضِع تساؤل. وقد كان عليه بيان كلّ كلمة اختُزل منها حرفها، ليتضح للقارىء معناها ودلالتها. ولاحكمة تُرجى من أن نتلو حروف المقطّعات، بعضَها أو كُلَّها، لمجرّد التعبُّد بها من دون تحديدٍ لمعانيها. ومن يفعل ذلك فقد أخطأ. من هذا كلّه يتبيّن لي أن لاسبيل لقبول هذا الرأي أيضًا.

المعنى التاسع: ماذهب إليه الرّازي في تفسيره عن المبرد وجمعٍ من المحقِّقين. ومفاده أنّ حروف الاختزال أو المقطّعات إنما ذُكرت في أوائل سُوَر القرآن المجيد بيانًا لإعجاز القرآن الكريم نفسه، وأنّ الخلق عاجزون عن معارضة هذا القرآن بمثله على الرغم من أنّ هذا القرآن مركّب من هذه الحروف المقطّعة التي يتخاطبون بها. وقد أيّد رأي الرازي هذا الزمخشري والقرطبي وابن تيميّة وأبو الحجاج المزّي.

أقول: لاشك أن هؤلاء العلماء يتمتّعون بمكانةٍ رفيعة بين المفسِّرين. إلا أنّ رأي الرازي الذي أوردناه يتهافت من جهاتٍ:

أولاً ـ إذا كانت هذه الحروف قد أوردها ربّنا لمجرّد التحدّي بها، كأحرف هجاء، فما معنى أن يبتدىء بها، جلّ شأنه، سُوَرة دون سُوَرة؟ فهل يُستدلّ من ذلك أن السُوَرة الخالية من الأحرف المقطّعة، لاتدخل في باب التحدّي الإلهي؟

ثانيًا: إنّ تفسير الرازي هذا لم يوضح لنا حكمة افتتاح سُوَرة واحدة بحرفٍ واحدٍ، وسُوَرة أخرى بحرفين، وسُوَرة ثالثة بثلاثة أحرف، وهلمّ جرًّا. فما حكمة هذه القلة والكثرة في ذكر هذه الحروف في بداية سُوَر القرآن الكريم؟ ولايُعقل أن يجري هذا من دون منهج مرسوم لها وخطّةٍ حكيمة في كتاب مبين كالتّنزيل العزيز. وجلّ أن يكون في كتاب الله أمرٌ لم يُبَيَّنَ على منهجٍ أو حكمة.

ثالثًا: لو صحّ هذا الرأي من دون وجود منهجٍ يُقيِّده، لكان لنا إجراء تبديلٍ وتغيير في مواضع هذه الحروف المُقطَّعة. كأن نقرأ النون في بداية سُوَرة البقرة، ونتلو (آلم) في أول سُوَرة القلم. هذا إذا كانت هذه الحروف المقطّعة قد أُتي بها لمجرّد التّقريع والتحدّي بها، على حسب ماذهب الرازي إليه.

وقد ناقش الزمخشري هذا الرأي محاولاً الدّفاع عنه، فقال: إنّ الأحرف لم ترِد كلُّها مجموعة في أول القرآن، وإنّما كُرِّرت ليكون ذلك أبلغ في التحدّي والتبكيت، وإنه تعالى كرّر التحدّي تارة بحرف، وتارة بحرفين وتارة بثلاثة أحرف وتارة بأربعة أحرف وتارة بخمسة أحرف، مثل قوله تعالى: ﴿كهيعص﴾ و﴿حمعسق﴾، ذلك أنّ المتكلمين قد جاء من كلامهم ماهو على حرف وعلى حرفين وعلى ثلاثة وعلى أربعة وعلى خمسة، لاأكثر من ذلك.

أقول: إنّ دفاع الزمخشري هذا لايغيِّر من الحقيقة شيئًا. فلو صحّ ماذهب إليه لوجب أن تَشرَع سُوَرة (البقرة) بحرف تحدّ واحد، وتَشرَع سُوَرة (آل عمران) بحرفين، وتَشرع سُوَرة (النساء) بثلاثة أحرف، وهكذا. وتُعاد الكرّة من جديد بعد خمس سُوَر من سُوَر القرآن المجيد، وذلك لتتضّح لقارىء القرآن معالم نهجٍ إلهيّ مدروس. هذا ولم تفسِّر لنا أقوالُ الزمخشري في هذا الصّدد الحكمة من وجود سوَرٍ قرآنيَّة غير مبدوءة بحرف من حروف التحدّي المذكورة. ولذا فقد خلا رأي الرّازي ودفاع الزمخشري عنه، في نظري واجتهادي، من أي شيء جديد.

المعنى العاشر: وهو ماذهب إليه بعضهم من أنّ حروف المقطّعات تدلّ على المُدَد والحوادث والفِتن والملاحم.

وهو رأي إذا صحّ على صعيد فلا يصحّ على صعيد آخر. لذلك نضرب عنه صفحًا. خصوصًا أنّ صاحبه قد استند فيه إلى حديث ضعيف، قد ضعّفه ابن كثير وسواه.

هذه المعاني العشرة التي أوردتُها هي أبرز ماقدّمه المفسِّرون، رحمهم الله تعالى، في كُتب تفاسيرهم، وإن كانوا قد أوردوا آراءً سواها، ولم أسرُدها لعدم أهميتها في نظري. وقد رأيتَ كيف حاولتُ أن أناقش هذه المعاني والآراء العشرة

بأسلوبٍ موضوعيّ، وأعتقد أنّي نقضتها بأدلّةٍ من ضمنها، فلم يعد ثمّة سبيلٌ للأخذ بواحد منها.

وليعلمْ قارئي العزيز أنّي لم أقم بما قُمت به لأطعن بآراء هؤلاء الأئمة الأجلّاء، بل لأنّي رأيتُ أنّ هذه الآراء لاتصمد في ميدان النّقاش الموضوعي المنطقيّ. ذلك أنها لم تعتمد على نهجٍ محدَّد وسليم، وخالفتْ أصول تفسير القرآن المجيد.

وقبل عرض رأيي ووجهة نظري في معاني حروف المقطَّعات أو (الاختزال)، كما ارتأيت تسميتها، ومنهجي الموضوعي لفهمها، أجدني مُضطرًّا لإلقاء الضوء أولاً على فنّ الاختزال نفسه وتاريخه ومقامه في لُغة العرب قبل الإسلام، وبيان أصالة هذا الفنّ في لُغة الضادّ، هذه الأصالة الدّالة على مرونة لغة الضّاد نفسها من بين اللغات الحيّة في العالم.

لذلك سأعمد إلى الكلام على فنّ الاختزال أوّلاً كفنّ لغويّ. لكن من المفيد هنا أن أورد رأيًا مختلفًا عن جميع الآراء التي ذكرناها وناقشناها. وقد أورد هذا الرأي (ابن كثير) في تفسيره للأحرف (آلم). فكتب يقول: «وَرَوِيا ـ يقصد ابن أبي حاتم وابن جرير ـ أيضًا، من حديث شريك بن عبدالله، عن عطاء بن السّائب، عن أبي الضُّحى، عن ابن عباس: (آلم) قال: معناها (أنا الله أعلم). وكذا قال سعيد بن جبير والسّدي عن أبي مالك.»*

وأوردت رأي ابن كثير هذالأهمّيّته في نظري من بين جميع آراء المفسِّرين التي استعرضناها. وهذا الرأي يشكّل في اجتهادي مفتاحَ فهْم حروف المقطَّعات، أو ماسميتُه حروف الاختزال. وهو أمرٌ سيأتي بيانه في محلّه إن شاء الله العزيز، فإلى الكلام على فنّ الاختزال.

★ ★ ★

* ابن كثير، الجزء الأول، تحت تفسير (الم).

الفصل الثاني

فن الاختزال

وأبدأ بدراسة لُغويَّة مُستقاة من معاجم اللغويين بادىء ذي بدء. قالوا: خَزَل الشيء يخزِلهُ خزلاً قطعه. وتخزّل في مشيه: تثاقل. واختزل الشيء: حذفه وقطعه. والخزل مصدر خَزَل. والأخزل من كان ظهره مُنكسرًا، والخزل من الإبل: ماذهب سنامه كلُّه. والاختزال مصدر اختزل. وهو عند أهل المعاني حذفُ كلمةٍ نحو ﴿واسأل القرية التي كُنّا فيها. .﴾ أي واسأل أهل القرية، أو حذف أكثر من كلمة نحو ﴿لايُسأل عمّا يفعل، وهم يُسالون. .﴾ أي وهم يُسالون عمّا يفعلون. والمخزول مادخله الخزْل أي الاقتطاع من الأجزاء الشعريَّة (محيط المحيط).

وأورد صاحب معجم المقاييس قوله: الخاء والزاي واللام أصلٌ واحد يدلّ على الانقطاع والضعف. يُقال خَزَلتُ الشيء: قطعته، وانخزل فلانٌ: ضعُف.

ولابد أن يكون القارىء العزيز قد لاحظ أنّ الاختزال هو عمليّة قَطعٍ وحذف. ويجري الاختزال في الجملة، على حسب ماأفاد صاحب المعجم، بحذف كلمةٍ منها أو حذف كلمتين. لكنّه لابدّ من توافر قرينةٍ دالّة على اللفظ المحذوف. فهو، جلّ شأنه، عندما يقول: ﴿واسأل القرية التي كُنّا فيها. . .﴾، فالقرينة على الحذف هي كلمة قرية، وهي شيء لا لسان له، وبذلك تؤلّف قرينةً على أنّ المراد: واسأل أهل القرية. هذا في حال اختزال كلمةٍ واحدة من الجُملة. وفي حال اختزال كلمتين كما في قوله تعالى: ﴿لايُسأل عمّا يفعل، وهم يُسألون﴾ فقرينة الحذف دوران الكلام حول الأعمال، فهو قرينة لحذف (عمّا يفعلون).

وقد درج العرب على الاختزال في الشعر أيضًا، وهو الاقتطاع من الأجزاء الشعريَّة (محيط المحيط). فكانوا لايقتطعون كلمةً أو كلمتين في مصرع من بيت من أبيات قصائدهم. بل يقتطعون أحيانًا أجزاءً من كلمة أو كلمتين، ولايبقون من الكلمة إلّا أحد أحرفها، ويصوغون المصرع الآخر من بيت الشّعر صياغة

تحوي قرينةً دالّةً على الكلمة المحذوفة. وقد تفنّن شعراء الجاهليّة في فنّ الاختزال المذكور، وأبدعوا فيه. لكنّهم لم يبلغوا المستوى الذي بلغه فنّ الاختزال القرآنيّ، الذي سوف تتبيّنه في الفصول التالية.

وعلى سبيل المثال، قال أحد شعرائهم:

قلنا لها قفي فقالت قاف　　لاتحسَبي أنّا نسِينا الإيجاف

فالحرف (قاف) اختزله الشاعر هنا من كلمة (وقفتُ). بقرينة ماورد من طلبٍ للوقوف في المصرع الأوّل من هذا البيت الشعريّ. وهي بدلاً من أن تقول (وقفتُ)، اكتفت من الكلمة بحرفٍ منها، فقالت (قاف). تاركةً للسامع أن يستنتج ذلك اللفظ (وقفتُ). وهذه الخطوة التي تضمنّها هذا البيت من الشعر هي ماسميناه (فنّ الاختزال في الشعر)، أو ماأطلق عليه أصحاب المعاجم (الاقتطاع من الأجزاء الشعريّة).

إليكم مثالاً آخر على الاختزال الشعريّ، قال أحد الشعراء الجاهليّين:

بالخير خيراتٌ وإن شرًّا (ف)　　ولاأريد الشرّ إلا أن (ت)

ولابدّ أن يكون القارىء لاحظ ظاهرة الاختزال في كل مَصرَع من مَصرَعَي هذا البيت الشعري. فقد اختزل الشاعر في المصرع الأول من البيت حرف الفاء من كلمةٍ حذفَها، تقديرها (فشرّ)، وهذا بقرينة الكلام في المَصرع الأوّل عن الشرّ مقابل عمل الخير. واختزل في المَصرع الثاني حرف التاء من كلمةٍ حذفَها، وتقديرها (تبدؤه). بقرينة المبادرة بفعل الشرّ.

وهنا سؤال يطرح نفسه: ما القاعدة أو القواعد التي يلتزم بها الشاعر عندما يلجأ إلى فنّ الاختزال في الشّعر؟ فلا يُعقل أن يقوم بذلك من دون قواعد محدَّدة يلتزم بها الشعراء حين يعمدون إلى فنّ الاختزال الشعريّ.

أقول: الملاحظ أن شعراء الجاهليّة درجوا على ثلاث قواعد في هذا الفنّ. فكان الشاعر منهم يختزل من الكلمة: إمّا حرفَها الأوّل، وإما حرفها الأخير، وإما حرفًا من وسطها. ويصوغ المصرع الثاني من بيته الشّعريّ بطريقة توحي بالكلمة التي اختُزل منها هذا الحرف. فتكون قرينةً على اختزاله الحرف منها.

والآن لنعدْ إلى مثالنا الأول الذي قدّمناه، وهو قول الشاعر:

قلنا لها قفي فقالت قاف لاتحسَبي أنا نسِينا الإيجاف

فالملاحظ أن الشاعر اختزل حرف القاف من وسط الكلمة (وقفتُ) لمقاربة النّطق بهذا الحرف من كلمة الوقوف، فهو حرف قلقلة.

ولنعد إلى المثال الثاني الذي قدّمناه، وهو قول الشاعر:

بالخير خيراتٌ وإنْ شرًّا(ف) ولاأريد الشرّ إلا أن (ت)

فالملاحَظ أنّ الشاعر قد اختزل حرف الفاء من أول كلمة (فشرّ) في المَصرع الأول للبيت. وأنّه اختزل حرف التاء من أول كلمة (تبدؤه) في المصرع الثاني للبيت أيضًا. وقد أبدع الشاعر في عمليتي هذا الاختزال الشعري، فقد كان يسيرًا على أُذن السّامع أن يبحث عن هاتين الكلمتين (فشرّ) و(تبدؤه) اللتين اجتزأ الشاعر منهما حرفي (الفاء والتاء) ويجدهما بيُسر. وملاحظاتنا هذه تعني أنّه كانت لفنّ الاختزال الشعريّ قواعده عند الشعراء الجاهليين.

ولمّا كان الشّعر ديوان العرب، وكان سجلاًّ لأحداثهم وأخبارهم وشؤونهم الاجتماعيَّة فقد اقتصر الاختزال على الشّعر، وكان لغة تحاورهم بل تفاخرهم وتنافسهم. وهذا الأمر نفسه تسبّب في نُدرة وجود القصائد المحتوية على فنّ الاختزال في الشّعر الجاهليّ. فما كان ليلجأ إلى فنّ الاختزال إلاّ شاعرٌ أحبّ المفاخرة ببراعته في هذا الفنّ.

على هذه الصورة، ومن خلال جميع ماذكرناه، تتجلّى لنا معالم فنّ الاختزال في الشِّعر، والقواعد التي كانت ترتكز إليها عمليّات هذا الفنّ. وبإمكاننا استخلاص تعريفٍ أيضًا لهذا الفنّ. وهو قولنا: «فنّ الاختزال في الشِّعر هو عمليَّة قطع وحذف لكلمة، والإبقاء منها على حرف من أوّلها أو وسطها أو آخرها، وتدلّ على الكلمة المحذوفة قرينة من سياق الكلام.»

هذا وإن عمليّة الحذف هذه شبيهة إلى حدٍّ كبير بما يفعله النحويّون من حذف المفعول أو حذف حرف الجرّ، وماإليه من مواضع الحذف، افتتانًا ببلاغة الكلام. ولسنا هنا بصدد التوسّع في شرح هذه الأمور. بل كلّ ماأردناه إيراد بعض الشواهد في بحثنا على فنّ الاختزال الشعري وحسب. ومادام قد تبيّن

لأعيننا أن الاختزال في الشعر فنٌّ مستقلٌ بذاته، وكان له شعراؤه وقواعده، فلم تعد بنا من حاجة للتوسّع في الشرح أكثر ممّا فعلنا. لكن علينا أن نعلم أنّ فنّ الاختزال هذا لم يقتصر على الشعر وحده، بل تناول النّثر أيضًا. وتظلّ في هذه الحالة القواعد الناظمة نفسها، مع عكس المعادلة، فبدلاً من أن يبحث القارىء عن القرينة الدّالّة على الكلمة المحذوفة فيما قبل الحرف المُختزل منها شعرًا، فإن القارىء يبحث عن هذه القرينة في النّثر فيما يلي الحرف المختزَل.

ولمّا كان الوحي القرآني المقدّس نوعًا راقيًا من النّثر فقد اختطّ تعالى، حين اختزال حرف من كلمة، أن تكون الكلمة المُختزل منها اسمًا من أسمائه الحُسنى، وقد صاغ كلامه تعالى الذي يلي الحرف المختزل على صورة توحي باسمه الذي اختُزل منه هذا الحرف، وسيأتي بيان هذا الأمر في محلّه، خلال كلّ فصلٍ من الفصول القادمة إن شاء الله تعالى. ولننتقل الآن للكلام على مكانة فنّ الاختزال بعد أن تبيّنّاه.

★ ★ ★

الفصل الثالث

أهميّة فنّ الاختزال

هذا الفنّ، فنّ الاختزال، في الشّعر بصورة خاصّة، وفنّ الاختزال بصورة عامّة، قد أضحى، على ضآلة تراثه الجاهليّ، فنًّا مهمًّا جدًّا في القرن العشرين خاصّة، ليس في بلاد العرب وحدها، بل على صعيد العالم بأسره. ولم تتأتّ مكانته هذه استجابةً لما اعتاده الشعراء الجاهليّون من تفاخر وتنافس في بيانهم البلاغيّ، بل بسبب مااستجدّ من علوم كثيرة، واتّخذ من مصطلحات وأسماء دول وصحافة إعلاميّة ومؤلّفات. فقد اقتضت هذه جميعها اللجوء إلى فنّ الاختزال لاختصار الأسماء والمصطلحات، والسّرعة في التقاط التصريحات.

دونكم عِلمَي الفيزياء والكيمياء. فأنتَ تلاحظ كثرة المعادلات في هذين العلمين، كما تلاحظ كثرة العناصر المُكتشَفة، والتي تجاوزت مائة عنصر. فإذا اضطُرّ العالِم أو المدرِّس أن يكرّر اسم كلّ عنصر من العناصر في المعادلات الرياضيّة، أو المقالات العلميّة، فإنه سيحتاج إلى وقت طويل وسطور عديدة للمعادلات.

وقد عمد العلماء إلى اختزال حرف من اسم كلّ عنصر من العناصر، أو دواء من الأدوية أو مرض من الأمراض. وتعارفوا فيما بينهم على دلالات هذه الأحرف المُختزَلة، واختصروا بذلك كثيرًا من المشاقّ.

نتناول على سبيل المثال الرمز الكيميائيّ لتركيب الماء. فهذا الرمز يتألّف من ذرّتين من الهيدروجين مقابل كل ذرة من الأوكسجين. وقد اختزلوا كلمة أوكسجين، أي مولِّد الحموضة، بالحرف (O)، كما اختزلوا كلمة هيدروجين، أي مولِّد الماء، بالحرف (H). واختزلوا التعبير عن ذرّتين بالرقم ٢ ، فأضحى رمز تركيب الماء: (H2O). وهم، باختزالهم ألفاظ الرمز المذكور، وفّروا على أنفسهم وتلاميذهم كثيرًا من المشاقّ، وضاقت المساحة المطلوبة للتعبير عن مدلول هذا الرمز أيضًا، وهكذا أفادوا كل الفائدة من لجوئهم إلى فنّ الاختزال في علمَي الفيزياء والكيمياء. وقسْ على ذلك بقيّة العلوم.

وأسماء الدول أيضًا تناولها فنّ الاختزال. فالدّول في العالم قد تجاوز عددها المائة ونيِّفًا، واسم كلّ دولة منها يتألّف من عدّة كلمات كالجمهوريّة العربيّة السُّوريّة، والولايات المتّحدة الأمريكيّة. وقد عمد المُتخصِّصون إلى اختزال هذه الأسماء أيضًا. فعادت الأحرف (ج.ع.س) تحلّ محل الجمهوريّة العربيّة السُّوريّة خلال المباريات الرياضيّة والبرقيّات السِّلكيّة واللاسلكيّة والمراسلات. واختصروا بذلك كثيرًا من الجهد والمشقّة. وتناول فنّ الاختزال المصطلحات الطِّبّيّة أيضًا، وعاد ظاهرةً من ظواهر علم الطبّ في العالم.

وهكذا تخلّل فنّ الاختزال لغة التعبير في جميع العلوم المعاصرة. وأخذ ألوانًا جديدة أيضًا. فعلى صعيد الصحافة أوجدوا علم اختزالٍ خاصٍّ بالصحفيِّين. وعلى صعيد المُخابرات والمؤسّسات الأمنيّة، في كلّ بلدٍ من بُلدان العالم، أوجدوا شِفرات خاصّة بكلّ فرع من فروعها. وراحت دوائر أمن كلّ بلد من البلدان تفتنّ في محاولاتها لاكتشاف شِفرة أمن البلدان الأخرى.

ولابدّ أن يكون القارىء العزيز قد أدرك أهميّة فنّ الاختزال من خلال مانبّهناه إليه. كما أدرك حيويّة لغته العربيّة المستوعِبة هذا الفنّ وصلاحَها لكل زمانٍ ومكان.

فالمعلوم أن العرب في جاهليّتهم كانوا أمّةً قلَّ فيها من كان يكتب ويحسُب. ومع ذلك فقد برز فنّ الاختزال في أشعار شعرائهم بصورة عفويّة وفطريّة. وهذا الأمر، إن دلّ على شيء فهو يدلّ على حيويّة لُغة الضاد ومرونتها. ولولا ذلك ماتسرَّب فنّ الاختزال إلى شعر الشعراء على الصورة التي رأيناها، مقرونًا بمنهجٍ وقواعد مُحدّدة أيضًا.

ولابدّ للقارىء الكريم أن يتذكّر هنا (التحدّي القرآنيّ) للأمّة العربيّة، يوم كان أكبر همّهم أن يتنافسوا في بيانهم، ويُبرزوا كُلَّ فنٍّ من فنون لُغتهم، ومن هذه الفنون (فنّ الاختزال الشعريّ والنثريّ). ومن ثَمَّ لم يُغفل القرآن هذا (الفنّ اللغوي) عند تحدّيه الجنّ والإنس أن يأتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا. خصوصًا أنّ هذا التحدي القرآنيّ سيظلّ قائمًا مادامت السماوات والأرض، وإلى أبد الآبدين. وهو لابُدّ مواجهٌ أهل القرن العشرين الذين سيهتمّون بفنّ الاختزال على جميع الصُّعد والمستويات.

قلت كان لابدّ من تحدّي القرآن العربَ في فنّ الاختزال الشّعري والنّثري المذكور. فلو نزل كتاب الله تعالى غير متضمِّنٍ هذا الفنّ لصحّ أن يُقال حينئذٍ إنّه

لم يستوفِ التحدي على الصعيد اللغويّ.

وإنها لحقيقةٌ لامجال للنقّاش فيها، وهي أن كتاب الله القرآن اصطَنَع فنّ الاختزال في أوّل سُوَرةٍ من سوَره، وبجميع قواعد الاختزال، في موضعٍ واحدٍ أيضًا. وقد تمثلت هذه الحقيقة حين ابتدأ، جلّ شأنه، سُوَرة البقرة بقوله تعالى: ﴿آلم ـ ذلك الكتابُ، لاريبَ فيه، هُدًى للمُتّقين﴾ وقد اختزل تعالى هذه الأحرف الثلاثة، من ثلاث كلمات هي (أنا الله العليم). وسيأتي تفصيل ذلك عند الكلام على هذه الأحرف المختزَلة.

★ ★ ★

الفصل الرابع

نهج فنّ الاختزال

سبق أن قلت إنّ القرآن المجيد احتوى فنّ الاختزال الشعريّ في منثوره، بسبب أنه قد نزل يتحدّى أهل العربيّة لُغةً ومضمونًا. ومعلوم أنّ التحدّي لايُعتبر تحدّيًا كاملاً مالم يتطرّق المتحدّي في تحدّيه إلى مختلف فنون اللغة، ومن فنون اللغة العربيّة (فنّ الاختزال الشّعريّ).

والحقّ الذي لامِراء فيه هو أنّ كتاب الله تعالى لم يُهمل التحدّي بهذا الفنّ، بل شمله بعنايته، وجاء فيه بنهجٍ جديدٍ قديم، نهجٍ يجدد هذا الفنّ، فيأتي فيه بما لم يخطر على بال أحدٍ من الشّعراء. وهو مع ذلك لايخرج عمّا تواضع عليه الشعراء من قواعد هذا الفنّ. وقد جاء بأحرف الاختزال وفق نهجٍ واضح المعالم، وخطّةٍ مدروسة حكيمة.

فنحن نعلم أنّ شعراء الجاهليّة كانوا يختزلون من الكلمة حرفًا، ويقرنون الاختزال بإتيانهم في سياق الحرف المختزل مايُعَدّ قرينةً تدلّ على الكلمة التي اختُزل منها. كما أنّهم يلتزمون باختزال الحرف، إمّا من أوّل الكلمة، أو من مُنتصفها أو من آخرها. والقرآن الكريم التزم بجميع قواعد فنّ الاختزال هذه، فاستوعبها جميعها فيما جاء به من اختزال.

وقد اقتضى تحدّي القرآن أهلَ اللّغة العربيّة ألاّ يقتصر على ماتعارفوا عليه في هذا الفنّ، كما ذكرنا، بل جدّد فيه مالم يسبقه إليه أحدٌ من العالمين، وعلى صورةٍ معجزةٍ أيضًا، خصوصًا أنّ تحدّي القرآن أهلَ اللغة العربيّة لم يكن مقصورًا على زمان ظهور الإسلام، بل شمل كل زمان ومكان.

والحكمة الثانيّة لهذا التجديد أن يُثبت، جلّ شأنه، لعباده أنّ اللغة العربيّة هي طوع يديه، وأنّه هو الذي وضع أسُسها للأنام، وعلّمها آدم عليه السّلام. وعليه فقد سار تعالى في ذلك كلّه وفق خطّة ومنهاجٍ مدروسين. فالإنسان الذي يحيط بمنهاجه القرآني، ويتتبع خطّته من جميع جوانبها يمكنه فكّ ألغاز (الحروف المقطّعة)، كما اصطلح على تسميتها مفسّرونا الأقدمون، رحمهم الله تعالى. ولمّا

كان القرآن الكريم من الفخامة بمكان، وقد اشتمل جميعه على فنّ الاختزال، كما سترى، فدلَّ ذلك على واسع علم الله وقدرته اللاّمتناهيّة على التخطيط الدقيق المُبرمج، والتحدّي عن طريقه.

والسؤال الآن: ما معالم هذا القديم والجديد في فنّ الاختزال القرآني؟ أقول: إنّ ربّنا، جلّ شأنه، إضافةً إلى اتخاذه قواعدَ الاختزال القديمة، أسّس فنّ اختزاله في كتابه القرآن المجيد على أربع دعائم، هي:

أولاً- تجميع قواعد الاختزال في ﴿الٓمٓ﴾.

لاحظنا أنّه، جلّ شأنه، استهلّ أول سُورة من سُوَر القرآن الكريم بثلاثة أحرف اختزال، لاحرفٍ واحد، وهي مُختزَلة من ثلاث كلمات وفقًا لصُور الاختزال الثلاث. أي أنّه جاء بالحرف الأوّل مختزَلاً من أوّل الكلمة الأولى. وبالحرف الثاني مختزَلاً من وسط الكلمة الثانيّة، وبالحرف الثالث من آخر الكلمة الثالثة. على هذه الصورة جمع صور الاختزال الثلاث في موضعٍ واحد وأعجز.

هذه المبادرة القادرة التي جلا ربّنا من خلالها جميع معالم الاختزال في الشّعر الجاهليّ، قد استهلّ بها سُورة (البقرة). وقد تمثّلت من خلال قوله تعالى ﴿الٓمٓ﴾، وسآتي على تفصيل ذلك عندما أنبري لشرح ﴿الٓمٓ﴾ في محلّها من سُوَرة البقرة.

ثانيًا- لماذا لم يبتدىء كلَّ سُورةٍ بأحرف اختزال؟

والجواب عن ذلك أنّ ربّنا، في حين استهل سُورة (البقرة) بـ ﴿الٓمٓ﴾، ترك سُوَرَ (النّساء والمائدة والأنعام) غير مُستهَلّةٍ بأحرف اختزال، ومثلَها سُوَرًا كثيرات. ذلك لأنّ سُوَر القرآن تؤلّف عدّة مجموعات، لعدّة مواضيع. فمجموعة السُّوَر التابعة لموضوع واحدٍ رئيس تتبع موضوعيًا أحرف الاختزال التي ابتدأت بها السُّورة الأساسيّة. وهو أمرٌ سآتي على توضيحه في موضعه. ويكفيني القول هنا إنّ هذه السُّنة قد جاءت وفق خطّة ومَنهج مدروسين بإعجاز.

ثالثًا- أحرف الاختزال، مفاتيح سوَر القرآن المجيد.

وأقول: إنّ الله، عزّ وجلّ، قد جعل أحرف الاختزال القرآنيّة، أصلاً، مفاتيح لسُوَر كتابه العظيم. أقدم على ذلك ليُسهِّل على الباحث، متدبِّر هذا الكتاب، بحثَه وفهمه مضامينَه. فقد وجّه، سبحانَه، من يتدبَّر هذا القرآن توجيهًا موضوعيًا. وجّهه بأحرف الاختزال المذكورة. وكأنه،

جلّ شأنه، قد أدخل هذه المسألة في أصول تفسير كتابه المُعجز العظيم.

وأنا لم أُطلق على أحرف الاختزال القرآنيّة مُصطلح (مفاتيح) عبثًا واعتباطًا. بل قلت ذلك تعبيرًا عن حقيقةٍ لايداخلها الشكّ أو الارتياب. فالقرآن الكريم هو في جوهر الأمر بحرٌ عظيمٌ من المعارف والعلوم، وخزانةٌ لاتُقاس بالمقاييس المادّيّة. وإذا كان الأثرياء وأصحاب الكنوز قد اعتادوا الحرص على مالديهم بمختلف وسائل الصّيانة والحفظ، واتخذوا لذلك الصناديق الحديديّة ذات المفاتيح والأقفال الغريبة، ليحفظوا كنوزهم من أن تبلغها أيدي اللصوص أو يعبث بها السارقون، فإن كنوز معارف القرآن العظيم اقتضت أن تُحفظ، ويكون لحافظها مفاتيح أيضًا. وقد جعل الله عز وجل أحرف الاختزال القرآنيّة أحد هذه المفاتيح العظيمة القيّمة.

ولمعترضٍ أن يقول: إن علوم القرآن ومعارفه قد أنزلها ربُّنا مُشاعةً للطالبين، فلا ينطبق هذا المثال، إذا ذكرنا قول ربّنا في هذا الصدّد: ﴿يُضلّ به كثيرًا، ويهدي به كثيرًا، ومايُضلّ به إلا الفاسقين﴾ (البقرة ٢٦). هذا من جهة، ولاننسَ، من جهة ثانيّة، قوله تعالى، وبتحدٍّ كبير: ﴿إنّه لقرآن كريمٌ في كتاب مكنون، لايَمَسُّه إلاّ المطهّرون﴾ (الواقعة ٧٥). ذلك أنّ علوم القرآن المجيد وإنْ نزلت مُشاعةً للنّاس، لكنّها محفوظة، لايبلغها من كان فاسقًا، لايبتغي الحقيقة ووجهَ ربّ العالمين. ولست بصدد التفصيل في ذلك في هذا المقام.

إنّ حروف الاختزال القرآنيّة هي بمثابة المفاتيح لسُوَر القرآن الكريم كما ذكرتُ. فالذي لايفهم هذه الحروف ودلالاتها لابُدّ أن يضِلّ عن الموضوع الرئيس للسُّوَر التي استُهِلّت بها، وعمّا أُلحق بها من سُوَرٍ تدور مضامينها حول الموضوعات نفسها، وهو ماوقع فيه أغلب المفسّرين.

دونكم سُورةَ آل عمران، استهلّها ربنّا بالأحرف المقطّعة ﴿الٓمٓ﴾، ولم يستهلّ بعدها سُوَر النساء والمائدة والأنعام بأحرف اختزال. لم يحدث ذلك بطريق المصادفة، لأنّ هذه السُّوَر الأربع إنّما تؤلف بمجموعها وحدة موضوعيّة، سأكشف عنها في موضعها المناسب، إن شاء الله تعالى. ويكفيني القول هنا: إنّ هذه السّوَر وضّحت لنا بركات الدّعاء الإبراهيميّ الذي تضمّنته سُورة البقرة بشكل تفصيليّ، ممّا لايتّسع لبيانه هذا المقام.

والذي يُهمُّنا قوله هنا هوَ أن صياغة مفاتيح هذه السّوَر جاءت على نهجٍ فريدٍ في نوعه، لم يخطر من قبل على قلب بشر. وهاقد مضى على نزول هذا القرآن أربعة عشر قرنًا، لم نرَ خلالها، من بين الشعراء والكُتّاب العرب، من نهَج هذا

النهج، أو فهم حقيقة هذه المفاتيح. وإلاّ فما بال جميع المفسِّرين لم يكشفوا هذه الحقيقة، أو يحيطوا بنهج هذا الفنّ البديع؟ وقد صدق ربُّنا حين قال: ﴿ولا يُحيطون بشيءٍ من علمه إلاّ بما شاء..﴾ (البقرة ٢٥٥).

وأحِسّ برغبةٍ تسوقني إلى الإتيان بمثال لما ذكرت. فلنتناولْ سُورة البقرة التي استهلها ربنا بـ ﴿آلم﴾، التي فسَّرها رسول الله (ﷺ) بـ «أنا الله العليم.» هذه الروايّة التي رواها ابن عباس، وتبنّاها ابن كثير في مقدمة تفسيره.

فالذي يتدبّر سُورة (البقرة) يُلاحظ أنّها احتوت علوم التاريخ القديم، منذ دعاء إبراهيم، عليه السلام، الذي دعاه: ﴿ربَّنا وابعثْ فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتِك ويعلِّمُهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم، إنّك أنت العزيز الحكيم﴾ (١٢٩). وماتبع هذا الدّعاء من استجابة، وماحدث من أحداث، وكيف نزل هذا القرآن العظيم تصديقًا لهذا الدّعاء. وجاء بنهْج تقويً يحقّق تزكيّة النفوس المؤمنة، ويعلّمهم الحكمة، وإن كانوا لفي ضلالٍ مبين. فسُورة (البقرة) طائفةٌ من المعارف تثبت صدق مدلول ﴿آلم﴾ وهو (أنا الله أعلم). فلولا علوم سُورة (البقرة) لغابت عنّا حقيقة ذاك الدعاء الإبراهيميّ، وماتبعه من استجابة الله له، وماتبعه من بركات. ولذا كانت أحرف ﴿آلم﴾ بمثابّة المفتاح لسُورة (البقرة)، فلا يلفتنا ابتداؤها بالكلام على النّهج التقوويّ الذي جاء به الإسلام، ولاذكرُ المنافقين والجنة والنار وآدم وجنّته، فتلك الأمور جاءت مدخلاً إلى الموضوع العلميّ الأساسيّ، وهو دُعاء الصّالحين، ومايخلّفه من آثار وعواقب. فليس ذلك أسلوب كاتب، وإنّما هو أسلوب ربّ العالمين المنقطع النّظير.

ومادمنا قد اعتبرنا أحرف الاختزال مفاتيح لسُوَر القرآن الكريم، فقد مهّد ذلك لكشف سرّ التبدل الطارىء على الأحرف ﴿آلم﴾. فحين أُضيف إليها حرف الرّاء مثلاً، أي ﴿آلمر﴾، فمعنى ذلك أنّ السّورة قد أتت تبحث عن مضمونين أساسيين: علمِ الله، ورؤيتِه الواسعة للأحداث. وقِس على ذلك بقيّة التبدّلات، ممّا سيأتي بيانه في وقته إن شاء الله العزيز. والمهمّ أنّ كل زيادة أو نقصان في أحرف الاختزال، يعني كون السُّورة المُستهَلّة بهذه الأحرف، قد تبدّلت مضامينها زيادةً ونُقصانًا وموضوعًا.

رابعًا- اختزل تعالى أحرف الاختزال من أسمائه الحُسنى.

ومن جملة الأمور التي يسَّر بها، جلّ شأنه، ومهّد الطريق أمام الباحث المتدبِّر كتابَه الكريم أنّه جعل أحرف المقطّعات مُختَزَلةً من أسمائه الحسنى وحسب. وهذه إحدى المزايا التي تفرّد بها فنّ الاختزال القرآني.

فالشعراء في الجاهليّة كانوا إذا أرادوا الاختزال اختزلوا حرفًا من كلمة من دون منهج أو خطّة واضحة. على حين جعل ربُّنا، عزّ وجلّ، أسماءه الحُسنى إطارًا لعمليّة الاختزال. ولابدّ لكل مسلم أو باحث أن يكون قد اطّلع على أسماء الله الحسنى من خلال آيات القرآن الكريم.

فإن صادفك حرف الميم مثلاً في ﴿آلم﴾، فأمامك ثمانية أسماء فقط من الأسماء الحسنى هي: الرّحيم، السّلام، العليم، الحكيم، الحليم، العظيم، الكريم، القيّوم، تختار من بينها الكلمة أو الاسم الذي تُرشدك إليه قرينةُ مابعدَ أحرف الاختزال. فلا تدور في فلك ألفاظٍ لاتَعداد لها لتختار منها كلمة فقط تنتهي أو تبتدىء بحرف الميم. وقسْ على ذلك بقيّة أحرف الاختزال في القرآن المجيد. وهذا تيسيرٌ للمتدبِّر والباحث مابعده من تيسير.

وهكذا يكون القارىء العزيز قد أحاط علمًا بنهج فنّ الاختزال الذي تصدَّر سُوَر القرآن كتابِ الله العزيز، هذا الفنّ الذي انتهجه ربّنا في القرآن، فافتنّ فيه، ولم يقف عند الموروث منه. وقد تمثّل هذا الفنّ، كما رأيت، وتحدّد في أربعة أمور:

١ ـ ترسيخ قواعد فنّ الاختزال الجاهليّ.
٢ ـ استهلال كلّ سورة بأحرف اختزال.
٣ ـ جَعل أحرف الاختزال مفاتيحَ لسُوَر القرآن.
٤ ـ اختزال الأحرف من أسماء الله الحُسنى.

وهذه الأمور إن دلّت على شيء فإنّما تدلّ على دقّة هذا النّهج، وعظمة التحدّي به إلى أبد الآبدين.

★ ★ ★

الفصل الخامس

فنّ الاختزال
عمليّة تدبُّر ذهنيّة

ورُبّ مُعترض يقول: ولماذا تعقّد الأمور والقرآن أيسر ممّا تذهب إليه؟ وأنا أسأل المعترض: إذا كان مازعمتَه صحيحًا فما معنى هذا الاختلاف البيّن الواضح الذي وقع فيه أعلام المفسّرين في أمر أحرف المقطّعات؟ وماتأويل أن يذهبوا مذاهب شتّى في ذلك على مارأيتَ في الفصل الأوّل من هذا الكتاب؟ بل كيف تفسّر اختلافهم وعدم اهتدائهم إلى حقيقة الأمر في ذلك حسب مارأيت؟

وأجيب: لو صحّ الاعتراض فما معنى أن يحتجّ ربّنا الذي أنزل الكتاب بقوله تعالى: ﴿أفلا يتدبّرون القرآن، أم على قلوب أقفالُها﴾. وإذا ذهب عن ذهن المعترض معنى كلمة (يتدبّرون)، فإليكم ماذكره أصحاب المعاجم الأعلام: ورد في التعريفات: التدبُّر هو النّظر في عواقب الأمور. فالتدبّر قريب في معناه من التفكّر، إلّا أنّ التفكّر هو تصرّف القلب بالنظر في الدّليل. أمّا التدبّر فتصرّفه بالنظر في عواقب الأمور. وقد ورد في الكلّيّات: التدبّر هو تصرّف القلب بالنظر في الدلائل، فإذا أمرتَ فلانًا من الناس أن يربط بين الدّلائل قُلتَ له: تدبّرْ. ثمّ إنّ المدبِّر هو اسمٌ من أسماء الله الحُسنى، ذلك أنه يدير هذه الكائنات، وفقًا لقواعد وأصول.

وقد أجمعت هذه الأقوال على أنّ التدبُّر لايعني محاولة سطحيّةً للفهم، بل محاولة الفهم وفقًا لمنهاجٍ وقواعد وأصول يقوم بها متدبّر آيات التنزيل العزيز. وكأنّه تعالى احتجّ علينا بقوله: ﴿أفلا يتدبّرون. . .﴾ ونبّه على أنّ نظرتنا السّطحيّة لآيات كتابه العظيم لاتُجدي فتيلًا، فهل ثمّة محلّ لقول المعترض: «والقرآن أيسر ممّا تذهب إليه؟».

ألا لو كانت آيات الله في كتابه العزيز لاتستند إلى مناهج وقواعد وأصول تحكُمُها، فلا تُدرَك معانيها من دونها، لَما كان هناك من داعٍ لهذا الاحتجاج الربّاني: ﴿أفلا يتدبّرون. . .﴾، و لاكان هنالك من دلالة لقوله تعالى: ﴿إنّه

لقرآنٌ كريم ـ في كتاب مَكنون ـ لايَمَسُّه إلا المطهّرون﴾، بل لم يكن من ضرورة البتّة، ولامن داعٍ يدعو إلى هذا القَسَم العظيم بمواقع النّجوم فيما جاء به التنزيل قبل هذه الآية، وهو قوله تعالى: ﴿فلا أُقسم بمواقع النجوم ـ وإنه لقَسَمٌ لو تعلمون عظيم ـ إنّه لَقرآنٌ كريم ـ في كتابٍ مكنون ـ لايَمَسُّه إلا المطهّرون﴾، ذلك أنَّ القَسَم يعني تقديم شهادة. والله تعالى حين يُقسمُ بمواقع النّجوم، يستدلّ بدقّة ترتيب كواكب السّماء على دقّة وإحكام تأليف آيات كتابه وعُمق معانيها، وبُعد أغوارها، فلا عجبَ والحال هذه أن تأتي أحرف الاختزال وفق منهاجٍ وقواعد وأصول من مُنطلق أنّها تؤلّف وحدة موضوع لايتجزّأ هي وبقيّة آيات القرآن الكريم. ومن هنا أتت أهميّة عمليّة (تدبُّر القرآن)، وظهور فئة المتدبِّرين.

ومن هذا المُنطلق أقول: إنّ فنّ الاختزال القرآنيّ هو مجرّد عمليّة تدبُّر ذهنيّة لكشف منهاجه وخطّته، وتفسير أحرف الاختزال هذه وفقًا لهذه الخطة وهذا المنهج.

فلو أنّ سلفنا الصالح من أعلام مفسِّرينا قد اهتدَوا إلى تدبُّر أحرف المقطّعات، لَما حدث في الأمر مثل هذا الاختلاف. وقد يكون لهم عذرٌ في عدم اشتهار فنّ الاختزال يومئذٍ، وقد أصبح له اليوم شأن، أيّ شأن، حتّى غدا ظاهرةً من ظواهر القرن العشرين. وهو الأمر الذي لفت الأنظار إليه، وأمسى حريًّا بالمتدبِّرين أن يتلمّسوا له أصلاً في كتاب الله المعجز الذي نزل متحدّيًا أهل كل زمان ومكان.

أمّا وقد أحطنا علمًا بمنهاج فنّ الاختزال القرآنيّ وخطّته، وماأحدثه من جديد فقد أمسى كشف الكلمات التي اختُزلت منها (الحروف المقطعة)، أمرًا أقرب إلى اليسر منه إلى العسر، خصوصًا أنّ المصطفى الأعظم، صلوات الله عليه، قد كشف لنا معنى الألف واللّام والميم في سورة (البقرة) عن طريق رواية ابن عبّاس، رضي الله عنه، فأدركْنا أن الألف واللام، حيثما أتَيا فدلالتهما على كلمتي (أنا الله). ذلك أنّ المتكلّم هو الله وله الأسماء الحُسنى، وهو الذي يقوم بالتحدّي بقرآنه. كما أرشدتنا هذه الرّواية إلى الكلمة التي اختُزل منها حرف الميم في (الم)، وهي اسم الله (العليم)، فلا يبقى أمامنا، بعد هذا التوجيه، إلّا أن نهتدي إلى الأسماء الحُسنى التي اختُزلت منها بقيّة أحرف المقطّعات. مُستعينين بعمليّة التدبُّر الذهنيّة، وفق المنهاج الذي رأيناه.

وعلى هذه الصورة نكون قد أحطنا علمًا بعمليّة تدبُّر أحرف المقطّعات القرآنيّة ذهنيًّا، على اعتبار أنّها أحرف اختزال وحسب. وهكذا الأمر في كلّ عمليّة

ذهنيّة نقوم بها، حين نصادف شاعرًا جاهليًّا يقول:

بالخير خيراتٌ وإن شرًّا ف ولا أريد الشرَّ إلّا أن ت

فنشغل أذهاننا في البحث عن الكلمتين اللتين اختُزل منهما حرفا الفاء والتاء، وفي ضوء قواعدَ قد جرى عليها الشعراء الجاهليّون.

★ ★ ★

الباب الثاني

البحث التطبيقيّ

حروف الاختزال القرآنية

الفصل الأوّل

|الم| من سورة |البقرة|

إذا استعرض باحثٌ متدبّرٌ أحرف الاختزال القرآنيّة في مواضعها من سُوَر القرآن الكريم يلاحظ أنّ الله، عزّ وجلّ، استهلّ سورة (البقرة) بـ (الم). فإذا اطّلع على رواية ابن عباس التي أوردها ابن كثير في تفسيره أدرك أنّ (الم) معناها (أنا الله أعلم). أي أنّ الألف مختزَلة من أول كلمة (أنا)، وأنّ اللاّم مختزلة من منتصف كلمة (الله). وأنّ الميم مختزلة من آخر كلمة (أعلم).

فإذا عاد هذا الباحث المتدبِّر إلى قواعد الاختزال لدى الشعراء الجاهليّين، يعظُمُ في عينيه اختزال (الم) على الشاكلة التي رأيناها. ويرى الإعجاز الإلهيّ في الجمع بين الصّور الثلاث للاختزال في موضعٍ واحد، وفي أوّل آية من آيات القرآن العظيم.

ويتساءل هذا الباحث المتدبِّر: ما علاقة حرف الميم، أو صفة الله (العليم) بسورة (البقرة)؟ وأجيب عن ذلك بأن مضامين سورة (البقرة)، تدور جميعها حول علم الله تعالى بما يتعلّق بتاريخ هذه المنطقة من العالم خاصة.

هذا العلم الإلهيّ الذي انطلق في سورة (البقرة) في حديث التّنزيل عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وإذ قال إبراهيمُ ربِّ اجعلْ هذا بلدًا آمنًا، وارزقْ أهلَه من الثمرات مَن آمن مِنهم بالله واليومِ الآخِر، قال ومَن كفر فأُمَتِّعُه قليلاً، ثم أضطَرُّه إلى عذاب النارِ وبئسَ المصيرُ ـ وإذْ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيلُ، ربَّنا تقبَّلْ منّا، إنكَ أنتَ السميعُ العليمُ ـ ربَّنا واجعَلْنا مُسلِمَين لك ومن ذُرِّيَّتنا أمّةً مسلِمةً لكَ وأرِنا مناسِكَنا وتُب علينا، إنّك أنتَ التّوابُ الرحيمُ ـ ربَّنا وابعثْ فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتِك، ويُعلِّمُهُم الكتابَ والحكمة ويُزكّيهم، إنّك أنت العزيزُ الحكيم ـ ومن يرغبُ عن مِلّةِ إبراهيمَ إلاّ مَنْ سَفِهَ نفسَه، ولقد اصطفَيناه في الدُّنيا، وإنّه في الآخِرة لَمِن الصّالحين ـ إذ قال له ربُّه أسلِمْ، قال أسلمتُ لِربِّ العالَمين ـ ووصّى بها إبراهيمُ بَنِيه ويعقوبُ يابَنِيّ إنّ الله اصطفى لكم الدّين فلا تموتُنّ إلاّ وأنتم مسلمون ـ أم كنتم شُهداء إذ حَضر يعقوبَ

الموتُ إذ قال لِبَنيه ماتعبدون مِن بَعدي، قالوا نعبدُ إلهَك وإلهَ آبائك إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ إلهًا واحدًا ونحن له مسلمون﴾ (البقرة ١٢٦ ـ ١٣٣).

فهو، جلّ شأنه، قد استهلّ سورة (البقرة) باسم الإشارة (ذلك) للبعيد، من باب تعظيم هذا الوحي القرآني المقدّس الذي أنزله على قلب محمد، رسوله الأمين الذي بعثه، عزّ وجلّ، مصداقًا لدعاء إبراهيم: ﴿ربَّنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتِك ويعلِّمُهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم، إنك أنت العزيز الحكيم﴾.

وهو، جلّ شأنه، قد أتبع كلمة (ذلك) بكلمة (الكتاب) مُعرَّفًا بالألف واللّام كمعهودٍ ذهني. ولامعهود ذهنيًا هنا إلا هذا الدّعاء الإبراهيميّ ونبوءتُه التي تنبّأ بها موسى أيضًا من فوق جبل الطّور، والتي تتعلّق ببعثة نبيّ مثله ومشرِّع أيضًا يأتي مِن بَعده بكتاب كامل التعليم، تلك النبوءة الواردة في سِفر التثنية، الإصحاح ١٨/١٦ من العهد القديم: «أُقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلِّمهم بكلّ ماأوصيه به، ويكون أنّ الإنسان الذي لايسمع لكلامي الذي يتكلّم به أنا أُطالبه.» فالمعلوم تاريخيًا أنّ محمدًا (ﷺ) هو من إخوتهم ومشرِّع أيضًا ومثيل موسى، وكان وحي الله في فمه، فما كان ينطق عن هواه به. وهو (ﷺ) قد بلّغ جميع ماأوصاه ربّه به، فهو النبيّ الأمين.

وعليه فإنّ معنى قوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب﴾ أنّ هذا الكتاب القرآن، وسورةُ (البقرة) جزء منه، هو مصداق الدّعاء الإبراهيميّ ونبوءة جبل الطّور، وأن سورة (البقرة) تضمنّت كُلّ ماتضمنّه الدعاء الإبراهيمي من عناصر وهي مصداق نبوءة الطّور.

والحقّ أنّ سورة (البقرة) قد توالت مضامينها عارضة العناصر الأربعة التي تضمنّها الدعاء الإبراهيمي وهي: ١ ـ يتلو عليهم آياتك، ٢ ـ يعلمهم الكتاب، ٣ ـ والحكمة، ٤ ـ ويزكّيهم. وهذا ممّا لامجال للتفصيل فيه في هذا المقام.

والذي يسمح لي الموقع بقوله هنا هو أن الميم من ﴿الم﴾ قد اختُزلت من صفة الله (العليم)، لتدلّ في مُستهلّ سورة (البقرة) على أن هذه السّورة اختصت بالكلام على الدعاء الإبراهيمي، ومأأسفر عنه قبوله عند الله من أحداث انتهت ببعثة محمد بن عبدالله (ﷺ)، وإنزال هذا الكتاب العظيم.

فإذا تساءل الباحث المتدبِّر عن القرينة الدّالة على اختزال الميم من صفة (العليم)، فليطلبْها بعد ﴿الم﴾ في قوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين﴾. أفلا يُلاحظ صاحبنا أن ﴿الكتاب﴾ دالٌّ على كاتبه، وأنّ قوله تعالى

﴿لاريب فيه﴾ دالٌّ على حقيقته القائمة واليقين به. أمّا قوله تعالى: ﴿هدًى للمتّقين﴾ فدالٌّ على إحاطة الكتاب القرآن بكلّ مامن شأنه أن يهدي المتّقين، فيضمن لهم سعادة الدّارَين؟ فلا تكون تعاليم الكتاب ﴿هدًى للمتّقين﴾ إلّا في حال إحاطته بجميع أسرار النفس البشريّة، ومايمتّ إليها من أمور. على هذه الصورة يُعتبر قوله تعالى: ﴿ذلك الكتابُ لاريبَ فيه هدًى للمتقين﴾ قرينةً دالّةً على أن الله الذي أنزل هذا الكتاب هو (عليم). وهي قرينة جاءت أوضح من ضوء الشمس في رابعة النّهار. ويطمئن صاحبنا لما أوردناه، وينتقل إلى سورة (آل عمران).

★ ★ ★

الفصل الثاني

الم من سورة آل عمران والسور التابعة

ويلاحظ الباحث المتدبِّر أنّ الله تعالى استهل سُورة (آل عمران) بأحرف الاختزال ﴿الٓمٓ﴾ نفسها، وأنّها لابدّ أن تعني (أنا الله أعلم)، كما يذهب ذهنه إلى أنه لابدّ أنّ الله تعالى يتناول مضامين آل عمران من زاوية تختلف عن زاوية علم مضامين سُورة (البقرة)، فيبحث عن هذه الزاوية الجديدة من علم الله، عزّ وجلّ، الذي تتناوله سُورة (آل عمران).

وأقول له: إنّ مضامين سورة (آل عمران) تدور ولاشك حول علم الله، وحول كونه، عزّ وجلّ، ﴿الحيّ القيّوم﴾ خاصة، أي أنّه، جلّ شأنه، مصدر الحياة في كوننا، وأنّه قوّام على كل شيء فيه أيضًا، هو مصدر حياة الأفراد والجماعات، ولاتقوم قائمة لشيء من الكون إلّا به من دون سواه. فهذه دعوى ذات فرعين: فالحيّ لفظٌ يفيد دوام الوجود. والقيّوم لفظٌ يدلّ على الدّيمومة أبدًا.

والحق يُقال إننا إذا تدبَّرنا سورة (آل عمران) فلا بدّ أن نُلاحظ احتواء آياتها العشر الأولى على دليلين: الأول منها دليل تاريخيّ والثاني دليل علميّ. وقد أتى ربنا، جل شأنه، بهذين الدليلين ليثبت دعواه من أنّه ﴿الحيّ القيّوم﴾. وهذه الدعوى وهذان الدّليلان أمور تُعدُّ قرينة أيدّت ظنّنا، وهو دلالة ﴿الٓمٓ﴾ على علم الله لكن من زاوية جديدة تختلف عن الزاوية التي انطلق منها مضمون سورة (البقرة) من قبل، ويؤكّد هذه القرينة قولُه تعالى ﴿إن الله لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السّماء - هو الذي يصوِّركم في الأرحام كيف يشاء، لاإله إلّا هو العزيز الحكيم﴾ (٥ - ٦) فالله عليم بكل شيء، وهو مصدر الحياة وقوامها. وبذلك تؤكد هذه القرينة على اختزال حرف الميم من اسم الله (العليم).

فإذا انتقل الباحث المتدبِّر إلى سُوَر النساء والمائدة والأنعام ولم يجد أنّها مستهلّة بأحرف اختزال فلن يعجب من ذلك لاطّلاعه على الدِّعامة الثانية لنهج الاختزال القرآني وخطته التي سبق أن وضّحناها. وسيدرك من فوره أنّ موضوعات هذه السّوَر تؤلِّف فصولاً للموضوع الرئيس الذي تضمنته سورة (آل عمران). فما هذه السّوَر بسوَر مستقلة عنها، بل تابعة لموضوعها، وهي سُوَر أجابت عن تساؤلات نشأت من مضمون سورة (آل عمران) نفسها.

الفصل الثالث

المص وسورة الأعراف

وينتقل الباحث المتدبِّر بعد ذلك إلى سورة (الأعراف) فيلاحظ أنّها استُهلت بالأحرف (المص) أي بالأحرف (الم) مضافًا إليها حرف الصّاد. ويتساءل عن سرِّ هذا التبدل وهذه الزيادة، وعن دلالة الصّاد في هذا المقام؟ ويذكر أنّ أحرف الاختزال اختزلها ربّنا من أسمائه الحسنى. ويتفقّد هذه الأسماء الإلهيّة، فلا يجد من بينها إلاّ خمسة أسماء تضمنت حرف الصاد، هي: (المصوِّر، البصير، المحصي، الصّمد، الصّبور.). ويعود هنا إلى مضامين سورة (الأعراف) يتفقّدها، فيلاحظ أن الله تعالى ركّز فيها على تعليم الصّبر والثبات على الإيمان والدعوة انتظارًا لظهور النتائج المتوقّعة. فالعاقبة لاتكون إلاّ للمتّقين. كما يلاحظ أنّ الله تعالى نبّه الأذهان إلى أنه لم يخلق السماوات دفعة واحدة، بل في ستّة أدوار زمنيّة. فلا بدّ إذن من الصّبر ليحين الأجل المضروب لظهور نتائج كل شيء.

ويتدبَّر صاحبنا سورة (الأعراف) من أوّلها من هذا المنظار فيلاحظ أنّ الله تعالى أعاد إلى أذهان المؤمنين قصّة آدم ووسوسة الشيطان إليه وإلى زوجه، وكيف وعظ الله المؤمنين فقال: ﴿يابَني آدم لايفتِنَنّكم الشيطان كما أخرج أبوَيكم من الجنّة..﴾ (٢٧)، و ﴿يابني آدم إمّا يأتينّكم رسلٌ منكم يقصّون عليكم آياتي، فَمَن اتّقى وأصلح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون..﴾ إلى أن قال: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لانكلِّف نفسًا إلا وُسعَها أولئك أصحاب الجنّة، هم فيها خالدون.﴾ (٤٢). كما يلاحظ أن ربّنا، جلَّ شأنه، انتقل من وعظه هذا وقال: ﴿إنّ ربكم اللهُ الذي خلق السماواتِ والأرض في ستّة أيّام، ثم استوى على العرش يُغشي الليلَ النهارَ يطلبه حثيثًا والشمسَ والقمرَ والنّجومَ مُسخّراتٍ بأمره، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله ربُّ العالمين﴾(٥٤). ففي هذه الآيات تذكير للإنسان بأنّ لكلّ أمرٍ نتائجَه، وأنّ النتائج بيد الله، عزَّ وجلَّ، وأنّ كل شيء مسخَّرٌ بأمره لأنّه ربُّ العالمين. ويدرك صاحبنا أنّ هذا التّسلسل في التّعليم إنّما يهدف إلى تعليم الصبر والثبات على الإيمان والدعوة إلى سبيل الله تعالى. كما يلاحظ أن الله تعالى أخذ بعد ذلك يذكّر عباده المؤمنين ورسوله الكريم بقصص

أنبيائه السابقين. يذكّرهم بقصّة هود، وقد أرسله تعالى إلى قوم عاد. وهود نفسه قد تواصى بالصبر والثبات و انتظار نتائج الأمور، كما يدلّ على ذلك قوله: ﴿قال قد وقع عليكم من ربكم رجسٌ وغضب، أتجادلونني في أسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم مانزّل الله بها من سلطان، فانتظروا إنّي معكم من المُنتظرين﴾ (٧١)، أي أنّ الصبر مفتاح الفرج.

أخذ تعالى يذكّرهم بقصّة شعيب الذي قال: ﴿وإن كان طائفةٌ منكم آمنوا بالذي أُرسلتُ به، وطائفةٌ لم يؤمنوا، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا، وهو خير الحاكمين﴾ (٨٧).

وذكّرهم تعالى بقصّة موسى أيضًا، وبتوعُّد فرعون السحرةَ الذين آمنوا، وكيف دعَوا ربهم أن: ﴿ربّنا أفرغ علينا صبرًا وتوفّنا مسلمين﴾ (١٢٦). وحتى موسى نفسه: ﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا، إن الأرض للّه يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمُتّقين﴾ (١٢٨).

أخذ تعالى يوصي عباده المؤمنين بالصبر، فقال تعالى: ﴿والذين كذّبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لايعلمون ـ وأُملي لهم، إنّ كيدي متين﴾ (١٨٢ ـ ١٨٣)، أي عليكم بالصبر والثبات، فما أنا بغافل عمّا يقوم به أعداؤكم من ظلمكم والكيد لكم. بل يلتفت، جلّ شأنه، إلى رسوله الكريم يعلّمه أن يقول: ﴿إنَّ وليّيَ اللهُ الذي نزّل الكتاب وهو يتولّى الصالحين﴾ (١٩٦).

ويدرك هذا الباحث المتدبِّر أن مضامين سورة (الأعراف) تهدف إلى تعليم الصبر والتخلق بصفة (الصبور)، فلايستعجل المؤمنون العذاب لأعدائهم. بل إنّ من واجبهم أن يدَعوا الأمور تسير سيرها الطبيعيّ، على شاكلة ماحدث في مراحل البعثات السماويّة. من هنا كان لابدّ أن يكون حرف الصاد في ﴿المص﴾ مختزلاً من اسم الله (الصّبور).

وإذا مابلغ صاحبنا هذا الحدّ من الإدراك والرؤية عاد ليبحث عن القرينة الدّالة على هذا الرأي الذي توصّل إليه. لهذا يعاود قراءة الآية التي استهلّ بها ربُّنا، جلّ شأنه، سورة (الأعراف) وهي: ﴿المص ـ كتابٌ أُنزل إليك فلا يكنْ في صدرك حَرَجٌ منه لتُنذر به، وذكرى للمؤمنين﴾. ويتساءل عن معالم هذه القرينة في ألفاظ هذه الآية الكريمة؟

وأقول له: هيّا تدبَّرْ قوله تعالى: ﴿كتابٌ أُنزلَ إليك فلا يكنْ في صدرك حَرَجٌ منه، لتنذرَ به، وذكرى للمؤمنين﴾. أليس في هذا الخطاب الموجّه إلى النبي

(ﷺ) حثٌّ على الصّبر على الأذى والثبات في تبليغ الرسالة "تحقيقًا للغاية المثلى من الهداية"؟ فهذه الألفاظ تحمل القرينة الدالة على أنّ حرف الصاد في ﴿المص﴾ قد اختُزل من صفة الله (الصبور). وهي قرينةٌ واضحة الدلالة وضوح الشمس في رابعة النهار.

وينتقل هذا الباحث المتدبّر إلى سُوَرتَي الأنفال والتوبة، فلا يجدهما مُستهلَّتي•ن بأحرف اختزال. ويدرك من فوره أنهما سُوَرتان تابعتان في مضمونهما إلى السورة الأم، سورة (الأعراف)، وذلك وفقًا لخطّة فنّ الاختزال القرآني.

★ ★ ★

الفصل الرابع

|الر| من سورة |يونس|

ويبلُغ هذا الباحث المتدبر سورة (يونُس). فيجدها مُستهلَّةً بالأحرف (الر). ويعجب من استبدال حرف الراء بحرف الميم، مع الإبقاء على حرفَي الألف واللام قبلها. وذلك أن الله، جلّ شأنه، أجرى هنا تبديلاً في الموضوع، فما معالم هذا التبديل؟ وهنا أجد من واجبي الإسهام في الإجابة عن هذا السؤال.

أقول: لقد فرغنا من إثبات أنّ الميم في ألم قد اختُزلت من صفة الله (العليم). وذلك عند الكلام على سُورتَي (البقرة وآل عمران) وماتبعهما من سُوَر.

والملاحظ أن البحث الموضوعي قد اختلف في سورة يونُس عنه في تلك السُوَر المذكورة. ولاأرى من حرجٍ إن أنا كشفت عن القرينة الدالّة على هذا الاختلاف في الموضوع. وهذه القرينة نجدها في الآية التي تتلو أحرف الاختزال على حسب قواعده التي تبيّنّاها في الفصول السابقة. فقد قال تعالى، بعد ﴿الر﴾، ﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾. وذلك في مقابل ماقاله في سورة (البقرة): ﴿الٓمٓ ـ ذلك الكتابُ لاريب فيه، هدى للمتّقين﴾. فليس في ألفاظ الآيتين المذكورتين من فارق سوى أنه تعالى استبدل بـ (لاريب فيه) الدّال على صفة الله العليم، لفظَ (الحكيم) الدّال على بُعد نَظَر العالم ورؤيتهْ للأحداث والقوانين الناظمة لها رؤيةً كاملة، على حسب ماأشارت إلى ذلك (ال) التعريف الدّاخلة على كلمة (الحكيم).

وقال صاحب معجم أقرب الموارد: «الحكيم هو العالم صاحب الحكمة، والمتقن للأمور، ومعنى الحكمة: العدل والعلم والحلم والنبوّة ومايمنع من الجهالة وكلُّ كلام موافق للحقّ، ووضعُ الشيء في موضعه، وصواب الأمر وسداده». وأما مادّة حَكَم فدلالتها على المنع للإصلاح. لذلك سُمّي لجام الدواب (حَكَمَة). ويقول الشاعر: أبني حنيفة أحْكِمُوا سُفهاءكم. . . . ، كما جاء في مفردات الراغب

ولابد لنا، وقد اطّلعنا على معاني (حكيم)، أن ننتبه هنا إلى أنّه، جلّ شأنه، استبدل بـ (هذه) اسمَ الإشارة للبعيد (تلك)، على ماعلمناه من مشيئة تعالى تعظيمَ مضامين آيات كتابه الحكيم. كما أنّ علينا أن ننتبه أيضًا إلى أنه تعالى قد عرّف لفظ الكتاب في الآية بالألف واللّام، ليَلفِت أذهاننا إلى النبوءات المعهودة عن نزول هذا الكتاب في الصحف السماويّة الأولى، وهو ماشرحناه عند الكلام على ﴿ذلك الكتاب. .﴾ من سُورة (البقرة)، فليُرجعْ إليه.

وهكذا يكون معنى قوله تعالى: ﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ أنّ عظمة آيات هذا الكتاب تتجلّى في كونها ضابطةً للأحداث، مُحيطة بالقوانين الناظمة لهذه الأحداث، منطويةً على كلّ مايؤول بالأمور إلى السّداد، وموافقة الحقّ ومافيه خير العباد وصلاحهم. هذه المعاني جميعها، تضمّنها قوله تعالى: ﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾.

وهذه الرؤية الثاقبة والشاملة للأمور، وماينظمها من قوانين إنما تدل عليها صفة الله (البصير). وهذا الأمر يدفعنا إلى القول: إذا كانت الأحرف (الم) قد اختُزلت من (أنا الله أعلم)، فلا بدّ أن تكون الأحرف (الر) قد اختُزلت من (أنا الله أرى). فأعلمُ من (عليم) وأرى من (بصير). ونكون بذلك قد أحطنا علمًا بالقرينة الدّالة على الكلمة التي اختُزل منها حرف الراء في ﴿الر﴾.

هذه القرينة التي أحطنا بها علمًا تؤكدها الآية الكريمة بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿أكان للناس عَجَبًا أن أوحينا إلى رجلٍ منهم أن أنذرِ الناس وبشّرْ الذين آمنوا أنّ لهم قَدَمَ صِدقٍ عند ربِّهم، قال الكافرون إنّ هذا لساحرٌ مبين﴾. ففي أقرب الموارد، أنّ كلمة (عَجَبًا) تعني إنكارَ مايرد عليك حينًا، واستطرافَه حينًا، وارتيابك منه واستعظامك له حينًا آخر.

فمعنى قوله تعالى: ﴿أكان للناس عَجَبًا. .﴾ أكان للمكذبين من أعداء الإسلام الذين ينكرون مافاجأهم به هذا القرآن من أمور أن يتملكهم العجب إذ يستمعون لآياته تُتلى عليهم، فيستعظمون مابشّرهم به، فلا يصدّقونه، ويحملونه

على محمل السّحر، أي على مَحْمل إخراج الباطل في صورة الحق، والاحتيال بأمورٍ دقيقة لايرقى إليها فهم الرجل الاعتيادي؟ ولذلك قال تعالى في آخر الآية: ﴿قال الكافرون إنّ هذا لسَاحرٌ مُبين﴾.

والمرء يدهش لعَجَب هؤلاء، وارتياعهم ممّا سمعوه، واتّهامهم قائله بالسّاحر المبين أيضًا. وقد نمّت الآية على هذه الدّهشة، وعلّلت الأمر بقولها: ﴿.. أن أوحينا إلى رجلٍ منهم أن أنذر الناس، وبشّر الذين آمنوا أنّ لهم قدمَ صِدق عند ربّهم...﴾.

وهو، جلّ شأنه، قد أشار في ألفاظ هذه الآية إلى ثلاثة أمور:

الأمر الأوّل: أن حالة الأمة العربيّة في الجاهليّة كانت متردِّية جدًّا فكان العرب يتصوَّرون أنفسهم من الوجهة الحضاريّة أقزامًا إذا قيسوا إلى الأمم المجاورة لهم من الفرس والرومان. فلم يكونوا يحلُمون أو يأمُلون بالنهوض إلى مستوى هذه الأمم، واحتلال المركز اللائق بينها. فلمّا سمعوا دعوى محمّد بن عبد الله (ﷺ) تَلَقِّيَه وحيَ السماء، أدهشهم أن يصطفيه الله من بينهم، ولايصطفي حكماءهم ووجهاءهم.

الأمر الثاني: وقد زاد في عجب هؤلاء ودهشتهم إعلان هذا الوحي المقدّس ﴿أن أنذِرِ الناسِ..﴾ أي أنذرهم بضرورة تركهم عاداتِهم وتقاليدَهم المتّبعة، واتباع مايُملى عليهم عن طريق هذا الوحي من تعاليم نظامٍ جديد، وإلاّ نزَّل الله بساحتهم العذاب.

الأمر الثالث: أنّ محمّدًا (ﷺ) لم يقف عند حدّ هذه الدعوى والإنذار، بل أتى بحوافز تدفع المؤمنين به إلى الثبات والتّضحية في سبيل إقامة هذا النظام الجديد وتوطيده وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿.. وبشّرِ الذين آمنوا أنّ لهم قَدَم صِدقٍ عند ربهم..﴾. وإنها لحوافز جدّ فعّالة على هذا الطريق.

هذه الأمور الثلاثة هي التي جعلت العجب يتملّك نفوس هؤلاء المكذِّبين. بل جعلتهم يزعمون أنّ مثلَ هذه الأمور لايُحكمها إلاّ ﴿ساحرٌ مبين﴾. وأنّى لهم أن يسلِّموا أن لليتيم الأميّ الذي يعرفونه القدرةَ على أن يقودهم على طريق هذا الفلاح والنهضة الحضاريّة والرقيّ ويحقّق لهم مازعمه وماادّعاه؟

على هذه الصّورة تكون هذه الآية الكريمة قد أكّدت للباحث المتدبّر صحّة رؤيته القرينةَ الدّالة على صفة الله (البصير) والتي اختُزل منها حرف الراء في ﴿الر﴾. هذه القرينة التي دلّتنا عليها آيّة ﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾.

بل تؤكد هذه الآيّة الثالثة هذه الرؤية وهذا الاختزال في قوله تعالى بعد ذلك: ﴿إن ربكم اللهُ الذي خلق السماواتِ والأرضَ في ستّة أيّام، ثم استوى على العرش، يدبِّر الأمر، مامن شفيعٍ إلاّ من بعد إذنه، ذلكم الله ربّكم فاعبدوه أفلا تَذَكَّرون﴾. إذ لفت ربُّنا، عزَّ وجلّ، الأنظار في هذه الآية الكريمة إلى أنه هو ربُّ السماوات والأرض، وأنّ ربوبيَّته اقتضت خلقَ هذه السماوات والأرض في ستّة أدوار، ثم اعتلى العرش والقيادة، وأثبت أنّه هو ﴿يدبر الأمر﴾. علمًا بأنّ التدبير معناه إحداث تغيير في الأسباب لإخراج نتائج مقصودة وملائمة لمشيئة المدبِّر. وكأنه تعالى قد نبَّه بذلك إلى أنه كان بإمكانه خلقُ السماوات والأرض دفعةً واحدة، لكنّه خلقها في ستّة أدوار زمنيّة، فلا يعسُرُ عليه أمر إنهاض المؤمنين ورفعهم إلى مصافّ الأمم المتحضرة في الأرض. وهو الذي يملك هذه الرؤيّة التي لاتُحَدُّ لكل مايجري ومايوجد في العالم من قوانين تنظِّم أحداثه. فهو الله العليم والبصير أيضًا. وإنّ كتابه ليحمل تعاليم هذه الحكمة والرؤية السّديدة دونما أيّ جدال.

إلى هنا أكون قد ساعدت الباحث المتدبِّر في إدراك صحة وجهة نظري فيما يتعلّق بدلالة ﴿الر﴾ على معنى (أنا الله أرى). ولاأجد من حاجة إلى زيادةٍ في الشرح والبيان. وباستطاعة المتدبِّر الباحث أن يتدبَّر بقيَّة سورة (يونس) من هذا المنظار ليزداد يقينًا بما ذكرناه. لذلك ينتقل صاحبنا إلى السّورة التالية، وهي سورة (هود) التي استُهِلَّت بأحرف الاختزال ذاتها، (الر)، فلنوجِزْ فيها الكلام.

★ ★ ★

الفصل الخامس

|الر| من سورة |هود|

ولاأظن الباحث المتدبّر يجد صعوبة في معرفة الكلمات التي اختُزلت منها هنا الأحرف (الر). فهي الأحرف ذاتها التي استهلّ بها ربُّنا سورة (يونس). لها الدّلالة ذاتها، وهي مختزلة من الكلمات نفسها (أنا الله أرى) أيضًا. وهو إذ يبحث عن القرينة الدّالة على ذلك، يجدها أيضًا، وبسهولة ويسرٍ تامَّين. وذلك من خلال قوله تعالى هنا: ﴿الرّ، كتابٌ أُحكمت آياتُه ثم فُصِّلت من لَدُنْ حكيمٍ خبير﴾.

ويلاحظ هذا الباحث المتدبر أن موضوع هذه السورة، يدور حول صفة الرؤية الإلهيّة للأحداث والقوانين الناظمة لها أيضًا. وأنّها في هذه السورة رؤية ﴿الحكيم الخبير﴾ الذي جعل من آيات كتابه آياتٍ مُحكمات، وجعل منها آياتٍ مفصَّلات أي آيات أساسيات وآيات تابعات. ولابدّ أن يدرك هنا أنّ التعرّض لذكر رؤيّة ﴿الحكيم الخبير﴾ هذه يعدّ قرينة على أنّ ﴿الرّ﴾ قد اختُزلت من (أنا الله أرى). وإنّها لقرينة واضحة كل الوضوح، ذات دلالة ولها الوضوح نفسه أيضًا.

فإذا أتى الباحث المتدبّر إلى الآيّة التي تلت هذه الآيّة الأولى لاحظ قوله، جلَّ شأنه: ﴿ألاّ تعبدوا إلاّ الله، إنني لكم منه نذير وبشير﴾. فقد جاء تعالى يحضّ الناس على أن يلتزموا بعقيدة التّوحيد لذاته، عزّ وجلّ، كما يحضّهم على ترك الشّرك بجميع أشكاله، لِما لعقيدة الشّرك من أثرٍ مهدِّم، ولأنها عقبةٌ تحول دون تقدُّم الأمة نحو تحقيق الغاية من خلقها ووجودها. لذلك قال على لسان رسوله الأمين: ﴿إنّني لكم منه نذير وبشير﴾. وكلمة نذير من الإنذار، وهو عمليّة إعلام وتحذير من عواقب الأمور قبل حلولها، مع شيء من التّخويف (محيط المحيط). أمّا التبشير فهو عمليّة بسط الرجاء، وتحقيق الأمل ببلوغ طريق الفلاح والنّجاة.

وقد راح، جلَّ شأنه، بعد هذه الآيّة الكريمة يشرح للناس طريق العودة إلى التوحيد بقوله تعالى: ﴿وأنِ استغفِروا ربَّكم ثم توبوا إليه يمتِّعْكم متاعًا حسنًا إلى أجلٍ مسمىً، ويُؤتِ كلَّ ذي فضلٍ فضلَه، وإن تَوَلَّوا فإني أخاف عليكم عذاب يومٍ كبير﴾. والملاحظ أنّه، جلَّ شأنه، واصل شرحه هذا حتى الآية (٢٣). ثم

ضرب للناس الأمثال من الأمم الماضية التي شابه حالُها حالَ الناس زمن نزول هذا الكتاب العظيم. وذلك ليذكّر عباده بما أحاط تعالى به من أحداث إحاطةً دقيقةً شاملة. وليؤكّد رؤيته تعالى أحداثَ هذه الأمة والقوانين أو النظم التي تساعد على إنهاضها من كبوتها. فضرب لنا مثال قوم نوحٍ بقوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه ـ إني لكم نذير مبين ـ أن لا تعبدوا إلاّ الله، إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾. وضرب لنا مَثَلَ قومِ هود بقوله تعالى: ﴿وإلى عادٍ أخاهم هودًا قال ياقومِ اعبدوا الله مالكم من إلهٍ غيرُه، إنْ أنتم إلاّ مُفترون.. ياقوم استغفروا ربّكم ثم توبوا إليه يُرسل السماء عليكم مِدرارًا، ويزِدْكم قوّةً إلى قوّتكم، ولاتتولّوا مجرمين﴾ (٥٠ و ٥٢). وضرب لنا مثَلَ قوم صالح بقوله: ﴿وإلى ثمودَ أخاهم صالحًا، قال ياقومِ اعبدوا الله مالكم من إله غيرُه، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها، فاستغفروه ثم توبوا إليه، إنّ ربّي قريبٌ مجيب﴾ (٦١). وأتبع ذلك أمثلة إبراهيم ولوط وشعيب وموسى عليهم صلوات الله وسلامه. ثم التفت إلى رسوله الأمين آمرًا إياه بقوله تعالى: ﴿فاستقمْ كما أُمرتَ، ومن تاب معك، ولاتطغَوا، إنّه بما تعملون بصير﴾ (١١٢). فنبّه، جلّ شأنه، من خلال قوله تعالى: ﴿إنه بما تعملون بصير﴾، إلى رؤيته الأحداثَ والقوانين الناظمة لها ومجرى الأمور، وأثبت بذلك أنّ موضوع سورة (هود) يدور حول ﴿الٓر﴾ أي (أنا الله أرى) لاتصاله باسمٍ من أسمائه الحسنى وهو (البصير).

ثم طفِق، جلّ شأنه، ينذر المكذّبين بقوله: ﴿وقل للذين لايؤمنون اعملوا على مكانتكم إنّا عاملون ـ وانتظروا إنّا منتظرون ـ ولله غَيبُ السماوات والأرض، وإليه يُرجَعُ الأمرُ كلُّه، فاعبُدْه وتوكّلْ عليه، وماربك بغافلٍ عما تعملون﴾ (١٢١ ـ ١٢٣)، أي أن الله تعالى يرى ويُبصر ماتعملون.

ويبلغ هذا الباحث المتدبر هنا حدَّ اليقين بأن ﴿الٓر﴾ قد اختُزلت من (أنا الله أرى)، بدليل القرينة التي احتوتها الآيَة الأولى من هذه السورة، وماأكّد هذه الحقيقة من بقيّة آيات سورة (هود) على الشكل الذي بيّنّاه. فيفكّر صاحبنا في الانتقال إلى السورة التي تأتي بعدها تلاوة، وهي سورة (يوسُف) عليه السلام.

★ ★ ★

الفصل السادس

الر من سورة يوسف

ويلاحظ هذا الباحث المتدبِّر أنّ ربَّنا، جلّ شأنه، قد استهلّ سورة (يوسُف) بالأحرف (الر). فلا يعتريه شكٌ بأنها مختزلةٌ من (أنا الله أرى). ويؤكد له هذا اليقين احتواءُ الآيّة ﴿تلك آياتُ الكتاب المبين﴾ على القرينة الدالّة على ذلك. أي رؤيّة الله تعالى ألأحداث المفصَّلة التي عَرَضَت لـ(يوسُف) في حياته، والتي أنبأه ربُّه بوقائعها قبل وقوعها من خلال رؤياه التي أراه إياها: ﴿إذ قال (يوسُفُ) لأبيه، ياأبتِ إنّي رأيت أَحَدَ عشر كوكبًا والشمسَ والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾. ويطلعنا، جلّ شأنه، على تفاصيل حادثة (يوسُف)، وماجرته من نتائج، وماحققته من أحداث قدّرها الله الذي يرى غيب السماوات والأرض. ثم يعود تعالى فيلتفت إلى رسوله قائلاً: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرةٍ أنا ومن اتّبعني، وسبحانَ الله ومأأنا من المشركين﴾ (١٠٨). فيؤكد أن عقيدة توحيد الخالق هي طريق الفلاح والنّجاح، وأنّ عقيدة الشِّرك هي طريق البَوار والدّمار والتّبار. ونلاحظ أنه، جلّ شأنه، قد ختم سورة (يوسُف) بقوله: ﴿لقد كان في قَصصهم عبرةٌ لأولي الألباب، ماكان حديثًا يُفترى، ولكن تصديقَ الذي بين يدَيه، وتفصيلَ كلِّ شيء، وهدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنون﴾ (١١١). وقد علّل، جلّ شأنه، في هذه الآية الكريمة سبب تركيزه على سرد قصة (يوسُف) وماسبقها من بشارات، إشارةً إلى أنّ آيات هذا ﴿الكتاب المبين﴾ قد ركّزت على رؤيّة الله، عزّ وجلّ، الأحداثَ والقوانين النّاظمة لها. وقد تمّ هذا على أنه، جلّ شأنه، اختزل هذه الأحرف (الر) من (أنا الله البصير) بكل الأحداث في السّماوات والأرض.

★ ★ ★

الفصل السابع

المر من سورة الرّعد

وينتقل هذا الباحث المتدبّر إلى سورة (الرّعد)، فيلاحظ أنّ الله، عزّ وجلّ استهلّها بالأحرف (المر...)، وأتبعها قوله تعالى: ﴿...تلك آياتُ الكتاب، والذي أُنزل إليك من ربّك الحقُّ، ولكنّ أكثر الناس لايؤمنون﴾. ويعود صاحبنا بذاكرته إلى الأحرف (الم) وماعلمه من دلالتها على (أنا الله أعلم). وإلى الأحرف (الر) وماعلمه من دلالتها على (أنا الله أرى). فيعلم أنّ الأحرف (المر) إنّما تدل على (أنا الله أعلم وأرى). أي أنه، جلّ شأنه، جاء في هذه السّورة مخاطبًا عبادَه أن لاتظنوا أنني أرى ظاهر الأحداث والقوانين الناظمة لها وحسب، فعلمي ورؤيتي يتجاوزان الظواهر إلى بواطن الأمور. فها أنذا أدبِّر أمر إنجاح هذا الدّين بوسائل لاتراها أعينكم، ولاتحيط بها مداركم ونظراتكم السّطحيّة للأحداث والقوانين. وإنّكم لن تحيطوا علمًا بما أضعه من تدابير، إلاّ بعد أن تتجلى النتائج المرجوّة من هذه التدابير. فلا يدهشكم حينذاك فوز الإسلام وانتصاره، وتجاوزه جميع العقبات التي تعترضه. ذلك أنّي أكون من وراء انتصار هذا الدّين فأنا العليم البصير. من هذا يدرك صاحبنا أنه لابدّ من أن تكون الأحرف (المر) قد اختزلت من (أنا الله العليم البصير) أي أعلم وأرى، وهذه الأحرف تشكّل مفتاح سورة (الرّعد).

ثم يتساءل هذا الباحث المتدبِّر: ماالداعي إلى أن يضيف ربنا صفة العلم هنا إلى صفة الرؤيّة للدلالة على موضوع هذه السّورة؟ أفلا يكفي أن يكون متّصفًا بكونه البصير الذي يرى الأحداث والقوانين الناظمة لها ليُدير أمور هذا الدّين؟

ويجد صاحبنا الجواب نفسه حين يتذكر أنّ الرؤية لاتعدو دلالتها رؤية اللون والطّول والعرض، بينما يتجاوز (العلم) هذه الرؤية الظاهريّة إلى رؤية ماوراء الأنف والأذن واللّمس.

فالعلم هو رؤيّة حقائق هذه الأشياء المرئيّة وبواطنها وإدراك لها. ويتذكّر باحثنا المتدبِّر أيضًا أنّ الله تعالى، وإن كان مُستغنيًا في رؤيته عن العيون والحواس، قد استعمل هنا صفتي (العليم البصير) على سبيل المجاز، قياسًا على

ماللإنسان من قوى وحواس، بُغيَة تقريب الأمر من أفهامنا، والتعبير عنه باصطلاحاتنا، وإلاّ فإنّ الله تعالى يتّصف بصفاته جميعها على وجه الكمال.

ويقول هذا الباحث المتدبِّر في نفسه: إذا صحَّ حُكمي بأنّ ﴿المر..﴾ تعني (أنا الله أعلم وأرى)، فلأتجاوزْ الآية الأولى التي احتوت قرينة ذلك إلى الآية التي بعدها، فأنظر مدى تأييدها هذا الحُكم.

ويقرأ قوله تعالى: ﴿الله الذي رفع السّماوات بغير عَمَدٍ ترَونها ثم استوى على العرش وسخّر الشّمس والقمر، كُلٌّ يجري لأجلٍ مُسمّى، يدبّر الأمر يفصّل الآيات لعلّكم بلقاء ربكم توقنون﴾. وتدهشه دلالة هذه الآية الكريمة على ماتوصل إليه إدراكه. فهو يلاحظ أنّ الله، جلّ شأنه، يذكّر المكذّبين من خلال قوله: ﴿الله الذي رفع السماوات بغير عَمَدٍ ترَونها..﴾ أي مالكم لاتدركون أنّ الله تعالى جعل كواكب السّماء تدور في أفلاكها بغير عَمَدٍ ترَونها بأعينكم الماديّة، وهي تستند في حقيقة الأمر إلى قوانين كالجاذبيّة مثلا، وإلى قوانين لم يُحط بها علماء الطبيعة حتى الآن؟ أوَلم تكفِكم هذه الملاحظة للبرهنة على أنّ الله تعالى قد أعد للأحداث والقوانين الناظمة لها، بواسع علمه وثاقب نظره، من الأسباب والوسائل لنُصرة هذا الدّين مالاتدركه أبصاركم ولانظراتكم اللامحة العاجلة. وقد دلّكم على كونه تعالى (عليمًا بصيرًا) أنّه رفع السماوات بغير عَمَدٍ ترَونها، وبوسائل لاتدركها الأبصار الماديّة؟ وكيف، جلّ شأنه، ﴿استوى على العرش، وسخّر الشّمس والقمر كلٌّ يجري لأجلٍ مُسمّى﴾ أي أنّه تعالى تولّى القيادة، فسخّر الشمس والقمر كلٌّ يجري إلى أجلٍ مسمى، وسخّر كلّ ذلك لمقاصده وأهدافه؟ فالله، جلّ شأنه، يدبّر أمور هذا الدّين الذي بعث به محمّدًا رسوله الأمين، ﴿يفصّل الآيات﴾ التي احتواها هذا الكتاب القرآن، لكن يُساعدكم على تعرُّف خالقكم، والاهتداء إلى سبيله، عزّ وجلّ، ﴿لعلّكم بلقاء ربّكم توقنون﴾، أي بإمكان لقاء الله والتشرُّف بقربه.

وإنّها لحقيقة مدهشة تتجلّى لعَينَي هذا الباحث المتدبِّر، من خلال هذا الإحكام الموضوعي الذي يربط هذه الآية الكريمة بقوله تعالى في مُستهَلّ سورة (الرّعد): ﴿المر، تلك آيات الكتاب، والذي أُنزل إليك من ربّك الحقُّ، ولكنّ أكثر الناس لايؤمنون﴾.

فإذا تجاوز صاحبنا هذه الآية الكريمة إلى مابعدها قرأ قوله تعالى: ﴿وهو الذي مدّ الأرض وجعل فيها رواسيَ وأنهارًا، ومن كلّ الثّمرات جعل فيها زوجَين اثنين، يُغشي الليلَ النهارَ، إنّ في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكّرون﴾. وتتراءى لهذا

الباحث المتدبِّر من خلال هذه الآية الكريمة أيضًا حقيقةً أخرى مدهشة، تعرضها هذه الآية مؤكِّدةً دلالة ﴿المر﴾ على معنى (أنا الله أعلم وأرى). ذلك أنّه يُفهم من هذه الآية أنّ الله تعالى جاء يقرِّر فيها أنّ الإسلام سيجد من النّاس من يؤمن به، ويعمل بتعاليمه لامحالة، وأنّه تعالى يقرِّر هذه الحقيقة في وقتٍ كان المسلمون فيه قِلّةً مضطهَدين. فسورة (الرعد) قد نزلت في مكّة المُكرَّمة، في تلك الأيّام العصيبة، يوم كان أعداء الإسلام يتربّصون به الدوائر، ويُضمرون له العداوة والمكايد.

فالله تعالى قد شبه نفوس عباده، في هذه الآية الكريمة، بهذه الأرض وجبالها وأنهارها، وتَلَقّي هذه الأرض وأشيائها ماينزل إليها من هذه السّماء من ماء. فالأرض مُرغمةٌ على تَلَقّي ماء السّماء، وجبالُها مُكرَهة على خزن هذه المياه وتفجيرها أنهارًا، والأرض مقودةٌ لتُنبت ﴿من كلّ الثمرات﴾ التي جعل الله تعالى من كلٍّ منها زوجَين اثنين. فنفوس العباد مقسورةٌ على تلقّي وحي السّماء بالقبول، وعلى قَدْرِ ماأُهِّلت له النفوس وأُعِدَّت لتَلَقّيه. ولابُدّ أن تقوم نتيجة لذلك عُصبةٌ قويّةٌ من المؤمنين. وبفضل هذه العُصبة المؤمنة تنهض الأمّة من كَبوتها وظُلمتها، كما يُغشي الله، عزّ وجلّ، الليلَ النهارَ، فيزيل ظلمته ويطردها، ويطلُعُ نتيجةً لذلك على الناس فجر يومٍ جديد.

﴿إنّ في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكّرون﴾ أي أنّ هذه الظاهرة الطبيعيّة التي وضع الله أركانها تلفت أنظار الناس المتفكّرين إلى عظمة علم الله، وثاقب رؤيته الأحداثَ والقوانين النّاظمة لها. فهو العليم البصير، وهذا هو مااختُزل منه أحرف الاختزال (المر).

وينتقل هذا الباحث المتدبِّر خطوة أخرى، وقد شدّته نشوة الظفر من إدراكه التسلسلَ الموضوعيّ لهذه الآيات الكريمة من سورة (الرّعد). فيقرأ بعد ذلك قوله تعالى: ﴿وفي الأرض قِطَعٌ مُتجاوراتٍ وجناتٌ من أعنابٍ وزرعٌ ونخيلٌ صِنوانٌ وغيرُ صِنوانٍ، يُسقى بماءٍ واحد ـ ونفضّل بعضها على بعضٍ في الأُكُل ـ إنّ في ذلك لآياتٍ لقوم يعقِلون﴾. ويلاحظ صاحبنا أنه، جلّ شأنه، مايزال يوجِّه خطابه إلى المكذِّبين فيقول لهم: إنْ كنتم قد ظننتمُ أنّ رسولنا محمد بن عبدالله هو كأيّ فردٍ من أفراد أمّتكم، لايتميّز بشيء عمّا سواه، ولايملك من الأسباب مايسمو به على سائر النّاس، فدونكم فانظروا كيف كان في الأرض ﴿قِطَعٌ مُتجاورات﴾، ولكلّ قطعة منها طبيعة وخواص، فتُنبت القطعة منها مالا تُنبته الّتي تُجاورها، فهذه تُنبت أعنابًا، وتلك تُنبت ﴿صِنوانٌ وغيرُ صِنوانٍ﴾ من الزرع. ويحدث هذا كلّه على حين

تُسقى جميع هذه القطع المتجاورات من الأرض بماءٍ واحد. وهي تُنبت مايفضِّل بعض نباتها على بعض في الأُكُل. فما بالكم لاتتّعظون بهذه الظاهرة الطبيعيّة التي يُستدَلُّ منها على أنه لايُعقل أن يكون الله تعالى قد اختص محمدًا بوحيه المقدّس إلاّ بسبب مايملكه من خصائص ومؤهلات يمتاز بها على سائر أفرادكم، وهذا من منطلق أنّ الله تعالى الذي اصطفاه هو (العليم البصير). و﴿إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون﴾. فمابالكم لاتتدبَّرون الأمر؟ ألم تُطلقوا على محمد رسول الله قبل بعثته لقب الصادق الأمين؟

ويمضي هذا الباحث المتدبِّر يُتابع الآيات، فيقرأ قوله تعالى: ﴿وإنْ تعجبْ، فعَجَبٌ قولُهم أإذا كُنّا تُرابًا، أإنّا لفي خَلقٍ جديد، أولئك الذين كفروا بربّهم، وأولئك الأغلال في أعناقهم، وأولئك أصحابُ النّار هم فيها خالدون﴾.

فيلاحظ هذا الباحث المتدبِّر أنّ الله، عزّ وجلّ، قد أخذ بالحسبان يأس العرب الجاهليّين وقُنوطهم من إمكان تَوحُّدهم ونهوضهم من كبوتهم زمنَ نزول القرآن المجيد، وهو الأمر الذي عبّر عنه تعالى بقوله عن لسانهم: ﴿أإذا كُنّا تُرابًا أإنّا لفي خلقٍ جديد﴾، وهو قولٌ يعني ماذكرت لقرينة التسلسل الموضوعي. فيَرُدُّ، جلّ شأنه، على هؤلاء بقوله: ﴿أولئك الذين كفروا بربّهم..﴾ أي أنكروا بموقفهم هذا وقنوطهم ويأسهم قُدرات ربوبيّة الله خالقِهم، وقُدرتَه على إنشائهم خَلقًا جديدًا. فموقفهم هذا إنما ينُمُّ على كفرهم بوجود ربّ العالمين. ينكرون ربوبيّة الله خالقِهم، ولايفطنون أنّ الله تعالى لم يخلق أعينهم إلاّ وقد خلق الضّياء لمساعدتها على رؤية ماحولها من أشياء. وأنّ الله تعالى لم يخلق أنوفهم إلاّ وقد خلق الرّوائح لمساعدتها على تمييز ماحولها من أشياء. فهذه آيات ربوبيّة الخالق وبصماتُه واضحة في هذا الكون. وهل يُعقل أن تعجز قدرة هذه الربوبيّة عن إحياء هؤلاء وتوحيدهم وإنهاضهم من الظلمة التي تكتنفهم؟

ويُلاحظ صاحبنا أنّ الله تعالى أخذ يعلِّل سبب يأس هؤلاء وقنوطهم من ربوبيّة الله بقوله تعالى: ﴿وأولئك الأغلال في أعناقهم...﴾ أي أنّ هؤلاء مقيَّدون بالأغلال الموروثة في مجتمعهم الذي لاينفكّون عنه. فلم يَعد هؤلاء يتصورون إمكان ترك هذا الموروث، والخروج عليه. وماعادوا يتصوّرون أنّه يمكن أن يكونوا في خَلقٍ جديد عن طريق تعاليم هذا الدّين القويم، وبفضل الطّاعة لهذا الرّسول الأمين.

وقد أضاف، جلّ شأنه، قوله: ﴿وأولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون﴾، أي أنّ هؤلاء المكذِّبين الّذين قيَّدتهم تقاليدهم الموروثة، والقانطين من

إمكانات ربوبيّة خالقهم، لابدّ أن يُلاقوا مصيرهم الحتميّ، وهو أن يكونوا من ﴿أصحاب النّار هم فيها خالدون﴾.

فإذا وصل هذا الباحث المتدبِّر إلى هذا الحدّ من إدراك التسلسل الموضوعيّ لسورة (الرعد)، والذي ثبت له من خلاله حتى الآن أنّ ﴿المر﴾ مختزلة من (أنا الله العليم البصير)، لم يَرَ حاجةً إلى تتبُّع دلالات الآيات التّالية. فيعود أدراجه إلى الآية الأولى، وهي قوله تعالى: ﴿المر، تلك آيات الكتاب، والّذي أُنزل إليك من ربّك الحقُّ، ولكنّ أكثر الناس لايؤمنون﴾. وهكذا يتلمّس من خلال دلالاتها القرينةَ الدّالّة على أن ﴿المر﴾ مُختزَلة من (أنا الله أعلم وأرى).

ويلاحِظ صاحبنا أوّل مايلاحظه أنّ الله، جلّ شأنه، قد أتى بلفظ (الكتاب) هُنا مُجرَّدًا عن وصفه بأي صفة من الصفات السّابقة التي وصفه بها كحكيم ومُبين مثلاً، على حين جاء بلفظ (الكتاب) معّرفًا هنا بالألف واللّام، كما هو الحال في مُستهَلّ السّوَر السابقة، لينبِّه بهذا إلى المعهود الذّهني، وهو الصُّحُف الأولى ونبوءات الأنبياء السابقين على بعثة صاحب هذا الكتاب، محمد رسول الله وخاتَم النبيّين (ﷺ).

ويدرك هذا الباحث المتدبِّر من خلال هذا أنّ الله، جلّ شأنه، قد جاء في هذه السورة بتعاليم هذا القرآن المنبأ عنه سابقًا، بشكلٍ عامٍّ وإجماليّ. وهذا هو السبب في أنه تعالى أتبع ذلك بقوله: ﴿والذي أُنزل إليكَ من ربّك الحقُّ﴾ أي أنّ جميع آيات هذا الكتاب وتعاليمه تمثِّل الحقّ بجميع أشكاله ودلالاته. وقد أُنزِل إليك ﴿من ربك﴾ أي أنزل هذا الحقّ من ربّك الذي يشرف على تأهيلك لحمل الرسالة التي تضمَّنها هذا الكتاب، وقد نبَّه تعالى رسولَه الكريم منذ البدء إلى أنّه على الرَّغم من أنّ ماأُنزِل إليه هو الحق، ﴿ولكنّ أكثر الناس لايؤمنون﴾. أي أنّ أكثريّة الناس هي أسيرة الرّسوم والتّقاليد الموروثة البالية. والناس من هذه الجهة لايسعَون وراء هذا الحقّ ولايطلبونه. وهذا هو ماتُفيده صفتا الله (العليم البصير) بحوادث الأمة العربيّة الجاهليّة والقوانين المهيمنة عليها. وأنه لامجال لرفعتها إلّا بالانضواء تحت راية تعاليم هذا الكتاب الذي بشّرت جميع الأديان بمجيئه لينهض بالبشريّة إلى مصافّ الأمم المتحضّرة العظيمة.

ويطمئن هذا الباحث المتدبِّر إلى القرينة التي عثر عليها من خلال دلالة الآية الأولى من سورة (الرعد)، فيودِّع هذه السورة إلى السّورة التي بعدها، وهي سورة (إبراهيم) عليه السّلام.

★ ★ ★

الفصل الثامن

الر من سورة إبراهيم

ويلاحظ صاحبنا أنّ الله تعالى استهلّ سورة (إبراهيم) بقوله تعالى: ﴿الر، كتابٌ أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، بإذن ربّهم، إلى صراط العزيز الحميد﴾. وقد حُذف حرف الميم هُنا، وعادت الأحرف المختزلة (الر) كما كانت عليه في سُوَر يونس وهود ويوسف عليهم السّلام. فما دلالة هذا الحذف وهذه العودة إلى الاستهلال نفسه، إلى الأحرف نفسها (الر) في هذا المقام؟

ويستعرض هذا الباحث المتدبّر جميع السّور التي استهلها ربّنا بالأحرف (الر). ففي سورة (يونُس) قال تعالى: ﴿الر، تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ واصفًا كتابَه القرآن بصفة (الحيكم). وبرهن بذلك على رؤية ثاقبة للأحداث، وعلى إحاطته تعالى علمًا بالقوانين الناظمة لها. لذلك جاءت آيات كتابه مُتقنة الموضوعات، موافقة للحقّ، واضِعَةً الأشياء في مواضعها لإصلاح العباد. وكأنّه تعالى قد نبّه فيها إلى أنّه أتى بنظام جديد مدعَّم بالحوافز تثبيتًا للمؤمنين على إيمانهم، وحثًّا لهم على التّضحية في سبيله، ليضع أقدامهم على طريق الفلاح.

وفي سورة (هود) قال تعالى: ﴿الر، كتابٌ أُحكمت آياته ثمّ فُصِّلت من لَدُنْ حكيمٍ خبير﴾. فنبّه تعالى إلى أن رؤيته، وهو الحكيم الخبير، قد تجلت في ترتيبه كتابةً على شكل آياتٍ مُحكَمات، وآيات تفصِّل هذه المحكمات، وأنّ تعاليم كتابه هذا إنّما تدور جميعها حول التوحيد الكامل لذاته وصفاته. وأنّ عقيدة التوحيد هذه ليست عقيدة مُستحدثة، بل بُعِث بتعاليمها جميع الأنبياء من نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام.

وفي سورة (يوسُف) قال تعالى: ﴿الر، تلك آيات الكتاب المبين﴾، أي أنّ هذا الكتاب المبين يشهد بأنّ رؤية الله تعالى الذي أنزله ليست رؤية عارضة، بل تشمل دقائق الأشياء وترى أعماقها، وقبل وقوعها وظهورها أيضًا، فهو علّام الغيوب. وقد أتى، جلّ شأنه، بقصّة يوسف ليثبت رؤيته هذه موضحًا أنه تعالى كان قد أنبأ يوسف عن أحداثه الشخصيّة قبل وقوعها، كما بشّره بمستقبله ووعدِه ثمّ حققّ وعده له.

وبعد أن يستعرض هذا الباحث المتدبِّر مختلف زوايا النظر الإلهيّة التي جلاها من خلال جميع السّوَر المبدوءة بالأحرف (الر)، يمتلىء يقينًا بأنّ سورة (إبراهيم) لابد أن تكون قد جاءت تعرض أيضًا رؤية الله للأحداث والقوانين الناظمة لها من زاوية نظرٍ جديدة يقينًا. ويأخذ صاحبنا بتدبُّر أوّل آية من هذه السورة، ومن هذا المنظار بالذات، ويمضي في البحث عن القرينة المرشدة إلى هذه الرؤية الجديدة في قوله تعالى: ﴿الر، كتابٌ أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، بإذن ربّهم، إلى صراط العزيز الحميد﴾ فيتبيّن دلالة هذه الآية الكريمة لاستنتاج القرينة المطلوبة، وفقًا لقواعد الاختزال التي أتينا على بيانها في الفصول السابقة.

﴿كتاب أنزلناه إليك. . .﴾، كتابٌ هنا خبر لمبتدأ محذوف تقديره: ﴿(هذا القرآن) كتاب أنزلناه إليك. . .﴾ ولأيّ غرضٍ أنزلناه؟ ﴿لتُخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربّهم. . .﴾ أي لتأخذ بأيدي الناس من حالتهم البائسة المتردّية التي هي أشبه شيء بالظّلمات لتصل بهم إلى حالةٍ مزدهرةٍ هي أشبه شيء بالنور. ﴿بإذن ربّهم﴾ أي أنّ ربوبيّة الله قد أذنت لك، يامحمد، بتحقيق هذا الانقلاب الكبير في كيان هؤلاء تصديقًا للوعد الذي قطعناه لجدّيك إبراهيم وإسماعيل.

ويتساءل هذا الباحث المُتدبِّر عن معالم هذا الانقلاب أو النّهضة التي أُنزلت تعاليم هذا القرآن لتحقيقها؟ فيجد إجابة تنتظره في قوله تعالى: ﴿إلى صراط العزيز الحميد﴾، أي أنها تعاليم تأخذ بأيدي العرب الجاهليّين الذين انكبّوا على عبادة الأصنام، مُتناسين التعاليم الحنيفيّة لجدّهم إبراهيم، وذلك لتعريفهم بربّهم الحقيقي المنيع الجانب الذي لايغالَب، والقاهر كلّ شيء، والذي لايُعجزه شيء، والذي ليس له كفوًا أحد. إلى صراط ربّهم (الحميد) أيضًا أي كامل المحامد الذي أنزل عليهم أكمل المبادىء والتعاليم ليصبغهم بصبغته، وينصرهم بتأييده، فيعلموا أن لاأحد سواه يستحقُّ هذا الحمد. فقد اصطفيتك، يامحمد، لتُخرج هؤلاء من ظُلمتهم التي هم فيها إلى نور صراط هذا الربّ العزيز الحميد.

ويقول هذا الباحث في نفسه: ماأعظم دلالة ﴿إلى صراط العزيز الحميد﴾! إنّها تحمل حقًّا لوائح نورٍ عظيم. ذلك أنّ لصفة (العزيز) دلالتها على نورٍ لتحوُّلٍ عمليّ ينقذ من المصائب والبؤس والآلام. وإن لصفة (الحميد) دلالتها على نور لتحوُّلٍ علميٍّ ينقذ من سموم الأهواء النفسيّة والوساوس الشيطانيّة.

فإذا رأى هذا الباحث المتدبِّر ماأحدثه هذا الكتاب في بيئة العرب الجاهليّين

وسواها من البيئات من انقلاب وتحوُّل وتبدُّل بعد إنزال الله تعالى هذا القرآن على قلب محمد رسول الله، وقارن مابين حالهم التي كانوا عليها قبله والحال التي آلوا إليها بعد نزوله، وماحقّقه لهم دينهم الجديد من السّيادة على من حولهم من أمم الأرض بعد توحيده قبائلهم المتنازعة، وكيف جعلهم أساتذة هؤلاء أيضًا، يتجلى له صدق قول ربّه: ﴿الر، كتابٌ أنزلناه إليك لتُخرج الناس من الظلمات إلى النّور، بإذن ربّهم، إلى صراط العزيز الحميد﴾، كما تتجلى له القرينة التي احتوت عليها هذه الآية الكريمة، دلالتها على أن ﴿الر﴾ قد اختُزلت هنا من (أنا الله أرى). فالمقصود من الرؤية هنا رؤية معالم طريق الفلاح والنّجاح، والقوانين الناظمة له، والوسائل التي يحتاج إليها الإنسان لإحداث مثل هذا الانقلاب الكبير.

ويُكمل صاحبنا تلاوة ماورد بعدها من كلام إلهيّ. فيقرأ قوله تعالى: ﴿. . إلى صراط العزيز الحميد، اللهِ الّذي له مافي السّماوات ومافي الأرض، وَوَيْلٌ للكافرين من عذاب شديد﴾، قوله تعالى هذا الذي يؤكّد قدرة الله، عزّ وجلّ، على إحداث هذا الانقلاب والتحوُّل والتبدُّل. مادام هذا الإله الأحدُ يملك مافي السموات ومافي الأرض، وسُخّر له كلُّ مافي العالم، فكان كل شيء طوع يديه، يعمل وفقًا لمشيئته، فهو العزيز الحميد. وويلٌ، أي تَبارٌ ودمار وهلاك لِمَنْ ينكر على الله ملكيّته وقدرته على إحداث هذا التبدُّل، ولابُدّ أن يلقى المُنكر جزاء إنكاره فيلحق به ﴿عذاب شديد﴾.

وإذن هذا هو السرُّ في ضرب الله تعالى الأمثال، بعثة موسى وماأحدثته من انقلاب وتبديل بقوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور، وذكّرهم بأيام الله، إنّ في ذلك لآياتٍ لكلّ صبّارٍ شكور﴾(٥).

وهذا هو السرُّ كذلك في تذكيره تعالى إيانا بمصير قوم نوحٍ وعادٍ وثمود، ومن أتى بعدهم ممّن كذّبوا المرسَلين، وذلك من خلال قوله تعالى بعدها: ﴿ألم يأتكم نبأُ الذين مِن قبلِكم قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ والذين مِن بَعدهم، لايعلمهم إلّا الله، جاءتهم رسُلُهم بالبيِّنات، فردّوا أيديَهم في أفواههم، وقالوا إنا كفرنا بما أُرسلتم به، وإنّا لفي شكٍّ ممّا تدعوننا إليه مُريب﴾(٩).

بل هذا هو السرُّ كذلك في تمثيله، جلّ شأنه، أعمال الذين كفروا بقُدرة ربّهم على إحداث هذا الانقلاب العظيم برمادٍ اشتدَّت به الرّيح في يوم عاصف،

وذلك بقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الذين كفروا بربّهم أعمالهم كرمادٍ اشتدت به الريح في يوم عاصفٍ، لايَقدِرون ممّا كَسَبوا على شيء، ذلك هو الضّلال البعيد﴾ (١٨).
ويكتفي هذا الباحث المتدبِّر بما لاحظه، من خلال هذا التّسلسل الموضوعي، من الدلالة كلّ الدلالة على أنّ المقصود من ﴿الر﴾ في هذه السورة، سورة (إبراهيم)، هو اختزالها من جملة (أنا الله أرى) يقيناً.

★ ★ ★

الفصل التاسع

الر من سورة الحجر

وينتقل صاحبنا إلى سورة (الحِجر). فيلاحظ أنّ الله تعالى استهلّها أيضًا بالأحرف (الر). فيذهب ظنه إلى أنّه لابدّ أن تكون هذه الأحرف مختزلة من (أنا الله أرى) أيضًا، ولكن من زاوية نظرٍ جديدةٍ للأحداث وقوانينها الناظمة لها. فيمضي للبحث في مابعد ﴿الر﴾ عن القرينة المرشدة إلى هذه الرؤية الجديدة ، أي أنه يتدبَّر قوله تعالى ﴿الر تلك آيات الكتاب وقرآنٍ مبين﴾ فيبحث عن دلالتها ليستخلص من هذه الدلالة القرينة المطلوبة، ووفقًا لقواعد الاختزال، فيدرك أنّ قوله تعالى: ﴿تلك آيات الكتاب﴾ كان الأصل فيه أن يُقال (هذه آيات الكتاب). وقد استبدل، جلّ شأنه، باسم الإشارة القريب (هذه) اسمَ الإشارة البعيد (تلك)، تعظيمًا لهذه الآيات، لما احتوته من مضامين وبيِّنات. كما يدرك أنّه، جلّ شأنه، أتى بلفظ (كتاب) مُعرَّفًا بالألف واللّام، إشارةً إلى أن هذه الآيات، إذا اكتمل نزولها جميعها، ستتخذ شكل كتاب مستوفٍ جميعَ مواصفات الكتاب وشروطه.

ويتأمل قوله تعالى: ﴿وقرآنٍ مبين﴾، فيلاحظ أنّ الواو عاطفة، تعطف المُتغايرات. ومعنى ذلك أنّ الله تعالى قد أضاف إلى لفظ (الكتاب) صفتين: صفة (قرآنٍ)، وصفة (مُبين). فيتساءل: لماذا قدّم، جل شأنه، لفظ الكتاب على لفظ قرآن. وهو يعلم أنّ لفظ القرآن أعظم دلالة من لفظ الكتاب. فالقرآن مصدر قرأ. ويُقال: قرأ الكتاب يقرؤه قرآنًا، إذا تلاه بكثرة. فالقرآن يتضمن نبوءة بأنّه سيُستنسَخُ ويُطبَع ويُحفظ عن ظهر قلب، ويُتلى بكثرةٍ على الطالبين. فلماذا قدَّم تعالى لفظ الكتاب إذن على لفظ القرآن؟ ويجد الجواب في أنّه تعارف الناس أن يبدأوا بالصّفة الأقلّ شأنًا، ويُتبعونها بالأعظم شأنًا. وهذا هو سرُّ هذا التقديم. ولمّا كان لفظ قرآن قد نُوِّن آخره، فقد زاده هذا التنوين تعظيمًا إلى تعظيم.

أمّا لفظ (مُبين) فاسم فاعل من أبان، ويأتي لازمًا. كقولك: أبان الشيءُ، اتضح. ويأتي متعدّيًا، كقولك: أبان الشيءَ أوضحه. فصفة (مبين) هنا قد جاءت

من الفعل المتعدّي. بمعنى أنّ هذا الكتاب القرآن يوضّح مايتضمّنه من أبحاثٍ ومواضيع، وليس هذا فقط، بل يوضّحها مؤيّدًا إياها بالأدلة الموثّقة والحُجَج والبراهين الدّامغة.

فهذه هي معاني قوله تعالى ﴿تلك آيات الكتاب وقرآنٍ مبين﴾ وهي تعني بألفاظٍ أخرى أنّ سورة (الحِجر) يَثبُت منها عظيم رؤية الله تعالى ماتضمنه كتابه القرآن الذي احتوى على وحيه المقدّس وآياته. احتوى من عظيم البيانِ وقوّة الحجج والبراهين ما لايماثله في ذلك أيّ كتاب سماويّ سابق. وهذا المعنى يؤلّف في حدّ ذاته قرينةً واضحة تؤكد أنّ الأحرف (الر) قد اختزلها ربّنا من (أنا الله أرى)

ويلاحظ هذا الباحث المتدبِّر أنّ الله، عزّ وجلّ، قال بعد ذلك مباشرة: ﴿رُبّما يوَدُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾. فيتأكّد له دلالة هذه الآية على معنى (الر) الذي ذهب إليه. ذلك أنه، جلّ شأنه، قد تنبأ أنه سيأتي على الذين كفروا بعظمة شأن هذه الآيات وبيّناتها زمانٌ سيتحسرون فيه على أنّهم لم يؤمنوا بهذا الدِّين، ولم يبادروا إلى التسليم بهذه الآيات منذ نزولها، فيأسفوا على مابدا منهم من تنكُّر لهذا الدّين القويم.

ويتلو هذا الباحث المتدبِّر بعدئذٍ بضع آيات، فيصادف قوله تعالى: ﴿إنّا نحن نزّلنا الذِّكر، وإنّا له لحافظون﴾ (٩). فيزداد صاحبنا يقينًا بصحّة المعنى الذي دلّته عليه قرينة الآية الأولى. فها هو ذا، جلّ شأنه، يُعلن في مكّة قبل الهجرة منها والعودة إليها فاتحًا، يُعلن متحديًا هؤلاء المكذِّبين أنّ عظمة آيات كتابه القرآن استحقّت من الله حقَّ المحافظة عليها، شهادةً بكمال تعاليمها. فلا بدّ إذن أن تكون الأحرف (الر) قد اختُزلت من (أنا الله أرى) مالا يراه هؤلاء المكذِّبون.

ويتساءل صاحبنا في حديث نفسه: لماذا لم يأت الله تعالى بهذا الوعد مباشرة بعد قوله تعالى: ﴿ربّما يوَدّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾؟

والجواب عن ذلك أنّ أسلوب الله، عزّ وجلّ، قد اتّخذ خطًّا عامًّا يدور حول نُقاط هي معالم الطريق. فهو، جلّ شأنه، أعلن أوّلًا من خلال ﴿الر﴾ عظيم رؤيته الوقائع والأحداث والقوانين الناظمة لها، والعلاج المناسب لها. فأجمل تعالى رؤيته تلك في قوله تعالى: ﴿تلك آيات الكتاب وقرآنٍ مبين﴾. فكانت هذه أوّل نقطةٍ على الطريق العامّ للبحث.

وحين قال تعالى: ﴿ربّما يوَدّ الذّين كفروا لو كانوا مسلمين﴾، أثار نُقطةً ثانية على هذا الخط العام للبحث، خلاصتها أنه عندما تكتمل معالم هذا القرآن

العظيم سيأكل الحسَد قلوب المكذِّبين، ويتمنَّون ضمنًا لو لم يقفوا في طريق هذا القرآن، وكانوا من السابقين إلى الإسلام. وبعد أن أثار تعالى هذه النقطة، لم ينتقل إلى نقطةٍ ثالثة، بل راح يُناقش جانبًا مااقتضته النقطة المطروحة من نقاش، وقال: ﴿ذَرْهم يأكلوا ويتمتعوا ويُلهِهِمُ الأمل، فسوف يعلمون ـ وماأهلكنا من قريةٍ إلا ولها كتابٌ معلوم ـ ماتسبِق من أمّة أجلها ومايستأخرون ـ وقالوا ياأيّها الذي نُزِّل عليه الذِّكرُ إنّك لمجنون ـ لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ـ ماننَزِّل الملائكة إلاّ بالحقّ، وماكانوا إذًا مُنظرين﴾ (٣ ـ ٨). أي دعْهم، يامحمد، يتخيّلوا في أوهامهم أنّهم سيتمكّنون من التغلُّب على هذا الدِّين. وحالهم هذا ليس بالغريب. ذلك أنّهم كانوا يجهلون. والجاهل، كما هو معلوم، يُعادي كلّ جديد طارىء عليه، لكنّ عداءهم هذا له أجلٌ معلوم. وياليتهم كانوا يقاومون هذا الدِّين بسلاح الحوار والحُجّة والبرهان. فإنهم كانوا يسخرون منك ويستهزئون بك ويرتجلون الاتّهام من دون دليل. يتّهمونك بالجنون، وهم يعلمون أنّ المجنون لايأتي بمثل هذه البيِّنات وكتابها القرآن العظيم. ويحاولون مُعاجزتك بأن تأتيهم بالملائكة ليرَوها، وكأن الملائكة طوع يديك ورهن مشيئتهم. ولايعلمون أنّنا لاننزِّل الملائكة إلاّ بالحقّ. وماداموا لايطلبون الحقّ فأنّى لهم أن تتنزّل الملائكة عليهم. ونحن إن شئنا تنزيل الملائكة عليهم فإنّما ننزّلها لإنزال القصاص بهم وإذاقتهم شديد العذاب.

ولنُلاحظ أنه، جلّ شأنه، وقد انتهى من هذا البحث الجانبيّ الذي اقتضاه قوله تعالى: ﴿ربّما يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾، قد أتى بنقطة جديدة ضمن الخطّ العامّ للرؤية الإلهيّة، وذلك في قوله تعالى: ﴿إنا نحن نزّلنا الذِّكر، وإنّا له لحافظون﴾، أي أنّ هذه البيِّنات التي تنزّلت بها آيات القرآن، ستتّخذ شكل كتاب مطبوعٍ ومحفوظٍ في الصُّدور، الأمر الذي يستحقّ منّا الوعد بالمحافظة عليه، خصوصًا أنّه (ذِكر) أي وسيلة شرف ورفعة للعباد.

فلمّا أثار تعالى هذه النّقطة أتى ببحثٍ جانبيٍّ اقتضته هذه النقطة بالذات أيضًا، حيث قال: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك في شِيَع الأوّلين ـ ومايأتيهم مِن رسولٍ إلاّ كانوا به يستهزئون ـ كذلك نسلُكُه في قُلوب المُجرمين﴾ (١٢)، أي أنه لم يكن كتابنا القرآن هذا هو أوّلَ كتاب أنزلناه في تاريخ البشريّة. بل أنزلنا كُتُبًا من قبله، ولكننا لم نَعِد آنذاك بالمحافظة على تلك الكُتُب. إذ كانت كُتُبًا مرحليّة، ليست تعاليمها خالدة خلود أحكام هذا الكتاب. وهذا ماأفسح في المجال لتحريفها، وهذه سُنّة الأولين.

وراح تعالى يُكمل هذا البحث الجانبيّ. فلما انتهى منه أتى بنقطة جديدة على الخطّ العامّ للموضوع قائلاً: ﴿وإنّا لنحن نُحيي ونُميت، ونحن الوارثون - ولقد عَلِمنا المستقدِمين منكم، ولقد علِمنا المستأخرين﴾ (٢٣ - ٢٤)، أي أنّ حياة الأمم ونهضاتها إنّما هي بأيدينا، فنحن الّذين نُحيي الأمم ونُميتُها، وينتهي الأمر لمصلحة العباد وفق مشيئتنا على الدّوام. وإن رؤيتنا تشمل الأمم القادمة كما شملت من مضى من الأمم.

ويبحث تعالى، بعد الإتيان بهذه النقطة، بحثًا جانبيًا آخر، تستلزمه النقطة الجديدة، وهكذا دواليك، إلى آخر سورة (الحِجْر)، مما نحن بغنىً عن إيراده خَشيةَ الإطناب.

والمهم أن هذا الباحث المتدبِّر يكون قد استيقن إلى هنا أنّ الله تعالى يتكلم في سورة (الحِجْر) عن رؤيته مضامينَ كتابه ومُستقبَله، لذلك استهلّ تعالى هذه السورة بالأحرف (الر). هذه الأحرف التي تعني (أنا الله أرى). وقد جعلها مفتاحًا لسورة (الحِجْر)، مختزلاً الراء من اسمه (البصير)، وفقًا لقواعد فنّ الاختزال القرآني. هذا الفنّ الطّريف، الدقيق، الذي قلّما يخطُر ببال شاعرٍ أو أديب، أو يعرِض لفكر إنسان. وبذلك يكون الله، عزَّ وجلَّ، قد تحدّى العربَ في مجال هذا الفنّ، وأعجزهم، كما رأيتَ، وقطع بذلك على هؤلاء حُجّة البيان.

★ ★ ★

الفصل العاشر

سُوَر (النحل والإسراء والكهف)

وينتقل الباحث المتدبِّر إلى سورة (النحل) التي تلي سورة) الحِجْر(، فلا يجدها مُستهلَّةً بأحرف اختزال. وينتقل إلى مابعدها، وهي سورة (الإسراء)، فلا يجدها مبدوءة بأحرف اختزال. وينتقل إلى التي بعدها، وهي سورة (الكهف)، فلا يجدها مستهلَّةً بأحرف اختزال. فيدرك من فوره، في ضوء ماأوردناه في فصول هذا الكتاب السابقة، أنّ مضامين هذه السُّوَر الثلاث: النحل والإسراء والكهف، هي فصول مُكمِّلةٌ مضمونَ سورة (الحِجْر)، أي أنّها تابعة لمفتاحها ﴿الر﴾. وربّما خطر ببال هذا الباحث المتدبِّر أن يسأل: وكيف تكون هذه السُّوَر تابعةً لسورة (الحِجر)؟

وأقول له في الإجابة عن ذلك: أفلا تلاحظ أنّه، جلّ شأنه، قد استهلّ سورة (النحل) بقوله تعالى: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه، سبحانه وتعالى عمّا يشركون ـ ينزِّل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده، أن أنذروا أنّه لا إله إلاّ أنا فاتّقونِ ـ خلق السماوات والأرض بالحقّ، تعالى عمّا يشركون﴾؟ أفلا تلاحظ أنّ هذه الآيات تنُمّ على دواعي الشفقة على هؤلاء المشركين المكذِّبين الذين اتهموا رسول الله بالجنون، مطالبين إيّاه بتنزيل الملائكة؟ فجاء، جلّ شأنه، يزيد هؤلاء المكذِّبين علمًا أنّه تعالى لم يخلق هذه السماوات والأرض عبثًا، بل خلقها ﴿بالحق﴾ أي خلقها لتحقيق هدفٍ مقصود. فوحدة القوانين النّاظمة للسماوات والأرض، إلى جانب خَلق الإنسان على هذه الأرض، وتسخيرُه تعالى كلّ شيء لمصلحة هذا الإنسان، يكشف كل ذلك عن تنزيه الله عن أن يكون له شريك، أو يكون قد خلق كلّ ذلك عبثًا من دون حقّ، فسبحان الله عمّا يشركون.

وهو تعالى إذ يَلفِت نظر هؤلاء إلى هذه الأمور الطبيعيّة، ينبِّههم إلى ضرورة عدم الاستعجال في إصدار الحكم وعدم المطالبة بإراءتهم الملائكة. فلو انتظروا ظهور النتائج لتبيّن لهم يقينًا أنّ هذا الدِّين لم يكن بِدعًا في تاريخ الإنسان، بل جاء على شاكلة الأديان التي أُنزلت من قبله، يوم كانت الملائكة تتنزل على الذين اصطفاهم الله تعالى بوحيه الحق لتبليغ رسالات ربِّهم، مُنذرين أنّه لا إله في هذا

الكون إلاّ الله بدليل وحدة القوانين الطبيعيّة لهذا الكون الفسيح.

والمهمّ فيما بسطه تعالى في مُستهلّ سورة (النّحل) إثارتُهُ تعالى بحثَ فصلٍ مستقل مُكمِّلٍ مضمونَ سورة (الحِجْر)، وذلك لأهميّة هذا الفصل من البحث على طريق التسلسل الموضوعي لمضامين القرآن المجيد.

وهو تعالى قد أفرد فصلاً آخر احتوته سورة (الإسراء)، وقدّم تعالى فيه نموذجًا حيًّا من تاريخ البشريّة الطويل. وهو نموذج بعثة موسى إلى بني إسرائيل، وغفلة الإسرائيليّين عن ربّهم المرّة تلو المرّة، بل تحريفهم تعاليم موسى نفسها، ممّا جلب غضب الله تعالى عليهم، ودفعه ليُلغي ميثاقه الذي كان قد عقده مع نبيّهم موسى بشأن أرض كنعان، وإعادة هذه الأرض إلى أصحابها بميثاقٍ جديد عقده مع محمد (ﷺ). وهاهو تعالى قد أنزل هذا القرآن، ونسخ عن طريقه الكتاب الذي أنزله على موسى. وقد احتوى هذا القرآن تعاليم وبيّنات، هي أعظم بكثير ممّا احتوته التوراة المنسوخة أيضًا.

وهذا الفصل وهذا النموذج تمثّل في سورة (الإسراء) التي استهلّها ربُّنا بقوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنُرِيَه من آياتنا، إنّه هو السميع البصير﴾. فقد تضمنت هذه الآية الكريمة معالم الميثاق الجديد فيما يتعلق بالقدس وأرض كنعان*.

وقد مضى، سبحانه وتعالى، بعد هذه الآية الكريمة يذكر أسباب إلغاء ذلك الميثاق: ﴿وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هُدىً لبني إسرائيل ألاّ تتّخذوا من دوني وكيلا﴾، أي أنّ عقيدة التوحيد كانت مدار شريعة موسى، وقد نزلت تلك الشريعة تندِّد بالشِّرك أيضًا.

ولم ينته، جلّ شأنه، من سرد هذه الأسباب حتى عمد إلى عرض بعض ماجاء به القرآن من تعاليم تفوق ماجاءت به منها التوراة سموًّا وكمالاً بدءًا من قوله تعالى: ﴿إنّ هذا القرآن يهدي للّتي هي أقوم، ويُبَشِّر المؤمنين الذين يعملون الصّالحات أنّ لهم أجرًا كبيرًا ـ وأنّ الذين لايؤمنون بالآخرة أعتَدنا لهم عذابًا أليمًا﴾ (٩ ـ ١٠). وهكذا تُشكِّل سورة (الإسراء) فصلاً جديدًا من مضمون سورة (الحِجْر) كما شكّلت سورةُ (الكهف) فصلاً آخر لها، مكمِّلاً سورةَ (الإسراء).

ذلك أنّ الله تعالى إذ عرض في سورة (الإسراء) لليهود وتاريخهم لم يعرض

---

* وقد شرحت هذا الأمر في مقالٍ نشرته لي مجلّة الهدف الفلسطينيّة (١٧ نيسان ١٩٩٣)، فليُرجعْ إليه

خلال ذلك بعثة عيسى بن (مريم). فاقتضى منطق البحث أن يعمد الله، عزّ وجلّ، إلى الكلام على النصارى أتباعِه، كيلا يظلّ البحث ناقصًا، لذلك أفرد له سورة (الكهف) بكاملها.

وقد سُمِّيت سورة (الكهف) بهذا الاسم بسبب لجوء النصارى إلى الكهوف المحيطة بمدينة روما، هربًا من اضطهاد السلطة الحاكمة آنذاك إياهم، إذ كان حكام روما وثنيين. وهذا هو السبب في استهلال سورة (الكهف) بقوله تعالى: ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عِوَجًا ـ قيِّمًا لينذر بأسًا شديدًا من لَدُنه، ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنّ لهم أجرًا حسنًا ـ ماكثين فيه أبدًا ـ ويُنذر الذين قالوا اتّخذ الله ولدًا ـ مالَهم به من علمٍ ولا لآبائهم، كَبُرت كلمةً تخرج من أفواههم، إن يقولون إلاّ كذِبًا﴾.

ولزيادة الإيضاح أقول: إذا عُدنا إلى سورة (البقرة) نلاحظ أن الله تعالى خاطب الناس فيها بصورة عامّة بقوله: ﴿ياأيها الناسُ، اعبدوا ربَّكم الذي خلقكم والذين مِن قبلكم لعلَّكم تتّقون﴾ (٢١)، من دون تحديد مَهَمَّة رسوله الكريم حصرًا. وقد حدّد تعالى مَهَمَّة رسوله الكريم في سورة (الكهف) التابعة لسورة (الحِجْر)، ونبّه إلى أنه ستكون بين الإسلام ومكذِّبيه مواجهتان كبيرتان، وأنّ محمدًا (ﷺ) كُلِّف إنذارَ هذين الفريقين من المكذِّبين:

أمّا الفريق الأوّل منهما فهم عرب الجاهليّة ومَن حولهم من الأمم التي كانت تعاصرهم. فهم من أشار إليهم ربّنا، جلّ شأنه، بقوله تعالى: ﴿.. لينذر بأسًا شديدًا مِن لَدُنه..﴾ (٢) وأمّا الفريق الثاني فهم قوم النصارى أتباع عيسى بن (مريم) الذين يمرون في تاريخهم بدورين رئيسَين: ماقبل اعتناق قسطنطين، قيصر روما، المسيحيَّة، ومابعد اعتناقه. وقد قدَّر الله تعالى لأصحاب الدور الثاني من المسيحيين أن تصبح لهم السيادة في العالم زمنَ انحطاط المسلمين بعد مرور أكثر من ألف عام على ظهور الإسلام. وهو أمر ستواجهنا به السّوَر القرآنيّة المقبلة. وسوف نلاحظ بعد الفراغ من الكلام على سورة (الكهف) أنه تعالى سيراعي بعدها في خطابه هذين الفريقين المُنذَرين في هذه السورة. وهذا أمر لم ينتبه له المفسِّرون القدماء ولاحتى المحدثون.

ثم إنّ الذي يتتبّع آيات سورة (الكهف) يلاحظ أنّ الله تعالى قسّم تاريخ النصارى إلى تاريخ ماقبل الإسلام وتاريخ مابعده. فأطلق على المسيحيّين الأوّلين اسم أصحاب الكهف، وهم من اضطهدهم الرومان وألجأوهم إلى حياة الكهوف المحيطة بروما. وقد كان هؤلاء يربّون الكلاب لتنبح على جنود الرومان إذا

ماحَضَروا لمطاردتهم، فتكون أصوات الكلاب إنذارًا لهم للهروب والاختباء. وهذا شيء تاريخيّ يعرفه النصارى أنفسهم. وإلى هؤلاء جاءت الإشارة في قوله تعالى: ﴿فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عَدَدًا ـ ثم بعثناهم لِنعلم أيُّ الحزبَين أحصى لِما لَبِثوا أمَدًا ـ نحن نقصّ عليك نبأهم بالحقّ، إنّهم فِتيةٌ آمنوا بربّهم وزدناهم هدى...﴾. (١١ ـ ١٣).

فلما اعتنق الإمبراطور قسطنطين المسيحيّة انتهى دور المسيحيّة الأولى قبل الإسلام. ومضت آيات سورة (الكهف) تنبىء عن الدّور الثاني الذي ستظهر فيه المسيحيّة في العالم. وقد ابتدأ تعالى هذا الإنباء من الآية (٣٢) وإلى آخر السّورة، مما لايتسع المقام لتفصيله.

فما يَعنينا هنا قولُه هو أنّ سورة (الكهف) تناولت دَوْرَي المسيحيّة ماقبل الإسلام ومابعده، وأنذرتْ بساعة زوال السيادة المسيحيّة في العالم. وهو أمر ستتوالى معالمه في السُّوَر المُقبلة إن شاء الله. وقد أضحت سورة (الكهف) بذلك الفصلَ الثالث لمضمون سورة (الحِجْر) من حيث التسلسل الموضوعي.

★ ★ ★

الفصل الحادي عشر

كهيعص من سورة مريم

وينتقل هذا الباحث المتدبر إلى تدبر مااستهل به ربّنا سورة (مريم) فيلاحظ أنها استُهلّت بخمسة أحرف اختزال هي (كهيعص). ويقول في حديث نفسه: لقد أدركنا دِلالة ﴿الم﴾ على (أنا الله أعلم)، وذلك ممّا رواه ابن عباس ونقله إلينا ابن كثير في تفسيره، وعلمنا أن هذه الأحرف هي عناصر فنّ الاختزال القرآني. واطّلعنا على قواعد الاختزال وخطّة القرآن في اختزاله هذه الأحرف، فمكّننا ذلك كله من أن نعلم أنّ ﴿الر﴾ قد اختُزلت من (أنا الله أرى). وأنّ ﴿المر﴾ قد اختُزلت من (أنا الله أعلم وأرى). فكيف السبيل إلى معرفة الكلمات التي اختُزلت منها الأحرف الخمسة (كهيعص)؟

وهاأنذا أبادر لإخراج هذا الباحث المتدبِّر من مأزقه، فأقول له لاضرورة للحيرة في هذا المقام. فلنعدْ بالذاكرة إلى قواعد الاختزال من جهة، ولنبحث من جهة أخرى عن القرينة في الآية التي تلي ﴿كهيعص﴾، ولنستعرضْ أسماء الله الحُسنى لنتحرى الصّفات المناسبة التي يُحتمل أن تكون أحرف (كهيعص) قد اختُزلت منها.

قال تعالى بعد (كهيعص): ﴿ذِكرُ رحمة ربك عبدَه زكريّا ـ إذ نادى ربّه نداءً خفيًّا﴾. فنداء زكريّا ودعاؤه بين يدَي ربّه وطلبُه رحمتَه، هو قرينةُ أنّ هذه الأحرف المقطّعة مُختزَلة من صفات دُعاء ونداء. والنِّداء أو الدُّعاء الخفيّ، كما هو معلوم، ينطوي دومًا على المديح والرّجاء أو عرض الحال. هذا ماكان يفعله الشعراء بين يدي الملوك، يكيلون لهم المديح، ثم يعرضون عليهم حاجتهم. وفي ضوء هذه القرينة نأتي إلى الكاف، فهي من (الكافي)، وهي صفة مديح، كما بيّنه الله تعالى نفسه في كتابه العزيز، بقوله تعالى: ﴿أليس الله بكافٍ عبدَه؟﴾ ونأتي إلى الهاء فهي من (الهادي)، وهي الصفة الإلهيّة الوحيدة المبتدئة بالهاء. ولابدّ بالتالي أن تكون الياء بعدها حرف نداء، لتتوسط مابين أحرف المديح وأحرف الطلب والرجاء.

نتحرى الأسماء الحُسنى المبتدئة بحرف العين، فنجد أنّ منها (العليم)، وهي أجدر أن يكون حرف العين قد اختُزل منها دون الأسماء الحُسنى الأخرى، وهي (العدل والعفو والعظيم والعليّ والعزيز). ونبحث أيضًا عن الأسماء الحُسنى المبتدئة بحرف الصّاد. فنجد أنّ أولها (الصادق)، إذ لايُناسب أن تكون الأحرف مختزلةً من (الصمد أو الصّبور). فإذا نحن ضممنا ماتوصلنا إليه بعضه إلى بعض بالترتيب نفسه، انتهينا إلى أنّ (كهيعص) مختزلةٌ من (أنت الكافي والهادي ياعليم وياصادق). فإذا تتبعنا أبحاث سورة (مريم) لنرى مدى مطابقتها هذا الذي توصّلنا إليه وجدنا قوله تعالى: ﴿قال ربِّ إني وَهَنَ العظم منّي واشتعلَ الرأس شيبًا ولم أكن بدعُائك ربِّ شقيًّا ـ وإنّي خِفتُ المَوالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرًا، فهبْ لي من لَدُنك وليًّا ـ يرثني ويرث من آ ل يعقوب، واجعلْه ربِّ رضيًّا﴾ (٤ ـ ٦). فهذا دُعاء زكريّا، ابتدأه بمديح ربِّه بقوله: ﴿..ولمْ أكن بدعائك ربِّ شقيًّا﴾. أي أنك كنت لي الكافي والهادي، فلم تبخل عليّ بشيءٍ ممّا رجوتك إياه. فقد استجبت لي، فبشرتني ووعدتني وصدقتني وعدك. وكأن زكريّا قال بألفاظٍ أخرى: «أنت الكافي والهادي ياعليم وياصادق.»

ومضت الآيات تشرح لنا، بعد هذه الآية، كيف استجاب، سبحانه وتعالى، لدعاء زكريّا، وكفاه وهداه وبشّره بيحيى وجعله نبيًّا. فكانت هذه الآيات من مستلزمات بحث الآية التي نقلناها.

ثم أورد، جلّ شأنه، لنا مثال دعاء (مريم)، واستجابته تعالى لدعائها، من خلال قوله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب (مريم) إذ انتبذت من أهلها مكانًا شرقيًّا ـ فاتخذت من دونهم حجابًا، فأرسلنا إليها روحنا، فتمثل لها بشرًا سويًّا ـ قالت إنيّ أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيًّا ـ قال إنّما أنا رسول ربِّكِ لأهب لكِ غلامًا زكيًّا ـ قالت أنّى يكونُ لي غلامٌ ولم يمسسني بشرٌ، ولم أكُ بغيًّا. قال كذلك، قال ربُّك هو عليّ هينٌ، ولنجعله آيةً للنّاس ورحمةً منّا، وكان أمرًا مقضيًّا﴾. (١٦ ـ ٢١). ف(مريم) في هذا المثال اعتزلت أهلها، ودعت ربّها، واستجاب لها ربُّها، وبشّرها بعيسى، وَصَدَق معها وعده. فثبت من خلال قصّة (مريم) أنّ الله هوالكافي والهادي والعليم والصادق. وقد اختُزلت من هذه الأسماء الحُسنى أحرف (كهيعص).

وعلى هذا النّحو ضرب لنا، جلّ شأنه، مثال إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿واذكرْ في الكتاب إبراهيم، إنّه كان صدِّيقًا نبيًّا﴾ (٤١) وذكَرَنا ربُّنا هنا باعتزال إبراهيم قومَه وبالدعاء الذي تضرّع به بين يديه تعالى. كما ذكّرَنا باستجابة ربّه

دعاءه وذلك في قوله تعالى: ﴿فلمّا اعتزلهم ومايعبدون من دون الله وهبنا له اسحاق ويعقوب، وكُلاً جعلنا نبيًّا ـ ووهبنا لهم من رحمتنا، وجعلنا لهم لسانَ صدقٍ عليًّا﴾ (٤٩ـ٥٠). فتجلى من خلال هذا المثال أنّه تعالى كافٍ وهادٍ وعليم وصادق، ومن هذه الصفات اختزل أحرف (كهيعص).

ثم قدّم لنا، جلَّ شأنه، مثال موسى بقوله تعالى: ﴿واذكرْ في الكتاب موسى، إنّه كان مُخْلَصًا وكان رسولاً نبيًّا ـ وناديناه من جانب الطّور الأيمن وقرّبناه نَجيًّا ـ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيًّا﴾ (٥١ـ٥٣). فتجلّى من خلال هذا المثال أنّه تعالى هو الكافي والهادي العليم الصادق. كذلك قدّم لنا، جلّ شأنه، مثالَ إدريس بقوله: ﴿واذكر في الكتاب إدريس، إنه كان صِدّيقًا نبيًّا ـ ورفعناه مكانًا عليًّا﴾ (٥٦ـ٥٧). وبعد أن قدّم لنا، جلَّ شأنه، هذه الأمثلة جميعها قال: ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيِّين من ذريّة آدم، وممن حملنا مع نوح، ومن ذرّيّة إبراهيم وإسرائيل، وممّن هدَينا واجتبينا، إذا تُتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سُجّدًا وبُكِيًّا﴾ (٥٨)، موضّحًا أنّ هؤلاء كانوا موحِّدين موقنين أنّ ربهم هو الكافي والهادي والعليم الصادق.

ويطمئن الباحث المتدبِّر، من خلال مابيَّنّاه، إلى أن ﴿كهيعص﴾ قد اختُزلت أصلاً من كافٍ وهادٍ ياعليم وياصادق، خصوصًا أنّ جميع الأمثلة التي أوردتها سورة (مريم) دارت حول محورٍ واحدٍ هو الثناء على الله، واستمطار رحمته وإنزال هذه الرحمة من خلال وعودٍ صادقة.

على هذه الصورة نُدرك أنّ جميع السور، من سورة (البقرة) إلى سورة (مريم)، قد جاء خطابُها عامًّا وإلى الناس كافّة، ومنهم أهلُ الكتاب عامّة أيضًا.

★ ★ ★

الفصل الثاني عشر

|طـه| من سورة |طـه|

فإذا انتقل هذا الباحث المتدبِّر إلى سورة (طـه) لاحظ أنّ وجهة خطابه، جلّ وعلا، قد تحولت إلى مخاطبة محمد رسول الله (ﷺ) نفسه بحرفَي (طـه)، أي أيّها الرّجل العظيم.

وعندما أقول إن المقصود بالحرفَين (طـه) الواردين في مستهلِّ هذه السورة هو (الرجل العظيم)، والمقصود منه صاحب الرسالة نفسه محمد بن عبدالله (ﷺ) لاأقول هذا من عندي، ولاأُدخل حرفَي (طـه) في فنّ الاختزال القرآني، ولا أُتبعهما لقواعده وضوابط(طـه). بل أقول إنّ (طـه) أداة خطاب يُقصد منها تعظيم المخاطَب، تعارفت ذلك بعض القبائل العربيّة في العصر الجاهلي. وهذا ماوضّحه صاحب تفسير فتح البيان، وصاحب تفسير ابن كثير أيضًا.

قال صاحب فتح البيان، الجزء السادس ص ٤٩: «إنها - أي (طـه) بمعنى: (يارجُل) في لغة عُكّل، وفي لُغة عكّ. قال الكلبيّ: لو قلتَ لرجل من عكّ: يا رجُل، لم يجب، حتى تقول: (طـه). وقال قُطرُب: هي كذلك في لُغة طيّ.»

وقال ابن كثير عند تفسيره سورة (طـه): «عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: (طـه) يارجل. وهكذا رُوي عن مجاهد وعكرمة... أنّهم قالوا: (طـه) بمعنى يارجل.»

والحق أن العرب تعارفوا على مثل هذا الخطاب، يوجهونه لعظماء أقوامهم. وقد أخذ القرآن الكريم بهذا النهج في مخاطبة الرّسول الكريم خاتم النبيِّين، إشعارًا من الله، جل شأنه، للأمة العربيّة أنّه إن وجد في تاريخهم رجلٌ عظيمٌ بالمعنى الكامل، رجلٌ جَمَعَ في شخصه جميع المحامد والرّجولة، فهو هذا اليتيم الهاشميّ، محمد بن عبدالله، الذي اصطفاه الله من بينكم ليحمِّله رسالة الإسلام إلى الناس كافّة. ومحمدٌ هذا ليس هو رسولاً وحسب، بل هو (ﷺ) سيِّد جميع مَن بَعَث الله، عزّ وجلّ، من الناس.

ويدهش الباحث المتدبِّر لدلالة (طـه) التي رواها صاحبا تفسيري فتح البيان

وابن كثير. ويندفع باحثا عن القرينة المؤيدة لهذه الدلالة في الآية التي بعدها، من دون شعورٍ منه، ووفقًا لقواعد الاختزال القرآني، وكأن حرفَي (طـه) من أحرف الاختزال.

والحق يُقال إن كلمة (طـه) هي أشبه شيء بأحرف الاختزال. فلا بدَّ أن تكون القبائل العربيّة التي تداولت هذه الكلمة قد اختزلت حرفي (طـه) من كلمتين هما: طاهر وهاد، أي مستقيمٌ وطاهر في سلوكه، وحكيمٌ معلِّم في تصرفاته ووعظه، ومحادثته. وليس يُخطىء هذا الباحث المتدبِّر إذا بحث عن القرينة الدّالة على معنى (طـه) بمعنى يارجل في قوله تعالى: ﴿طـه ـ ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾. ويُطالع صاحبنا معجم أقرب الموارد، ليلاحظ أنّ الشقاوة تُستعمل ضدّ السّعادة. كما يطالع معجم مفردات الراغب الأصفهاني، فيلاحظ أنّ تعريف السّعادة فيه: معاونة الأسباب الإلهيّة الإنسانَ على نَيل الخير. ويدرك أنّ معنى: ﴿ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ تعني أننا، يامحمد، ياأيها الرجل العظيم، قد أنزلنا عليك هذا القرآن لتسعد به، تهيئةً منّا لأسباب الخير العميم من أجلك، فمثلُك لايُضاعُ في جنابنا.

ويتأمل الباحث المتدبِّر هذا المعنى الذي تجلّى لعينَيه، فيدرك من خلاله معالم القرينة الدّالة على صدق المعنى الذي بيّنه صاحبا تفسيري فتح البيان وابن كثير. ويوقن أنّه لابدّ أن تكون بعض القبائل العربيّة التي كانت متحضرة قد تعارف أبناؤها على التخاطب فيما بينهم بخطاب (طـه)، كأداة احترام، على شاكلة مايخاطِب به الواحد الآخر في عصرنا وفي بلدتنا بالذات: ياسيّد وياأستاذ. ومادام الله تعالى قد أنزل كتابه المبين بلسان عربيّ مبين، فهاهو ذا يأخذ بأسلوب المخاطبة الذي تعارف العرب عليه. وقد وضع أداة التعظيم (طـه) في موضعها، وخصّها بمن يستحقّها. وهل عرف العرب، بل العالم بأسره، رجلاً أعظمَ من يتيم قريش، محمد بن عبدالله، الذي اصطفاه ربّ العالمين رسولاً إلى الناس كافّة؟

ويتابع هذا الباحث المتدبِّر الآية التالية وهي قوله تعالى: ﴿إلاّ تذكرةً لمن يخشى﴾، فيبحث عن معنى الخَشيَة في معجم المفردات، فيلاحظ أنّ الخَشيَة خوفٌ يشوبُه تعظيم، وأكثر مايكون ذلك عن علمٍ بما يُخشى منه ـ وفي (محيط المحيط)، خَشِيَه: خافَهُ واتّقاه. أما التَّذكِرة فهي ماتُستذكَر به الحاجة. ويدرِك صاحبنا من خلال هذه المعاني أن حصيلة معنى قوله تعالى: ﴿تذكرةً لمن يخشى﴾ هي أننا أنزلنا عليك هذا القرآن، ليُعرّفك بالذي تحنّثتَ من أجله طويلاً، سنين عديدة في غار حِراء. فقد كنت تخافني وتتّقيني، وهاأنذا أنهج لك سبيل الوصول إليّ. وهذا

المعنى، صرّحت به سورة (الضُحى) أيضا في قوله تعالى: ﴿ألَم يجدك يتيمًا فآوى - ووجدك ضالاً فهدى - ووجدك عائلاً فأغنى﴾ أي أنّني وجدتُك فريد دهرِك ويتيمَه، فلو لم آوِك لكنت في مُصاب كبير. ووجدتك مندفعًا بكليّتك بحثًا عنّي فهديتُك سبيلي. ووجدتك مُفتقرًا إلى سواي فأغنيتك عمّا سواك. والحقيقة أنّ الله، عزّ وجلّ، فَطَر محمدًا رسوله، منذ نعومة أظفاره، شَغِفًا بطلب الحقيقة. لذلك لاحظناه يروي ظمأه إليها بالقرآن المجيد، فيعبُّ (ﷺ) من مَعينه الصّافي الرقراق، عِلمًا بأنّ القرآن يفسِّر بعضُه بعضًا.

ويتابع هذا الباحث المتدبِّر الآية التي بعد ذلك، وهي قوله تعالى: ﴿تنزيلاً ممّن خلق الأرض والسماوات العُلى﴾، مُنطلقًا من أنّ لفظ (تنزيلاً) مصدر منصوب لفعل نزّل. والمراد: نزّلناه تنزيلاً. ويتساءل في نفسه: ومامناسبة أن يقول تعالى هنا: ﴿ممّن خلق الأرض والسّماوات العُلى﴾؟ فالمناسبة هي مناسبة تذكير رسول الله (ﷺ) أنّ طريق تعرّف الله الخالق، وسبيل الرّقي الروحي طويلٌ، وطويلٌ جدًّا، ويبلغ في طوله بُعد الأرض عن هذه السماوات العُلى التي لاتُدرك بالعين المجرّدة. ويتذكّر هنا قوله تعالى في نبيّه الكريم: ﴿ثمّ دنا فتدلّى، فكان قاب قوسين أو أدنى﴾، أي أنّ الله، عزّ وجلّ، تواضع لرسوله محبّةً وتدلّى، حتى أضحى منه قاب قوسين أو أدنى. ويتذكر كيف أنّ الله تعالى علّم محمدًا رسوله الوسيلة الأساسيّة التي ساعدته على هذا العروج الروحي من خلال قوله تعالى: ﴿ومن الليل فتهجّدْ به نافلةً لك، عسى أن يبعثك ربُّك مقامًا محمودًا﴾. وهذا أيضًا من باب أنّ القرآن الكريم يفسِّر بعضُه بعضًا.

ويُتابع هذا الباحث المتدبِّر الآية الكريمة التي هي بعد ذلك، قوله تعالى: ﴿الرحمنُ على العرش استوى﴾، أي تنزيلاً من الرحمن. والرحمن هو المحسن الأعظم الذي هو مصدر العطاء والحياة في هذا الكون. وذلك تذكيرًا لرسوله الكريم، أنّك ﴿ماكنتَ تدري ماالكتابُ ولا الإيمان﴾ (الشورى ٥٢)، وأن تحنُّثك ومحبّتك الخفيّة كانت توطئة لاستمطار رحمته، على شاكلة ماتفعله عاطفة الرّضيع في استدرار حليب أمّه. وهذا الرحمن ﴿على العرش استوى﴾ أي تجلّى عليك بجميع أسمائه الحسنى التي تجلّى بها في عالمك، علمًا أن عرش الله فيه الدلالة على أسماء الله الحُسنى. أي أنّ تجلّي هذا القرآن يمثّل تجليّات هذه الأسماء الحسنى. والله، جلّ شأنه، من خلال قوله تعالى: ﴿على العرش استوى﴾ ذكّر رسوله الكريم بأسلوب لطيف إلى خطر مُقاومة أوامر الله، عزّ وجل، لأنه ربّ العالمين باستوائه على العرش. هذا وكأنه، عز وجلّ، يغمز بالذين يكذّبون رسوله محمدًا، ويقول لهم

أيضًا: حذار، حذار أن تقفوا عقبةً في طريق هذا الدّين وهذا القرآن العظيم، فقد أنزله الرحمن الذي ﴿على العرش استوى﴾.

وتتجلّى لعيني هذا الباحث المتدبّر جميع هذه المعاني التي ذكرناها. ويلاحظ أنّها جميعها تدور حول شخصيّة ﴿طـه﴾ الذي يوجّه إليه هذا الخطابُ من ربِّ العالمين، وأنّ عظمة شخصيته استحقّت أن يصطفيه ربّه لتلقّي هذا القرآن العظيم. وهذا الأمر يؤكد لصاحبنا دلالة كلمة (طـه)، كما رواها لنا تفسيرا فتح البيان وابن كثير. فلا يجد بعدئذ من حاجة للاسترسال في استنطاق الآيات التالية، فاللبيب تكفيه الإشارة.

وتمضي الآيات تخاطب محمدًا وتعظه في آخر هذه السورة بقوله تعالى: ﴿فاصبرْ على مايقولون وسبّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، ومن آناء الليل فسبِّحْ وأطرافَ النهار لَعلَّك تَرضى - ولاتمُدَّنَّ عينَيك إلى مامَتَّعنا به أزواجًا منهم زهرةَ الحياة الدنيا لِنَفْتِنَهم فيه، ورزقُ ربِّك خيرٌ وأبقى - وأمُرْ أهلَك بالصّلاة واصطَبِرْ عليها، لانسألك رزقًا، نحن نرزقك، والعاقبة للتقوى﴾ (١٣٠ - ١٣٢) وتُختتم سورة (طـه) بقوله تعالى: ﴿قُل كُلٌّ مُتربصٌ فتربصّوا، فستعلمون مَنْ أصحاب الصراط السّويّ ومن اهتدى﴾. فيودِّع صاحبنا سورة (طـه) لينتقل إلى السورة التي تليها بترتيب التلاوة علمًا بأنّ سورة (طـه) مكيّة النّزول.

★ ★ ★

الفصل الثالث عشر

سور الأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان

فإذا انتقل صاحبنا إلى سورة (الأنبياء)، لم يجدها مستهلَّة بأحرف اختزال. وهكذا سُوَر (الحجّ والمؤمنون والنّور والفرقان). فإذا بلغ سورة (الشّعراء) لاحظ أنّها استُهِلّت بالأحرف المقطّعة (طسم). فيقف عندها، ويعود أدراجه إلى السُّوَر الخمس السابقة لها، والتي هي غير مُستهَلّة بأحرف اختزال مفكّرًا ومحاولاً استجلاء سرّ مالاحظه وعلم به.

ويستعيد صاحبنا في ذاكرته قواعد الاختزال وخطّته التي طالعها في الفصول السابقة، فيقول: لابدّ أن سوَر (الأنبياء والحج والمؤمنون والنّور والفرقان) تؤلّف بمجموعها فصولاً تابعةً لمضمون سورة (طـه) التي ذكرناها، وتكمِّل مضمونها أيضًا. ويتوق لمعرفة معالم هذا التعلّق الموضوعي، وهذا الارتباط مابين سورة (طـه) وهذه السّور الخمس.

وأساعد أنا بدوري هذا الباحث المتدبِّر في الكشف عن هذه العلاقة الموضوعيّة فأقول: لابدّ لنا أولاً من أن نتفهّم موضوع سورة (طـه) نفسها بشكل عامّ من دون الدخول في التفاصيل. وإذا تمكّنا من استجلاء موضوعها فلا بدّ لنا من أنْ نُمسك بطرف العُلْقة التي تربط سورة (طـه) بسورة (الأنبياء)، بادىء ذي بدء، ذلك أنّ لله، عزّ وجلّ، أسلوبَه المتميّز الخاص في طرح الموضوعات، ويستحيل أن يُجارى في ذلك أو يُناظَر.

وقد سبق أن فهمنا من قوله تعالى: ﴿طـه ـ ماأنزلنا عليك القرآن لِتَشقى إلاّ تذكرةً لِمَن يخشى﴾ مُبادرةَ الله تعالى إلى مخاطبة رسوله الكريم بما معناه: أيها الرجل العظيم إنّا أنزلنا عليك هذا القرآن من أجل سعادتك، وضمان قُربك منّا، فأنت ممّن يخشانا. وقد نبهّه تعالى من خلال قوله: ﴿تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العُلى﴾ إلى أنّ تحصيل سعادة الإنسان والعروج الرّوحاني ليس بالأمر الميسور، بل هو طريقٌ مجهدٌ بعيد بُعد هذه الأرض عن السّماوات العُلى. ثم أفهمه تعالى من خلال قوله: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ أنّه تعالى، من مُنطلق كونه الرحمن

الجليل العليّ العظيم، تجلّى له بجميع أسمائه الحسنى من خلال تعاليم هذا القرآن، والوَيْل لمن يكذّب هذا التجلّي ويُعاديه.

وهكذا فقد أنذر، تعالى، من طرفٍ خفيٍّ الفريقين اللذين كلّف تعالى رسوله إنذارهما في مستهَلّ سورة (الكهف)، هذين الفريقين اللذين ورد إنذارهما في قوله تعالى: ﴿قيّمًا لِيُنذر بأسًا شديدًا مِنْ لَدُنه، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصّالحات أنّ لهم أجرًا حسنًا ـ ماكثين فيه أبدًا﴾ (٢ ـ ٣). والإنذار هنا متعلّق بمن عاصر محمّدًا من مكذّبيه. أما الإنذار الثاني: ﴿وينذر الذين قالوا اتّخذ الله ولدًا﴾ (الكهف ٤) فموجّه إلى المسيحيين خاصّة. وسبق أن قلت إنّ سورة (الكهف) تكلّمت عن تاريخ المسيحيّة ماقبل الإسلام، وعمّا ستصير إليه من بعد ظهور الإسلام وانتصاره.

والذي سنلاحظه هو أنّ الله تعالى سيتوجّه إلى كلا الفريقين المذكورين في جميع سوَر مابعد سورة (الكهف)، مُنذرًا ومبشرًا، وهو أمرٌ سيأتي بيانُه في موضعه من البحث.

المهم في الأمر أنّ سورة (طـه)، من خلال الآيات الاستهلاليّة التي رأيناها، جاءت تتحدّث عن موضوعٍ أساسيّ، وهو مقام محمد بن عبدالله عند ربّه، عزّ وجلّ. تتحدث عن كمال شخصيّته، وكمال تعاليم القرآن المُنزل عليه. مع التنبيه إلى المماثلة الكائنة بينه وبين موسى، من حيث كونهما نبيّين مُشرِّعَين، لافتًا أنظارنا **إلى الفروق الكائنة مابين شخصيّتيهما وشريعتيهما.**

فما إن انتهى، جلّ شأنه، من ذلك عند الآية ٩٨ حتى قال: ﴿كذلك نقصّ عليك من أنباء ماقد سبق، وقد آتيناك من لَدُنّا ذِكرًا ـ من أعرض عنه فإنّه يحمل يوم القيامة وِزرًا ـ خالدين فيه، وساء لهم يوم القيامة حِملاً﴾. وبعد أن ندّد تعالى بهؤلاء المكذّبين الذين سيضعون أنفسهم حَجَرَ عَثرة في طريق هذا الذّكر، عاد، جلّ شأنه، يخاطب رسوله الكريم (طـه ١١٤) بقوله تعالى: ﴿فتعالى اللهُ المَلِك الحقُّ، ولاتعجلْ بالقرآن مِن قَبلِ أن يُقضى إليك وَحيُهُ، وقل رَبِّ زِدْني علمًا﴾، وأكّد بعدها على رسوله الكريم ضرورة التزامه بهذه الوصيّة، ويقظته مع ربّه. وضرب له مَثَل آدمَ وكيف نَسي، وماجرّ عليه نُسيانه وغفلته. وأوصاه عدّة وصايا. ونصَحه أن يُنذر المكذّبين بقوله تعالى: ﴿قُلْ كلٌّ متربِّصٌ فتربّصوا، فستعلمون مَن أصحاب الصراط السّوي ومن اهتدى﴾ (طـه ١٣٥).

وإلى هنا ندرك أنّ سورة (طـه) ركّزت، كما قلت، على عَظَمة شخصيّة محمد رسول الله، وعلى عَظَمة التعليم الذي تلقّاه محمدٌ (ﷺ) من ربّه.

١ ـ سورة (الأنبياء)

ويواجهنا في هذه الحال سؤال وهو: ماالمَهمّة الحقيقيّة لبعثة هذا الرسول العظيم؟ أقول إجابة عن هذا السؤال: إنّ الله، عزّ وجلّ، خصّص مضمون سورة (الأنبياء) لتبيان هذه المهمّة. وقد أتى بالآيات المائة والسّبع الأولى من سورة (الأنبياء) جميعها توطئةً وتمهيدًا، وبأسلوبٍ في مُنتهى الرّوعة ومنقطع النظير، لينتهي من تمهيده هذا معلنًا: ﴿ولقد كتبنا في الزّبور من بعد الذّكر أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون ـ إنّ في هذا لبلاغًا لقومٍ عابدين ـ وماأرسلناك إلّا رحمةً للعالمين ـ قلْ إنّما يُوحى إليّ أنّما إلهكُم إلهٌ واحد، فهل أنتم مسلمون ـ فإن تولّوا فقلْ آذَنتُكُم على سَواء، وإن أدري أقريبٌ أم بعيدٌ ما توعدون ـ إنّه يعلم الجهر من القول ويعلم ماتكتمون ـ وإن أدري لعلّه فتنةٌ لكم ومتاعٌ إلى حين ـ قل ربِّ احكُمْ بالحقّ، وربُّنا الرحمنُ المُستعانُ على ما تصفون﴾ (١٠٥ ـ ١١٢).

وهكذا وضّح، جلّ جلاله، المَهمَّة الأساسيّة لرسوله الكريم المصطفى (ﷺ)، من خلال قوله تعالى: ﴿وماأرسلناك إلّا رحمةً للعالمين﴾ (١٠٧) موّضحًا أنّها رسالة جاءت تصديقًا للنبوءات السماويّة في الزّبور بأنّ الأرض ـ ويقصد بالأرض أرض كنعان المعهودة ذهنيًا ـ لن تبقى في أيدي قوم موسى المغضوب عليهم، بل يرثها عبادي الصالحون إشارة إلى أتباع هذا الرسول الكريم.

وقد يعقّب الباحث المتدبّر على ماذكرته من أنّ الآيات المائة الأوائل إنّما أتت لتمهّد لهذا الإعلان الأخير، فيقول: وماسبب الإسهاب في هذا التمهيد؟

أقول: لاتَستغربْ أن تُستهلَّ سورة (الأنبياء) بقوله تعالى: ﴿اقتَرَبَ للناس حسابُهم، وهم في غفلةٍ مُعرضون ـ مايأتيهم من ذِكرٍ من ربّهم مُحدَثٍ إلّا استمعوه وهم يلعبون﴾، وماتبع هذه الآيات حتى الآية السادسة عشرة. فهذا المدخل يربط سورة (الأنبياء) بسورة (طـه) التي اختتمها ربّنا بقوله تعالى: ﴿قل كلٌّ متربِّصٌ، فتربّصوا، فستعلمون مَن أصحابُ الصراط السّوي ومَن اهتدى﴾. أي لاتظنوا أنّ تربّصكم هذا سيطول أمره، بل: ﴿اقتربَ للناس حسابُهم وهم في غفلةٍ مُعرضون﴾. علمًا بأنّ سورة (الأنبياء) أنزلها ربّنا في السنة التاسعة في مكّة المكرمّة، أي قبل الهجرة بأربع سنوات. ومن هنا تدور عظمة هذا الاستهلال.

وقد أضاف تعالى إلى مدخل هذه السّورة، أي في الآية السّادسة عشرة، أمرًا آخر، وهو تنبيه أذهان المكذّبين إلى وجوده، جلّ شأنه، من جهة، وإلى أنّه، من جهة أخرى، خلق هذا الكون بما فيه هادفًا وليس عابثًا، وذلك تهيئةً لعقول

هؤلاء لتقبُّل مَهَمّة رسوله الكريم. وهذا الأمر وضَّحه قوله تعالى: ﴿وماخلقنا السّماء والأرضَ ومابينهما لاعبين﴾ (١٦)، وماتلا ذلك من آيات، وحتى الآية الثالثة والعشرين. ثمّ وضحّ تعالى المقصد من خلق كل شيء، ومن خَلقِ الإنسان بقوله تعالى: ﴿ومأأرسلنا مِن قبلك من رسولٍ إلاّ نوحي إليه أنّه لا إله إلاّ أنا فاعبدونِ﴾ (٢٥). قال تعالى هذا، تفنيدًا للشرك الذي ابتُلي به هؤلاء والذي قال تعالى فيه: ﴿أم اتّخذوا مِن دونه آلهةً، قل هاتوا برهانكم، هذا ذِكرُ مَن مَعي وذِكرُ مَن قبلي، بل أكثرهم لايعلمون الحقَّ، فهم مُعرضون﴾ (٢٤).

ولمّا كان خطاب الله تعالى موجّهًا بالإنذار إلى عرب الجاهليّة، وإلى المسيحيّين المقدَّر لهم أن يسودوا العالم بعد انحطاط العالم الإسلامي ـ هذا الأمر الذي تحدّثت عنه سورة (الكهف) من قبل ـ فقد تحدّث الله، جلّ شأنه، عن هؤلاء ممهِّدًا لذلك من خلال قوله تعالى: ﴿وقالوا اتّخذ الرّحمن ولدًا، سبحانه، بل عبادٌ مُكرمون﴾ (٢٦). وانتهى تعالى من تمهيده هذا عند الآية ٤٧ . وذكّر هؤلاء بموسى ورسالته، وتجاوزهم أنفسهم حدود تقوى الله التي أمر بها موسى نفسه. فقال: ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذِكرًا للمتّقين ـ الذين يخشَون ربّهم بالغَيب وهم من السّاعة مُشفقون ـ وهذا ذِكرٌ مباركٌ أنزلناه، أفأنتم له مُنكرون﴾ (٥٠).

كما ذكّرهم بعد ذلك بإبراهيم، عليه السلام، وبحاله مع قومه المشركين، وبما فعله مع أصنامهم، وكيف أنهم: ﴿قالوا حَرِّقوه، وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾ (٦٨). فكان جواب الله، عزّ وجلّ،: ﴿قُلنا يانارُ كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم ـ وأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأخسرين ـ ونجّيناه ولوطًا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾ (٦٩ ـ ٧١)، مذكِّرًا الأذهان هنا إلى علاقة أرض كنعان بهذه الدعوات السّماويّة كلّها التي اختُتِمت ببعثة محمد رسول الله الذي جعله ربُّه رحمةً للعالمين.

وانتهى، جلّ شأنه، من تمهيده هذا عند قوله تعالى مُنبئًا عن دور المسيحيّة المُقبل: ﴿حتى إذا فتحت يأجوجُ ومأجوجُ وهم مِن كلّ حَدَبٍ ينسِلون ـ واقترب الوعد الحقُّ فإذا هي شاخصةٌ أبصارُ الذين كفروا، ياويلَنا قد كُنّا في غفلةٍ مِن هذا بل كنّا ظالمين﴾ (٩٦ ـ ٩٧). وأنبأنا، جلّ شأنه، عن هؤلاء المكذبين من المسيحيّين ونهايتهم الحتميّة المقدَّرة بقوله تعالى: ﴿إنكم وماتعبدون مِن دون الله حَصَبُ جهنّمَ أنتم لها واردون﴾ (٩٨)، ومُنذِّرًا بهذه العاقبة الوخيمة بقوله تعالى: ﴿لو كان هؤلاء آلهةً ماوردوها، وكلٌّ فيها خالدون﴾ (٩٩).

فلما انتهى تعالى من هذا كُلِّه بادر إلى توضيح موضوع سورة (الأنبياء) الرئيس المُخصّص للإجابة عن السؤال الذي قلنا إنه سؤال طرح نفسه لمعرفة المَهمّة الأساسيّة لبعثة محمد سيد المرسلين (ﷺ)، فقال تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزَّبور من بعد الذِّكر أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون ـ إنَّ في هذا لَبلاغًا لقوم عابدين ـ وماأرسلناك إلاّ رحمةً للعالمين﴾ (١٠٥ ـ ١٠٧)، وماتبعها من آيات إلى آخر السورة، وقد بيّنّا ذلك في حينه.

وهكذا تتجلّى لهذا الباحث المتدبِّر العلاقة الموضوعيّة لسورة (الأنبياء) بسورة (طـه). لذلك ينتقل صاحبنا منها إلى سورة ((الحجّ))، باحثًا عن علاقتها الموضوعيّة بسورة (طـه) أيضًا.

٢ ـ سورة (الحـجّ)

ويبحث الآن صاحبنا عن العلاقة الموضوعيّة التي تربط سورة (الحـجّ) بسورة (طـه)، كما ارتبطت سورة (الأنبياء) بها. وسأبادر أنا هنا إلى توطئة الكشف عن هذه العلاقة، فأقول: سبق أن رأينا كيف أعطتنا سورة (طـه) فكرةً واضحةً عمّا تتصف به شخصيّة الرسول الكريم محمد المصطفى (ﷺ) من المنزلة السّامية الرفيعة لدى ربّنا، عزّ وجلّ، كما لاحظنا أنّ سورة (الأنبياء) قد حدّدت المَهمّة الأساسيّة لبعثته (ﷺ).

ولابدّ للمرء أن يتساءل بعد ذلك بعفو خاطره عن الأدلّة القاطعة على صدق محمد رسول الله (ﷺ)، وعن التحوّل الجذريّ الذي سيَحدث في العالم على يديه. والملاحَظ أن الله تعالى قد خصّص سورة (الحجّ) للإجابة عن السؤال المذكور.

وقد جاءت الإجابة في سورة (الحجّ) على نَمَطِ ماجاء في سورة (الأنبياء). أي لم تكن الإجابة مباشرةً، بل سبقها تمهيدٌ تضمّن نقاطًا ثلاثًا رئيسة هي:

الأولى: أمّا النقطة الأولى، فقد احتوتها الآيتان الأولى والثانية، وهما قوله تعالى: ﴿ياأيها النّاسُ اتّقُوا ربكُم، إنّ زلزلة السّاعة شيء عظيم ـ يوم ترَونها تَذهَل كُلُّ مُرضعةٍ عمّا أرضعت وتَضَع كُلُّ ذاتِ حَملٍ حَملها وترى الناس سُكارى وماهم بسُكارى ولكنَّ عذابَ الله شديد﴾. وقد ورد الخطاب في هذه الآيات عامًّا لقوله تعالى: ﴿يأيها الناس﴾. والمقصد من هذه الشموليّة في الخطاب أن يشمل الفريقين المُنذَرين أوّلَ سورة (الكهف). وقد تكلّمنا على ذلك من قبل. وقد نبّه، جلّ شأنه، أذهان هذين الفريقين من المُنذَرين إلى ماختم به سورة (الأنبياء) من دعاء هو: ﴿قال

ربِّ احكُم بالحقّ، وربُّنا الرحمنُ المُستعانُ على ماتصفون﴾. نبّه إلى ذلك من خلال قوله تعالى: ﴿إنّ زلزلة السّاعة شيءٌ عظيم﴾. فربط بذلك بين سورتي (الأنبياء) و((الحجّ)). ربطًا موضوعيًا. إذ إنّ معنى استجابة الله تعالى لدُعاء رسوله الأمين هو أن يأتي بساعة زوال هؤلاء، وإنزال عذاب الخزي بهم في الدنيا والآخرة، وقد قصد، جلّ شأنه، بزلزلة السّاعة عذاب الدنيا، بدليل: ﴿يوم تَذهَل كُلُّ مرضعةٍ عمّا أرضعت، وتضع كلُّ ذاتِ حَملٍ حَملها﴾. وحَملُ الإمرأة وإجهاضها من الأمور الدنيويّة لا الأخرويّة. وقد أورد ابن كثير في تفسيره: «قال هذا في الدنيا، قبل يوم القيامة.»

الثانيةـ والنقطة الثانية التمهيديّة، احتوتها الآيتان الثالثة والرابعة، وهما قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يُجادل في الله بغير علم ويتّبعُ كُلَّ شيطانٍ مَريد ـ كُتِبَ عليه أنّه مَن تولاّه فإنّه يُضِلّه ويهديه إلى عذاب السّعير﴾. وقد ورد الكلام فيها عامًّا أيضًا؛ لقوله ﴿ومن الناس﴾ وليشمل الكلام الفئتين المُنذَرتين أيضًا. وقد نبّه ربُّنا، جلّ شأنه، أذهانهم إلى ضرورة الالتزام بالعلم عند المجادلة، وليس بالبعد عنه، هذا إذا كانوا يبحثون حقًّا عن الحقيقة.

الثالثةـ والنقطة الثالثة التمهيديّة ابتدأها، جلّ شأنه، بقوله تعالى: ﴿ياأيها النّاس إن كنتم في رَيبٍ من البعث فإنّا خلقناكم من تُرابٍ ثم من نُطفةٍ ثمّ من عَلَقة ثمّ من مُضغةٍ مُخلَّقة وغير مُخلَّقةٍ لِنُبَيِّنَ لكم، ونُقرُّ في الأرحام مانشاء إلى أجلٍ مُسمًّى ثم نخرجُكم طفلاً ثمّ لِتَبلغوا أشُدَّكم، ومنكم من يُتوفّى ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذَل العُمُر لكيلا يعلم مِن بَعدِ عِلمٍ شيئًا، وترى الأرض هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت ورَبَتْ وأنبتت من كلّ زوجٍ بهيج﴾ (٥).

واختتمها بقوله تعالى: ﴿إنّ الله يُدخل الذين آمنوا وعمِلوا الصالحات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، إنّ الله يفعل مايريد﴾ (١٤). ويُلاحَظ أن الكلام ورد فيها عامًّا أيضًا لقوله تعالى: ﴿ياأيها الناس﴾ ليشمل الفريقين المُنذَرين في سورة (الكهف) أيضًا، منبّهًا إياهم، ولافتًا أذهانهم إلى قوانين النشوء والارتقاء التي أسس ربّنا عليها هذا الكون الفسيح الأرجاء، وإلى أنّه لابدّ لكل شيء أن يمرّ بمراحل عديدة في أثناء نشوئه ونموّه، وأنّ رسالة الإسلام التي أتى بها محمد رسول الله لاتُستثنى من هذه القوانين. وقد نبّه تعالى أيضًا إلى علاقة هذه الرسالة الروحيّة بالعلاقة

المادّيّة القائمة مابين مطر السّماء ونبات الأرض. فإذا وافى الغَيْث أرضًا اهتزّت وربَت وأنبتت من كلّ زَوجٍ بهيج.

على هذه الصّورة يكون بعث النّفوس الموق الروحانيّ، وتتجلّى بذلك قدرة السّماء، فتهبها الحياة من جديد. لذلك كان على هذين الفريقين والنّاس عامّة ألاّ يكونوا في شكٍّ من انبعاث الحياة الإيمانيّة، وحدوث هذا التغيير الجذري، وانقراض مُلك المكذّبين الذين يجادلون في الدّين بغير علمٍ ولاهُدى ولاكتابٍ منير. فلابدّ لهؤلاء أن يلقَوا العذاب يوم القيامة بما قدّمت أيديهم، وليس الله بظلاّم للعبيد. أمّا الذين سيؤمنون بالرسول ويتقبّلون رسالته فسيُدخلهم الله جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، والله يفعل مايريد.

فلما انتهى، جلّ شأنه، من تمهيده ونُقاطه الثلاث أتت الآيات بالأدلة القاطعة النيِّرة على صدق رسالة محمد رسول الله (ﷺ). وهذا بدءًا من الآية الخامسة عشرة، وحتى الآية الخامسة والعشرين. فقد ضمّن، جلّ شأنه، هذه الآيات العشر أدلّةً تثبت ذلك، ويُدركها كل من يتدبر هذه الآيات تدبُّرًا حقيقيًّا. وأكتفي ببيان دليلين منها في هذا المقام.

١- جاء الدليل الأول في قول الله، عزّ وجلّ، : ﴿من كان يظُن أن لن ينصُره الله في الدنيا والآخرة فليمدُدْ بسببٍ إلى السماء ثم لِيقطعْ فَلينظرْ هل يُذهِبَنّ كيدُه مايَغيظ﴾ (١٥)، أي أنّ الله تعالى سيؤيِّد محمدًا رسوله وينصره في الدنيا والآخرة لامحالة. وهذا أمرٌ ستكشف عنه الأيام لتؤلِّف نُصرة الله تعالى إياه أعظم دليل عملي على صدقه وصدق رسالته وكونه مرسَلاً من ربِّ العالَمين. فإن ظنّ ظانٌّ عكس ذلك، فاعلموا أنّه كُلّما اشتدت مناوأتكم إياه اشتدّ عذابُنا المهين الذي نُنزله بكم. وقد عبّر تعالى عن هذا الإنذار بأسلوبٍ هو غاية في البيان والبراعة، وذلك بقوله تعالى: ﴿فليمدُدْ بسببٍ إلى السّماء ثم ليقطعْ، فلينظر هل يُذهِبَنّ كيدُه مايغيظ﴾. والمعنى أن الله تعالى لابدّ أن ينصر رسوله محمدًا في الدنيا واللآخرة. فمن ظنّ خلاف ذلك فليفعل ما بدا له لإزالة غيظه منه، وليمدُدْ إذا شاء حبلاً، أي سُلّمًا إلى السّماء فيرتقي به، وليقطعْ صلته بالأرض ولينظرْ، هل يذهَبَنَّ ذلك بغيظه؟ والمغزى أنّ الله تعالى فاعل مايريد شاء هؤلاء المكذّبون أم أبَوا. هذا هو الدليل الأول العملي.

٢- والدليل الثاني الذي قدّمه ربنا، جل شأنه، في هذه الآيات العشر، عبّر عنه قوله تعالى: ﴿وكذلك أنزلناه آياتٍ بيِّناتٍ وأنّ الله يهدي من يريد﴾.

والمعنى: مالكم، أيّها الناس، لاتتدبَّرون آيات هذا الكتاب الذي أنزلناه على هذا الرسول الأمين؟ أفلا ترَون أنّ آيات الكتاب الذي تلقّاه من ربّه ملأى بخزائن العلوم والبيِّنات، لايجحد بوجودها إلاّ من يجادل في الله بغير علم، ويتّبع كل شيطانٍ مَريد؟ فهذه الخزائن من العلوم والبيِّنات التي احتواها هذا الكتاب، قد أحاط بقيمتها العلميّة ودقائق معارفها وبيِّناتها فئة من المؤمنين به، ممّن جادلوا في الله عن علمٍ وهدى وكتابٍ منير. ثمّ إنّ انقسامكم إلى فئتين مؤمنة وكافرة بهذا الرسول وبرسالته، هذا الأمر هو دليل في حدّ ذاته على أنّ الله تعالى يَهدي إلى سبيله من يريد هدايته. ولن يقف الأمر عند هذا الحدّ في الحياة الدنيا بل وفي الآخرة: ﴿إنّ الذّين آمنوا والذين هادُوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا، إنّ الله يفصل بينهم يوم القيامة، إنّ الله على كل شيء شهيد﴾ (١٧).

وأقول لهذا الباحث المتدبِّر: لاحظ كيف عَمَدَت الآيات، وقد فَرَغَت من تقديم الأدلّة على صدق الرسول الكريم عند الآية الخامسة والعشرين، عَمَدَتْ إلى بحث النّقطة الثانية التي افترضها السؤال العفويّ الذي ذكرناه، فانبرت لبيان التحوُّل الخطير الذي جاء محمد ليحقِّقه في هذا العالم بفضل الرسالة السماويّة التي بُعِثَ بها من ربّ العالَمين؟ ولهذا أعادت إلى الأذهان قصّة إبراهيم عليه السلام، والرسالة التي حملها وبعَثه الله لتحقيقها.

فقد ابتدأت الآيات بقوله تعالى: ﴿وإذْ بوَّأنا لإبراهيم مكان البيت أن لاتُشركْ بي شيئًا وطهِّرْ بيتيَ للطائفين والقائمين والرُّكّع السُّجود﴾ (٢٦). فقد قسم، جلّ شأنه، الموحِّدين الذين يتعلّقون بهذا البيت العتيق الذي أعاد إبراهيم عمارته إلى فئاتٍ ثلاث، مشيرًا من خلال وصفه الفئة الثالثة، بقوله: ﴿والركّع السُّجود﴾، إلى فئة الذين آمنوا برسالة الإسلام والتي تتصف صَلاتهم بالرُّكوع والسُّجود، على حين لاتتجاوز صلاةُ مَنْ قبلَهم القيامَ أو الطوافَ.

وإثر هذه اللفتة الذهنيّة التي هيّأ، جلّ شأنه، بها الأذهان إلى قبول التحوُّل العامّ المتوقَّع تحقيقُه، وهو تغيير وجهة القبلة إلى الكعبة، وجعل مكّة المكّرمة مرجع الناس أجمعين، راح تعالى يأمر رسوله الكريم محمدًا بقوله تعالى: ﴿وأذِّنْ في النّاس بالحجّ يأتوك رجالاً وعلى كُلّ ضامرٍ، يأتين من كلّ فجٍّ عميق ـ ليشهَدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ـ ثُمَّ ليقضوا تَفَثَهُم وليُوفُوا نذورهم ولْيَطَّوَّفوا بالبيت العتيق﴾ (٢٧ ـ ٢٩). وقد أعطى تعالى في هذه الآيات الكريمة للنّاس صورةً

واضحةً عن التحوّل الخطا "الذي نا". القرآن ليُحدثه في العالم. وهو أمرٌ أثبتت صدقَه الأحداث التي تلت نزول هذه الآيات، ولم يعد غائبًا عن الأذهان.

أقول لهذا الباحث المتدبِّر: أفلا تلاحظ أنّه تعالى، وقد انتهى من هذا البيان، أتى مباشرةً باسم الإشارة للبعيد ﴿ذلك﴾، بدل (هذا) للقريب، بل جاء الوقف بعدها أيضًا. أفلا يدلّ هذا دِلالة واضحة على تعظيم هذا التحوُّل الجذري الذي بسط تعالى القول فيه في الآيات السابقة؟

واللهُ تعالى، دعمًا منه لهذه الدِّلالة، أتبع ﴿ذلك﴾ بقوله تعالى: ﴿. . . ومَن يعظِّمْ حُرُماتِ الله فهو خيرٌ له عند ربّه، وأُحِلّت لكم الأنعام، إلاّ مايُتلى عليكم، فاجتنبوا الرجْس من الأوثان، واجتنبوا قول الزّور ـ حُنَفاء لله غيرَ مشركين به، ومَن يُشركْ بالله فكأنّما خرَّ من السماء، فتخطَفُه الطير أو تهوي به الريح في مكانٍ سحيق﴾ (٣١).

ومضت الآيات بعد ذلك تُكمل أوصاف حاملي هذه الرسالة السماويّة، الذين سيحدث على أيديهم هذا التحوُّل الجذريّ، بقيادةٍ من هذا الرسول العظيم. وانتُهيَ من ذلك عند الآية السابعة والثلاثين، بقوله تعالى: ﴿إنّ الله يُدافع عن الذين آمنوا، إنّ الله لايحبُّ كُلّ خوانٍ كفور﴾ (٣٨)، إشارة إلى فئة غير المؤمنين من النّاس، الذين خانوا وصايا جدّهم إبراهيم، وكفروا وكذّبوا من جاء يُحيي هذه التعاليم.

ولمّا كان مقدَّرًا لمُشركي مكّة ألاّ يتّعظوا بجميع هذه الأدلّة والعِظات، وقد اضطَرّوا المسلمين في مكّة للهجرة منها، بل اضطروا محمدًا (ﷺ) نفسَه للهجرة منها إلى المدينة المنوّرة، وكانوا قد خطّطوا لمتابعة أمرِه في المدينة المنوّرة نفسها ومُقاتلته. علمًا بأنّ سورة (الحجّ) قد أُنزلت بعد الهجرة من مكّة إلى المدينة. فما إن انتهى، عزّ وجلّ، من بيان ذلك كُلّه حتى أعلن السّماح لفئة المؤمنين بالدفاع عن أنفسهم بمقاتلة الذين يقاتلونهم، وهو حقٌّ طبيعيّ من الله تعالى، ربّ العالمين، لكلّ من أوذي وظُلِم. فقال تعالى: ﴿أُذِن للذين يقاتَلون بأنّهم ظُلموا، وإنّ الله على نصرهم لقدير﴾ (٣٩). واحتجّ تعالى للإذن بالدفاع عن النّفس بالسلاح بقوله: ﴿الذين أُخرِجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلاّ أن يقولوا ربُّنا الله، ولولا دفعُ الله الناسَ بعضَهم ببعض لَهُدِّمت صوامعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجد يذكَرُ فيها اسمُ الله كثيرًا، ولَيَنصُرنَّ اللهُ من ينصرُه، إنّ الله لَقويٌّ عزيز ـ الذين إن مكّنّاهم في الأرض أقاموا الصّلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونَهَوا عن المنكَر، ولله عاقبة الأمور﴾. (٤٠ ـ ٤٨).

وبعد أن أدلى، جلّ شأنه، بدواعي هذا الإذن بالقتال دفاعًا عن النّفس، أعاد إلى الذاكرة ماحلّ بقوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مَدين وفرعون وموسى. وانتهى، جلّ شأنه، من ذلك ليقول: ﴿.. فأمليتُ للكافرين ثم أخذتهم، فكيف كان نكير﴾ (٤٤). واختتم تعالى موضوع الإذن بالقتال ومستلزماته عند الآية الثامنة والأربعين، بقوله: ﴿وكأيِّ من قريةٍ أمليت لها وهي ظالمةٌ، ثمّ أخذتها وإليّ المصير﴾ (٤٨).

ونلاحظ أنه تعالى، بعد أن فرغت الآيات من بيان هذا كُلّه، عاد إلى الكلام على التحوُّل الجذريّ، وأمر رسوله الكريم أن يُنذر مُكذِّبيه، ويُحذِّرهم من عاقبة تكذيبهم إياه ومقاومتهم رسالتَه. عبّر تعالى عن ذلك بقوله: ﴿قل ياأيها الناس إنّما أنا لكم نذير مبين ـ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرةٌ ورزقٌ كريم ـ والذّين سَعَوا في آياتنا معاجِزين أولئك أصحاب الجحيم﴾ (٤٩ ـ ٥١). وأكملت الآيات مستلزمات هذا التحذير حتى آخِر آيةٍ من سورة (الحجّ). وأجمل تعالى أخيرًا مايقع على كواهل المؤمنين من واجبات تجاه ماسيجري من أحداثٍ خلال هذا التحوّل بقوله تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربّكم وافعلوا الخير لعلكم تُفلحون ـ وجاهدوا في الله حقّ جهاده، هو اجتباكم وماجعل عليكم في الدِّين من حَرَج، مِلّةَ أبيكم إبراهيمَ، هو سمّاكم المسلمين من قَبلُ، وفي هذا ليكون الرّسول شهيدًا عليكم وتكونوا شهداء على الناس، فأقيموا الصّلاة وآتوا الزّكاة واعتصموا بالله هو مولاكم، فنِعمَ المولى ونِعم النّصير﴾ (٧٨). وقد ربط، جلّ شأنه، بقوله هذا بين هذه التعاليم وماذكره عن إبراهيم. وقد سَمّى الذين آمنوا فئة (الرّكّع السُّجود).

ويدهش هذا الباحث المتدبّر لما كُشف له من العلاقة الواشجة التي تربط سورة (الحجّ) بسورة (طـه)، وأن سورة (الحجّ) تؤلِّف فصلاً مستقلاً من مضمون سورة (طـه) فيوقن أنّ هذا هو السّبب في إلحاقها بسورة (طه) الأم، وعدم استهلالها بأحرف اختزال.

٣ ـ سورة (المؤمنون)

وينتقل صاحبنا إلى سورة (المؤمنون) بحثًا عن الرابطة الموضوعيّة التي تصل بينها وبين سورة (طـه)، والتي استدعت أن تؤلِّف أحد فصولها، فلا تُستهَلّ بأحرف اختزال.

ويعود هذا الباحث المتدبر إلى التساؤل عن العلاقة الموضوعيّة لسورة (المؤمنون) بسورة (طـه) الأم. فأجيبه عن ذلك قائلاً: ألم تُلاحظ، ياصاحبي، كيف جُعِلت سورة (الأنبياء) فصلاً مستقلاً لبيان المَهَمَّة الأساسيّة لبعثة الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه. وكيف خُصِّصت سورة (الحجّ) لبيان الأدلّة على صدق محمد ورسالته، ولإلقاء الضّوء على التحوّل الجذريّ الذي سيُحدثه تعالى على يدَيه، وذلك إحياءً لتعاليم أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام. فلابدّ أنّه، جلّ شأنه، قد خصَّ سورة (المؤمنون) بأمرٍ استلزمه التسلسل الموضوعي، وتوضيحًا لأمرٍ لم تتوسَّع سورة (طـه) في شرحه. فإن شئت، ياصاحبي، معرفة هذا الأمر فأمامك عدّة طُرق توصلك إلى مُرادك. وأنا أقول لك: عُدْ بذهنك إلى آخر سورة (الحجّ) تُلاحظْ أنّ الله تعالى ختمها بقوله تعالى: ﴿ياأيّها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربّكم، وافعلوا الخير لعلّكم تُفلحون﴾. وأنه سبحانه قد استهلّ سورة (المؤمنون) بقوله تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾. وكلمة الفلاح تحمل سرّ العلاقة الموضوعيّة بين هاتين السّورتين.

ذلك أنّ الإنسان الذي يتحقق من صدق رسالة محمد (ﷺ)، كما يرى الشمس في رابعة النهار، والذي يرى ملامح التحوّل الجذريّ الذي ستحدثه بعثته، عليه السلام، وقد نطقت به شواهد الحال، وثبت بالبيِّنات الواضحة والحُجج الدّامغة، لابُدّ أن يُشرق في فؤاده نور اليقين، وتتوق نفسه إلى الإيمان بمحمّد وبرسالته يقينًا. فإن بادر هذا إلى الإيمان، فللإيمان شروطه وقيوده التي إن ارتاح إليها وعملٍ بها صوّرته في نظر ربّه من المؤمنين، واستحقّ من ربّه، لقاء ذلك، التأييدَ والنصرة والفلاح. وقد جاءت سورة (المؤمنون)، في حقيقة الأمر، مُخصَّصةً لبيان شروط مُبايعة هذا الرسّول الكريم وتعدادها، وبيان ماتستلزمه من المؤمن من التزامات. وهذا هو سرّ استهلاله تعالى هذه السورة بقوله تعالى: ﴿أفلح المؤمنون﴾، أي أنّ تأييد الله المؤمنَ ونُصرته وفلاحه كل ذلك متوقّف على التزام المؤمن بشرائط إيمانه.

ولنتساءل هنا عن معنى الفلاح بادىء ذي بدء. تقول: فلحَ الرّجل الأرض فلحًا، شقّها. وتولّد عن ذلك المثل السائر من أنّ الحديد يُفلَح أي يُشق ويُقطع. فمادة (الفَلْح) موضوعة في الأصل للشقّ. وسائر المعاني متفرعة عن هذا الأصل. ومعنى أفلح الرّجل: شقّ طريقه وفاز وظفِر بما طلب، ونجح في سعيه وأصاب في عمله. ومنه في سورة (الأعلى): ﴿قد أفلح من تَزَكّى - وذكر اسم ربّه فصلّى﴾ (١٤ - ١٥). والفلاح هو الفوز والظفر والنجاة والبقاء في الخير وإنّ نداء المؤذّن

أنْ: حيٌّ على الفلاح معناه هَلُمَّ إلى طريق النّجاة والفوز.

ويتضح لك، أيها الباحث المتدبِّر، في ضوء معاني (الفلاح) هذه، المقصود من قوله، عزّ وجلّ: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾. فالمعنى هو أنّ الذين يُلبّون نداء الإسلام، ويبايعون محمدًا رسول الله، وينضمّون إلى الفئة المؤمنة من (الرُّكَّع السُّجود) ويدخلون في زُمرة العابدين وفاعلي الخير، من واجبهم الالتزام بالشروط التي نصّت عليها الآيات العشر التالية، ليستحقوا من ربّهم النُّصرة والتأييد، ويشقّوا بذلك طريقهم إلى الفوز والظفر والنجاة من العذاب المقبل، والبقاء في الخير، والنّجاح في السّعي، والإصابة في العمل. فمن التزم من المؤمنين بهذه الشروط، فلن يُحبط الله أعمالهم. هذا ماأراد أن يقوله الله، جلّ شأنه، لمن سلَّم بصِدقِ رسوله الكريم، وصِدق رسالة الإسلام، وأحَبَّ أن يكون من المؤمنين. وعلى هذه الصورة، وبهذه المفاهيم تكون قد ارتبطت سورتا (الحج) و(المؤمنون) إحداهما بالأخرى، ارتباطًا عضويًّا موضوعيًّا، وتكونُ قد جاءت تكمِّل دِلالات سورة (طـه) الأمّ.

والآن فلنُلقِ نظرةً سريعة على مافهمه المفسرون من قوله تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾، كابن كثير مثلاً. فقد رَوَوا أنّ عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، روى عن رسول الله (ﷺ) أنه قال بهذا الصدد: «لقد أُنزل عليّ عشر آيات ـ ويقصد الآيات الأوائل من سورة (المؤمنون) ـ من أقامهُنّ دخل الجنة» وأنّه (ﷺ) قرأ بعدها ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ حتى ختم الآيات العشر.

وهذه الرواية الواردة في تفسير ابن كثير تؤيِّد ماذهبتُ إليه من أنّ سورة (المؤمنون) عدّدت شروط المبايعة لهذا الرسول الكريم. فمن بايع على أساسها فاز بالجنّة ورِضا ربّه وتأييده ونُصرته ونعمائه التي أعدّها ربّنا، عزّ وجلّ، لفئة (الرُّكَّع السُّجود) من المؤمنين، والتي أنبأ بها إبراهيم، عليه السلام، الذي أعاد بناء الكعبة تمهيدًا لبعثة سيّد المرسَلين.

وبهذه المناسبة أقول: إنّ الذي يتدبّر شروط البَيعة العشرة التي اشترطها إمام زماننا، لابدّ أن يتراءى له من خلالها معالم الشروط العشرة التي نصّت عليها سورة (المؤمنون). ولكنّي لست بصدد تفسير القرآن وتفصيل القول في ذلك. وأكتفي بالتّلويح بالخيوط الموضوعيّة التي تربط هذه السورة بسورة (طـه) ربطًا موضوعيًّا، من دون زيادة أو تفصيل.

والذي يتدبّر هذه الآيات العشر الأوائل من سورة (المؤمنون)، وهي قوله تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون ـ الذين هم في صلاتهم خاشعون ـ والذين هم عن

اللّغو مُعرضون ـ والذين هم للزكاة فاعلون ـ والذين هم لفروجهم حافظون ـ إلاّ على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم، فإنّهم غيرُ مَلومين ـ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ـ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ـ والذين هم على صلواتهم يحافظون ـ أولئك هم الوارثون ـ الذين يرثون الفردوس، هم فيها خالدون﴾. أقول من يتدبّر هذه الآيات يُلاحظ أنّها رُتّبت وفق أساسين يبدوان للمتدبِّرين:

الأساس الأول:

هو مراعاة التّدرُّج في السّلوك الروحاني. فقد أوجب الله، عزّ وجلّ، على الإنسان المبايع أن يُحسِّن صَلاته حتى تبلغ مستوى صلاة الخاشعين، ليتمكّن من جَني ثمار هذه الصلاة الخاشعة، فتعينه على تجنُّب الأمور المحرَّمة قولاً وعملاً في سلوكه اليوميّ. وهذا الأمر يُغريه بعد ذلك بالإقدام على التضحيات الماليّة المطلوبة منه. حتّى إذا تأصلت فيه هذه الروح أعانته على الشعور بالسكينة في حياته. وإذا بلغ هذه السكينة تمكّن من جرّاء اجتيازه هذه المراحل كلّها من أداء الأمانات وعدم خيانة العهود.

الأساس الثاني:

هو أنّه تعالى قسّم المؤمنين إلى فريقين هما (عادون) و(وارثون). فالعادون من يخونون أماناتهم وينكثون عهودهم ولو كانوا مسلمين يقيمون الصّلاة ويؤتون الزكّاة. وهذا الفريق لايستحق نُصرة الله وتأييده. ويدخل في زُمرة هؤلاء (المنافقون) من المسلمين. وأما فريق (الوارثون) فهم المسلمون الذين يلتزمون بجميع الشروط المنصوص عليها في الآيات العشر المذكورة، وهم من ينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿أولئك الوارثون ـ الذين يرثون الفردوسَ، هم فيها خالدون﴾. وهؤلاء هم (المؤمنون) المُشار إليهم في قوله تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾، فهؤلاء يشقّون طريقهم إلى الفوز والظّفر، وينجحون في سعيهم وعملهم ويَظَلُّون في الخَير، فلا تستيطع دحرَهم فئةُ المكذِّبين. ذلك أنّ «الدِّين هو المعاملة» على مانبّه إليه محمد رسول الله سيد المرسلين (ﷺ). فمن يُلزم نفسه بشروط الإيمان العشرة هذه، يميّزْه ربُّه، عزّ وجلّ، عمّا سواه من الجاهلين في سلوكه وتعامله اليوميّ، وصلته بربّ العالمين.

ومن واجب هذا الباحث المتدبِّر أن يُلاحظ أنه، جلّ شأنه، ماإن انتهى من بيان شروط البَيعة الإيمانيّة، أو ماسمّاه شروط الفلاح، حتى نبّه أذهاننا إلى موضوع الولادة الجسمانيّة ليقول لنا بألفاظٍ أخرى: لاحظوا وجود المماثلة مابين ولادتكم

الجسمانيّة وولادتكم الرّوحانيّة الإيمانيّة، لينتهي من هذا التنبيه بالآية السادسة عشرة عند قوله تعالى: ﴿ثمّ إنكم يوم القيامة تُبعثون﴾. ووضحّ تعالى لنا بعدها من خلال قوله: ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق، وماكُنّا عن الخَلق غافلين﴾، أنّه تعالى لم يخلقنا عبثًا، ولاأغفل موضوع ترقّينا روحانيًا، بل فتح لنا أبواب رقيّ روحيّ لانهائيّ، إذ المقصود من عبارة ﴿سبع طرائق﴾ الكثرة وليس العدد سبعة.

ثم لاحظناه، جلّ شأنه، يشبّه نزول الوحي السّماويّ بنزول ماء السّماء الماديّ، وبآثار الإحياء الذي يُحدثه الماء والوحي في الأرض الميّتة والنّفوس الموق. وانتهى تعالى من بيان ذلك وتوضيحه عند الآية(٢٢).

كما عرض لأنظارنا بعثة نوح، عليه السّلام، والانقلاب الرّوحيّ الذي أحدثته في النفوس طوال تسعمائة وخمسين عامًا. وكيف أنّ التمسُّك بشروط الفلاح الإيمانيّة هيّأت آنذاك لنوح والذين آمنوا معه النجاة من هول الطّوفان الذي قضى على المكذّبين. وأتبع تعالى مثالَ نوحٍ بمثال موسى وعيسى ابن مريم وأمّه أيضًا، كشواهد تُثبت أنّ العاقبة للمُتّقين. وانتهى ربُّنا، جلّ جلاله، من تقديم هذه الأمثلة عند الآية(٦٥). وأضاف تعالى بعدها قوله: ﴿لاتجأروا اليومَ إنكم منّا لاتُنصرون ـ قد كانت آياتي تُتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكِصون. مُستكبرين به سامرًا تهجرون﴾ (٦٥ ـ ٦٧). ومعنى ﴿لاتجأروا﴾ لاترفعوا، أيها المسلمون، أصواتكم بالدّعاء والتضرُّع إليّ والاستغاثة والاستجارة بي إن أنتم لم تلتزموا بهذه الشروط الإيمانيّة العشرة. فهذه الكلمة من جأر إلى الله: إذا رفع صوته بالدّعاء إليه وتضرّع بين يديه، واستغاث به واستجار (محيط المحيط). هذا وعلى شاكلة قوله تعالى في سورة (النّحل): ﴿ثمّ إذا مسّكُمُ الضرُّ فإليه تجأرون﴾ (٥٣).

ولنلاحظْ أن الله، عزّ وجلّ، لم يُنذر عرب الجاهليّة في سورة (المؤمنون) وحسب، بل أنذر الذين قالوا: "اتخذ الله ولدًا"، وهم الفريق الثاني المنذَر في سورة (الكهف)، وهو أمر بَسَطنا القول فيه من قبل. واستمرّ هذا حتى نهاية هذه السورة، وإلى أن عاد تعالى فوجّه خطابه إلى رسوله الأمين موصيًا إياه أن: ﴿وقلْ ربّ اغفرْ وارحمْ وأنت خير الراحمين﴾ (١١٨).

على هذه الصّورة تتّضح لهذا الباحث المتدبّر علاقة سوَر (المؤمنون) و(الحج) و(الأنبياء) الموضوعيّة بسورة (طـه) الأم. فينشرح صدره لما أحاط به علمًا. وينتقل من هذه السّورة إلى سورة (النّور).

٤ ـ سورة (النّور)

ويتأمل هذا الباحث المتدبِّر سورة (النّور) التي استهلّها ربّنا بقوله تعالى: ﴿سورةٌ أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آياتٍ بيِّنات، لعلكم تَذَكَّرون﴾. ويتدبّر مما جاء فيها، فيحاول ربطها ربطًا موضوعيًا مباشرًا بسورة (المؤمنون)، وربطًا غير مباشر بسورة (طـه) الأمّ.

وأُدلي أنا برأيي فأقول: تعالَ، ياصاحبي، نتفهَّمْ معًا دلالة قوله تعالى: ﴿سورةٌ أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آياتٍ بيّنات، لعلكم تَذَكَّرون﴾. فلو راجعتَ جميع السوّر القرآنيّة لم تعثر على واحدة منها استهلّها ربّنا بكلمة (سورة)، ماعدا السورة التي هي موضوع بحثنا، أي سورة (النّور). وهذا أمرٌ يدعونا للتّساؤل عن حكمة هذا التصرّف الإلهي.

ولو استعرضنا معاني (سورة) في معاجم اللغويّين، لوجدناها تعني: المنزلة والشرف وماطال من البناء إلى جهة السّماء وحسُن، والعلامة، وعِرْق من عروق الحائط، والقطعة المستقلّة من القرآن. ووفقًا للمعنى الأخير، تُعتبر كلُّ سورة جزءًا من القرآن الكريم. من هذا ندرك أنّ الحكمة من قوله تعالى هنا ﴿سورة﴾ التركيز على مكانة هذه السورة. ثم إنّ حكمة قوله تعالى: ﴿أنزلناها﴾ تقوية هذا التركيز، وإلاّ فإنّ جميع سور القرآن مُنزَلةٌ من لَدُن ربِّ العالمين. وقد أكّد الله تعالى هذا بقوله كذلك: ﴿وفرضناها﴾ تشديدًا منه، سبحانه وتعالى، على ضرورة الالتزام بجميع ماأنزله فيها من تعاليم وأحكام. فالحكمة هي التنبيه على هذا التركيز، وإلا فإن جميع تعاليم القرآن وأحكامه تستوجب العمل عليها وتطبيق جميع أحكامها. وقد انتبه المفسِّرون القدماء إلى هذه الحكمة، لذلك فسَّر صاحب فتح البيان ﴿وفرضناها﴾ بألزمناكم العمل بها.

هذا وإننا نفهم من هذا التأكيد المتكرِّر أهميّة تعاليم هذه السورة على الصعيد العالميّ أيضًا. وكأنه، جلّ شأنه، يقول بألفاظٍ أخرى: لانجاة للعالم من مساوئه الاجتماعيّة والأخلاقيّة والروحيّة إلاّ بالتزامه بالتعاليم المُنزَلة في سورة (النّور). ذلك أنّها طريق العزّة والشرف والفلاح. وهيهات أن ينجو من الدّمار والهلاك من يهجر العمل بتعاليمها.

ولنلاحظْ أن الله تعالى لم يهمل بيان حكمة تأكيده المتكرّر بل أوضحه للمؤمنين بقوله ﴿لعلّكم تَذَكّرون﴾ تذكيرًا لهم بضرورة استحضار أحكام هذه السّورة في أذهانهم، والأخذ بها في سلوكهم اليوميّ.

أقول: والآن وقد علمتَ، أيها الباحث المتدبِّر، دلالة قول ربّنا، عزّ وجلّ: ﴿سورةٌ أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بيّنات، لعلكم تَذَكَّرون﴾ فلنعدْ إلى ماافتتم به الله تعالى سورة (المؤمنون). وهو دعاء: ﴿قل ربِّ اغفرْ وارحمْ وأنت خيرُ الراحمين﴾، فلابدّ أنك لاحظت ياصاحبي كيف حثّ تعالى كلّ مؤمن أن يدعو هذا الدعاء ليشمله الله بغفرانه وبرحمته.

وقد تضمنّت الآيات في سورة (النّور) تنبيه أذهان المؤمنين إلى أن استجابة ربّهم لهذا الدّعاء مشروطة بالعمل بما فرضه تعالى عليهم في سورة (النّور)، ممّا لاينبغي أن يغيب عن أذهانهم أو سلوكهم اليوميّ بشكل من الأشكال. وكأنّه تعالى قد قال لهم بألفاظٍ أخرى: لاقيمة لمبايعتكم رسولَنا وإيمانكم بنا إذا غَفَلتم عن تطبيق هذه الأحكام. فهذه هي معالم التسلسل الموضوعيّ مابين سورتي (المؤمنون) و(النور).

فإن تساءل هذا الباحث المتدبِّر عن سرّ تناوله تعالى موضوعَ الزّنا مباشرة بعد الآية التي استهل بها سورة (النّور)، بقوله تعالى: ﴿الزانية والزاني فاجلِدوا كُلّ واحدٍ منهما مائة جلدة.. إلخ الآية﴾. فالجواب أنّ أحكام سورة (النّور) قد ركّزت على نظام الأسرة من وجهاته الاجتماعيّة والأخلاقيّة والروحيّة. وتُعتبر جريمة الزنا الإسفين الصّلد الذي يُدَكّ في أساس هذا النظام الاجتماعيّ. من هنا كان الزنا جريمةً تهزّ شجرة أنساب الناس من جذورها بما تخلطه من دمائها دونما أساس أو قيد. فلخطورة هذه الجريمة شرَعَ ربّنا، عزّ وجلّ، يبحث موضوع نظام الأسرة التي تقوم عليها المُجتمعات، بدءًا بالكلام على هذه الظاهرة الوخيمة بالذّات.

وقد يتساءل هذا الباحث المتدبِّر عن حكمة تخصيص سورة (النّور) لبحث هذا النظام الاجتماعيّ وجعلها فصلاً مستقلاً له. فأجيبه: إذا ساورك مثل هذا السؤال فعدْ بذاكرتك إلى الآيات العشر الأوائل من سورة (المؤمنون)، وتأمل قول الله تعالى هناك: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون - إلاّ على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غيرُ مَلومين - فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾، وفكّرْ بينك وبين نفسك. ألا تُلاحظ أن هذا الشرط الذي ورد مُجملاً يحتاج إلى بسطٍ وتفصيل؟ خصوصًا أن الله تعالى ندّد فيه بمن يخالفون هذا الشرط، ووصفهم بقوله تعالى: ﴿فأولئك هم العادون﴾؟ فهنا سرّ تخصيصه تعالى سورة (النّور) لتفصيل هذا الإجمال الذي أحوج إلى هذا التفصيل - ولذلك لاحظناه، جلّ شأنه، يؤكد المرّة تلو المرّة، في الآية التي استهلّ بها سورة (النّور)، خطورة موضوعها وضرورة الإحاطة به والعمل على أحكامه بأسلوب بلاغيٍّ أيضًا. وعلى هذه الصورة أكون

قد وضّحت لك العلاقة الوثيقة الكائنة بين سورتَي (المؤمنون) و(النّور)، وتسلسلهما الموضوعي الذي يربطهما بسورة (طـه) الأم.

ولنتابعْ آيات سورة (النور) لنلاحظ أنّه، جلّ شأنه، لم يترك صغيرةً ولاكبيرةً متعلّقة بموضوع الزّنا إلاّ أتى على بحثها ومعالجتها، لينتهي من ذلك كلّه عند الآية (٢٦). فلمّا فرغ من ذلك كلّه، تناولت آياته الكريمة علاقات الأسر الاجتماعيّة بعضها ببعض ابتداء من قوله تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتًا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلّموا على أهلها، ذلكُم خيرٌ لكم لعلكم تَذَكّرون﴾ (٢٧). فأعاد تعالى إلى أذهاننا من خلال ﴿لعلكم تذكّرون﴾ ضرورة استحضار تعليمه المذكور فكرًا وعملاً، وهي ضرورة استلزمتها شروط البَيعة الإيمانيّة. ولنلاحظ كيف تبسّط تعالى بعد ئذ في الكلام على علاقات الأسر بعضها ببعض، وانتهى من ذلك عند الآية (٣٤).

وقد كان هناك سؤال يطرح نفسه، بعد أن استوفت الآيات بحث موضوع الأسرة ومايمتّ إليها من أحكام، وهذا السؤال هو: ماالرابطة التي ستربط الأُسر بعضها ببعض لتؤلّف بترابُطها مُجتمعًا متماسكًا يسوده الإيمان؟

أقول مضت الآيات الكريمة توضّح هذه الوسيلة وتفيض إذ استهلّ تعالى الجواب بقوله: ﴿اللهُ نورُ السماوات والأرض، مَثَلُ نوره كمشكاةٍ فيها مصباح، المصباحُ في زجاجة، الزّجاجة كأنّها كوكب دُرِّيٌّ يوقَدُ من شجرة مُباركة زيتونةٍ لاشرقيّةٍ ولاغربيّةٍ، يكاد زيتُها يضيء ولو لم تمسسْه نار، نورٌ على نور، يهدي الله لنوره من يشاء، ويضرب الله الأمثال للنّاس، والله بكل شيءٍ عليم﴾.

تعال معي أيها الباحث المتدبّر نبحث في معاجم اللغويين عن معنى كلمة (مِشكاة). إنّهم يقولون: المشكاة هي كُلُّ كُوَّةٍ في الجدار أو سواه غير نافذة من ورائها. والكوكب الدُّري معناه الثاقب المضيء. والظلمة خلاف النور، والنور هو الضوء الذي يبيِّن الأشياء (أقرب الموارد).

فإذا نحن أخذنا هذه المعاني بعين الاعتبار عَرَفنا أنّ الآية هذه قد أتت تنبِّه إلى حقائق كونيّة ثابتة، كما دَلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿الله نور السماوات والأرض﴾. فقد نبّهَنا، جلّ شأنه، هنا إلى أنّ أعيننا لاترى الأشياء من دون النّور المادّي الذي أبدعه لنا خالقنا، عزّ وجلّ. وإضافة إلى ذلك نبّهَنا تعالى أيضًا إلى أنه يستحيل على العقول إدراك أمور الغيب الخافية على عقولنا، والإحاطة بها، وإظهارها على حقيقتها إلاّ بمساعدة نوره، عزّ وجلّ، أيضًا وهو مايوحي به إلى هذا

الإنسان من حقائق الغيب. من هذا كان الله، عزّ وجلّ، هو ﴿نور السماوات والأرض﴾.

هذه الحقائق التي أتت بها هذه الآية، تأتّت عن تساؤلنا أيضًا: إن كانت الشمس وأشعتها قد جُعلت الواسطة المادّيّة فما الوسيلة التي توصل إلينا حقائق الغيب وما هويّتها؟

وقد أجابت الآية الكريمة عن هذا السؤال أيضًا. قال تعالى: ﴿مَثَلُ نوره كمشكاةٍ فيها مِصباحٌ، المصباحُ في زجاجةٍ، الزُّجاجة كأنها كوكبٌ دُرّيّ﴾. ونلاحظ، من خلال الكاف في (كمشكاة)، أنّه تعالى أخذ يجيبُ بأسلوب التشبيه تقريبًا للأمر من أفهامنا. فكأنه يقول: لاحظوا كيف تُشعلون فتيلاً مغموسًا بزيتٍ في مصباح ضمن زجاجة شفّافة جدًّا تساعد على تضخيم الشُّعلة. ثم تضعون المصباح في مِشكاة، أي في كُوّة غير نافذة في الجدار، فتضاعف الكُوّة أشِعّة المصباح بتجميعها الضوء، وتُرسل به إلى جميع أرجاء الغُرفة، فتزيد ضوء المصباح تلألؤًا. فإذا استوعبتم، أيّها المُصغون، هذا المثال أمكنكم الكشف عن الجواب ومعرفة الوسيلة التي توصل النّور الإلهيّ لإنارة عقولكم بعلوم الغَيب. فالله ربّكم يصطفي عبدًا من عباده، جديرًا بحمل هذا النور إلى بقيّة العباد، فينير عقولهم بوحي ربّه، فيكون هذا المُصطفى كالفتيل للمصباح. وكُلّما ازدادت شفافيّة هذا الرسول، كان أقدر على إيضاح الفكرة والمعلومة الواحدة للنّاس. وأمّا المشكاة، فيُقابلها خلفاء هذا الرسول الذين يستمرّ هذا العطاء والنور الإلهي عن طريقهم إلى الناس عبر الزمان.

فإذا تساءلتم عن ماهيّة هذا النور الإلهيّ وهويته فهو يأتيكم: ﴿من شجرةٍ مُباركةٍ زيتونةٍ، لاشرقيّة ولاغربيّة، يكاد زيتُها يُضيء ولو لم تمسسه نار..﴾، أي كما أنّ زيت المصباح يُستخرج من شجرة الزيتون فإنّ النور المعلوماتيّ الذي يتلقاه الرّسول يأتي من جانب الذات الإلهيّة المُطلقة التي لاتميل إلى الشرق ولا إلى الغرب، على اعتبار أنّ الناس جميعهم في نظرها سواء. لذلك تأتيكم تعاليم هذه الذّات الإلهيّة صالحة للناس كافّة، وفي كلّ زمان ومكان. فلا تشوب هذه التعاليم شوائب من هوىً أو ميلٍ أو حاجةٍ أو ضعف أو نقص. فهي تعاليم الذات العزيزة التي لاتهاب الأقوياء، ولاتهضِم حقوق الضعفاء. ذلك أن ﴿زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار..﴾ فهي ﴿نورٌ على نور﴾ لاتحتاج إلى فتيل وإشعال.

ورُبّ قائل: إنّ مثال المصباح يعني أنّ الإنسان كذلك يستطيع هداية سواه بما يتوافر لديه مما أنزله الله تعالى على رُسُله الكرام. وقد ردّ، جلّ شأنه، على هذا

الاعتراض بقوله تعالى: ﴿يهدي الله لنوره من يشاء، ويضرب الله الأمثال للناس، والله بكلّ شيء عليم﴾، أي أنّ هذا المثال يُضرب مع الفارق. فالله، عزّ وجلّ، هو صاحب الملك والإرادة، وهو بكل شيء عليم. لذلك فلا هادي لعباده سواه، وما النّاس بين يديه إلاّ أدواتٌ يحرّكها كيفما يشاء.

والمهمّ، ياصاحبي، هو أنّ الله تعالى أراد من هذا المثال إفهامنا أنّ النور لايكتمل ضياؤه إلاّ بعد توافر عناصر ثلاثة: الشُّعلة ويقابلها النور الإلهي، والمصباح ويقابله أنبياء الله ورُسُله، والمشكاة ويقابلها خلفاء هؤلاء الأنبياء. لذلك لاحظناه، جلّ شأنه، قد عبّر عن تجلّيه على موسى عليه السلام في سورة (طه) الأم بقوله تعالى على لسان موسى: ﴿إنّي آنست نارًا﴾ أي أنّ تجلّي النّور الإلهيّ لاتُدركه إلاّ أبصار الأنبياء والصالحين من عباد الله تعالى، فلم يؤانس أهله رؤية ذلك.

على هذه الصورة، ومن خلال قوله تعالى: ﴿الله نور السماوت والأرض..﴾ يجيبنا تعالى عن سؤالنا الذي طرحناه سابقًا وهو ماالوسيلة التي ستنضمّ عن طريقها الأُسر المؤمنة بعضها إلى بعض لتُشكّل مُجتَمَعًا واحدًا مُتناسقًا؟ ذلك أن الله تعالى قد وضّح لنا أنّ رسل الله وخلفاءهم هم هذه الوسيلة في جميع الأحوال. ومن واجب أفراد هذه الأسر المؤمنة أن تتمسّك بهَديِ هؤلاء جميعًا لتكون حصيلة ذلك هذا المُجتمع الواحد المُتناسق.

وهاهنا سؤال جديد، وهو كيف يستقطب هؤلاء الخلفاء الروحانيّون هذه الأسرَ المؤمنة؟ وقد أجاب ربّ العالمين عن هذا السؤال بقوله تعالى: ﴿في بيوتٍ أذِن الله أن تُرفَع، ويُذكر فيها اسمه، يسبِّح له فيها بالغدوّ والآصال ـ رجالٌ لاتُلهيهم تجارةٌ ولابيعٌ عن ذكر الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، يخافون يومًا تتقلّبُ فيه القلوب والأبصار ـ ليجزيَهمُ الله أحسن ماعمِلوا، ويزيدَهم من فضله، والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾. وهكذا يكون الله تعالى قد أقام أُسُسَ الجماعة الرّوحيّة، وجعل المساجد بيوت الله تعالى، لتربط بين الأسر، فتتّبع جميعها نظام الخلافة الروحيّ. ولايرتبط بنظام الجماعة المذكور إلاّ الذين لاتُلهيهم تجارةٌ ولابيعٌ عن ذكر الله، عزّ وجلّ. وهؤلاء المؤمنون هم الذين كتب الله لهم الفلاح وجزاهم أحسن ماعمِلوا زيادةً من فضله، وهو يرزقهم بغير حساب علمًا وقُربًا.

وهكذا فُصِّل الشرط الإيمانيّ الذي ورد في سورة (المؤمنون)، الذي يشير إليه قوله تعالى: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون - إلاّ على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنّهم غيرُ مَلومين - فمَن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾، وبعد أن أفرد تعالى هذا الفصل للشرح المذكور في سورة (النور).

فلمّا انتهت الآيات من ذلك عادت تنذِر الذين يكفرون بهذه الأسس بقوله تعالى: ﴿والذين كفروا أعمالُهم كسراب بقيعةٍ يحسبه الظمآن ماءً، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ووجد الله عنده، فوفّاه حسابَه، والله سريعُ الحساب﴾ (٣٩). وقد أشارت الآية هنا في هذا الإنذار، من طرَفٍ خفيّ، إلى المجتمع المسيحيّ الذي أُنذِر في سورة (الكهف)، والذي أباح الجنس، ومزّق نظام الأسرة وهدم دعائمها، وقد وفّته القدرة الإلهيّة حسابه السريع بأن ابتلته بطاعون من نوعٍ جديد، وهو مرض (الايدز)، يحصد شبابَ مجتمعه، هذا المجتمع الذي بدا، على زُخرُفه وزينته وتلألُؤ حضارته، مُجتمَعًا ماديًّا، لا بِرّ فيه ولا عِفّة عن مُنكر أو دَنَس ولا إيمان يصل بينه وبين السماء.

وقد شبّه، جلّ شأنه، حال هؤلاء الكافرين بهذه البنود التي ذكرتها سورة (النّور)، بقوله تعالى: ﴿أو كظُلُماتٍ في بحر لجّيّ، يغشاه موجٌ، من فوقه موج، من فوقه سحابٌ، ظلماتٌ بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكَد يراها، ومن لم يجعلِ الله له نورًا فماله من نور﴾ (٤٠).

فمن خلال قوله تعالى: ﴿ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور﴾ ربط تعالى هذا الإنذار بتعاليم سورة (النّور). وقدّم بعدها آياتٍ كونيّة تثبت هذه الحقيقة الناصعة. وانتهى تعالى من بيان ذلك عند الآية (٥٤).

ثم عاد، جلّ شأنه، يوجّه خطابه إلى المؤمنين المُبايعين المُلتزمين بشروط بَيعتهم الإيمانيّة التي نصّت عليها الآيات العشر الأوائل من سورة (المؤمنون). فوعد، جلّ شأنه، هؤلاء المؤمنين المُلتزمين أن يجمع بين أُسرهم عن طريق نظام الخلافة الرّوحيّ، قائلاً: ﴿وعدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصّالحات لَيستخلِفنّهم في الأرض، كما استخلف الذين مِن قبلهم، وليُمكّننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليُبدِّلنّهم مِن بعد خوفهم أمنًا. .﴾ (٥٥). واشترط تعالى شرطًا أخيرًا وأساسيًّا جاء في قوله تعالى: ﴿. . يعبدونني لايُشركون بي شيئًا، ومَن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ (٥٥)، عِلمًا بأنّ الفاسق لُغةً هو من ترك أمر ربّه وعصاه وجار عن قصد السّبيل، وخرج عن طريق الحقّ أو فَجَر.

فلما انتهى، جلّ شأنه، من إعلان وعده المذكور للمؤمنين، عاد ليكمل الوصايا وليشرح شرط سورة (المؤمنون) الذي ألمحنا إليه، شرحًا ابتدأه تعالى بقوله: ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كُلّ واحدٍ منهما مائة جلدة..﴾. أقول عاد يخاطب المؤمنين، ويكمل لهم شرح الشرط المذكور ابتداءًا من قوله تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم...﴾ (٥٨) وانتهاء عند الآية (٦١).

ثم مضى، جلّ شأنه، ينبِّه المؤمنين إلى مايجب عليهم تجاه رسولهم والخلفاء الروحيّين الذين يتمّ بفضلهم التّرابط بين أُسَرهم المؤمنة، وذلك ابتداءً من قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمرٍ جامعٍ لم يذهبوا حتى يستأذنوه، إنّ الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله، فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذَنْ لمن شئت منهم، واستغفرْ لهمُ الله، إن الله غفورٌ رحيم (٦٢). وإلى أن أنهى، جلّ شأنه، سورة (النّور) بقوله تعالى: ﴿ألا إنّ لله مافي السّماوات والأرض، قد يعلم ماأنتمُ عليه ويوم يُرجَعون إليه فينبِّئهم بما عملوا، والله بكلّ شيء عليم﴾ (٦٤).

وهكذا تتّضح لعينيَ هذا الباحث المتدبِّر ملامح الربط الموضوعيّ الكائن مابين سورة (النّور) كفصلٍ مستقلٍّ وسورةِ (المؤمنون) التي قبلها، وعلاقة ذلك كلّه بسورة (طه)، السورة الأمّ. فينتقل مُطمئنّ الفؤاد إلى سورة (الفرقان).

٥ ـ سورة (الفرقان)

وإذا ما انتهى الباحث المتدبِّر إلى سورة (الفرقان)، وهو يعلم أنّ مضمونها هو فصلٌ من فصولٍ خمسة تابعة لسورة (طه) السّورة الأم، وفقًا لخطّة الاختزال القرآني وقواعده، تساءل في نفسه عن معالم ذلك. والجواب عن تساؤله قريب وهو أنّ هذه السورة قد خصّها الله تعالى بأمرين اثنين: الأول بيان مااعترض به الكفار على الإسلام، واتّخذوه حُجَّة لتكذيب رسوله الكريم، والرّد على اعتراضهم وتفنيده بالحُجّة والبرهان. والأمر الثاني هو تنبيه هؤلاء المكذِّبين إلى شأن المؤمنين عامة، ومايملأ قلوبهم من إيمان لابُدَّ أن يسمو بهم سموًّا لم يعرفوه من قبل.

وقد استهلّ تعالى الأمر الأوّل منذ الآية الثالثة بقوله تعالى: ﴿واتّخذوا مِن دونه آلهة لايخلُقون شيئًا وهم يُخلَقون ولايملكون لأنفسهم ضرًّا ولانفعًا ولايملكون موتًا ولاحياةً ولانشورًا﴾، فأعطى صورة بليغة عن المجتمع الجاهليّ لهؤلاء

المكذِّبين، هذا المجتمع المفتقر لأسباب الحياة والتقدّم والنهوض، ممّا لامجال للتوسّع فيه. ثم بدأ تعالى بسرد اعتراضات أصحاب هذا المجتمع المهلهَل بقوله تعالى مباشرة: ﴿وقال الذّين كفروا إنْ هذا إلاّ إفكٌ افتراه وأعانه عليه قومٌ آخرون، فقد جاؤوا ظُلمًا وزورًا﴾ (٤). وقوله تعالى: ﴿فقد جاؤوا ظُلمًا وزورًا..﴾ هو تفنيد لما زعموه. فهو تعالى يقول: من الظّلم البيِّن أن يَتَّهِم امرُؤٌ إنسانًا من دون بيِّنةٍ تُثبت التُّهَمَة. ومادام هؤلاء يتّهمون رسولنا بالكذب والافتراء، كما يتّهمون أعوانه من الصحابة، من دون بيِّنَة تُثبت صحة هذا الادعاء، فقد ظلموه وتجنّوا عليه، وادّعَوا عليه ذَنْبًا لم يأته. ليس هذا وحسب، بل حَكَم القضاء عليهم بتزوير الحقائق أيضًا ودانهم، فاستحقوا بذلك العقاب.

ثم أتى، جلّ شأنه، باعتراضٍ آخر من اعتراضات هؤلاء المكذِّبين بقوله تعالى: ﴿وقالوا أساطير الأوّلين اكتتبها، فهي تُملى عليه بُكرةً وأصيلا﴾ (٥) وهذا اتّهام مؤلَّف من عناصر ثلاثة: أولاً، اعتبارهم قصص آدم وسواه من الأنبياء من قبيل الأساطير. ثانيًا، اتهامهم الرسول (ﷺ) بأنه يستعين بمن يدوِّن له هذه الأساطير لثبوت أميّته، وهذا معنى ﴿اكتتبها﴾، فلم يقولوا (كتبها). والأمر الثالث: زعمهم أنّ أساطير الأوّلين هذه من الكثرة بمكان ولابدّ لكتابتها من زمن طويل، لذلك قالوا: ﴿فهي تُملى عليه بكُرةً وأصيلاً﴾.

وقد ردّ، جلّ شأنه، على هذا الاتّهام بقوله تعالى: ﴿قلْ أنزله الذي يعلم السرّ في السماوات والأرض، إنّه كان غفورًا رحيمًا﴾ (٦)، أي أنّ اتّهامكم الجديد لايقوم أيضًا على بيِّنة. فأنتم ترجُمون بالغيب وتخرُصون. ولاحاجة لمناقشة أمرٍ لاتدعمه حُجّة أو برهان. وإنّ عليكم أن تتذكروا أنّ محمدًا (ﷺ) يؤمن بالله ذي الأسماء الحسنى الذي لا يخفى عليه سرّ في السماوات والأرض. وهذه القصص قد جرت لأنبيائه ومُرسَليه. وقد كان لهؤلاء مكذِّبون كما كان لهذا الرّسول. فلم نُبال باتهامات من سبقَ حتى نُبالي باتهامكم إيّاه، فأنا ﴿الغفور الرحيم﴾، وقد تستّرت على ضعف من سبقكم، كما تستّرت على ضعفكم، انطلاقًا من فائض رحمتي. وأنا لو لم أتّصف بهاتين الصّفتين لكان العذاب جزاءكم، كما كان جزاء من سبقكم.

على هذه الصورة عرض ربّنا، عزّ وجلّ، لأهمّ اعتراضات الذين كذّبوا محمدًا (ﷺ) واحدًا بعد آخر، وردّ على كل اعتراضٍ منها، بإجابة موضوعيّة مُفحِمة. واستمرّت هذه العمليّة التي أتى تعالى خلالها بأمثلةٍ من العهود الغابرة، كعهد موسى ونوح وعاد وثمود وأصحاب الرّس وسواهم، أمثلةٍ تبيِّن العاقبة الوخيمة التي حلّت بالمعترضين من المكذِّبين السابقين. أقول استمرّت هذه العمليّة

حتى الآية (٥١) حيث خاطب تعالى رسوله الكريم قائلاً: ﴿فلا تُطع الكافرين وجاهِدهم به جهادًا كبيرًا﴾ (٥٢)، أي أرأيت، أيّها الرسول، كيف أن جميع اعتراضات مكذّبيك سخيفة لايُؤبه لها، على حين جاءت حُجّة هذا الكتاب الفرقان الذي أنزلناه عليك قويّةً لاتُدحض، فجاهدْهم به جهادًا كبيرًا، أي تابع تبليغهم رسالة ربّك عن طريق كلّ ماوفّرناه لك من أسباب وحُجج وبراهين فهذا هو الجهاد الأكبر في الإسلام.

ثم هوّن الله تعالى على رسوله الكريم واقع أمّته رحمةً به وبمسؤوليته قائلاً: ﴿وهو الذي مَرَج البحرين هذا عَذْبٌ فُراتٌ، وهذا مِلحٌ أُجاجٌ، وجعل بينهما برزخًا وحِجرًا محجورًا﴾ (٥٣)، منبّهًا إياه من خلال قوله تعالى هذا إلى أنّ مايجري ماهو بأمر غريب عن القوانين الكونيّة، ولاهو غير طبيعي. فانظر إلى البحار، فمنها العَذب ومنها المِلح الأجاج، ولايفصل بينهما إلّا فاصلٌ ضيّقٌ من الأرض هو البرزخ، إلى أن قال تعالى له: ﴿وتوكّل على الحيّ الذي لايموت، وسبّح بحمده، وكفى به بذنوب عباده خبيرًا﴾ (٥٨). وأتى تعالى بما يثبت أنّه، جلّ شأنه، بذُنوب عباده خبير. فلما انتهى من ذلك كله، التفت لبيان الأمر الثاني الذي خصّص له سورة (الفرقان)، وهو تعداد الصّفات السامية التي سيتحلّى بها المؤمنون برسالة الإسلام. هذه الصفات التي سيتميّز بها مجتمعهم عن هذا المجتمع الفاسد الجاهليّ الذي يُقيم أهلُه فيه أفكارهم ومُعتقداتهم على مجرد الظنون والشبهات، من دون أن يستندوا إلى أساسٍ من علمٍ وحقيقة، مبتدئًا ذلك من الآية (٦٣) بقوله تعالى: ﴿وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هَونًا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا ـ والذين يبيتون لربّهم سُجّدًا وقيامًا ـ والذين يقولون ربّنا اصرفْ عنّا عذاب جهنم، إنّ عذابها كان غرامًا ـ إنّها ساءت مستقرًّا ومُقامًا ـ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يَقتُروا، وكان بين ذلك قَوامًا﴾ إلى آخر السورة. إذ نبّه تعالى المؤمنين بقوله: ﴿قل مايعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم، فقد كذّبتم فسوف يكون لزامًا﴾ (٧٧).

أقول: إنّ الله عزّ وجلّ، نبّه المؤمنين الصادقين الذين يطلبون الفلاح في الدنيا والآخرة ألّا يَمُنّوا على الله إسلامهم. إذ عليهم أن يتحلّوا دومًا بالتواضع والتذلّل لله ربهم، وأن يقدُروا هذا التحوّل الذي سَمَتْ به أفئدتهم حقّ قَدْره. فيعتدّوا أنّه فضلٌ من الله عليهم. فيثابروا على الدّعاء بين يدي ربّهم، عزّ وجلّ، طالبين المزيد من فضله.

بقي علينا أن نتساءل: لماذا افتتح ربّنا، جلّ شأنه، بيان هذين الأمرين اللذين ذكرناهما، وهما اعتراضات المكذّبين والردّ عليها من جهة، وبيان صفات المؤمنين الصّادقين من جهة ثانية، لماذا استهلّ تعالى هذين الأمرين بقوله، عزّ وجلّ: ﴿تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا ـ الذي له مُلك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريكٌ في المُلك وخلق كلَّ شيء فقدّره تقديرًا﴾.

والجواب عن ذلك أنَّ لهذا الاستهلال أسبابًا عديدة:

الأول: وهو المباشر، ربط سورة (الفرقان) بسورة (النّور) التي أنهاها تعالى بقوله: ﴿ألا إنّ لله مافي السماوات والأرض، قد يعلم ماأنتم عليه، ويوم يُرجعون إليه فينبّئهم بما عملوا، والله بكل شيءٍ عليم﴾.

الثاني: ابتغاء أن يشمل الخطاب الفئتين المُنذَرَتين في سورة (الكهف)، ومنهم الذين قالوا اتخذ الله ولدًا.

الثالث: ربط هذه السورة بجميع السور قبلها، وحتّى سورة (طـه) السورة الأم ليقول تعالى إن جميع ماقضينا به من اصطفاء محمّد العظيم وإنزال هذا الفرقان الذي لايُضارَع، وجعل محمدٍ رحمةً للعالمين، وهداية المستحقين للهداية من الناس، وإحياء مابعثنا به إبراهيم لتحقيقه، وتجميع هؤلاء المؤمنين تحت راية الخلافة لتأليف مجتمع جديد مُتناسق متماسكٍ قائمٍ على المُثل العُليا.

كل هذه الخطوات تثبت أننا ينبوع الخير والبركات في هذا العالم ﴿فتبارك الله﴾ على وزن تفاعل، أي فاضت بركاته وتفاعلت فتجلّت بإنزال هذا القرآن مُنجّمًا، ليفرِّق بما جاء فيه من معارف وبراهين بين الحقّ والباطل، بين الهُدى والضّلال، بين الغيّ والرشاد، بين الحلال والحرام. فقوله تعالى ﴿تبارك﴾ هو تمهيد وربطٌ بين هذه السُّوَر جميعها مافوقه من تمهيد.

على هذه الصورة يكون قد تبيّن لهذا الباحث المتدبّر أنّ مابعد سورة (طـه) من سُوَر، وهي (الأنبياء والحجّ والمؤمنون والنّور والفرقان)، **جميعها تتبَعُ حرفَي (طـه) على كلّ حال.**

★ ★ ★

الفصل الرابع عشر

طسم من سورة الشعراء

وينتقل هذا الباحث المتدبِّر إلى سورة (الشعراء)، وهو يعلم أنها أُنزِلت في مكّة المكرَّمة. فيلاحظ أنّ الله تعالى استهلَّها بالأحرف (طسم). فيعود بذاكرته فورًا إلى قواعد الاختزال، وإلى الخِطّة القرآنيّة المتعلّقة بهذا الفنّ اللغويّ. ويدرك أنّه لابدّ أن تكون الأحرف (طسم) قد اختُزلت وفقًا لذلك من أسماء الله الحُسنى. ثمّ يبحث في الآيات التّالية عن المعاني الموصلة إلى الأسماء التي اختُزلت منها هذه الأحرف.

ويتدبّر قوله تعالى: ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾، ويلاحظ أن الله تعالى لم يقل (هذه آيات الكتاب المبين)، بل استبدل بهذه اسم الاشارة للبعيد (تلك) فقال: ﴿تلك آيات..﴾. ومن خلال هذا الأسلوب القرآني المتكرِّر يدرك أنّ المقصود من هذا الاستبدال هو تعظيم شأن آيات الكتاب وتضخيم مضامينها. ويخلُص من ذلك إلى أنه تعالى أراد أن يُفهمنا أنّ كلّ آية من آيات كتابه الفرقان، هي خزائن للمعارف والحُجج والبراهين. وهذا مايجعل هذا (الكتاب المبين)، أي الذي أبان فأوضح وأزال اللّبس والخفاء، أداةً لتوضيح جميع ما يَخفى على البشر من أمور، ويُساعد في إزالة كلّ لُبْس وخفاء.

ثم يتدبَّر قوله تعالى بعد ذلك ﴿لعلّك باخعٌ نفسَك ألاّ يكونوا مؤمنين﴾. فهي تعني في نظر صاحبنا: لعلك مُهلكٌ نفسَك في سبيل هداية النّاس جميعًا. وكأنه تعالى يقول لرسوله الكريم: إياك أن تعتقد أنّ الإيمان سيغشى قُلوب معظم الناس. فهذا الأمر يخالف تاريخ البشريّة، ويُغاير ماأثبته التّاريخ.

ويأخذ هذا الباحث المتدبِّر يتأمل معاني هاتين الآيتين الكريمتين، ويقلِّب فيهما وجوه الرأي، لعلّه يُدرك من خلالهما الأسماء الحُسنى التي اختُزِلت منها أحرف (طسم).

وأُدلي برأيي هنا، فأقول: من الأفضل، ياصاحبي، أن تبحث أوّلاً عن الوشيجة التي تربط سورة (الشعراء) بسورة (الفرقان) التي أتت قبلها ربطًا موضوعيًّا. فتُلاحظ أنّه تعالى أوصى رسوله الكريم، آخِرَ سورة (الفرقان)، وصيَّتين: الأولى قولُه تعالى ﴿وجاهدْهم به جهادًا كبيرًا﴾. والوصيّة الثانية قوله تعالى: ﴿قُل مايعبأُ بكم ربّي لولا دُعاؤكم. .﴾، أي ابذلْ مابوسعك من الجهد لتبليغ هذه الرسالة إلى الناس، مُستعينًا في مساعيك الخيِّرة بالدّعاء والتوكّل على الله، عزّ وجلّ، في هذا السبيل.

في ضوء ذلك نُدرك أنّه تعالى جاء في سورة (الشعراء) يُطَمئن رسوله الكريم إلى أنه قد زوّده، في سبيل تأدية رسالة ربّه هذه التي أمره أن يُجاهد الناس بها، بخزائن لاتنضُب من المعارف والحُجج والبراهين. كما جاء تعالى ينبِّهه إلى أنّ معظم النّاس لن يكونوا مؤمنين، فينبغي ألاّ يُهلك نفسه لتحقيق غايةٍ تخالفُ منطق تاريخ الأديان. وإذًا تكون سورة (الشعراء) قد تضمنّت كُلَّ مايتعلّق بالوصيّتين الأخيرتين من سورة (الفرقان).

وهكذا تكون (طسم) قد اختُزلت من أسمائه تعالى (الطاهر والسّميع والمجيد)، أي أنّك، يامحمّد، ستجاهد هؤلاء الناس جهادًا كبيرًا، وأنت تعلم أنني أنا الهادي، لا أنت أو سواك. فاعلمْ أنني قُدّوس طاهر، لاأهدي الفاسقين المُنحرفين الذين لايطلبون هدايتي، ولايبحثون عن الحقّ. فالذي يبحث عن الحقّ سيجدني (سميعًا) لتضرّعاته. فإذا كان صادقًا في بحثه عن الحقّ، سيجدني أهديه إلى الصراط المستقيم لأنني (المجيد) أيضًا، أي شريف الخصال والذات والفعال، وواسع الكرم والعزيز المنيع الجانب والرحيم، وقد جمعت في ذاتي فضائل المجد. هذه دِلالات الأحرف (طسم) المختزَلة من (الطاهر والسّميع والمجيد). وهي مُتناسقة مع المعاني التي استنبطناها من الآيتين ﴿تلك آيات الكتاب المبين ـ لعلّك باخعٌ نفسَك ألاّ يكونوا مؤمنين﴾.

والآن تعالَ معي نتدبَّر مضمون سورة (الشعراء)، لنتلمّس من خلاله صحّة ماذهبتُ إليه. أوَلا يُدهشك أن يقول ربّنا، عزّ وجلّ، بعد آيتَي الاستهلال مباشرة: ﴿إنْ نشأ نُنَزِّل عليهم من السّماء مُعجزةً تَضطرُّهم إلى الإيمان قَهرًا، ولكن لانفعل ذلك، لأننا لانُريد من أحدٍ أن يُؤمن كَرهًا، فلا إكراه في الدين. وهل تجد، ياصاحبي، مِن علاقةٍ بين قوله تعالى المذكور وقوله مَن قَبله: ﴿لعلك باخعٌ نفسَك ألاّ يكونوا مؤمنين﴾، إلاّ أن يكون الله، عزّ وجلّ، وقد سبق أن أوصى رسوله بقوله ﴿وجاهِدهم به جهادًا كبيرًا. .﴾، قد جاء هنا ينبِّهه إلى أنّ أكثر النّاس

لن يكونوا مؤمنين. فينبغي ألاّ يُهلك نفسه في مجاهدة الفاسقين. وهل تعني هذه الآية الكريمة إلاّ ما ورد في آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿وماأكثر النّاس ولو حَرَصْتَ بمؤمنين﴾. وهل أراد جلّ، شأنه، من هذا التنبيه لرسوله الكريم إلاّ أن يفهِمه أنّ الله (القُدّوس) لايهدي إلى صراطه المستقيم الظالمين والفاسقين؟

وتابعْ معي، ياصاحبي، قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ومايأتيهم من ذِكرٍ من الرحمن مُحدَثٍ إلاّ كانوا عنه مُعرِضين ـ فقد كذّبوا فسيأتيهم أنباء ماكانوا به يستهزئون﴾ (٥ـ٦). أفلا نُلاحظ أنّه، جلّ شأنه، لفت نظر رسوله الكريم إلى تاريخ البشريّة الطويل ليقول له من خلاله إنّ هذه هي سُنّة الأوّلين؟

ولنُتابعْ بعد ذلك ماجاء. قال تعالى: ﴿أوَلَمْ يَرَوْا إلى الأرض كم أنبَتنا فيها من كلِّ زوجٍ كريم ـ إنّ في ذلك لآيةً، وماكان أكثرهم مؤمنين﴾ (٧ ـ ٨). أفلا نلاحظ أنّه تعالى لفت أيضًا نظر رسوله الكريم إلى ظاهرة وجود زوجَين من كلّ شيء، ليقول له: هذه طبيعة هذه الحياة الدنيا، فلابدّ أن تتولّد عن رسالتك التي حمّلتُك أمانة أدائها فئةٌ من المؤمنين وفئة من الكافرين المكذِّبين. وطبيعة الحياة هذه تُثبت أنّ بذور النفوس الطاهرة أهديها إلى صراطي المستقيم، لكنّي لاأهدي بذور النفوس الخبيثة، بل أدعها تلهث مع الفاسقين.

وانظرْ، ياصاحبي، كيف أنهى تعالى جميع هذه الفقرات من الآية بقوله: ﴿وإنّ ربّك لهو العزيز الرحيم﴾، أي أن ربّك ربّاك ليطهِّر فؤادك، وهو لايُهمُّه أن يُلحَد به، أو يكذِّب الناس رُسُله وأنبياءه، فالأمور بخواتيمها، وقد أثبتت الأيّام أنّ ربّك هو العزيز الرحيم، أي المنيع الذي لاتقدِر قُوّةٌ أن تنال منه. فهو على الدوام قاهرٌ جميعَ القوى المتمرّدة، ومُتغلِّبٌ عليها. وقد عامَلَ من أعدائه من يُرجى صلاحه بالرّحمة، من مُنطلق أنّه إلهٌ (مجيد) أي شريف الذّات والخصال والفعال وواسع الكرم وعزيز رحيم، قد جَمَعَ في ذاته جميع كمالات المجد.

ولتُلاحظ، ياصاحبي، أنّ ربّنا، جلّ شأنه، لم يكتف بهذا البيان والتنبيه العظيم، بل ضرب مَثَلاً موسى ورسالتَه، كيف كان نبيًّا مشرِّعًا، قد أرسله الله ربُّه إلى فرعون ومَلَئِه. فابتدأ تعالى هذا المَثل بقوله: ﴿وإذ نادى ربُّك موسى أنِ ائتِ القومَ الظالمين ـ قومَ فرعونَ، ألا يتّقونَ﴾ (١١). وأنّه تعالى زوّد موسى بمُختلِف الآيات والبيّنات، وعلى الرّغم من ذلك لم يهتد مُكذِّبوه الظّالمون. وقد انتهى تعالى من ضربه هذا المَثل بقوله: ﴿وأنجينا موسى ومَنْ معه أجمعين ـ ثم أغرقنا الآخرين ـ إنّ في ذلك لآيةً، وماكان أكثرُهم مؤمنين ـ وإنّ ربَّك لهو العزيز الرحيم﴾ (٦٥ ـ ٦٨). فهاهو، جلّ شأنه، يذكِّر رسوله الكريم، من خلال مثاله هذا، أنّه

﴿وماكان أكثرُهم مؤمنين﴾، وأنه أثبتت أيّام دعوة موسى ﴿وإنّ ربّك لهو العزيز الرّحيم﴾ (٦٨).

ثم إنّه، جلّ شأنه، أتبع مثال ماحدث لموسى بمثال ماحدث لإبراهيم أيضًا. وابتدأ ذلك بقوله، عزّ وجلّ: ﴿واتلُ عليهم نبأ إبراهيم..﴾ (٦٩). وبعد أن استعرض تعالى مادار بين إبراهيم وقومه من نقاش، وماقدّمه من دلائل وبيّنات تنقُض موضوع الشّرك وتُثبت صحّة عقيدة التّوحيد، أقول نبّه تعالى إلى أنّ قوم إبراهيم لم يُفيدوا شيئًا ممّا أتى به إبراهيم، بدليل قولهم: ﴿قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ (٧٤). وهنا أخبر تعالى رسوله الكريم محمّدًا (ﷺ) بما آل إليه أمرُ قوم إبراهيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وأُزلِفَتِ الجنّةُ للمتّقين ـ وبُرِّزت الجحيم للغاوين ـ وقيل لهم أين ماكنتم تعبدون ـ مِن دون الله، هل ينصرونكم أو ينتصرون ـ فكُبكِبوا فيها هم والغاوون﴾ (٩٠ ـ ٩٤). وانتهى، جلّ شأنه، من تقديم مثال إبراهيم ليقول أخيرًا: ﴿إنّ في ذلك لآيةً، وماكان أكثرُهم مؤمنين ـ وإنّ ربّك لهو العزيز الرحيم﴾ (الشعراء) (١٠٣ ـ ١٠٤).

ولم يكتف تعالى بهذين المثالين، مثال موسى ومثال إبراهيم، بل ضرب لرسوله الكريم مثال رسوله نوحٍ، مبتدئًا ذلك بقوله تعالى: ﴿كذّبت قومُ نوحٍ المرسَلين ـ إذ قال لهم أخوهم نوحٌ ألا تَتّقونَ ـ إنّي لكم رسول أمين﴾ (١٠٦ ـ ١٠٧). وانتهى تعالى من هذا المثال ليقول: ﴿فأنجيناه ومَن معه في الفُلك المشحون ـ ثم أغرقنا بعدُ الباقين ـ إنّ في ذلك لآيةً، وماكان أكثرهم مؤمنين ـ وإنّ ربّك لهو العزيز الرحيم﴾ (١١٩ ـ ١٢٢).

فيا صاحبي، مادام الله، جلّ شأنه، قد أنهى جميع أمثلته التي ذكّر بها رسوله الأمين بقوله: ﴿إنّ في ذلك لآيةً، وماكان أكثرُهم مؤمنين ـ وإنّ ربّك لهو العزيز الرّحيم﴾، فقد ثَبَت، من خلال دلالتها، ماتقدّم ذكره من أنّه تعالى قد خصّص هذه السّورة لتنبيه رسوله الكريم إلى حقيقة ناصعة قد ثبتت صحتُها من خلال بعثات أنبياء الله ومرسَليه، وهي أنّ الله تعالى، وهو القُدّوس الطّاهر، لايهدي الفاسقين الظّالمين الذين لايأبهون بالحقّ فيبحثوا عنه، ولايتضرّعون بين يدي الله ربّهم يسألونه أن يهديهم سواء السّبيل. وهم لو سألوه لأيقنوا أنّه (قُدّوس وسميعٌ) أيضًا، يستمع لأدعيتهم ويهديهم سواء السّبيل، بل لأيقنوا أيضًا أنه (المجيد) أي الشريف الذّات والخصال والفعال، الواسع الكرم، قد جُمعت في ذاته جميع كمالات المجد. وهذه هي الأسماء الحُسنى التي اختزل ربُّنا، عزّ وجلّ، منها الأحرف (طسم) في مُستهَلّ سورة (الشعراء).

ولابُدّ أن تكون قد لاحظتَ أنّه تعالى ماإن انتهى من ضرب هذه الأمثلة التاريخيّة التي نبّه رسولَه الكريم من خلالها إلى الحقيقة التي رأيناها حتى أضاف قائلاً: ﴿وإنّه لَتنزيلُ ربِّ العالَمين ـ نَزَل به الروح الأمين ـ على قلبك لتكون من المُنذِرين ـ بلسانٍ عربيٍّ مُبين﴾ (١٩٢ ـ ١٩٥). ثم أمره، وهو يجاهد قومه بهذا التنزيل العربي المبين، أمره بقوله تعالى: ﴿وتوكّلْ على العزيز الرّحيم ـ الذي يراك حين تقوم ـ وتَقَلُّبَك في السّاجدين ـ إنه هو السميع العليم﴾ (٢١٧ ـ ٢٢٠). فلمّا انتهى من هذا الخطاب شرع، جلّ شأنه، يُنذِر المكذِّبين محذِّرًا في الآيتين (٢٢١ ـ ٢٢٢) بقوله تعالى: ﴿هل أنبِّئكم على من تَنَزَّلُ الشياطين ـ تَنَزَّلُ على كلّ أفّاكٍ أثيم﴾. واستمّر تعالى في تحذيره هذا إلى أن ختم تعالى سورة (الشعراء) بقوله متوعِّدًا المُكذِّبين: ﴿وسيعلم الذين ظلموا أيَّ مُنقَلَبٍ ينقلبون﴾.

وواقع الأمر أنّه لم تمض سنوات على نزول سورة (الشعراء) التي تضمّنت هذا الوعيد حتّى دارت الدّوائر على الذين ظلموا محمّدًا رسولَ الله وأصحابه، وحاق بهم ماحاق بأقوامٍ سبقوهم من الفاسقين المكذِّبين. وقد تحقّقت بذلك صحّة جميع هذه الوقائع التي أوردها ربّنا، عزّ وجلّ، في سورة (الشعراء) المكّيّة النّزول، فأيّد الله تعالى الذين هداهم إلى صراطه المستقيم، وأثبت أيضًا من خلال ذلك أنّه ﴿السميع المجيد﴾. هذه الأسماء الحُسنى التي هي مفتاح الأحرف (طسم).

★ ★ ★

الفصل الخامس عشر

|طس| من سورة |النمل|

ولابدّ للباحث المتدبِّر أن يتملّكه اليقين بصحّة ماذهبتُ إليه. فينتقل من سورة (الشعراء) إلى السورة التي تليها، وهي سورة (النّمل). فيلاحظ أنّ الله تعالى قد استهلّها بالحرفين (طس) فقط. وحذف حرف (الميم) الذي لاحظناه مُختزَلاً من (المجيد) - ويقف هُنيهةً يتساءل عن حكمة هذا الاستهلال، وهذا الحذف.

وأبادر فأجيب عن تساؤله هذا فأقول له ينبغي لك، أيّها الباحث المتدبِّر، أن تضع بحسبانك على الدّوام أنّ آيَ الذِّكر التي هي بين يديك هي كتابٌ قبل كلّ شيء. والكتاب القيّم الذي يُترجِم حال كاتبه يتّسم دومًا بالتسلسل الموضوعيّ والمنطقيّ في عرض أفكاره. ولابدّ أنك لاحظت حتّى الآن ظاهرة هذا التسلسل الموضوعيّ المنطقيّ الذي تجلّى من خلال سُوَر هذا الكتاب المتعاقبة ولاسيما بعد أن تناولتَ ببحثك سورة (طـه) بالذّات. فقد لاحظتَ كيف خُصِّصت لمخاطبة محمّد الرسول العظيم (ﷺ) وإبراز شخصيّته لأعين المُحقِّقين. وكيف أوضحتْ سورة (الأنبياء) مَهَمَّة هذا الرسول الأساسيّة من بعثته، عليه السّلام، وهي أن يجعله ربّه ﴿رحمةً للعالَمين﴾. وكيف أنّ سورة (الحجّ) أعطت معالم التحوُّل الخطير الذي تمّ بفضل هذه البعثة. وكيف نصّت سورة (المؤمنون) على شروط فلاح الذين يؤمنون برسالة هذا الرسول العظيم. وكيف تداركت سورة (النّور) توضيح ماتعلّق بموضوع بناء الأسرة الإيمانيّة وترابط هذه الأسَر تحت لواء الخلافة الروحيّ. وكيف جمعت سورة (الفرقان) اعتراضات الذين لايؤمنون برسالة الإسلام، وفنّدتها، ونقضتها بسلاح الحُجج والبراهين، كما أعطت إضافة إلى ذلك صورة صادقة عن ملامح جماعة المؤمنين. وكيف نبّهت سورة (الشعراء) رسول الله إلى أن أكثر الناس عمومًا لايؤمنون. فهل ترى في ذلك كله إلاّ ظاهرة تسلسلٍ موضوعيٍّ ومنطقيٍّ في عرض الأفكار التي قدّمتها هذه السّور القرآنيّة؟ هذا التسلسل الذي كان يتلقّاه المؤمنون السابقون، في الدّور المكّيّ، بانشراح الصدور ويتابعونه بكلّ قَبول. وهم

الذين كانوا يعيشون سنوات الضائقة والاضطهاد والهجرة من مكّة، ويتلقّون مُختلِف أنواع الأذى كانوا يستقبلون هذه السّوَر القرآنيّة استقبال المتشوِّق لها. لكنّ حالهم كان يتشوّق أكثر من ذلك لمعرفة طريق النّجاة المُقدّر من ربّهم علاّم الغيوب. وبعد نزول جميع السُّوَر التي ذكرناها أضحَوا يستشعرون حاجة ماسّة إلى نزول الوحي ليهديهم إلى طريق الخلاص، ويبشّرهم بحُسن العاقبة، تهدئة لنفوس المؤمنين، وجلاءً لمعالم طريق نجاتهم ممّا آل إليه حالهم. وبهذا التسلسل الموضوعيّ الذي اقتضاه منطق الأحداث أنزل الله، عزّ وجلّ، سورة (النّمل) في مكّة المكرمة أيضًا. ومضمونُها كما جاء في مقدّمتها: ﴿هدىً وبشرى للمؤمنين﴾ أنزلها لتهديهم سُبُل النّجاة، وتبشّرهم بقرب الخلاص، من خلال الأمثلة التي جيء بها في هذه السورة والتي تشير إلى هذا الأمر من طرَف خفيّ.

ففي أواخر سورة (الشعراء) أوصى الله، عزّ وجلّ، رسوله الكريم بقوله تعالى: ﴿وتوكّلْ على العزيز الرحيم - الذي يراك حين تقوم - وتَقَلُّبَك في السّاجدين - إنّه هو السميع العليم﴾ (٢١٧ - ٢٢٠).

وقد استهل تعالى سورة النّمل بحرفَي (طس) أي (الطاهر السّميع) ليربط هذه التوصية بمضمون هذه السّورة. فهو تعالى يقول بألفاظ أخرى مامعناه: أنا الله الطّاهر القُدّوس أنزلتُ رسالة الإسلام واهتدى بها جماعة المؤمنين. أنا الله السّميع لتضرعات هؤلاء المؤمنين ودعائهم ورجائهم. وقد جئت في هذه السّورة أهديهم طريق الخلاص من محنَتِهم وأُطَمئنهم وأبشّرهم بالفوز العظيم، إذ قال: ﴿هدىً وبشرى للمؤمنين﴾.

والمُلاحظ، ياصاحبي، أن الأحرف (طسم) التي استهلّ الله تعالى بها سورة (الشعراء) وردت كآيةٍ كريمةٍ مُستقلّة. بينما ورد حرفا (طس) في سورة النمل هذه جزءًا من آية، لقوله تعالى: ﴿طس، تلك آياتُ القرآن وكتابٍ مبين﴾. وأنت قد تساءلت عن هذا الأمر حين أردت بحث سورة (النّمل) هذه. فأوضحتُ لكَ الوشيجة التي تربط بين هاتين السّورتين، ودلالة (طس). وجئتُ أكشف لك عن سرّ ماتساءلتَ عنه بمعونة الله الذي أنزل هذا القرآن الكريم. قمْ فعدْ بذاكرتك إلى سورة (الحِجر) التي استهلّها، جلّ شأنه، بقوله تعالى: ﴿الر - تلك آيات الكتابِ وقرآنٍ مبين - ربّما يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾. وقد سبق أن شرحتُ هاتين الآيتين في حينه، وبيّنت أنّ مضمونهما يدور حول رؤيةٍ غيبيّة مُستقبليّة تنبىء أنّ الآيات النازلة على محمّد رسول الله (ﷺ) ستتّخذ شكل كتاب

مقروء في المجالس. وقد وعد الله، عزّ وجلّ، بالمحافظة على هذا الذِّكر أيضًا، وذلك في الآية السّابعة من سورة الحِجر، بقوله تعالى: ﴿إنّا نحن نزّلنا الذِّكر وإنّا له لَحافظون﴾.

وبعد أن ألممتَ بهذه الأمور جميعًا تعال فأذكِ العين على مااستهل الله تعالى به سورة النمل، وهو: ﴿طس، تلك آياتُ القرآن وكتابٍ مبين﴾. أفلا تُلاحظ أنّ ألفاظها قريبة من ألفاظ مااستهلّ الله به سورة (الحِجر)، مع فرقٍ هو تقديم لفظ (القرآن) على لفظ (كتاب)؟ ثم استبدال (طس) بـ (الر)؟

فالأحرف (الر) كانت تعني هناك: (أنا اللهُ أرى) أنّ هذا هو الشيء الذي سيحدث. ووعد بالمحافظة على ماسيحدث. بينما جاء الحرفان (طس) هنا يعنيان: أنا (الطاهر السميع). وحاشا لله تعالى أن يُخلِف وعده الذي قطعه للمؤمنين في سورة (الحِجر). ويقول تعالى فيها: إنني أُنزل سورة (النَمل) ﴿هُدى وبُشرى للمؤمنين﴾، لأهديهم طريق خلاصهم وأبشرهم بتحقّق ماأنبأتُ به في آيات هذا الكتاب، من أنّ هذه الآيات ستصبح مقروءة في كلّ زمان ومكان، وقد أزِف هذا الوقت وحان. ولذلك تلاحظ، ياصاحبي، أن الله تعالى قال بعد ذلك بآيات: ﴿وإنّك لَتُلَقَّى القرآنَ من لَدُنْ حكيمٍ عليم﴾ (٦)، أي اطمئنوا، يامعشر المؤمنين، فمسيرتكم يقودها ربُّكم الحكيم العليم.

على هذه الصورة، وبعد أن طمأن الله تعالى رسوله وأصحابه من السابقين الأوّلين من المؤمنين، أعاد تعالى إلى ذاكرتهم مثال بعثة موسى عليه السلام. فابتدأ ذلك بقوله تعالى: ﴿إذ قال موسى لأهله إنّي آنست نارا، سآتيكم منها بخَبَرٍ أو آتيكم بشهابٍ قَبَسٍ لعلكّم تصطلون ـ فلما جاءها نُودي أن بورك مَن في النار ومَن حولها، وسبحان اللهِ ربِّ العالمين﴾ (٧ ـ ٨) وأنت، ياصاحبي، لابُدّ أن تتساءل، باحثًا متدبِّرًا، عن حكمته تعالى في إيراد مثال بعثة موسى من النقطة التي نصّت عليها هذه الآيات؟

وأقول: حكمة ذلك تذكير محمّد، رسول الله (ﷺ)، بالفارق الكبير بينه وبين موسى في المقام. فبينما تجلّى الله، عزّ وجلّ، لموسى عن طريق كشفٍ روحانيّ، أرسل إلى محمّدٍ العظيم مندوبًا مَلَكًا من كبار ملائكته، حاملاً إليه بُشرى تحميله رسالةَ الإسلام رحمةً للعالَمين. وقد نزل هذا المَلَكُ برسالة ربِّه، وعارضَ محمّدًا في غار حِراء، وأبلغه رسالة ربّه قائلاً: ﴿اقرأ﴾ أي احملْ رسالة ربِّك هذه وبلِّغها إلى الناس ﴿باسم ربِّك الذي خلق﴾.

ولاحظْ كيف ذكَّره في نهاية هذا المثال بعاقبة الذين كذّبوا موسى بقوله تعالى: ﴿فانظرْ كيف كان عاقبةُ المفسدين﴾ (١٤)، مبشِّرًا إياه من خلال ذلك بأنّ عاقبة المفسدين ممن يكذِّبونه ويضطهدونه ستكون أشدّ وأدهى من عاقبة هؤلاء المذكورين في هذا المثال، خصوصًا أنه تعالى قال لموسى في بداية بعثته: ﴿ياموسى إنّه أنا اللهُ العزيز الحيكم﴾، تنبيهًا لمحمّد نفسه أنّ ربّه الذي اصطفاه هو الله العزيز الحكيم.

وقد أتى ربّنا، جل شأنه، بعد هذا المثال بمثال كلٍّ من داوود وسليمان، وهما نبيّان سبق أن أوسد تعالى إليهما السلطتين الروحيّة والزمنيّة، تبشيرًا لمحمّد رسول الله (ﷺ) من خلال ذلك أنّه سيماثلهما، فيجمع في ذاته السّلطتين الروحيّة والزمنيّة أيضًا. فابتدأ تعالى هذا المثال بقوله: ﴿ولقد آتينا داوودَ وسليمانَ عِلمًا، وقالا الحمد لله الذي فضَّلَنا على كثيرٍ من عباده المؤمنين﴾ (١٥). وأشار من خلال هذا المثال إلى أنّ بعثة محمّد رسول الله ستُعقِبها نهضةٌ جذريّة أيضًا.

وأتبع تعالى هذين المثالين بمثال ثالث، هو مثال النبيّ صالح مع قوم ثمود. فنبهَ محمّدًا (ﷺ) من خلاله إلى أنّ القوم انقسموا إلى فريقين يختصمان. فمكر الفريق المكذِّب بصالح، وانتوى القضاء عليه وعلى جماعته. فمكر الله، عزّ وجلّ، بهم، وأحبط خِططهم، وتَبَّرهم تَتبيرًا، وأنجى صالحًا ومن معه من جماعة المؤمنين. وقد عبّر تعالى عن هذا كُلّه بقوله: ﴿ولقد أرسلنا إلى ثمودَ أخاهم صالحًا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون﴾ (٤٥) ﴿ومكروا مكرًا ومكرنا مكرًا وهم لايشعرون ـ فانظر كيف كان عاقبة مكرهم، أنّا دمَّرناهم وقومَهم أجمعين﴾ (٥٠ ـ ٥١). . ﴿وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتّقون﴾ (٥٣)، فبشّر تعالى رسوله محمدًا (ﷺ) أنّه مُطّلِع على مايكيد له قومه ومايدبِّرون للإيقاع به، وأنّه سيُحبط أعمالهم ويردّ عليهم كيدهم هذا يقينًا.

وأعقب الله تعالى هذه الأمثلة بمثال لوطٍ الذي نبَّه قومه إلى انتشار الفواحش في مجتمعهم، مشيرًا بذلك إلى مُشابهة مُجتمعِ مُشركي الجاهليّة العرب مجتمعَ قوم لوط. وكما أنّ قوم لوط لم يتّعظوا بوعظ نبيِّهم، بل اضطهدوه ومَن آمن معه، محاولين تهجيرهم من بلدتهم، فكذلك سيفعل مشركو مكّة أيضًا. وهذا ماعبّر عنه تعالى بقوله: ﴿فما كان جوابَ قومه إلاّ أن قالوا أخرِجوا آل لوطٍ من قريتكم، إنّهم أُناس يتطهّرون﴾ (٥٦). وذكّر الله تعالى رسوله الكريم بالمصير الذي حاق بهؤلاء الظّالمين. وكانت في ذلك إشارة منه، جلّ شأنه، إلى المصير الذي ينتظر هؤلاء المشركين الذين يضطهدونه وجماعتَه محاولين تهجيرهم من بلدتهم مكّة التي يقوم

فيها بيت الله الحرام.

ثم أتى، جلّ شأنه، بأدلّة عديدة ـ ليُثبت بها وجوده وهيمنته على هذا الكون، كما يثبت وحدانيّته التي تجلّت في وحدة القوانين الكونيّة. وانتهى من جميع ماذكرناه ليقول لرسوله (ﷺ) من جديد: ﴿فتوكّل على الله إنك على الحقّ المبين﴾ (٧٩)، وهذا على نحو ماأوصاه به آخر سورة (الشعراء) بقوله: ﴿وتوكّل على العزيز الرحيم﴾... إلى أن أنهى تعالى سورة (النّمل) بقوله مُتوعّدًا المُشركين: ﴿وقل الحمدُ لله سيُريكم آياتِه فتعرفونها، وماربُّك بغافلٍ عمّا تعملون﴾.

وهكذا يتجلى لعينيك، أيّها الباحث المتدبِّر، أنّ الله تعالى خصّص سورة (النّمل) لطَمأنة نفوس المؤمنين وتبشيرهم بالخلاص القريب ممّا يُعانونه، فجاءت بذلك هذه السورة ﴿هدًى وبُشرى للمؤمنين﴾. فلم تمضِ سنة أو سنتان بعدها، حتى انتهى الأمر إلى الهجرة من مكّة، والعودة إليها، وفتحها، وقهر كيد الأعداء المشركين، وابتدأ بذلك عصر نهضةٍ خُلُقيّةٍ روحيّة لايزال العالَم يحصد من بركاتها. وتحقّق بذلك قول ربّنا، عزّ وجلّ، الذي ختم به سورة (النّمل)، وهو: ﴿وقل الحمد لله، سيريكم آياته فتعرفونها، وماربُّك بغافلٍ عمّا تعملون﴾. صدق الله العظيم.

وسترتاح نفس الباحث المتدبِّر للّذي تجلّى لعينيه من مضمون سورة (النّمل). فينتقل منها إلى سورة (القَصص). وهي سورة مكيّة أيضًا وقد استهلّها، عزّ وجلّ، بالأحرف المقطّعة (طسم) كآية مستقلّة، على نحو مااستهلّ به سورة (الشعراء) بقوله تعالى هنا وهناك ﴿طسم ـ تلك آيات الكتاب المبين﴾.

★ ★ ★

الفصل السادس عشر

طسم من سورة القصص

أمّا وقد لاحظ هذا الباحث المتدبِّر استهلاله تعالى سورة (القَصَص) بأحرف (طسم)، وكان قد علم أنها مختزَلة من (الطاهر السميع المجيد). فقد راح يبحث عن مضمون هذه السورة، ومدى تأييد هذا المضمون الحقيقة التي أضحت بين يديه.

وهاأنذا كعادتي أسهم في ذلك فأقول لصاحبي: صدق ظنك في أمر دلالة أحرف (طسم). وهاهو مضمون سورة (القَصَص) نفسها يؤيِّد ذلك ويؤكده.

فأوّل مانلاحظ أنّ الله تعالى، بينما استهل سورة (الشعراء) بقوله تعالى: ﴿طسم ـ تلك آيات الكتاب المبين ـ لعلّك باخعٌ نفسك ألاّ يكونوا مؤمنين﴾، استهلّ تعالى سورة (القَصَص) بقوله: ﴿طسم ـ تلك آيات الكتاب المبين ـ نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحقّ لقومٍ يؤمنون﴾، وليس بين الاستهلالين من فرقٍ إلاّ في الآية الثالثة منهما.

وقد سبق لك أن علمت حكمة قوله تعالى في سورة (الشعراء): ﴿لعلّك باخع نفسك﴾، أمّا في سورة (القَصَص)، فالمقصود من قوله تعالى: ﴿نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحقّ لقومٍ يؤمنون﴾: أن أصغِ، يامحمّد، إلى مانتلوه عليك لتأخذ من نبأ موسى وفرعون العِبرة والعِظات.

ونتساءل: ولِمَ هذه العِبَرُ والعظات؟ فنجد الإجابة عن تساؤلنا فيما ورد بعد ذلك من أقوال وآيات. ونُتابع هذه الآيات.

قال، جلّ شأنه: ﴿إنّ فرعون علا في الأرض، وجعل أهلها شِيَعًا يستضعف طائفة منهم يذبِّح أبناءهم ويستحيي نساءهم، إنّه كان من المفسدين﴾

(٤). والمعنى أن مظاهر الفساد كانت قد عمّت واستشرت زمن فرعون. ومظاهر هذا الفساد هي:

أولاً: إنّ أهل مصر قد أصبحوا شِيَعًا.

ثانيًا: أن طائفةً منهم قد استُضعِفَت.

ثالثًا: إن أبناء هذه الطائفة المستضعفة أُمِر بذبحهم.

رابعًا: إن نساءهم قد استُحيِيَت.

وهذه الأمور جميعها جعلت فرعون في نظر ربِّ العالَمين من المفسدين.، فحرم نفسه واعوانه من هداية ربِّه (الطاهر السميع المجيب)، لكن الأمر لم يقف عند هذا الحدّ، بل بادرت العناية الإلهيّة لانقاذ هؤلاء المستضعفين: ﴿ونريد أن نَمُنَّ على الّذين استُضعفوا في الأرض، ونجعلَهم أئمّة ونجعلهم الوارثين﴾ (٥) ـ وقد أشار تعالى من خلال قوله هذا إلى محمدٍ وأصحابه الّذين استضعفهم أبو جهل وأعوانُه، وأخذوا يذيقونهم مُرّ العذاب والاضطهاد. فهذه هي العِظَةُ الأولى والعبرة الأولى المُستفادة ممّا تلاهُ الله، عزّ وجلّ، على رسوله الكريم، مُنبِّهًا إلى أنّه لابدّ أن يرعاه الله ويرعى المؤمنين من أصحابه، فينصرَهم ويجعلهم أئمّةً، ويجعلهم الوراثين.

ثم عرضت الآيات تفاصيل الأحداث التي ألمّت بموسى مُذْ كان في بطن أمّه، إلى أن شبّ وآتاه ربّه الرّسالة واصطفاه وأيّده بالمعجزات والبيّنات، وإلى أن ذكر الله نصَّ خطاب موسى لفرعون بقوله: ﴿وقال موسى ربّي أعلمُ بمن جاء بالهُدى من عنده، ومَن تكون له عاقبة الدّار، إنّه لايُفلح الظالمون﴾ (٣٧). وقد أراد تعالى أن ينبّه رسوله والمؤمنين إلى مابين حالهم وحال موسى وجماعته من مُشابهةٍ، ذلك ليتأسّوا بموسى ويقولوا لأبي جهلٍ وأعوانه إنّ: ﴿ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومَن تكون له عاقبةُ الدّار، إنه لايفلح الظّالمون﴾.

ولاحظْ، ياصاحبي، كيف ذكّر الله تعالى رسوله محمدًا (ﷺ) بعدئذٍ أنّ فرعون وأعوانه لم يتّعظوا بما وعظهم به موسى، بل استكبر فرعون، وتعالى على موسى وهارون كما في قوله تعالى: ﴿واستكبرَ هو وجنودُه في الأرض بغير الحقّ وظنّوا أنّهم إلينا لايُرجَعون ـ فأخذناه وجنودَه، فنبذناهم في اليمّ، فانظرْ كيف كان عاقبةُ الظالمين﴾ (٣٩). وأفْهَمَ تعالى رسوله من خلال ذلك أنّ قومه لن يتّعظوا، وأنهم سيلقَون المصير نفسه. وهذه عاقبة الظّالمين.

ثم ذكَّر تعالى رسوله بالنبوءة المتعلّقة ببعثته، هذه النبوءة التي أنبأها على لسان موسى، فقال تعالى مذكِّرًا: ﴿وماكنتَ بجانب الغربيّ إذ قضينا إلى موسى الأمر، وماكنت من الشّاهدين ـ ولكنّا أنشأنا قرونًا فتطاول عليهم العُمُر، وماكنتَ ثاويًا في أهل مَديَن تتلو عليهم آياتنا، ولكنّا كُنّا مرسلين ـ وماكنتَ بجانب الطور إذ ناديناه، ولكنْ رحمةً من ربِّك لتنذر قومًا ماأتاهم مِن نذير مِن قبلك لعلّهم يتذكّرون﴾ (٤٦)، أي لعل قومك يعتبرون بالذين استضعفهم فرعون، ويذكروا ذلك ولايغفلوا عنه، ويعرفوا أنّه سيجري في عهدك ماجرى في عهد فرعون، وأنّ بعثتك جاءت مصداقًا لنبوءتنا تلك التي تنبأنا بها على جبل الطّور. ولاحظْ كيف انتهى تعالى من ذلك كله ليقول لرسوله الكريم نَحْوَ ماقاله له مِن قَبل في سورة (الشّعراء): ﴿لعلّك باخعٌ نفسَك ألاّ يكونوا مؤمنين﴾. إذ قال له هنا: ﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنّما يتّبعون أهواءهم، ومَن أضَلُّ مِمّن اتّبع هواه بغير هُدى من الله، إنّ الله لايهدي القوم الظالمين﴾ (٥٠). ذلك أنّ الله هو الطاهر السميع والمجيد، وأنّ قومك هؤلاء مفسدون ظالمون. ولذلك أضاف قولَه تعالى: ﴿إنّك لاتهدي من أحببتَ ولكنّ الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾ (٥٦).

ولم يكتف، جلّ شأنه، بهذا التّذكير كله، وبالعِبَر والعِظات التي ضمّنها ماأنزله على رسوله الكريم. بل عَرَض أمام ناظره أحوال المشركين من الأقوام الذين كذّبوا فيما مضى صوت السّماء. وأتى بأدلّةٍ كونيّة يهتدي عن طريق تدبُّرها كلُّ فكرٍ سليم. ثم عاد بعد ذلك كُلِّه إلى أصل الموضوع، وهو موضوع موسى وفرعون، فأكمله بسرد قصّة قارون الذي استوزره فرعون، وكيف استغلّ هذا منصبه، وأثْرى على حساب سيِّده. وقد كان يُسانده في طغيانه. وأكمل تعالى تلك القصّة بما فيها من هدايةٍ وعظات.

وقد يتساءل الباحث المتدبِّر هنا عن المقصد الأساسي لقصّة موسى وفرعون: أهو مَحْضُ التنبيه إلى المُماثلة بين موسى ومحمّد ورسالتيهما التشريعيّتين، وإلى عوامل الفساد التي تستدعي دومًا تدخّل ربّ العالمين؟ أم التنبيه إلى أنّ الظالمين المستكبرون لايستفيدون غالبًا من مُعايَنَةِ الآيات السّماويّة، أو بيّنات المُرسَلين؟

وأقول لهذا الباحث المتدبِّر: ابحثْ أولاً عن الوشيجة التي تربط سورة (القَصَص) بسورة (النّمل) من حيث التسلسل الموضوعي، وتذكّرْ أنّ الله، عزّ وجلّ، قد اختتم سورة (النّمل) بقوله تعالى: ﴿وقل الحمد لله ـ سيُريكم آياته فتعرفونها، وماربّك بغافلٍ عمّا تعملون﴾. وقد علمت، ياصاحبي، أنّ الإنذار في هذه الآية الكريمة مُوجّهٌ إلى المكذِّبين الظالمين، علمًا بأن لفظ (الآية) قد ورد في هذا

الموضع بمعنى العلامة. والمعنى هو الإعلان بأنّ جميع أنواع الحمد لايستحقُّها إلاّ اللهُ، عزّوجلّ، جامع الأسماء الحسنى، ذلك أنّه المتصرِّف الأول والأخير في جميع الشؤون. لذلك فهو يُنذر المكذِّبين هؤلاء أن يرصدوا الأحداث المُقبلة التي ستبدو من خلالها علائم هذا التّصرُّف الإلهي في جميع الأمور، خصوصًا مايُعِدُّه الله، عزّ وجلّ، لمعاقبة الظالمين.

وهو، جلّ شأنه، وقد أنهى سورة (النّمل) بالإنذار المذكور، قد وجّه الأنظار في سورة (القَصَص) إلى أوّل آيةٍ سماويّة أو علامة ستبدو على طريق تنفيذ الخطّة السّماويّة. وقد عبّر تعالى عن هذه الآية أو العلامة بقوله تعالى في الآية (٨٥)، وقبل انتهاء سورة (القَصَص) بثلاث آيات: ﴿إنّ الّذي فرض عليك القرآن لرادُّك إلى مَعاد، قلْ ربّي أعلمُ مَن جاء بالهُدى ومن هو في ضلالٍ مبين﴾. أي أنّ أوّل علامةٍ على طريق تنفيذ الخطّة السّماويّة المُعدّةِ لإنقاذ محمد ومن معه من المؤمنين من ظلم المكذِّبين المشركين أنّ الله تعالى سيأمر رسوله الكريم بالهجرة من مكّة المكرّمة، ثم يعيده إليها فاتحًا مُعزَّزًا ومُكرَّمًا. فإن تحقّقت هذه العلامة، سيتجلى لأعين هؤلاء من هو على هُدى مِن ربّه ومن هو في ضلالٍ مبين. وهذه الدّلالة أشارت إليها ألفاظ ﴿لرادُّك إلى معاد﴾ أي إلى مكّة. وقد تحقّقت هذه العلامة فيما بعد بأجلى معانيها.

وأنا لم أقُل بهذه الدلالة وحدي. فهذا (ابن كثير) قد أورد في تفسيره أنّه: «قال البُخاري في التّفسير من صحيحه، حدثنا محمد بن مُقاتل، أنبأنا يَعْلي، حدثنا سفيان العُصْفُري عن عكرمة عن ابن عباس ﴿لرادّك إلى معاد﴾ قال إلى مكّة. وهكذا رواه النّسائي في تفسير سُننه، وابن جرير من حديث يَعلي، وهو ابن عُبيد الطنافسيّ به. وهكذا رواه العوفيّ عن ابن عباس ﴿لرادك إلى معاد﴾ أي لرادّك إلى مكّة كما أخرجك منها. وقال محمد بن اسحاق، عن مجاهد في قوله ﴿لرادّك إلى معاد﴾ إلى مَوْلِدِك بمكّة. وقال ابن أبي حاتم، وقد روى عن ابن عبّاس ويحي بن الجزّار وسعيد بن جُبير وعطيّة والضحّاك، نحوَذلك.»

فإذا عَرَضتَ في ذهنك، ياصاحبي الباحث المتدبِّر، جميعَ الأحداث التاريخيّة التي جرت لرسول الله (ﷺ) بعد نزول هذا الوعد الإلهيّ، وبعد إصداره تعالى أمرَه إلى رسوله الكريم بالهجرة من مكّة إلى المدينة المُنوّرة، فلا بُدّ أن تُلاحظ صواب مابيّنتُه لك، وهو أن هجرة محمد رسول الله من مكّة إلى المدينة، قد كانت أوّل علامة أو آية سماويّة مُحكمة، بل عناية إلهيّة بالرسول وأصحابه المؤمنين. وقد أجمع جميع الباحثين على أنّ تلك الهجرة غيّرت مجرى الأحداث والموازين لمصلحة

المسلمين الصّادقين. وقامت على إثرها حكومة الإسلام، وتسلّم فيها محمد (ﷺ) السلطتين الروحيّة والدنيويّة، وبدأ عهد حضارة جاء بها الإسلام، فاقت جميع ماعرفته البشريّة من حضارات.

وهذا الحدث العظيم نستخلص من تحقُّقه أنّ جميع ماأنزله الله تعالى على رسوله الكريم من عِبَرٍ وعِظات قد كان توطئة لإعلان هذه العلامة التي ستبدو معالمها عند هجرته، عليه السلام، من مكّة إلى المدينة. ولمّا كان تعالى قد وعد رسوله في سورة (النّمل) أن يُعِدَّ الأحداث لإنقاذ محمد وأصحابه من شرِّ أعدائه الظالمين، فقد جاء تعالى في سورة (القَصَص) يُفصح لهؤلاء المؤمنين، فيُطلعهم على أوّل علامةٍ أو آيةٍ تحملها هذه الخطّة السّماويّة المُعدّة، تهيئة لنفوسهم، ونفس رسوله خاصة، للمرحلة الخطيرة القادمة. ويُثبت صدقَ ماذكرناه أنّ المهاجرين من أصحاب رسول الله (ﷺ) كانوا يتمنّون على رسولهم أن يُرافقهم في هِجرتهم، فيُجيبهم: لم يأذَن لي ربي بالهجرة بعد. أي أنه كان ربّه قد وعده في سورة (القَصَص) أنّه سيُؤمر يومًا بالهجرة من مكّة المكرّمة، لكنه ماكان يدري إلى أين؟

وتذكّرْ، ياصاحبي، أنّه في اليوم الذي انتوى فيه أبو جهلٍ وأعوانه قتل محمد رسول الله (ﷺ) في أثناء مغادرته دارَه صباحًا، وأعدّوا الخطّة لذلك، فندبوا للأمر مقاتلاً من كلّ قبيلة عربيّة، يؤدّون هذه المَهَمّة الشرّيرة مُجتمعين، ليُضيعوا بذلك دم رسول الله فلا يعود هنالك مَنْ يُطالب بالثأر لدمه. وفي الليلة التي طوّق فيها هؤلاء ليلاً منزل رسول الله (ﷺ) كانت العناية الإلهيّة قد أعدّت خطّتها لضمان سلامة الرسول الكريم. وأمر الله رسوله بالهجرة. فجرى ماجرى ممّا تحدّثت عنه بالتفصيل أمّهات كتب التاريخ. وتجلّت من خلال أحداث هجرة محمد (ﷺ) من مكّة إلى المدينة علامات أنبأت المفسدين بوجود العناية الإلهيّة التي شملت شخص رسول الله وشخص صاحبه أبي بكر ساعة خروجهما من داره، وفي أثناء اختبائهما في غار ثور، وفي الطريق إلى المدينة المنوّرة، وبعد وصولهما إليها. ولابدّ أنك قد علمت، ياصاحبي ،كيف تسلّم محمد رسول الله (ﷺ) في المدينة السلطتين الروحيّة والزمنيّة، وكيف أضحى يأتمرُ بإمرته جيشٌ ماعرف العالم مثيلاً لشجاعة أفراده، ولِفَيضِ ماكانوا يحملونه من روح معنويّة عالية، وكثرة مايقدّمونه من تضحيات. وقد عاد رسول الله (ﷺ) فاتحًا إلى مكّة على رأس عشرة آلاف مؤمنٍ من أصحابه. وتحقّق ماقاله الله تعالى آخر سورة (القَصَص)، بعد العظات والعِبَر التي مهّد بها، تحقق قول ربّنا، عزّ وجلّ: ﴿إنّ الذي فرض عليك القرآن لَرادُّك إلى معاد ـ قُلْ ربي أعلم مَن جاء بالهدى ومَن هو في ضلالٍ مبين﴾.

وهكذا ندرك، ياصاحبي، معًا أنّ الله تعالى لم يقصد ممّا تلاه على رسوله الكريم من قصّتَي موسى وفرعون مَحْض الإخبار بما كان، بل الإنباء بما سيكون أيضًا. ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿فانظر كيف كان عاقبةُ الظالمين﴾ (٤٠). وهذا يعني أنّ مصير الظالمين، يامحمد، واحد، وأنّه سيحلّ بهم في عهدك ماحلّ بهم في عهد موسى وفرعون وفقًا لمعايير الحقّ والعدل. ونحن إذ نتلو عليك هذه الأنباء، فإنّما نتلوها لقومٍ يؤمنون بقُدرتنا على تحقيق ماتقتضيه مشيئتنا هذه.

من هذا تدرك، ياصاحبي، أنّ الأمر لم يكن مجرّد سرد قصة، كما فهم ذلك المتصفحون، بل كان المقصود منه إلقاء العظات والعِبر والإنباء عن حدثٍ عظيم سيقع، يكون علامة بارزة تثبت دفاع الله عن رسوله والمؤمنين. ليثبت من ذلك كُلّه مفتاح سورة (القَصَص) أي أحرف (طسم) المختزلة من (الطاهر السميع المجيد).

★ ★ ★

الفصل السابع عشر

|الم| من سورة |العنكبوت|

فإذا سلّمتَ، أيها الباحث المتدبِّر، بما ذكرته لك وأيقنتَ بصحته، فلا بأس أن تتحول إلى السورة التي تلي سورة (القَصَص) ترتيلاً أي إلى سورة (العنكبوت) التي أنزلها تعالى في مكّة أيضًا، لتجد أن الله، عزّ وجلّ، قد استهلّها بأحرف ﴿الم﴾، وهي الأحرف التي استهلّ بها سورة (البقرة)، والتي فسّرها رسول الله (ﷺ) نفسه بأنّها تعني (أنا الله العليم).

فإذا ذكرتَ ماقُلناه عند الكلام على الأحرف (الم) من سورتَي (البقرة) و(آل عمران)، حين أشرنا إلى أنّ موضوع هاتين السورتين إنما يدور حول علم الله، عزّ وجلّ، ومن زوايا مختلفة أيضًا، أقول إذا تذكّرت ذلك أدركت أنّ الله تعالى قد خصّص سورة (العنكبوت) لبحث أمورٍ تتعلّق بعلمه تعالى، ولكن من زاوية جديدة.

وإذا قرأتَ مااستهلّ الله تعالى به سورة (العنكبوت) وهو قوله: ﴿الم ـ أحَسِبَ النّاس أن يُترَكوا أن يقولوا آمنا وهم لايُفتَنون ـ ولقد فَتَنّا الذين مِن قبلِهم ـ فَلَيَعلَمَنَّ الله الذين صدقوا ولَيَعلَمَنَّ الكاذبين﴾، أدركت منه أنّ مضمون هذه السورة متعلّق بعلم الله حولَ مسيرةِ المؤمنين.

فإذا أردتَ البحث عن الوشيجة بين سورتَي (القَصَص) و(العنكبوت) ومابينهما من ارتباط، فقرأت مااختتم تعالى به سورة (القَصَص)، وهو قوله تعالى: ﴿ولايَصُدُّنَّك عن آيات الله بعد إذ أُنزِلت إليك، وادعُ إلى ربّك، ولاتكونَنَّ من المشركين ـ ولاتدعُ مع الله إلهًا آخر، لاإله إلاّ هو، كل شيءٍ هالكٌ إلاّ وجهَه، له الحكُم وإليه تُرجَعون﴾، أدركتَ أنّ الله تعالى بعد أن أطلع رسوله والمؤمنين على أول علامة من خطّته الربّانيّة التي أعدّها لإنقاذهم وإعزازهم، أكّد لهم في هذه الآيات ضرورة التّركيز على الدّعاء، كما حذّرهم من مغبّة الشّرك الخفيّ، ذلك أنّ: ﴿كلُّ شيء هالك إلاّ وجهَه، له الحكم وإليه تُرجَعون﴾.

ويُستَنتَج من ذلك أنّ علم الله تعالى سيدور في سورة (العنكبوت) حول تعليم التوحيد الخالص من شوائب الشّرك، ومايُفيد سالكي هذه الطّريق من المؤمنين. وهكذا تتجلّى الوشيجة والارتباط الموضوعي لكلّ ذي عينين، فيفسّر معنى استهلاله، عزّ وجلّ، سورة (العنكبوت) بقوله تعالى: ﴿ال★م - أحَسِبَ الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لايُفتَنون. ولقد فَتَنّا الذين من قبلهم، فلَيَعلَمَنّ الله الذين صدقوا ولَيَعلمنّ الكاذبين﴾. فقد أراد، جلّ شأنه، إفهام المؤمنين الصادقين أنّ التوحيد الخالص يقتضي من المؤمن أن يَمُرَّ بمختلف الابتلاءات التي تكشف عن مدى يقينه بربّه، عزّ وجلّ، وتسليمه بأنّ كل شيء هالك إلاّ وجهه، وأنّ الحكم في هذا الكون للحكومة السّماويّة وحدَها، وأنّ الناس إنّما يُرجَعون أخيرًا من حيث المآل إلى الله جميعًا.

فمن خلال هذا التسلسل الموضوعي، وهذا الفهم للآيات، يتجلّى لعيني هذا الباحث المتدبِّر سرُّ تسمية هذه السورة بسورة (العنكبوت) هذا السرّ الذي كشف عنه قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الّذين اتّخذوا من دون الله أولياء كمَثَل العنكبوت اتّخذت بيتًا، وإنّ أوهن البيوت لَبَيتُ العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾ (٤١). فها هو ذا، جلّ شأنه، يمثل حال المُشرك، الشّرك الخفي، بمن يتّخذ بيتًا شبيهًا ببيت العنكبوت، لايحميه من حُكم الله تعالى قُوّة أو سُلطان. ولذلك رأيناه تعالى يقول بعد هذه الآية: ﴿إنّ الله يعلمُ مايدعُون من دونه من شيء، وهو العزيز الحيكم﴾ (٤٢). كما لاحظناه تعالى وقد أتبع ذلك بقوله أيضًا: ﴿وتلك الأمثال نضربها للنّاس، ومايعقِلُها إلاّ العالمون﴾ (٤٣)، إشارةً إلى علم الله الذي أتى من مُنطلقه مضمون سورة (العنكبوت). أي مايتعلّق بموضوع التوحيد الخالص من جميع شوائب الشّرك الخفيّ.

★ ★ ★

الفصل الثامن عشر

|الم| من سورة |الروم|

إلى هنا يكتفي هذا الباحث المتدبِّر بما توصل إليه بحثه وتدبُّره لسورة (العنكبوت). فإذا انتقل بعد ذلك إلى سورة (الروم)، يجد أنّ الله، عزّ وجلّ، قد استهلّها أيضًا بأحرف (الم). فلا يساوره شكّ أن هذه الأحرف مختَزَلة من (أنا الله العليم). ويقول في حديث نفسه: لابدّ أنّ مضمون سورة (الروم) قد جاء من زاوية جديدةٍ من علم الله تعالى. ويدلّه على هذه الزاوية الجديدة قوله تعالى في مُستهَلّ هذه السورة: ﴿يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ (٧). أي أنّ علم الله لايُشابه علم الناس الذين يأخذون بظواهر الأشياء، ويحكمون بما تراءى لهم من ذلك. بل إن علمه يشمَل بواطن الأمور من هذه الحياة الدنيا. وتخلُّفُ علم الناس عن مستوى العلم الإلهي يؤدّي بالضّرورة إلى غفلتهم عن عواقب الأمور، بلُبابها وجوهرها، دون ظواهرها وزخارفها. ولذلك استهلّ ربّنا سورة (الروم) هذه بقوله تعالى: ﴿الم ـ غُلِبَت الرّوم ـ في أدنى الأرض وهم مِن بَعد غَلَبِهم سيَغلِبون ـ في بضع سنين، لله الأمر مِن قبلُ ومِن بَعدُ، ويومئذٍ يفرح المؤمنون ـ بنصر الله، ينصر من يشاء، وهو العزيز الرحيم﴾ (٥).

فإذا بحث هذا الباحث المتدبِّر عن الوشيجة مابين سورتي (العنكبوت) و(الروم)، وارتباط مابينهما لاحظَ أنّ الله تعالى اختتم سورة (العنكبوت) بقوله: ﴿والذين جاهدوا فينا لَنَهدينَّهم سُبُلَنا، وإن الله لَمَعَ المحسنين﴾، أي أنّ السّاعين لمعرفة ربّهم ولقائه يهيدهم ربُّهم سُبُله إذا كانوا من المحسنين. والمحسن لغةً ضدّ المسيء. والحُسنُ في عرف العلماء يأتي من تلاؤم الطبائع. وهو صفةٌ من صفات التكامل التي تستحقّ المديح. فمعنى ﴿إنّ الله لَمَعَ المحسنين﴾ أنه تعالى مع السّاعين لمعرفة ربّهم، والمجاهدين للقائه، الذين يتجنّبون الإساءة ويحرصون على التّلاؤم بين أفعالهم وفطرتهم، فيبتغون التّكامل ويستحقّون كلّ مديح.

وقد جاءت الآيات في سورة (الروم) تُرشد هؤلاء المحسنين إلى درب التّوحيد الخالص من شوائب الشّرك، منبِّهةً أذهانهم إلى أنّ الأمور ليست مرهونةً بما يعرِضُ لها، بل بخواتيمها، وأنّ العاقبة للمتّقين. فإذا تجلّت لهذا الباحث المتدبِّر معالم زاوية العلم الإلهيّ التي أشارت إليها الأحرف ﴿الم﴾ من سورة (الرّوم) هذه، انتقل صاحبنا منها إلى سورة (لُقمان)، ليجد أنّ الله تعالى استهلّها أيضًا بأحرف ﴿الم﴾ نفسها. فيوقن أنّه لابُدّ أن تكون مختزَلةً من (أنا الله العليم).

★ ★ ★

الفصل التاسع عشر

|الم| من سورة |لقمان|

فإذا مضى صاحبنا إلى سورة (لُقمان) التي تناول الله تعالى موضوعها من زاوية جديدة من علمه، عزّ وجلّ، قرأ قوله تعالى: ﴿الم ـ تلك آيات الكتاب الحكيم ـ هُدىً ورحمةً للمحسنين ـ الذين يُقيمون الصّلاة ويؤتون الزّكاة وهم بالآخرة هم يوقنون ـ أولئك على هُدىً من ربّهم وأولئك هم المفلحون﴾، فأدرك من هذه الآيات الكريمة أنّ الله، عزّ وجلّ، ينبّه أذهان الناس إلى أنّ عظمة آيات هذا الكتاب التي تجلّت في كمال تعاليمه المُنزّلة من لَدُنه تعالى، وهو (الحكيم) المُتقن للأمور، والتّعاليم المُدَعَّمة بالحجج الناطقة والبراهين السّاطعة، أقول ينبِّه الأذهان إلى أنّ عظمة هذه الآيات، وهي على هذه الصورة، قد بدت في كونها ﴿هُدى ورحمة للمحسنين﴾ المجاهدين من المؤمنين، الحريصين على المُلاءمة بين أعمالهم وفطرتهم، الذين يبتغون من خلال سعيهم معارج الكمال، فيستحقّون بذلك المديح، ويُقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة بخواتيم الأمور المتعلّقة بوعد الله الحقّ في الدنيا والآخرة، وأولئك على هدى من ربِّهم وأولئك هم المُفلحون، الذين يفوزون بما يُجاهدون أنفسهم لأجله في الدنيا والآخرة، وذلك وفقًا لوعد ربِّهم الذي قطعه على نفسه، وإنّ وعد الله حقّ، لأنّه هو ﴿العزيز الحكيم﴾. العزيز أي المنيع الذي يحقّق مايُريد. والحكيم المُتقن للأمور، المُنزل للآيات المُدعَّمة بالبيّنات.

ويلاحظ هذا الباحث المتدبِّر أنّ الآيات قد تناولت بعد ذلك (غير المُحسنين) من النّاس الذين يتبضّعون بزُخرف القول، ويتاجرون بلهو الحديث. علمًا بأنّ اللهو في اللغة هو الغفلة عن حقائق الأشياء، واتّباع هوى النفس. والتّلذّذ بما يُلهي الإنسان ويجعله غافلاً، وبما يُروِّح به عن نفسه بما لاتقتضيه الحكمة. وأصحاب لهو الحديث هؤلاء يَضلّون عن سبيل الله. هذا السبيل الذي لابدّ للعاقل أن يبتغيه ويَلزمه. وهم يُضلّون غيرهم من دون علمٍ أو حجّة أو بُرهان. فترى في تصرّفاتهم ظواهر الهُزء والسُّخرية بالمؤمنين المحسنين. يقول، جلّ شأنه، إنّه سبق أن وعد وقدّر للمتاجرين بلهو الحديث هؤلاء عذابًا مُهينًا، على حين وعد الله وقدّر لفئة المؤمنين المُحسنين جنّات النّعيم.

ويلاحظ هذا الباحث المتدبِّر أنّ الله تعالى، بعد أن طرح هاتين المُسلّمتَين، أتى بمثال (لُقمان) الحكيم، وهو حافل بالمواعظ والعِبَر لفئة المؤمنين المُحسنين، ليُكمل بذلك ماقدّمه، سبحانه، لهم من مواعظ وعبَر في السّوَر السّابقة.

ثم اتجهت الآيات لمخاطبة الناس عامّة. إذ جاء قوله تعالى: ﴿ياأيها الناس اتّقُوا ربّكم، واخشَوا يومًا لايجزي والدٌ عن ولده، ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئًا، إنّ وعد الله حقّ، فلا تغرنّكم الحياة الدنيا ولايغرنّكم بالله الغرور﴾ (لقمان ٣٣).

خاطب الله الناس عامّة بعد أن أتى بمثال لقمان الحكيم فقال تعالى: ﴿ومن يُسلمْ وجهَه إلى الله وهو مُحسنٌ فقد استمسك بالعُروة الوثقى، وإلى الله عاقبة الأمور﴾ (٢٢). ويدرك هذا الباحث المتدبِّر، من ذلك كلّه، أنّ سورة (لُقمان) قد خصّصها الله تعالى للكلام على علمه المتعلّق بخواتيم الأمور تصديقًا لوعده الحقّ الأزليّ الذي سبق أن عرضنا له. وقد جعل الله تعالى تمسُّك المؤمن بتعاليم كتابه تمسُّكًا بالعُروة الوُثقى. والعروة لُغةً هي مقبض الكوز أو الدّلو، وكل مايُؤخذ باليد من حلقة. وكلّما ازداد استمساك المؤمن بدينه أحكم قَبْضَهُ للعروة الوُثقى التي توثّق صلته بآيات الكتاب الحكيم الذي انزله الله هُدى ورحمة للمحسنين.

★ ★ ★

الفصل العشرون

|الم| من سورة |السجدة|

وقد لاحظ هذا الباحث المتدبِّر أن الله تعالى قد استهل سورة (السّجدة) بالأحرف ﴿الم﴾ موقنًا أنها تعني (أنا الله العليم). هذا في ضوء ماثبت له من دلالاتها حتّى الآن. ولابدّ أن يكون قد أيقن أن الله، جلّ شأنه، يعرِضُ واسع علمه من زاوية نظرٍ جديدة أيضًا. وسيمضي صاحبنا بعدُ محاولاً استيضاح زاوية النظر العلميّة الجديدة. فيعود بذاكرته قبل كلّ شيء إلى فُصول قواعد الاختزال التي تحثُّه على تدبُّر الآية التي تلي الأحرف ﴿الم﴾ وهي قوله تعالى: ﴿آلم ـ تنزيلُ الكتاب لاريب فيه من ربّ العالَمين﴾. فيلفت نظرَه قولُه تعالى هنا ﴿لاريب فيه﴾، فيذهب ظنّه إلى أن علم الله تعالى سيدور في سورة (السّجدة) حول كون القرآن المجيد ﴿لاريب فيه﴾، ذلك أنّه تنزيلٌ من قِبَل ربّ العالَمين.

فإذا تقصّى صاحبنا بجِدٍّ معاني كلمة (الرَّيب) في معاجم اللغويّين، لاحظ أنّ هذه المعاجم تنصّ على أنّ الرّيْب هو الظّنة والتّهمة والإلزام بغير دليل والشكّ والحاجة والآفة. كأن تقول: ريب المنون، كما جاء في أقرب الموارد. فلكلمة (رَيب) إذن عدّة معاني ودلالات يصِحُّ الأخذ بها في هذا المقام. إذ إنّ قوله تعالى: ﴿لاريب فيه﴾ هو نفيٌ للريب من دون تخصيص معنى من معانيه، أي أنّ الله تعالى قد أكّد من خلال قوله عن كتابه العزيز ﴿لاريب فيه﴾ أنّه كتابٌ خالٍ من الأمور الظنيّة، وأنّ أبحاثه مدعّمةٌ جميعًا بالحجج والبراهين، وأنّ تعاليم هذا الكتاب لاتتوجّه إلى أحدٍ فتتهمه ظنًّا، وأن تعاليمه لايتطرّق إليها الشكّ، وأنّ البشريّة لاتعوزها مسألةٌ تحتاج إلى حلّ أو معضلة لابدّ من معالجتها إلاّ وجدت هذا الحلّ والعلاج في هذا الكتاب، سواء أكانت هذه المُعضلة أو المسألة أخلاقيّة أم مدنيّة أم اقتصاديّة أم سياسيّة أم سوى ذلك. وحاشا للقرآن الكريم أن يُغفِل أمرًا من هذه الأمور جميعًا.

وهكذا يُدرك صاحبنا أنّ علم الله تعالى انطلق من كون هذا الكتاب ﴿لاريب فيه﴾، وأنّه تنزيلٌ من ربّ العالمين. فإذا بحث عن الوشيجة والتسلسل الموضوعي لمضمونَي (لُقمان والسّجدة) لاحظ أنّ الله، عزّ وجلّ، عندما أنهى سورة (لُقمان) بقوله تعالى: ﴿إن الله عنده علمُ السّاعة، ويُنزِّل الغيث، ويعلم مافي الأرحام، وماتدري نفس ماذا تكسِب غدًا، وماتدري نفسٌ بأيّ أرضٍ تموت، إنّ الله عليم خبير﴾، مشيرًا بذلك إلى واسع علمه وخبرته. فقد استهل، جلّ شأنه، سورة (السّجدة) بما يثبت هذا العلم الواسع والخبرة لذات الله، عزّ وجلّ، من خلال قوله تعالى: ﴿الم، تنزيلُ الكتاب لاريب فيه من ربّ العالمين﴾، أي أنّ الله الذي أحاط علمُه وخبرتُه جميع هذه الأمور التي تضمَّنتها آخر آيةٍ من سورة (لُقمان) هو الله الذي أنزل هذا الكتاب. هذا الكتاب الذي لم يترك شاردة ولا واردة إلاّ بحثها من زاوية علمه بحثًا منقطع المثيل، وهكذا تتجلّى الوشيجة والتسلسل الموضوعي بين السورتين.

فإذا تجاوز صاحبنا الآية التي استهلّ بها ربّنا سورة (السّجدة) لاحظ أنه قد تلاها مباشرة: ﴿أم يقولون افتراه. . .﴾. وتؤكد له هذه الجملة ماتوصّل إليه حتى الآن من أنّ الله تعالى جاء يُثبت من خلال واسع علمه وخبرته أنّ كتابه القرآن الكريم الذي أنزله على قلب محمد رسول الله (ﷺ) لم يكن من اختلاق محمد نفسه، بل هو تنزيلٌ من ربّ العالمين. ويزداد صاحبنا يقينًا عندما يقرأ بعدها مباشرة أيضًا قوله تعالى: ﴿. . . بل هو الحقّ من ربّك لتنذر قومًا ماأتاهم مِن نذير مِن قبلِك، لعلّهم يهتدون﴾ (٣).

فإذا انتهى هذا الباحث المتدبِّر من تبيُّن زاوية النظر العلميّة لمضمون سورة (السّجدة) وناحية تسلسلها الموضوعي مع مضمون سورة (لُقمان)، دفعه شوقُه ألاّ يقف عند هذا الحدّ من المعرفة، وأن يستزيد معرفةً بالأدلّة التي قدّمها ربّنا، عزّ وجلّ، لإثبات كون كتابه ﴿لاريب فيه﴾ من جهة، وأن ليس هو بالكتاب المُفترى من قِبَل محمد رسول الله (ﷺ). فصاحبنا يبتغي بيانَ ذلك كلّه، لعلّه يهديه هذا إلى تعيين محور مواضيع السّور الثلاث: (الأحزاب وسبأ وفاطر)، وهي السّور التي تتلو سورة (السّجدة). هذه السّور التي لم يستهلّها ربُّنا بأحرف اختزال، فجاءت تابعةً، بلا ريب، لهذه السورة، (السّجدة)، وفقًا لقواعد الاختزال القرآنيّ وخطّته التي فصّلناها في الفصول الأولى من هذا الكتاب.

وقد يلفِت نظرَ هذا الباحث المتدبِّر حرفُ العطف (أم) فيتساءل عن سرّ دلالته في قوله تعالى: ﴿أم يقولون افْتراه﴾. ويعلم بعد البحث أنّه تعالى أتى هنا بهذا الحرف العاطف ليقطع به الجملة السابقة، وهي ﴿تنزيل الكتاب لاريب فيه من ربّ العالمين﴾، ويستأنف مابعده بالقول (أم يقولون افتراه)، وقد أتت تتمّة هذا القول بقوله ﴿بل هو الحق من ربّك لتُنذر قومًا ماأتاهم من نذير من قَبلك لعلهم يهتدون﴾.

فلو أنه، جلّ شأنه، قال هنا: ﴿ويقولون افتراه﴾، فما كان حرف الواو العاطف يؤديّ هذه المَهَمّة لحرف (أم) التي ذكرناها. وهذا يُفصح عن عظمة الأسلوب البيانيّ الإلهيّ.

ثم إنّ صاحبنا، بعد أن تبينّ حكمة الإيتاء بحرف العطف (أم) المسمّاة المُنقطعة، يبحث عمّا أتم به ربّنا، عزّ وجلّ، قوله: ﴿أم يقولون افتراه﴾.

ينطلق من محاولة تبينُّ معنى ﴿ربّ العالمين﴾ بادىء ذي بدء. ويتذكّر أنّ (الرّبّ) يعني أنّه الذّات التي تُنشىء الشيء حالاً بعد حال، لتصل به حدّ الكمال. وعليه فمعنى ﴿ربّ العالمين﴾ هو أنّ الله، عزّ وجلّ، هو خالق كلّ شيء، وهو الذي يطوِّر هذا العالم المخلوق باتّجاه إكماله، وتحقيق الغاية والمقصود من خلقه إياه. ويؤدي هذا المعنى إلى نفي كون هذا القرآن مُفترى، من مُنطلق أنّه آخر حلقة من حلقات الكتب السماويّة التي أُنزلت لتطوير المخلوق في هذا العالم، وإيصاله إلى الغاية المنشودة من خلقه.

ثم ينتقل صاحبنا لتبينُّ ماأتى الله تعالى من تتمّة لقوله: ﴿أم يقولون افتراه﴾. ويلاحظ أنّه تعالى أجاب في البدء إجابة عامّة وشاملة، فقال: ﴿بل هو الحقّ من ربّك..﴾ فأتى بحرف (بل)، وهو حرف إضراب لإبطال مازعمه المشركون، وعلى اعتبار (بل) هنا حرف ابتداء، وليس حرفًا عاطفًا. ثم إنّ ضمير (هو) يعود على الكتاب محلّ البحث والكلام. وقوله تعالى: ﴿هو الحقّ من ربّك..﴾، لاتُفهم دلالته الحقيقيّة مالم يُحِط الباحث علمًا بدلالات كلمة (الحقّ) المُعرّفة بالألف واللام.

يعود صاحبنا هنا إلى معاجم اللغة العربيّة ليجد أنّ أصحابها قالوا: إنّ الحقّ ضدّ الباطل، وهو اسم من أسماء الله الحسنى، وهو الأمر المقضيّ به، وهو العدل، وهو الصِّدق، وهو الموجود الثابت، وهو الحزم. ثمّ إنّ معنى (الحق)، كما بيّنه صاحب الكليّات، هو الّذي لايُقبَّح منه فعل، وهو في الأصل صفةٌ سلبيّة قائمة

بالنفي. ومادام قد ورد لفظ (الحق) في قوله تعالى: ﴿بل هو الحقّ من ربّك﴾ معرَّفًا بالألف واللاّم، فقد أراد تعالى الاستغراق وشمول هذا اللفظ جميع معانيه وكأنه تعالى قد أراد من تعريفه للحقّ أن يقول: إنّ هذا الكتاب يخلو من أيِّ نوعٍ من أنواع الباطل، وإن جميع آياته مقضيٌّ بها منه، عزّ وجلّ، وأنّ جميع تعاليمه تمثّل كمال العدالة على جميع المستويات، وأنّه كتابٌ مفعمٌ بالحقائق الثابتة والوقائع الصّادقة، وأنّه مُنزَل ﴿من ربِّك﴾ أي من جانب الله الخالق، يامحمّد، الذي خلقك وربّاك وهيّأك واصطفاك لحمل رسالة هذا الكتاب العظيم، ﴿لتنذر قومًا ماأتاهم من نذير من قبلك لعلّهم يهتدون﴾.

ويلاحظ صاحبنا أنّ هذه الإجابة قد أتت عامّة شاملة، فاحتاجت إلى مايدعمها بالحجج والبراهين. وهذا هو ماعمد إليه ربّنا. فقد شدّ أذهان الباحثين مُباشرة إلى هذا الكون من حولهم، وكشف لهم عن حقيقةٍ علميّة قبل ألف وخمسمائة عام، يوم لم يكن في أيدي الباحثين أيّ خيط من خيوط هذه الحقيقة العلميّة، فقال تعالى: ﴿من ربّك. . .﴾ ﴿الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستّة أيام. .﴾ والمعنى:

١ ـ أنّ هذا الكون مخلوق، وماهو بأزليٍّ أو أبديّ.

٢ ـ وأنّ الله هو الذي خلقه ضمن تجليّات أسمائه الحسنى.

٣ ـ وقد خلق الله هذا الكون وهو ربّه ﴿رب العالمين﴾ أي كان ولايزال يطوِّره حالاً بعد حال، ليصل به مرتبة الكمال.

٤ـ وقد مرّ خَلْقُ هذا الكون بمشيئته تعالى حتى يومنا هذا بستّة أدوارٍ زمنيّة. (ذلك أن معنى اليوم في اللغة مُطلق الزّمان).

وبعد أن كشف ربنا، عزّ وجلّ، عن هذه الحقائق العلميّة التي ثبتت صحتها لدى علماء القرن العشرين، أتى بحرف (ثم) الذي يفيد الترتيب، فقال ﴿ثمّ استوى على العرش. .﴾، إشارة إلى أنّ خلق الله للإنسان على الأرض، قد تمّ لاحقًا في الدّور الأخير من خلق هذا العالم. وأنّ الإنسان كان هو المقصود من خلق هذا العالم كُلّه، وأنّه المخلوق الذي خلقه ربُّه من أجل أن يعبد ربّه أي يتّصف بصفاته. لذلك استوى الله على عرشه يهدي هذا المخلوق سواء السّبيل إليه. وأنّ الله تعالى لم يأذن لأحدٍ من خلقه أن يتولّى أمرهم ويشفع لهم بين يدي خالقهم، إلاّ من كان الله يصطفيه ويزوّده برسالته السّماويّة في مختلف عصور التاريخ البشريّ. وهذه حقيقةٌ يعلمُها كلّ من راجع تاريخ بني الإنسان، يقول تعالى: أفلا تتذكّرون هذه الحقيقة الكونيّة؟

وقد عبّر، جلّ شأنه، عمّا ذكرناه من خلال قوله تعالى: ﴿. . . مالكم من دونه من وليٍّ ولاشفيعٍ، أفلا تتذكرون﴾ (٤)، علمًا بأنّ حرف (ما) قد ورد في قوله تعالى ﴿مالكم من دونه. .﴾ بمعنى ليس. أي ليس لكم من دونه من وليٍّ ولاشفيعٍ، إلاّ من يرسله الله تعالى ليتولّى أمركم ويشفع لكم بين يديه، عزّ وجلّ.

ويفهم هذا الباحث المتدبِّر من هذه الآية الكريمة التي فصّلنا القول فيها، أن الله تعالى قد أراد بها شدّ أذهان المكذِّبين إلى حقيقة تاريخيّة قد جاء بها هذا الكتاب السّماويّ، تثبت صدق مااحتواه، وأنّه تنزيل من ربّ العالمين. وهذه الحقيقة التاريخيّة هي مايلاحظه الإنسان من خلال دراسته تاريخَ البشر. وهو ظهور سلسلةٍ من المبعوثين السّماويينّ بحلقاتٍ من الشرائع السّماويّة، المقصود بها تطوير الإنسان وهدايته، وأنّ هذا القرآن إنّما يؤلّف آخر حلْقةٍ من حلقات هذه السلسلة التشريعيّة. فإن أغفلتم هذا القرآن من حسابكم، وادّعيتم أنّه مُفترى من عند محمّد بن عبدالله أخللتُم بهذا التسلسل التشريعيّ، وبالضرورة الزمنيّة التي اقتضت تنزيل هذا الكتاب من ربّ العالمين، وعاد هذا الكون مفتوحًا، غيرَ مكتمل في حلقاته وهداياته، أفلا تتذكرون هذه الحقيقة بجميع معالمها؟

فلمّا تتجلّى لعينيَ صاحبنا معالم هذا الدليل العلميّ الذي قدّمه الله تعالى، إثباتًا لكون القرآن الكريم هو الحقّ من ربّنا خالق السماوات والأرض، يخطر بباله أنّ هذا الدليل يستلزم إثبات كون القرآن آخر الشرائع وأنّ محمّدًا خاتَم النبيّين. وقد استدعى هذا الأمر تخصيص سورة (الأحزاب)، التي تتلو سورة (السّجدة) من حيث ترتيبُ تلاوتها لبسط القول في هذه المسألة نفسها. وهذا ماسنلاحظه عند الكلام على سورة (الأحزاب).

وقد يكون الباحث المتدبِّر في عَجَلَةٍ من أمره، فينتقل مؤقتًا إلى سورة (الأحزاب)، حتى إذا فرغ منها، عاد أدراجه إلى متابعةِ ماجاءت به سورة (السّجدة) من دلائل وبراهين.

★ ★ ★

١ ـ سورة (الأحزاب)

ويُلاحظ صاحبنا هنا في سورة (الأحزاب) التي لم يستهلّها ربّنا بأحرف اختزال، بل جعلها تابعةً في موضوعها لسورة (السّجدة)، أقول: يُلاحظ أنه تعالى قد استهلّها بأن أمر رسوله الكريم أن يفرّق في حُكمه بين المؤمن والمُنافق. ويتناول بعد هذا الأمر موضوع الأبوة بمختلف أنواعها الرّوحيّة والجسمانيّة. فيأمر بترك عادة التبنّي التي تعارفها العرب في جاهليّتهم، وأن يُدعى الأبناء لآبائهم ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله..﴾ (٥). وينبّه تعالى أذهان المؤمنين إلى أن محمّدًا رسول الله هو أبوهم الروحيّ، فهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم. وأنّ أزواجه أمّهاتهم أيضًا. وأنّ تعليمه هذا ليس بالتعليم الجديد، بل هو ميثاقٌ قديمٌ معقودٌ مابين الله وأنبيائه أمثال نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، ولذلك يؤخذ منك، يامحمّد، هذا الميثاق. ويذكّر الله، عزّ وجلّ، رسوله الكريم والمؤمنين بما حدث في موقعة الخندق، وكيف كان حال المؤمنين الصّادقين وحال المنافقين. ثم يأمرهم أن يتّخذوا رسول الله أسوةً حسنةً لهم ﴿لقد كان لكم في رسول الله أُسوةٌ حسنةٌ لِمن كان يرجو الله واليومَ الآخِرَ وذَكَر الله كثيرًا﴾ (٢١). وذكّر الذين اتّخذوه أسوة حسنة في موقعة (الأحزاب)، كيف أثابهم الله ودافع عنهم، وكشف لأعينهم حقيقة المنافقين.

وتوجّه، جلّ شأنه، بعدئذٍ إلى نساء الرّسول أنفسهنّ، فأمرهنّ أن يكُنّ من المحسنات لينلْنَ أجرهنّ مرتين على اعتبار أنّهن أمهات المؤمنين وأسوتهنّ. ثم أوصى الله تعالى جميع المؤمنين بطاعة رسوله الكريم. وعرض في أثناء ذلك لقضيّة مُطلّقةِ زيد، وسمح لرسوله الكريم بالزواج منها، ليكون في ذلك الدليل العمليّ على بطلان نظام التبنّي في الإسلام.

فلما انتهى ربنا، جلّ شأنه، من بسط ذلك كُلّه، توضيحًا للمكانة الروحيّة والمنزلة السّامية التي اختَصّ بها محمّدًا رسول الله (ﷺ) عند ربّه، عزّ وجلّ، إكمالاً منه تعالى للدليل العلميّ الكونيّ الأوّل الذي لاحظناه في سورة (السّجدة)، وقلنا إنه يستلزم الكلام على المنزلة الروحيّة للرسول الأمين (ﷺ). أقول: ماإن انتهى تعالى من التمهيد المسهب لذلك، حتى قال: ﴿ماكان محمّد أبا أحدٍ من رجالكم ولكنْ رسولَ الله وخاتَمَ النبيّين، وكان الله بكلّ شيءٍ عليمًا﴾ (٤٠). فإذا قرأ الباحث المتدبّر هذه الآية الكريمة أدرك أنّها هي محور مايدور من أمور في سورة (الأحزاب). واتضحت له الحقيقة بأجلى بيان. فأخذ بتدبّر هذه الآية نفسها.

ويلاحظ أن الله تعالى، وقد نفى أن يكون محمّد أبا أحدٍ من رجال قومه، أي بعد أن نفى عنه الأبوّة الجسديّة، استدرك الموضوع وأثبت له أبوّته الروحيّة عن طريق إيتائه تعالى بحرف الاستدراك (لكنْ) الذي يعني إثبات أمرٍ يتّصل بما سبق قبله. فقد استدركت الآية إثبات الأبوّة الروحيّة للرسول الكريم (ﷺ) بقوله تعالى: ﴿ولكن رسولَ الله﴾، على اعتبار أنّه تعالى سبق أن نبّه إلى ذلك في السّورة نفسها، حينما قال: ﴿وزوجاته أمهاتكم..﴾. ويبقى والحال هذه أن يعرف صاحبنا دلالة ﴿وخاتَم النبيّين﴾. فالواو هنا عاطفة، وهي تعطف المُتغايرات.

فإذا عاد صاحبنا إلى معاجم العربيّة، وبحث فيها عن دلالة كلمة (خاتَم) وجد قولهم: إن الخاتَم بفتح التّاء يعني آلةً تُختم بها الرّسائل، والخاتِم بكسر التّاء يعني الحَلْيَ في الإصبع وجمعه الحُليّ. كما أنّ الخاتم يعني نهاية الشيء من قولك: ختم الكتاب إذا أتمّ قراءته.

فإذا تناول صاحبنا المعنى الأوّل، وهو آلة ختم الرّسائل، فإنّ خَتم الصّكّ، كما يقول اللغويّون، يُقصد به صيانة الصكّ من التزوير أو التبديل. ويكون لفظ خاتَم اسمًا من خَتَم المتعدّي بنفسه. ويفهم صاحبنا من هذا المعنى دلالته على حقيقة يعرفها الباحثون، هي أنّ الله تعالى أعطى محمّدًا (ﷺ) منزلة تصديق النبيّين وإثبات نبوءاتهم. وأنّه، لولا بعثته عليه السلام، لم تثبت نبوّة نبيٍّ سابقٍ بالدليل القطعي.

ويتناول صاحبنا المعنى الثاني لكلمة خاتِم بكسر التاء، وهو معنى الحَلْي الذي يُلبس في الإصبَع، ويتذكّر أنّ الحكمة من لُبس الخاتِم هي الزينة، فيفهم من هذا المعنى دلالته على أنّ محمّدًا (ﷺ) هو في نظر ربّه زينة النبيّين.

ويتناول المعنى الثالث، وهو نهاية الشيء، ويفهم منه دلالته على أنّ الله، عزّ وجلّ، قد جعل محمّدًا رسوله آخِر الأنبياء المُشرِّعين. فلا شرع جديدًا بعده. وينتهي صاحبنا من هذه المعاني جميعها ليفهم من قوله تعالى عن رسوله الكريم ﴿وخاتَم النبيّين﴾ أنّ محمّدًا (ﷺ) ماهو بأبيكم الرّوحيّ وحسب، بل هو مصدِّق النبيّين وزينتهم، ولانبيّ مشرِّعًا بعده. ذلك أنّ القرآن الكريم أنزله الله تعالى ليكون أكمل الشّرائع السماويّة وخاتَمها، فلا تحتاج البشريّة بعده إلى تشريع جديد بعد أن أنزل الله القرآن صالحًا لكل زمان ومكان. وهذا المعنى يذكّر صاحبنا بقول المسيح ابن مريم في الإنجيل: (ماجئت لأنقض الناموس بل لأكمل)، أي أنّ تعاليم التوراة لم تكن قد استوفت صفة الكمال من حيث التشريع. ولذلك أنهى ربّنا، جلّ شأنه، الآية التي نحن بصددها بقوله تعالى: ﴿.. وكان الله بكل شيءٍ

عليمًا﴾ (٤٠).

ثم إنّ كلمة (خاتَم) تُذكِّر صاحبنا أيضًا بشاعرٍ يرثي شاعرًا آخر، ويقول:

فُجِع القريضُ بخاتَم الشّعراء وغدير روضته حبيبِ الطّائي

فينتبه إلى أن هذا الشاعر قد استعمل كلمة (خاتَم) في هذا البيت ليشير إلى أنه قد بلغ مستوى عاليًا من الإجادة في شعره فلم يترك مجالاً لظهور شاعر بعده. ويلاحظ أنّ هذا المعنى ينطبق على دلالة خاتَم النبيّين، ليدلّ على أنّ محمّدًا هو سيدٌ ليس بعده سيِّدٌ من الأنبياء الكرام.

وعلى هذه الصورة تكون قد تجلّت لعينيّ هذا الباحث المتدبِّر المعاني العديدة للآية الكريمة: ﴿ماكان محمّد أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسولَ الله وخاتَم النبيين، وكان الله بكلّ شيء عليمًا﴾. ويؤكّد الله، عزّ وجلّ، لصاحبنا هذه المعاني من خلال قوله بعدها: ﴿ياأيّها النبيّ إنّا أرسلناك شاهدًا ومبشّرًا ونذيرًا وداعيًا إلى أن الله بإذنه وسراجًا منيرًا ـ وبشر المؤمنين بأنّ لهم فضلاً كبيرًا﴾ (٤٥ ـ ٤٧). فقد خاطب ربّنا، عزّ وجلّ، رسوله الأمين بـ "ياأيّها النبيّ"، وجاء بلفظ (نبيٌّ) مُعرّفًا بالألف واللام ليشير إلى أنّ محمّدًا (ﷺ) هو النبي المعهود ببعثه عند أهل الكتاب تصديقًا لنبوءة جبل الطّور: (أقيم لهم من بين إخوتهم نبيًا مثلك وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكلّ ماأُكلّمه به..) (تثنية ١٨). وقد كفر أهل الكتاب بنعمة هذه النبوءة، لذلك قال تعالى: ﴿إنّا أرسلناك شاهدًا..﴾ أي شاهدًا على كُفران هؤلاء نعمةَ ربّهم، عزّ وجلّ، التي أنعمها عليهم. وأضاف: ﴿ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا﴾. فشبّه مقام محمّد الرّوحاني ومنزلته بالشمس السّاطعة نسبةً إلى الأقمار والنّجوم من حولها. وهذا الوصف يطابق معاني (خاتَم النبيّين) من حيث أن محمّدًا (ﷺ) مصدِّق نبوّات مَن سَبَقه من الأنبياء، وزينةُ النبيّين وآخِر المشرِّعين، وسيِّد الأنبياء أجمعين، "والفضل بالخيرات لابزمان" على حسب ماورد في شعر إمام هذا الزّمان. فالنبيّ محمّد بن عبدالله (ﷺ) هو السّراج المنير.

على هذه الصورة يتجلّى لهذا الباحث المتدبِّر كيف أكمل الله، عزّ وجلّ، الدّليل العلميّ الكونيّ الذي طرحه في سورة (السّجدة) من خلال قوله تعالى: ﴿اللهُ الذي خلق السماوات والأرض في ستّة أيام ثم استوى على العرش..﴾ هذا الدّليل الذي أثبت ربّنا، عزّ وجلّ، من خلاله أن الكتاب المُنزَل غير مفترىً من قِبل أحدٍ من الناس، بل هو الحقّ من ربّك، خصوصًا أنّه كتابٌ لاريب فيه. أي لاريب في كونه من عند الله، أي خالٍ من الظّنون، ومدعَّمة تعاليمه بالحجج

والبراهين، ولاتأتي بحقيقة من دون دليل. كما أنّ جميع تعاليمه ومواعظه لايتطرّق إليها أيّ شكّ. ويستحيل أن تحتاج البشريّة إلى حلّ معضلة إلاّ وجدت لتلك المعضلة علاجًا في تعاليم هذا الكتاب العظيم، سواء أكانت معضلتهم أخلاقيّة أم مدنيّة أم اقتصاديّة أم سياسيّة أم غير ذلك.

وكأنه تعالى قد قال للمكذّبين، من خلال هذا الدليل: إذا ذهبتم إلى أنّ هذا الكتاب مُفترى فقد ثبت عجز نظركم عن إدراك معالم هذا الكون الذي لايكتمل المقصد منه إلاّ أن يكون هذا الكتاب قد أُنزل كاملاً لاريب فيه على قلب سيّد المرسلين وآخر الأنبياء المُشرِّعين، الرّسول الذي بعثه الله تعالى مصدِّقًا لما أنزل على الرُّسل من قبله، ومكمِّلاً لِما أتوا به من حلقات الهداية المتعلّقة بخلق الإنسان نفسه. فلا تتذكّرون أنّ هذا الكتاب لاريب فيه، وقد أُنزل على (طه) الرّجل العظيم. الأمر الذي يثبُت منه أنّه تنزيلٌ من ربّ العالمين. وماأعوز زعم المكذِّبين في هذا كله إلى البرهان والدّليل. فما بال هؤلاء لايتذكّرون، ويزعمون أن مُفترى. فزعمُهم هذا يُبطل حكمة خلق هذا الكون الذي اقتضى تكوينه ستّة أدوار مرّ بها، لايعلم مدى كلّ دور إلاّ الله ربّ العالمين.

★ ★ ★

٢ ـ عودة إلى سورة (السّجدة)

والآن وقد تبيّن للباحث المتدبّر معالم هذا الدليل الكونيّ الأوّل الذي أكملته سورة (الأحزاب)، يعود أدراجه إلى سورة (السّجدة) ليتابع الآيات، وهي قوله تعالى ﴿... مِن ربك... ـ الله... ـ يدبِّر الأمر من السّماء إلى الأرض ثم يعرُجُ إليه في يومٍ كان مقداره ألف سنةٍ ممّا تعُدُّون ـ ذلك عالِمُ الغيب والشهادة العزيزُ الحكيم﴾ (٣ـ٦).

فإذا تقصّى صاحبنا كعادته معنى قوله تعالى ﴿يدبِّر الأمر﴾ في معاجم اللغويّين، لاحظ قولها: دبَّر الأمر نظر في عاقبته وتفكّر فيها، واعتنى به ورتّبه ونظّمه كما جاء في (محيط المحيط). وفي ضوء ذلك يُدرك أنّ معنى قوله تعالى: ﴿يدبِّر الأمر من السّماء إلى الأرض..﴾ أنّ الله تعالى قد أعدّ هذا الكتاب ليضعه موضع العمل وأنّه هيّأ أسباب ذلك ونظّم وسائله. كما نظر فيما يمكن أن يؤول إليه حاله إذا ماأهمله أهله وتباطأوا في العمل بتعاليمه، وعالج عواقب ذلك. كلّ هذا

قد جرى بتخطيطٍ وتوجيه من السّماء إلى الأرض بأسلوب الله الروحيّ وإلهامه وبشائره.

ويتدبّر صاحبنا دلالة ﴿ثم يعرُج إليه..﴾، وهو يعلم أنّ حرف (ثم) يُفيد التّرتيب. ويدرك من خلال دلالة هذا الحرف الإشارة إلى تباطؤ أهل هذا الكتاب القرآن وتكاسلهم في العمل بتعاليمه فيما بعد، فيعرُج أمره إليه. وتبقى قلوب هؤلاء خالية من الإيمان الذي يعمر قلوب العاملين على تعاليمه.

فلمّا يتساءل صاحبنا في نفسه عن الزّمان المقصود من ﴿ثم يعُرج إليه..﴾ يجد لتوّه جواباً تدلّ عليه في قوله تعالى: ﴿في يومٍ كان مقداره ألفَ سنةٍ ممّا تعُدّون﴾. وهذه إشارة أيضاً بل وتصريح بأنّ عصر الانحطاط الإسلامي الذي سيأتي على المسلمين، سيأتي بعد مرور ألف عام على نزول القرآن المجيد. وإذا ألقى صاحبنا نظرةً إلى تاريخ الإسلام يلاحظ أنّ هذا قد تحقّق بكلّ جلاء.

ويُتابع صاحبنا بعد أن كشف عن هذه النبوءة الخطيرة قول ربّه، عزّ وجلّ: ﴿ذلك عالِم الغيب والشّهادة العزيزُ الحكيم﴾. فيلاحظ أنّه تعالى بدل أن يأتي باسم الإشارة للقريب (هذا)، أتى بـ (ذلك) وهو اسم إشارة للبعيد. وحكمة هذا الاستبدال هنا هو أن يفخّم هذه النبوءة القرآنيّة ويضخّمها، لأنها ستشكّل دليلاً مهمّاً على كون الله، عزّ وجلّ، عالِمَ الغيب والشهادة، وأنّه العزيز الحكيم.

ويتدبّر صاحبنا معاني (الغيب) من (محيط المحيط) فيعلم أنّه يعني كلّ ماغاب عن العيون، وإن كان محصلاً في القلوب. أمّا الشّهادة فهي ضدُّ الغيب، وتعني الحضور مع المشاهدة بالبصر أو البصيرة، كما تعني الخبر قاطع الدّلالة. ويدرك صاحبنا من خلال معاني كلمتيَ الغيْب والشهادة أنّ الله تعالى ينبّهنا إلى أن عظمة دليله الغيبيّ تأتّت من أنّ في جعبة الخالق ماغاب عن العيون ولم تشهده الأبصار ولا البصائر وفقًا لقوله عزّ وجلّ: ﴿ولايُحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ وقوله: ﴿وسِعَ ربُّنا كل شيءٍ علمًا﴾.

ثم يتدبّر صاحبنا معاني صفتيَ ﴿العزيز الرحيم﴾ ليلاحظ قول أصحاب المعاجم: إنّ العزيز هو المنيع الذي لايُنال ولايُغالَب ولايُعجزه شيء، والذي لامثيل له، والشّريف القويّ المُكرَّم، والغالب على أهل مملكته. و﴿الرحيم﴾ هو رقيق الفؤاد رقّةً عظيمةً تقتضي مغفرة ذُنوب عباده، والتفضّل بالإحسان إليهم. وقد قال الله تعالى في سورة (البقرة): ﴿والله يختصُّ برحمته مَنْ يشاء﴾ والرحيم من يرحم غيرَ مُغرض.

وهنا، وقد تجلّت لصاحبنا دلالات هذا الدّليل الغيبيّ ومدلولات ألفاظ الآية الكريمة التي أتت به، يقف يقلّب وجوه الرأي فيما حدث تاريخيًا منذ تَلَقّي محمّد رسول الله (ﷺ) سورةَ (السّجدة) في مكّة المُكرّمة، وحتى يومنا هذا. وتتبين لصاحبنا عظمة ماحدث تمامًا. فها أنّ هذا الأمر الغيبيّ، قد انحسرت عنه الغشاوة، وقد دبّر الله تعالى أمر هذا الكتاب من السماء إلى الأرض مُدّة ألف عام، وأخذت روح تعاليم هذا الكتاب تعرُج إلى الله، عزّ وجلّ، وعاد الإسلام اسمًا والقرآن رسمًا عند مسلمي عصر انحطاط المسلمين، وثبت بذلك أن الله تعالى الذي أنزل آيَ القرآن هو عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم.

ويتساءل صاحبنا عن مُستقبل القرآن الذي هجره أهله على صعيد تعاملهم وسلوكهم اليومي. وأساهِم أنا في الكشف عمّا تعذّر الكشف عنه. فأقول: تذكّرْ، ياصاحبي، أقوال ربّنا، عزّ وجلّ: ﴿واللهُ يختصّ برحمته من يشاء﴾، و﴿وسعت رحمتي كُلّ شيء فسأكتبها للذين آمنوا. .﴾ والوعدَ الإلهي الصّادق ﴿إنا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون﴾، ووعدَه رسولَه بقوله في سورة (الضُّحى): ﴿ماودّعك ربّك وماقلى ـ ولَلآخرة خيرٌ لك من الأولى ـ ولسوف يُعطيك ربُّك فترضى﴾.

★ ★ ★

٣ ـ سورة (سبأ)

وتدبّرْ، ياصاحبي، سورة (سبأ)، فهي السّورة التي خصّصها ربُّنا لإزالة الغشاوة عن الأعين، وفيها الإجابة عمّا رُحت تتساءل عنه. وهي تابعةٌ في مضمونها لمضمون سورة (السّجدة)، وفقًا لقواعد الاختزال وخطّته القرآنيّة. وقد تضمّنت الإجابة عمّا سيحدث بعد مضي ألف عام على بعثته (ﷺ) وظهور دعوة الإسلام.

فيلاحظ هذا الباحث المتدبِّر أن الله، عزّ وجلّ، استهلّ سورة (سبأ) بقوله تعالى: ﴿الحمد للّه الذي له مافي السّماوات ومافي الأرض وله الحمد في الآخِرة، وهو الحكيم الخبير﴾. وبرجوعه إلى معاجم اللغويّين يدرك أن ﴿الحمد لله﴾ معناه أنّ جميع أنواع الشكر والثناء والرّضا يستحقُّها الله، عزّ وجلّ، فاللام هنا هي لام الاستحقاق، لأن قوله تعالى: ﴿الذي له مافي السّماوات ومافي الأرض﴾ يعني استحقاقه تعالى جميعَ أنواع الحمد، ذلك أنه مالكُ مافي السماوات والأرض. فاللام في (له) هي لام المُلك، وإشارةٌ إلى أنّ الإنسان يعيش أصلاً على أفضال هذا الخالق المالك في جميع أحواله. فلا يصيب خيرًا إلاّ كان لهذا الخير أصلٌ في هذا

المُلك. على حين كانت اللام في ﴿الحمد لله﴾ لام الاستحقاق. والسؤال هنا: هل أُريدَ بالآخِرة في هذه الآية الكريمة (دار البقاء)؟ بينما كانت دار البقاء في ﴿الحمد لله﴾ مشمولة فيه؟ ويترك صاحبنا أمر الفصل في أمرها إلى مابعد الانتهاء من تدبُّر هذه الآية بكاملها.

ويتناول قوله تعالى: ﴿وهو الحكيم الخبير﴾. فالحكيم لُغةً هو صاحب الحكمة والعالِمُ المتقن الأمورَ نظرًا وعملاً، وصاحب الحُجّة القاطعة المسّماة البُرهان. أمّا (الخبير) فهو العالم بالخبر، وذو الخبرة التّامة، والعارف كُنهَ الأشياء وحقائقها، والذي لاتخفى عليه خافية، ولايغيب عنه شيء من الأشياء (محيط المحيط).

فلمّا يتوصّل صاحبنا إلى هذه المعاني تظلّ تساوره الأسئلة والاستفهامات التالية:

١ ـ مامعنى (الآخرة) في هذا المقام؟
٢ ـ ماعلاقة دلالات هذه الآية الكريمة بصفتَي الله (الحكيم الخبير)؟
٣ ـ ماالوشيجة والتسلسل الموضوعي اللذان يربطان دلالات هذه الآية بدلالات الآيات التي أنهى تعالى بها سورة (الأحزاب)؟

وأجد من واجبي أن أساعد على إزالة الشكوك بالإجابة عن تساؤلات صاحبي، فأقول: سيتبيّنُ بجوابي هذا، ياصاحبي، الوشيجةُ والتّسلسل الموضوعّي مابين سورتَي (سبأ) و(الأحزاب). فتعال نتحرَّ معًا الآيات الأواخر من سورة (الأحزاب) واضعين نُصب أعيننا أنّ موضوع سورة (الأحزاب) قد دار حول أبوّة محمد (ﷺ) الرّوحيّة لأمّته، وحول كونه خاتَم النبيّين أيضًا، وأنّ الله تعالى حذّر فيها من زمرة المنافقين.

وقد أنهى، جلّ شأنه، سورة (الأحزاب) بقوله: ﴿ياأيها الذّين آمنوا لاتكونوا كالذين آذَوا موسى فبرّأه الله مما قالوا، وكان عند الله وجيهًا ـ ياأيّها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديدًا ـ يُصلحْ لكم أعمالكم ويغفرْ لكم ذنوبكم، ومن يُطعِ الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا ـ إنّا عَرَضنا الأمانة على السّماوات والأرض والجبال فأبينْ أنْ يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، إنّه كان ظلومًا جهولاً﴾ (٦٩ ـ ٧٢).

وقد نبّهت هذه الآيات المؤمنين أنّ يتجنّبوا في تعاملهم مع النّاس النفاق ونصحتهم بأن يقولوا قولاً سديدًا، ويُطيعوا الله ورسوله ولاينحرفوا عن ذلك كيلا يؤذوا رسول الله محمدًا خاتَم النبيّين وسيّد المُرسَلين، وكيلا يُصيبهم ماأصاب قومَ

موسى مِن قبلهم، وقد كانوا ماذكر تعالى من المنافقين. وقد أتبع تعالى هذا التنبيه قولَه عن المنافقين: ﴿لئن لم ينته المنافقون والّذين في قلوبهم مرضٌ والمُرجفون في المدينة لَنُغرينَّك بهم ثم لايجاورونك فيها إلاّ قليلاً ـ ملعونين، أينما ثُقِفوا أُخذوا وقُتِّلوا تقتيلاً ـ سُنّةَ الله في الذين خلَوا مِن قبلُ، ولن تجد لسُنّة الله تبديلاً﴾ (٦٠ـ٦٢) ونعلم إلى ذلك أنّ الله، عزّ وجلّ، قال عن المُنافقين في مقامٍ آخر من كتابه العزيز إنهم في الدّرك الأسفل من النّار.

فماذا فعل الله تعالى بقوم موسى، وكيف برّأه الله ممّا قالوا، فكان عند الله وجيهًا؟

إنّه تعالى بعث فيهم المسيح بن مريم مصدِّقًا للتّوراة، ومُبشِّرًا برسولٍ يأتي مِن بعده اسمه أحمد. وبهذا يعظ الله، جلّ شأنه، المسلمين أنّ يقعوا فيما وقع فيه قوم موسى. وقد وعظهم بقوله تعالى: ﴿إنّا عرضنا الأمانة على السّماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، إنّه كان ظلومًا جهولاً﴾ (٧٢)، أي أنّ الذي يحمل هذه الأمانة التي لايسهُل حملُها ينبغي ألاّ ينقلب ظلومًا لنفسه جهولاً بعواقب الأمور، لايحسب للعواقب حسابها. فهذا هو معنى الجهالة.

ثم راح، جلّ شأنه، يؤكِّد للمُسلمين ضرورة الالتزام بمواعِظِه تعالى، والحذَرِ من عواقب الأمور التي وصفها تعالى بقوله: ﴿ليُعذِّب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات، وكان الله غفورًا رحيمًا﴾ (٧٣)، إشارةً إلى أنّ الذي سينقلب على عَقِبه من المؤمنين والمؤمنات فيغدو من المنافقين سيلقى هذا المصير.

وخلاصة مضمون هذه الآيات الكريمة التي أنهى بها، جلّ شأنه، سورة (الأحزاب) هي التنبيه إلى أنّ مجرد الإيمان والبيعة على أنّ محمدًا (ﷺ) هو خاتَم النبيّين لايكفي في نظر الله، عزّ وجلّ، بل لابدّ من العمل على تعاليمه وإطاعة أوامره حفاظًا على دين المؤمن وإيمانه، وإلاّ كان شأنه شأن المُنافقين من مدّعي الإيمان. ذلك أنّ الإيمان يعني لغةً التّسليم قولاً وعملاً. فمن انقلب من المسلمين على عقِبه ولو بعد ألف عام من نزول القرآن الكريم، فاتّصف بصفات النّفاق التي ذكرها ربّنا في هذه الآيات الكريمة، فلابدّ حينئذٍ أن يُعامَل وفقًا لقوله تعالى: ﴿ملعونين، أينما ثُقفوا أُخذوا وقُتِّلوا تقتيلاً ـ سنّةَ الله في الذين خَلوا مِن قبلُ، (أي الذي أصاب بني إسرائيل خاصة) ـ ولن تجد لسُنّة الله تبديلاً﴾ (الأحزاب ٦٢).

وتعال معي، ياصاحبي، إلى مااستهلّ به الله تعالى سورة (سبأ)، وهو قوله: ﴿الحمد لله الذي له مافي السماوات ومافي الأرض وله الحمد في الآخِرة، وهو الحكيم الخبير﴾، فأنت، وقد تدبَّرت دلالات هذه الآية ومعانيها، يَلزَمُك، بحكم التسلسل الموضوعيّ، أن تأخذ للفظ (الآخِرة) هنا معنى آخر غير (دار البقاء). فالآخِرة هنا هي في مقابلة الأولى، وهي التي سيبتدىء دورها بعد مضي الألف عام المشار إليها في سورة (السّجدة).

وتأكيدًا للمعنى الذي ذكرته لاحظْ معي كيف أنّ الله تعالى لم يقل هنا: الحمد لله في الأولى والآخِرة، بل قال: ﴿وله الحمد في الآخِرة﴾، فأتى بلام المُلك بدل لام الاستحقاق التي أتى بها في ﴿الحمد لله﴾، إشارةً منه تعالى إلى أنّ زمام أمور (الآخِرة) التي ستأتي بعد الألف عام، سيظلّ بيديه، ولن يُفلت منها عند هذه البعثة الآخِرة للإسلام، بل إنّ جميع أنواع الحمد يظلّ يستحقُّها ربّنا، عزّ وجلّ، وهو ماستثبته تطورات الأحداث ونتائجها.

على هذه الصورة يتجلّى لعينَي صاحبنا مايربط سورة (سبأ) بسورة (الأحزاب)، موضوعيًّا، وبأجلى معانيه.

ونعود إلى لفظ (الآخِرة) من حيث دلالتُه اللغويّة وبمساعدة معاجم اللغويّين. فهو يدلّ إمّا على (دار البقاء) وإما على آخِرة أمرٍ ما مقابل أوّله. وبهذا المعنى الثاني استُعمل لفظ (الآخِرة) في سورة (الضّحى) في قوله تعالى: ﴿وللآخِرة خيرٌ لك من الأولى﴾ كما سبق لي بيانه. وبهذا المعنى ورد أيضًا قوله تعالى هنا ﴿وله الحمد في الآخِرة﴾. فالمراد آخِر البعثة الإسلاميّة التي شرَعت ببعثة محمد رسول الله (ﷺ) وانتهت بانحطاط المسلمين بعد مضي ألف عام على ظهورها. واستُعمِلت لأصحاب البعثة الأولى كلمة السابقين الأوّلين في مقابل كلمة (الآخرين) لمن سيحملون الدّعوة بعد انقضاء عصر انحطاط المسلمين، وفي السّوَر التّالية: الشعراء والصافّات والزُّخرف والواقعة والمرسَلات، وهذا ماسنتطرّق إليه في حينه.

والآن، وقد تبيَّن لهذا الباحث المتدبِّر معالم التسلسل الموضوعيّ مابين سورتَي (سبأ) و(الأحزاب)، وإشارة كلمة (الآخِرة) إلى مسلمي مابعد عصر الانحطاط، وليس إلى دار البقاء فقد بات من السّهل عليه إدراك علاقة جميع هذه الأمور بصفتَي ﴿الحكيم الخبير﴾ اللتين وَرَدَتا في آخر آية الاستهلال هذه.

فمن خلال هاتين الصّفتين ﴿الحكيم الخبير﴾ نبّه تعالى أذهان الناس إلى أنّه يُحكم أمور نهضة الإسلام ثانية بحكمة وخبرة فائقتين. ذلك أنّ (الحكيم) لغةً هو الذي

يُحكم الأمور نظريًا وعمليًا وبإتقان وبتدعيم من حجج وبراهين. و(الخبير) هو العالِم الذي لايغرب عن علمه شيء من الأخبار المستقبليّة، ويُحيط علمًا بكنه الأشياء وحقائقها. وهاتان الصّفتان تُعدّان قرينةً في هذه الآية الكريمة على أنّ المقصود من (الآخِرة) فيها هو ماذهبنا إليه.

وعلى هذه الصّورة يُصبح صاحبنا على بيِّنة من الأمر، بعد أن قرأ الأجوبة المقنعة عن تساؤلاته، فيتابع آيات سورة (سبأ) وهو على يقين جازم ممّا فهمه من آية الاستهلال.

ويلاحظ أنّه تعالى انتقل بعدها ليقول: ﴿وقال الذين كفروا لاتأتينا السّاعة، قُل بلى وربّي لَتأتينّكم عالِم الغيب، لايعزُب عنه مثقال ذرةٍ في السّماوات ولا في الأرض ولاأصغرُ مِن ذلك ولا أكبرُ إلّا في كتاب مبين﴾ (٣). ولايفاجأ صاحبنا بألفاظ هذه الآية لأنه قد أضحى يربط موضوعيًا مابين الإنذار الموجّه في سورة (الكهف) للمسيحيّين الذين قالوا: اتّخذ الله ولدًا، ومسيحيّي عصر انحطاط المسلمين الذين أشار إليهم في كلمة (الآخِرة) آنفًا من طرَفٍ خفيّ ومُعلنًا قوله تعالى ﴿وله الحمد في الآخِرة﴾. ويدرك أن المقصود من الذين كفروا هنا مسيحيو أمريكة وأوربة خاصّة الذين هيمنوا على المسلمين بعد انحطاط مُجتمعاتهم، فهم الذين يقول تعالى هنا على لسان حالهم ﴿لاتأتينا السّاعة﴾ لظنّهم أنّ عصر هيمنتهم على العالم سيدوم، فلا تأتي عليه ساعة زواله.

هذا الفهم يدفع صاحبنا ليبحث فيما أورده أصحاب المعاجم عن معاني (السّاعة) فيلاحظ لهذا اللفظ عدّة معاني ودلالات. الأوّل منها دلالة السّاعة على جزءٍ من أربعة وعشرين جزءً من مجموع الليل والنّهار. والثاني دلالتها على الزمن الحاضر، كأنّ تقول: هذه ساعتك بمعنى هذا وقتك. والثّالث دلالة السّاعة على القيامة والنهاية. كأنْ تقول لأحدٍ من الناس: أتت ساعتك أي نهايتك وقيامتك. وإنّما أراد الله تعالى بقوله عن هؤلاء الغربيّين المعاصرين ﴿لاتأتينا السّاعة﴾ هذا المعنى الأخير.

وإذا تدبّر صاحبنا كتاب الله القرآن لاحظ أنّ لفظ السّاعة ورد فيه مُعرّفًا بالألف واللام ٣٨ مرّة، وبالمعنى الثالث الأخير الذي لاحظناه. على حين لم يَرِد مُنكّرًا غير عشر مرات فقط، وبالمعاني الأخرى لدلالاته.

وردّ تعالى على الذين كفروا القائلين ﴿لاتأتينا الساعة﴾ بقوله: ﴿بلى وربيّ لَتأتينّكم﴾. وبلى حرف يفيد إبطال النّفي، إبطال زعْم هؤلاء الغربيّين المعاصرين أن لن تأتي ساعة زوالهم. وجاء الكلام على صيغة القَسم في ﴿وربّي﴾، والمقصود

منه تقديمُ الله عالِم الغيْب والشهادة شاهدًا على عدم صحة هذا الادعاء. أي أنّ هيمنتهم وسيادتهم على العالم زائلةٌ لامحالة. وتبرز عظمة هذا النّبأ السّماويّ لأنه ورد قبل خمسة عشر قرنًا من الزّمان، وقبل أن يحلم هؤلاء بما تحقّق لهم من هذه الهيمنة والزعامة، هؤلاء الذين يقولون بلسان حالهم إنّ هيمنتهم ستدوم. ويزيد في عظمة هذا النبأ التحدّي يوم إنزاله بقوله تعالى: ﴿. . . لَتأتينّكم عالِم الغيْب﴾ أي أنه نبأ من جانب عالم الغيب الذي ﴿لايعزُب عنه مثقالُ ذرّة في السماوات ولافي الأرض ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ إلاّ في كتابٍ مبين﴾، أي مِن عالِم الغَيْب الذي لديه كتابُ الغيب مبسوطًا تتجلّى فيه مسيرة الأحداث.

ويكتب تعالى إنزال العذاب بهؤلاء المُتغطرسين بقوله: ﴿والذين سعَوا في آياتنا مُعاجزين أولئك لهم عذابٌ من رجزٍ أليم﴾ (٥). والرجز لغةً معناه القَذَر والشِّرك وعبادة الأوثان، وكل مايفيد البُعدَ عن الإله الحقّ. وفي هذا إشارة إلى أنه تعالى سيبتلي هؤلاء بحياةٍ ماجنةٍ قذِرة، وبِشِركٍ يُبعدهم عن إلههم الحقيقيّ. وهذا الأمر يشكِّل في حقيقته وصفًا للمجتمعات الغربيّة المعاصرة بكل مافي الكلمة من معنى، ويفضح مساوىء مُجتمعاتهم قولاً وعملاً. ويصف تعالى حال المؤمنين يومئذٍ بقوله: ﴿ ويرى الّذين أوتوا العلمَ الذي أُنزل إليك من ربك هو الحقّ، ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾ (سبأ ٦).

فإذا انتهت الآيات من تصوير أحوال هؤلاء وهؤلاء رسمت لنا صورةً عن نظرة هؤلاء إلى المجتمع الإسلامي وحاله الذي آل إليه زمن سيادة المسلمين على العالَم، بقوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا هل ندلُّكم على رجلٍ يُنبِّئكم إذا مُزِّقتم كُلَّ مُمزَّق إنّكم لَفي خَلقٍ جديد ـ أفترى على الله كذِبًا أم به جِنّة﴾ (٧ ـ ٨). ذلك أن هؤلاء يسخرون فيما بينهم ممّا لدى المسلمين من نبوءات، مشيرين إلى انقسام العالم الإسلامي واستحالة بعث كيان الإسلام من جديد. هذا مايُفهم من قولهم: ﴿ينبِّئكم إذا مُزِّقتم كُلَّ مُمزَّق إنكم لَفي خَلق جديد﴾ (٧). ذلك أنهم يتناولون نبوءات الإسلام بطريق الظنّ، وأنّ الظنّ لايغني من الحقّ شيئًا، فلا يكفي زعمهم أنّ هذه النبوءات هي مجرّد افتراء يفتريه قائلها، وأنّها إحدى ظواهر جهالاته والعياذ بالله تعالى.

وهاهو، جلّ شأنه، يردُّ على ظنونهم وتوهّماتهم منبِّهًا إياهم إلى أنهم غافلون عن حقيقة كونهم يَرسَخون في العذاب والضّلال البعيد بما يتجلّى من حياةٍ ماجنة تعيشها مجتمعاتهم، وبما التزموا به من نهج تفكير مادّيّ محض، مُتناسين أنّ العقل على مستوى أمور الغيْب لايكون معطاءً إلاّ بفضل عامل مساعد هو الوحي

السماويّ. من هنا كان طبيعيًّا جدًّا ألاّ يتخيَّلوا إمكان بعث الإسلام من جديد.

وهنا ينبِّه الله، عزّ وجلّ، هؤلاء الغربيّين الذين اتَّخذوا لله ولدًا، إلى أنهم لايزالون يخضعون لسلطان الله ورحمته، وذلك بقوله تعالى: ﴿أفلم يَرَوا إلى مابين أيديهم وماخلفَهم من السّماء والأرض، إنْ نَشَأ نَخْسِفْ بهم الأرضَ أو نُسقِطْ عليهم كِسَفًا من السّماء، إنّ في ذلك لآيةً لكلّ عبد منيب﴾ (٩)، أي أنّه لاتزال السّماء والأرض في مُتناوَل أيدي الله، خاضعتين لمشيئته، وفي منأى عن سلطان هؤلاء الضّالين. فإن شاء الله زلزل بهم الأرض أو أغرقهم بماء السّماء. وقد رأينا نموذجًا من ذلك هذا الزلزالَ الذي حلّ بسان فرنسيسكو ودمّر جزءًا منها بعد مؤتمر القِمّة المعروف، وهذه الفيضانات التي أحدثتها الأمطار في أجزاء أخرى من العالم الغربيّ. يقول تعالى إنّ مثل هذا الابتلاء أمارة على أنّنا نملك القُدرة على إهلاك هؤلاء في نظر كلّ عبدٍ مؤمنٍ هادٍ ورجع إلى ربّه، عزّ وجلّ.

وعاد تعالى بعد ئذٍ فذكّر هؤلاء الغربيّين خاصّة بما حلّ بمُلك داوود وسليمان عليهما السّلام. كما ذكّرهم بجنّتَي مملكة (سبأ)، وكيف دمّرهما سيلُ العَرِم، وذلك في قوله تعالى: ﴿فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العَرِم...﴾ (١٦). ثم أضاف تعالى ﴿ذلك جزيناهم بما كَفَروا، وهل نجازي إلاّ الكَفور﴾ (١٧). ثم أضاف تعالى بعدها: ﴿ولقد صدَّق عليهم إبليسُ ظنَّه فاتَّبعوه إلاّ فريقًا من المؤمنين﴾ (٢٠).

ويلاحظ صاحبنا أنّ الله، عزّ وجلّ، بعد أنْ وضّح لهؤلاء الذين اتخذوا لله ولدًا من الكافرين أنّ شركهم بالله تعالى لن يُجديهم نفعًا، أكّد لهم أنّه لم يبعث محمّدًا رسوله الأمين إلى قومه العرب وحسب، بل بعثه إلى النّاس كافّة ومنهم الأمريكيون والأوربيون. عبّر عن هذا بقوله تعالى: ﴿وماأرسلناك إلاّ كافّةً للنّاس بشيرًا ونذيرًا ولكنّ أكثر الناس لايعلمون﴾ (٢٨).

ثم جعل، جلّ شأنه، يصوِّر ماينطق به لسان حال هؤلاء بقوله تعالى: ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولادًا ومانحن بمعذَّبين﴾ (٣٥). وأجاب تعالى على ذلك بقوله: ﴿قُل إنّ ربي يبسُط الرزق لمن يشاء ويَقدِرُ ولكنّ أكثر الناس لايعلمون ـ وماأموالكم ولا أولادكم بالتي تقرِّبكم عندنا زُلفى إلاّ من آمن وعمِل صالحًا، فأولئك لهم جزاء الضِّعف بما عملوا وهم في الغُرُفات آمنون ـ والذين يسعَون في آياتنا مُعاجزين أولئك في العذاب محضَرون﴾ (٣٦ ـ ٣٨).

وقبل أن يُنهي ربّنا، عزَّ وجلَّ، سورة (سبأ) جاء في أواخر الآيات مايردُّ به على اتّهام هؤلاء رسولَه الأمين بأنّ بهِ جِنَّة، فقال، عزَّ من قائل: ﴿قلْ إنّما أعِظكم بواحدة، أن تقوموا لله مثنى وفُرادى ثم تتفكّروا، مابصاحبكم من جِنَّة، إنْ هو إلاّ نذير لكم بين يَدي عذابٍ شديد﴾ (٤٦). ثم صوّر تعالى نهاية الأمريكيّين والأوربيّين ممّن اتّخذوا لله ولدًا نهايتهم المشؤومة والعذاب الذي ينتظرهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ فَزِعوا فلا فَوتَ وأُخِذوا من مكان قريب ـ وقالوا آمنّا به، وأنّى لهم التّناوُشُ من مكان بعيد ـ وقد كفروا به من قبلُ، ويقذفون بالغيب من مكان بعيد ـ وحيل بينهم وبين مايشتهون كما فُعِل بأشياعهم من قبلُ، إنّهم كانوا في شكٍّ مُريب﴾ (٥١ ـ ٥٤). وإنّه لوصف يُدمي القلوب هذا الذي يصف به تعالى نهاية الحضارة الأوربيّة المشؤومة والرّهيبة. أقول إنّها نهايةٌ تدمَعُ لها الأعين، وتدمى القلوب ومصير يُصيب الإنسان بالجزع والهلع الشديد، وأهلُ حضارة الغرب عن ذلك غافلون ، وبه مُتشكِّكون. كما يُلاحِظ المرء ماآلت إليه حال المسلمين من البُعد البعيد عمّا جاء به القرآن المجيد، في وقتٍ يُقرّون فيه أنهم يمرّون في عصر انحطاط ابتلاهم الله تعالى به، بعد مضي ألف عامٍ ممّا يعدّون، على حسب ماأنبأ تعالى به في سورة (السّجدة) بقوله تعالى: ﴿يدبّر الأمر من السّماء إلى الأرض ثمّ يعرُج إليه في يومٍ كان مقداره ألف سنة ممّا تعدّون﴾ (٥). ويتناسى هؤلاء المسلمون ماجاء في سورة (السّجدة) نفسها حضًّا لهم ولجميع المؤمنين وهو قوله تعالى: ﴿إنّما يؤمن بآياتنا الذّين إذا ذُكِّروا بها خرُّوا سُجّدًا وسبّحوا بحمد ربهم وهم لايستكبرون﴾ (١٥). ولايُفيد المُسلم أن يخرّ ساجدًا بجسمه كالببّغاء، ولايُسبِّح بحمد ربّه قولاً وعملاً، فلا يشعر بما حلّ ببلاد المسلمين من مصائب وابتلاءات.

على هذه الصورة يتحسّس هذا الباحث المتدبِّر، ممّا أفادته سورتا (السّجدة) و(سبأ)، معالمَ تبدُّلاتٍ وتغيّراتٍ جذريّةٍ مُقبلةٍ على عالَمنا المُعاصر، والله يفعل مايشاء.

والذي يُهمُّ صاحبَنا هو أنه توصّل من خلال بحثه وتدبُّره إلى أنّ مضمون سورة (سبأ) قد أكمل الدليل الغيبيّ الذي اشتملت عليه سورة (السّجدة)، وقد نفى تعالى من خلاله أن يكون هذا القرآن مُفترى من جانب أحدٍ على الله، عزَّ وجلَّ. فالله تعالى صوّر للبشريّة ماستؤول إليه بعد خمسة عشر قرنًا من إنزاله كتابَه القرآنَ المجيد، فإذا وقع ماصوّره لهم استحال أن يكون القرآن من اختلاق عقلِ محمّدٍ أو سواه، فهل في قُدرة أحدٍ أن يُصوِّر هذا التصوير عن المستقبل البعيد كُلّ

هذا البعد إلاّ الله عالِم الغيب والشّهادة العزيز الرحيم؟ هذه هي الألفاظ والصفات التي اختتم بها ربّنا، جلّ شأنه، دليله الغيبيّ الذي أورده في آيات سورة (السّجدة).

٤ ـ عودة ثانية إلى سورة (السّجدة)

أمّا وقد فرغ صاحبنا من الإحاطة بإطار مضمون سورة (سبأ)، فلا بُدّ أن يعود إلى سورة (السّجدة) ليُتابع آياتها، على نحو مافعل بعد أن فرغ من الإحاطة بمضمون سورة (الأحزاب).

ويُفاجأ صاحبنا بمعالم دليلٍ ثالثٍ يدلي به، جلّ شأنه، ليثبت من خلاله أنّ كتابه القرآن غير مُفترى على الله من أحد. وعبّر عن هذا الدّليل الثالث بقوله تعالى: ﴿الّذي أحسن كُلَّ شيءٍ خَلَقه، وبدأ خَلقَ الإنسان من طين ـ ثم جعل نسلَه من سُلالةٍ من ماءٍ مَهين ـ ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه، وجعل لكمُ السّمع والأبصار والأفئدة، قليلاً ماتشكرون﴾ (٧ ـ ٩). فقد أشار، جلّ شأنه، إلى تكوين جِبِلّة الإنسان وفطرته، وتطوُّر هذا الإنسان عبر الزمان، ليجعل ذلك دليلاً على أنّه تعالى هو صاحب الربوبيّة في نشأة هذا الإنسان وأنه هو عالِمُ الغيب والشّهادة العزيز الرحيم. وقد بيّن تعالى من خلال ألفاظ هذه الآيات الكريمة أنّ جِبِلّة الإنسان هذه، على عظمة تكوينها وحُسن هذا التكوين، قد أنشأها ربُّنا، عزّ وجلّ، من طين، أي من خليطٍ من هذا التُّراب المادّي والماء. وهذا إضافةً إلى أنّه تعالى أتى بها على شكل نُطفةٍ من ماءٍ مَهين ضعيف لا إدراك فيه ولاتمييز. وقد جاء إعجازه تعالى في أنّه جعل هذه النّطفة نفسها أساس تزاوج البشر وتناسلهم. ثم جعل، جلّ شأنه، هذا الإنسان المخلوق من نطفة يمرّ بأدوار من التّسوية والتقويم والعدل. ثم مضى يُنزِل عليه هداياته، ويشرِّفه بدوام اتّصاله به وبمواعظه التي تنفخ فيه من روح الله، ثم يزيده علمًا وفهمًا وإدراكًا، ويميّزه بذلك عن الأنعام.

وهو تعالى، إذ أنهى الآية بقوله: ﴿قليلاً ماتشكرون﴾، يعني أنّه قلَّ من كُشفت له هذه الحقائق المتعلّقة بخَلق الإنسان. وهذا دليل على أنّ الكتاب الّذي أتى بهذه الحقائق هو حقٌّ من عالِم الغيب والشهادة وغيرُ مُفترًى على الله، عزَّ وجلّ. وهذا مقام شُكرِ الله الذي أنزل هذا القرآن بهذه المعلومات، لامقام الزعم بأنّه مفترًى عليه، سُبحانه.

وهكذا يكون ربُّنا، عزَّ وجلَّ، قد أدلى بأدلة ثلاثة على عدم كون هذا القرآن الكريم مُفترًى عليه تعالى. ويكون قد قصدَ من ألفاظ ﴿أم يقولون..﴾ أهلَ أمريكا وأوربة بعينهم الّذين أشار إليهم التسلسل الموضوعيّ.

وقد أتى ربُّنا، عزّ وجلّ، بهذه الأدلة ذات الطابع العلميّ الذي تفجّر في القرن العشرين مُخاطبةً منه تعالى لهؤلاء على قدْر ماتوصلوا إليه من فهم وعلوم، وهم من كانت قد أنذرتهم سورة (الكهف). وقد استندت معلومات هذه الأدلّة أيضًا على مكتشفات هؤلاء العلميّة كالأدوار التي مرّ بها خَلق عالَمنا وسواها من كشوفٍ علميّة*.

هذا والدليل الغَيبيّ الذي تضمَّنته سورة (السّجدة) مهمٌّ جدًّا لإشارته إلى عصر انحطاط مجتمع المسلمين من جهة، ولإنبائه، من جهة أخرى، بهيمنة الشّعوب التي تدّعي المسيحيّة على هذا المجتمع وسواه من المجتمعات وَقتَ انحطاط مجتمع المسلمين. وهذه أحداثٌ عالَميّةٌ أنبأت سورة (السّجدة) بأنّها آتيةٌ بعد انقضاء ألف عام على ظهور الإسلام في العالم وعلى أقلّ تقدير. وهو مهمٌّ أيضًا لأنّه يثبت من خلال تحقّق هذه التّغيُّرات أن الذي أنبأ بها في هذا القرآن هو الله عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم. هذا الكتاب الذي لايمكن أن يتسرَّب إلى الذّهن أيُّ ظنٍّ بأنّه مُفترىً على الله، عزَّ وجلَّ.

والحكمة العظيمة الثانية من إيراد هذا الدليل الغيبيّ كانت إثبات أنّ محمدًا (ﷺ) لم يُبعث إلى قومه العرب وحدَهم، بل بعثه الله رسولاً إلى النّاس كافّة بشيرًا ونذيرًا، وليعُمّ دينه العالَم بأسره. والّذي يتفقّد أحاديث رسول الله (ﷺ) يلاحظ في كثيرٍ منها موافقتَها هذا الدليلَ الغيبيّ ودلالاته. ذلك أنها أنبأت بظهور المسيح الدّجالِ وهو شعوب الغرب، و بحمار الدّجال وهو أساطيلهم البخاريّة، وبجنتهم ونارهم التي يأتون بها، وهي وسائل مُفسدات الأخلاق والإلهاء عن عبادة الله وماشاكل من أمور أوردتها الأحاديث الشريفة بلسان التعبير المجازيّ.

---

* ولمزيد من الإيضاح بالإمكان مراجعة كتابي: (النظريّة القرآنيّة الكونيّة حول خلق العالم)، وكتابي (نظريّة جذور الأخلاق) الذي وضحت فيه ماتعلّق بفطرة الإنسان وأصل تكوينها بأسلوب علميّ. ولله، عزّ وجلّ، حكمةٌ جوهريّة من هذه الأدلّة أيضًا، وهو أن يُثبت لهؤلاء الغربيّين أنّ الكون الذي يعيشون فيه لاتُعَدُّ معالمه كاملةً مالم تنزل آخر حَلْقة من حلقات الشرائع والهدايات السّماويّة، هذه الحَلْقة الأخيرة المتمثّلة في بعثة محمّدٍ رسول الله وخاتَم النبيّين.

ويلاحظ هذا الباحث المتدبِّر أن الآيات الكريمة عادت تصوِّر لنا هؤلاء الغربيّين بأنهم غير جادّين في البحث عن الحقيقة التي لو كانوا صادقين في بحثهم عنها لتفتّحت لأعينهم بكلّ جلاء، ولاستطاعوا تبيُّن صدق الإسلام والقرآن ورسالة خاتَم النبيّين. هذا التصوُّر ورد بعد الإدلاء بالأدلة الثلاثة التي ذكرناها، ومن خلال قوله تعالى بعدها: ﴿وقالوا أإذا ضَلَلْنا في الأرض أإنّا لفي خَلقٍ جديد، بل هم بِلقاء ربّهم كافرون﴾ (١٠).

وقد أضاف تعالى أنه سيُنزِل بهؤلاء نوعَين من العذاب فقال: ﴿ولَنُذيقنَّهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلّهم يَرجِعون﴾، مشيرًا بالعذاب الأدنى إلى (عذاب الرّجز) الذي سبق أن تحدّث تعالى عنه في موضعٍ آخر، وهو ماابتلاهم به من حياة شِرك ومُجُون وبُعدٍ عن خالقهم. أمّا العذاب الأكبر، فقد قصد به عذاب (السّاعة) التي ورد ذكرها في سورة (سبأ)، إذ قال: ﴿وقال الذّين كفروا لاتأتينا السّاعة، قل بلى وربّي لَتأتيَنَّكم عالِمِ الغيب..﴾ (٣)، وهي ساعة دمار حضارتهم وزوالهم من المسرح الدّوليّ.

وقد سمّى الله تعالى انتصار الإسلام في النهاية زمنَ الفتح، فقال في نهاية سورة (السّجدة): ﴿ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين ـ قل يومَ الفتح لاينفع الذين كفروا إيمانُهم ولاهم يُنظَرون ـ فأعرِضْ عنهم وانتظر إنّهم مُنتظرون﴾ (٢٨ ـ ٣٠)، إشارة إلى أنه سيقع لهم ماوقع في تاريخ من حاربوا المُرسَلين السّماويّين.

على هذه الصورة يتبيّن صاحبنا حتى الآن أن سورة (الأحزاب) قد اكتمل مضمونها بالدليل الكونيّ الأوّل الذي قدّمته سورة (السّجدة)، وأنّ سورة (سبأ) قد أكملت الدليل الغيبيّ منها، وأنّ سورة (فاطر) قد خاطب بها ربّنا، عزَّ وجلَّ، الناس عامّة، وخاصّة منهم كُفّار الغرب المعاصرين، وذلك بالإنذار حينًا، والتبشير حينًا آخر، على أنّ ماجاءت به السّوَر التي قبلها إنّما هي حقائق ثابتة ومفروغٌ من صحتها.

٥ ـ سورة (فاطر)

نبّه تعالى في سورة (فاطر) بصورة عامّة أنّه مقبلٌ على تأسيس نظام ومجتمع عالَميّ يُعقب حضارة الغربيّين، من منطلَق أنّه تعالى هو ﴿العزيز الحكيم﴾، وليُثبت أنه

رزّاق عباده الحقيقي، وأنّه إليه تُرجع الأمور، وأنّ وعد الله حقّ، فلا يغرَّنّكم الغرور. ذلك أنّ الله يُضلّ من يشاء ويهدي من يشاء، وأن العزّة للّه جميعًا، وأنّ الله هو الغنيّ الحميد. وأنّه لايستوي عنده الأعمى والبصير، وأنه هو عالم غيب السماوات والأرض والعليم بذات الصّدور. ويستخلف من يشاء في الأرض، وأنّ من كفر فعليه كُفره، وأنّ الاستكبار في الأرض والمكر السيء لايَحيق إلاّ بأهله، على حسب ماأثبتته سُنَّةُ الأوّلين، وأن الله لايُعجِزه شيء في السماوات والأرض فهو ﴿العليم القدير﴾، وأنّه لو يؤاخِذ الله الناسَ بما كسبوا ماترك على ظهر الأرض من دابّة، لكنّه يعفو عن كثير.

فهذه هي خلاصة ماجاءت به آيات سورة (فاطر)، فكانت مُكمِّلة مضمونَ سورة (السّجدة)، لذلك فهي تابعةٌ لها على حسب قواعد فنّ الاختزال القرآنيّ وخطّته. ولاحاجة بي لشرح هذه الآيات لأن ذلك من شأن المفسِّرين والشارحين، ولكلّ حادثٍ حديث.

فإذا وصل الباحث المتدبِّر إلى الإحاطة بزاوية النظر العلميّة التي جاءت تشير إليها الأحرف ﴿الم﴾ من سورة (السّجدة) توقّف واستعرض جميع ماأتت به السّوَر الكريمة منذ سورة (طـه) وحتى سورة (فاطر) باختصارٍ شديد، ليستذكر من خلال هذا الاستعراض التسلسل الموضوعيّ المنطقيّ المدهش الذي تميّزت به هذه السّوَر مُجتمعة. ذلك أنّه لاحظ أنّ الله تعالى بدأ بعد هذه السّوَر بسورة (يـس) كخطاب تعظيم جديد لرسوله محمد سيد المرسلين كما سيتبيّن لنا بعد حين.

٦ ـ استعراض مضامين

أقول: كان الله، عزَّ وجلَّ، قد خصَّص سورةَ (طـه) لإبراز شخصيّة رسوله كرجلٍ عظيم، وسورة (الأنبياء) لتحديد المَهَمّة الأساسيّة لبعثته، عليه السلام، وهي أن جعله رحمةً للعالَمين، وخصَّص سورة (الحجّ) لتُصوِّر للنّاس معالم التحوّل الخطير الذي قدَّر تعالى أن يُحدثه على يديه، عليه السلام. كما تضمَّنت سورة (المؤمنون) شروط فلاح من يؤمن بهذا الرسول العظيم. وقد أكمل تعالى شرح هذه الشروط الإيمانيّة في سورة (النّور)، وألقى ضوءًا على معالم تكوين الأسرة الإيمانيّة وارتباطها بنظام الخلافة الروحيّ. أمّا في سورة (الفرقان) فقد فنّد ربّنا، جلّ شأنه، جميع اعتراضات المكذِّبين بسلاح الحجج والبراهين ودعَّمها بإيراد نُبذة عن

ملامح جماعة المؤمنين. وصرَّح تعالى في سورة (الشّعراء) أنّ أكثر الناس لايؤمنون على اعتبار أن ذلك سُنّةُ الأوّلين. وأتى، جلّ شأنه، بمضمون سورة (النّمل) هدىً وبشرى لخلاص المؤمنين، فكشف عن أوّل خططه فيها وهي هجرة رسوله إلى المدينة وعودته إلى مكّة فاتحًا، وهذا الكشف تضمّنته سورة (القَصَص) تصديقًا لما أنهى تعالى به سورة (النّمل) وهو قوله تعالى: ﴿وقل الحمد لله سيُريكم آياته، فتعرفونها، وماربُّك بغافلٍ عمّا تعملون﴾. وفي سورة (العنكبوت) شرح ماأورده عن مسيرة تقدّم المؤمنين محذِّرًا فيها من الوقوع في مرض الشِّرك الخفيّ، وشدّد على التوحيد الكامل، مشبِّهًا الشِّرك ببَيتِ العنكبوت. وفي سورة (الروم) نبَّه من أنّ الناس أصحاب النهج المادّي يؤخذون بظواهر الأمور، على حين يبلغ علمُ الله بواطن الأمور لذلك فهو يبشّر المؤمنين أنّ العاقبة للمتّقين. وفي سورة (السّجدة) أنبأ تعالى بما سيؤول إليه حال المسلمين والعالَم المسيحيّ بعد مضيّ ألف عام على بعثة رسوله الكريم، وبشّر بنهضة إسلاميّة ثانية، وبدمار مُعسكَرَي أقوام المسيح الدجّال وهم من قالوا اتّخذ الله ولدًا. وكشف للعالَم وللمؤمنين في سورة (طـه) مقام رسوله عنده موضِّحًا لهم أنّ محمّدًا هو رسول الله وخاتَم النبيّين. وأكمل موضوعها وتوسّع فيه في سُوَر (الأحزاب وسبأ وفاطر وفُصِّلت) بأسلوبٍ فريد. وأدهش تعالى صاحبَنا الباحث المتدبِّر بهذا التسلسل الموضوعيّ لسُوَر كتابه المنطقيّ الذي أخذ بلُبِّه ولُبِّ الباحثين أمثاله.

★ ★ ★

الفصل الحادي والعشرون

|يس| من سورة |يس|

بعد استعراض صاحبنا الباحث المتدبِّر مضامينَ هذه السّور جميعها يتوجَّه إلى بحث الرّبع الأخير من القرآن الكريم وتدبُّره، وقد أطلق أهل علم القرآن على هذا الربع اصطلاح (رُبع ياسين) نسبةً إلى أوّل سُورة من سُوَره وهي سورة (يس)، هذه السورة المستهَلّة بحرفَي اختزال هما الياء والسّين، ويُقرآن بمدّ حرف السّين.

فإذا عاد صاحبنا إلى تفسير ابن كثير قرأ فيه: «ورُوي عن ابن عباس وعكرمة والضّحاك والحسن وسُفيان بن عُيَينة، رضي الله عنهم، قولُهم إنّ (يس) أنزلت بمعنى ياإنسان. وقال سعيد بن جُبير هو كذلك في لُغة الحبشة...» ويتوقف صاحبنا عند هذه الرواية متأمِّلاً متفكِّرًا، فيعتقد أن الياء حرف نداء والسّين مختزلة من إنسان.

وأقطع بدوري على صاحبنا تأمُّله وتفكيره لأقول له: أجَل إنّ حرف الياء في (يس) مختزَلٌ من (يا) النداء. لكنّ حرف السّين مختزَلٌ هنا من (سيد) لامن إنسان. وقد سبق لك أن لاحظت أنّ سورة (طه) اختُزلت من أيّها الإنسان العظيم، بينما جاء هذان الحرفان مختزَلين من (أيها الإنسان السيد)، لتفيد أنّ محمّدًا العظيم، قد قدَّر له الذي اصطفاه رسولاً أن يضعه على سُدّة السّيادة نسبة للسّابقين واللاحقين. فهذا هو المعنى المُناسب لتسلسل السورة الموضوعيّ. وهذا أمرٌ سيؤيِّده ويكشف عنه لامضمون السّورة نفسها وحسب، بل السّوَر اللاحقة أيضًا، كما ستعلمون.

وها نحن نعود إلى قواعد الاختزال، فهي تقتضي منّا تدبُّر أوّل آيةٍ احتوَتْ أحرف الاختزال لنستدل من دلالاتها على الكلمات التي اختَزَل منها ربُّنا حرفَي (يس).

أقول: أفلا تلاحظ ياصاحبي أنّ الله، عزّ وجلّ، قد استهلّ هذه السورة بقَسَمه تعالى: ﴿والقرآنِ الحكيم﴾. ومعلوم أن القَسَم لغةً هو تقديم شهادة،

والله، عزّ وجلّ، بقسَمه هذا يقدّم هذا القرآن الحكيم شهادة على أن محمدا رسوله هو الإنسان العظيم، والإنسان السيّد أيضًا. وقد تأتت سيادته من خلال مانزل عليه من هذا القرآن من تعاليم حكيمة مُتقنة فكرًا وعملاً. وهي تصلح للناس أجمعين لما تحمله من حُجج قطعيّة وبراهين ساطعة. ولذلك لاحظناه، جلّ شأنه، أتبع قَسَمه هذا بقوله تعالى: ﴿إنّك لمِن المُرسَلين - على صراطٍ مستقيمٍ - تنزيلَ العزيز الرحيم﴾. فقد أتى بـ (إنّ) لتشير إلى شأنه العظيم، عليه السّلام، ولتؤكد أنّ سيادته قد تأتّت من أنّه على صراط مستقيم، وهو صراط الذين أنعم الله عليهم، وأنّ صراطه المستقيم، بجميع ماانطوى عليه من تعاليم هو ﴿تنزيل العزيز الرحيم﴾.

ولتُلاحظْ، ياصاحبي، أيضًا كيف قدّم، جلّ شأنه، تأكيدًا آخر لسيادة محمّد رسوله (ﷺ)، وذلك من خلال المَثَل الذي أتى به، وعبّر عنه بقوله تعالى: ﴿واضربْ لهم مَثَلاً أصحابَ القرية إذ جاءها المُرسَلون - إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالثٍ فقالوا إنّا إليكم مُرسَلون﴾ (١٣ - ١٤). والحكمة من هذا المثل إشارته، عزّ وجلّ، إلى بِعثات آدم ونوحٍ وموسى، هؤلاء الأنبياء المُشرِّعين الذين بعثهم الله تعالى إلى أقوامهم ﴿. . . فقالوا إنّا إليكم مرسَلون﴾. فلم يكن من بين هؤلاء من بعثه الله تعالى إلى الناس كافّة، إلا هذا الرسول المشرِّع الأخير الذي أتى على ذكره المَثَل المذكور بقوله تعالى: ﴿وجاء من أقصى المدينة رجلٌ يسعى، قال ياقومِ اتّبعوا المرسَلين - اتّبعوا من لايسألكم أجرًا وهم مُهتدون﴾ (٢٠ - ٢١). فهذه إشارةٌ إلى محمّد خاتَم النبيّين الذي بعثه الله، عزّ وجلّ، بشرع القرآن إلى الناس كافّة بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا. ومعلوم أنّه لولا بعثة محمّد رسول الله (ﷺ) الذي دعا إلى اتّباع جميع المُرسَلين لكان النّاس في عصرنا في شكٍّ من أمر جميع من سلف من المرسلين.

أقول لا تتردّد، يا صاحبي، في قبول رأيي هذا. فالقرآن الكريم يفسِّر بعضُه بعضًا، فدونك سورةَ (التّين) التي لخّصت لنا هذا المَثَل الذي أورده تعالى في سورة (يس). ذلك أن (التّين) المُقسَم به في السورة، ماهو إلا رمزٌ عالَميٌّ يرمز به أدباء عصرنا خاصّة إلى بعثة آدم، عليه السلام. و(الزّيتون)، المُقسَم به فيها، ماهو إلا رمزٌ عالَميٌّ يرمز به أدباء عصرنا خاصّة إلى بعثة نوحٍ، عليه السلام. وما(طور سنين) المُقسَم به فيها أيضًا إلا رمزٌ عالَميٌّ يرمز به أدباء عصرنا إلى بعثة موسى، عليه السلام. وما(البلد الأمين) المُقسَم به في سورة (التين) إلا رمزٌ اصطلحه أهل القرآن لمكّة المكرَّمة الأمينة على كعبة الله المُشرَّفة التي كانت أوّل

بيتٍ أُسِّس لعبادة الله الواحد القهّار. وإنّ محمّدًا رسول الله (ﷺ) هو الرسول، من بين هؤلاء الأربعة المشرِّعين، المبعوث وحدَه إلى الناس كافّة، أجمعين. ولذلك لاحظنا أنه قال في المثال المقدَّم ﴿. . .ياقومِ اتّبعوا المرسلين﴾ (٢٠). ومعلوم أن القرآن الكريم، هو الكتاب السماوي الوحيد الذي اشترط على المؤمنين المتّقين، في أوّل سورة منه وهي سورة (البقرة)، قوله تعالى: ﴿والذين يؤمنون بما أُنزِل إليك، وماأُنزِل مِن قبلِك، وبالآخرة هم يوقنون ـ أولئك على هُدىً من ربّهم، وأولئك هم المفلحون﴾.

وتعال معي، ياصاحبي، لتتعرف الوشيجة والتّسلسل الموضوعيّ الذي يربط سورة (يـس) بسورة (فاطر) التي هي قبلها، والتي اختتمها ربُّنا، عزّ وجلّ، بقوله: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كَسَبوا ماترك على ظهرها مِن دابّة ولكنْ يؤخِّرهم إلى أجَلٍ مسمًّى، فإذا جاء أجَلُهم فإنّ الله كان بعباده بصيرًا﴾ (٤٥). فلا يصحُّ هنا إلا أن تكون أداة التعريف في لفظ (الناس) أهل أوربة الذين قُدِّر لساعة زوالهم أجلٌ مُسمًّى. وسيثبُت من خلال زوالهم أنّ ﴿الله كان بعباده بصيرًا﴾. وخصوصًا أنّهم يزعمون على رؤوسِ الأشهاد أنّهم (النّاس) أي المتمدِّنين دون سواهم من بقيّة شعوب الأرض. ويؤخِّر الله ساعة هلاكهم ﴿إلى أجلٍ مسمًّى﴾ لأنه تعالى يتحرّى منهم من يستحقّ أن تشمله رحمته وهدايته، ويكون من المسلمين المُهتدين.

وهكذا على أساس دلالات آخر آية كريمة من سورة (فاطر)، تبدو الوشيجة والترابط الموضوعيّ مابينها وبين سورة (يـس) واضحَين لأعينُ المحقِّقين. وكأن حرفَي الياء والسين في (يـس) يعنيان: أيها الإنسان السيّد الذي ستستَتِبُّ لك السيادة في العالم بعد زوال أمّة المسيح الدجّال. وإنه لخليقٌ بمحمّد (ﷺ) أن يخاطبه تعالى بهذا الخطاب إثر تحقُّق جميع هذه الأنباء.

وإذا شئت، ياصاحبي، أن تتوضّح لك هذه الحقائق أكثر فأكثر، فتعال نراجعْ معًا تفسير ابن كثير ومأأورده من روايات متعلِّقة بسورة (يـس). فقد رُوي عن رسول الله (ﷺ) قوله: «إنّ لكل شيءٍ قلبًا وقلب القرآن (يـس).» وهذه الرواية تشير إلى منزلة هذه السورة بين السُّوَر ابتداء من سورة (طـه) إلى سورة (يـس) هذه التي جاءت لتؤلِّف ذروة أبحاث هذه السّوَر جميعها، وقلبَها النابض أيضًا.

وقد رُوي عن رسول الله (ﷺ) قوله أيضًا: «ويس قلب القرآن، لايقرؤها رجلٌ يريد الله تعالى والدار الآخرة إلا غُفِر له، واقرؤوها على موتاكم.» وهذه الرواية رواها النسائي وابن داوود وابن ماجة أيضًا. وكيف لاتكون سورة (يس) بهذه المنزلة من كتاب الله القرآن، وهي التي تبشّر أمّة الإسلام باستتباب الأمر أخيرًا لمصلحتها ومصلحة سيادة محمّد رسول الله على العالم بأسره؟

فإذا تدبَّرتَ معي، ياصاحبي، جميع آيات سورة (يس) لاحظتَ أنّها جاءت تحضّ الناس جميعًا، بمختلف أساليب الوعظ والبيان والبراهين، على الانضواء تحت لواء محمّدٍ خاتَم النبيّين، الأمر الذي لايتّسع المقام للتوسُّع فيه، تحضُّهم على الاقتداء بهذا الإنسان السيِّد العظيم.

ـ سورة (الصّافّات)

فإن شاء صاحبنا استزادة يقينه بما ذكرت له فدونَه سورة (الصّافّات)، وهي تابعة من حيث المضمون لسورة (يس)، لأنها تأتي بعدها مُباشرة، وهي غيرُ مُستهَلّة بأحرف اختزال. والله، عزّ وجلّ، قد استهلّ (الصّافّات) بقوله تعالى: ﴿والصّافّاتِ صفًّا﴾. وهذا قَسَم على شاكلة قَسَمه تعالى أوّلَ سورة (يس) وهو ﴿والقرآنِ الحكيم﴾. والقَسَم في (الصّافّات) يعني تقديم شهادة جديدة على سيادة رسوله الكريم المنتظرة في النهضة الثانية للإسلام على العالم بأسره.

ذلك أنّ المقصود بـ (الصّافّات) صحابةُ رسول الله (ﷺ) الذين شهد ربّنا بامتيازهم على سائر جماعات الأنبياء السابقين، مع ملاحظة أنّ الله تعالى، ياصاحبي، لم يقُل (والصّافّين) بل قال (والصّافّات)، إشارة إلى اندفاع نفوس الصحابة الصافّين في الجهاد قلبًا وقالبًا وتأكيدًا لهذا الاندفاع. وقد أدلى تعالى بهذه الشهادة في مكّة المُكرمة يوم لم يكن قد آمن منهم إلا نفرٌ محدود. من هذا أتت هذه الشهادة، في حقيقة أمرها، بنبوءة عظيمة عن تكوُّن جماعة عظيمة من الصّحابة فيما بعد تحت لواء معلِّمهم وأبيهم الروحيّ محمّد (ﷺ). كما تضمّنت هذه النبوءة أن جماعة الصحابة سيكون همّهم الأوّل الدفاع عن الإسلام ورسوله ومقاتلة الأعداء صفًّا واحدًا، قلبًا وقالبًا، في جميع المعارك التي سيخوضونها مع هؤلاء الأعداء، لقوله تعالى في سورة (الصفّ): ﴿إنّ الله يحبُّ الذين يقاتلون في سبيله صفًّا كأنّهم بنيان مرصوص﴾ (٤).

وأضاف تعالى شهادة أخرى في هؤلاء الصحابة حين أقسَم قائلاً: ﴿والزّاجراتِ زجرًا﴾ (الصّافّات ٢)، أي والناهيات عن المنكَر، لأن معنى الزجر لغةً النهي. وأضاف تعالى شهادة أخرى متعلّقة بهم حين أقسم بقوله: ﴿فالتالياتِ ذِكرًا﴾ (٣). ومعلوم وصف القرآن بالذِّكر في قوله تعالى: ﴿إنّا نحن نزّلنا الذِّكر وإنّا له لحافظون﴾. والذِّكر من معانيه اللغويّة الشرف والرفعة والسموّ. وهذا القسم متعدِّد الشهادات، نزل في مكّة المكرَّمة مُفعَمًا أيضًا بالبشائر والنبوءات. وقد مضى تعالى يبيّن منه أنّ وحيه القرآنيّ يحمل الشرف والرفعة والسموّ لجميع الناس، وقد أنبأ تعالى عن ذلك كلّه حين سمّى هذا الوحي القرآنيّ ذِكرًا. وكيف لايكون وحي القرآن كذلك وقد دارت جميع تعاليمه حول: ﴿إنّ إلهكم لَواحد ـ ربُّ السّماوات والأرض ومابينهما وربُّ المشارق﴾ (٤ ـ ٥).

أفلا تلاحظ، ياصاحبي، أنّ سورة (الصّافّات)، جاءت تكمل الكلام على الذين اتخذوا لله ولدًا من غربيّي عصرنا؟ فها هو تعالى وقد قال في الآية (١٥١) منها: ﴿ألا إنّهم من إفكهم لَيقولون ـ وَلَدَ اللهُ، وإنّهم لَكاذبون﴾ أي أنّ هذه الأمم الغربيّة سيزعُم أهلها في عصر هيمنتهم على العالَم إفكًا وزورًا أنّ الله، جلّ جلاله، وُلِدَ له المسيح بن مريم. على حين لم يقل بهذا الزّعم أحدٌ من أهل مكّة من مشركيها، أو من جاورهم من اليهود.

ولاحظْ، ياصاحبي، كيف اختتم تعالى سورة (الصّافّات) بألفاظٍ مُفعمةٍ بإنذارهم، ومُنَزِّهةٍ الله تعالى عن أن يكون له ولد، ومبشِّرةٍ بعودة عزّ الأمة الإسلاميّة في نهضتها الثانية، وذلك بقوله تعالى: ﴿أفبعذابنا يستعجلون ـ فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المُنذَرين. وتولَّ عنهم حتى حين ـ وأبصرْ فسوف يبصرون ـ سبحان ربِّك ربِّ العزة عما يَصفون ـ وسلامٌ على المُرسَلين ـ والحمد لله ربِّ العالمين﴾.

ولا بدَّ أن يدهش هذا الباحث المتدبر مما أدركه من هذه المعاني والنبوءات وعلاقتها بالتسلسل الموضوعي فينتقل من سورة (الصّافّات) إلى السّورة التي تليها، وهي سورة (ص) التي استهلّها ربّنا، جلّ شأنه، بحرف الاختزال (ص).

★ ★ ★

الفصل الثاني والعشرون

|ص| من سورة |ص|

ويمضي صاحبنا يتدبَّر الجملة التي تلت حرف (ص) في الآية الأولى، ليستنبط منها دلالة هذا الحرف وفقًا لخطّة الاختزال القرآنيّة ونهجها الاختزاليّ. فيلاحظ فيها أنّ الله تعالى أقسم فقال: ﴿والقرآنِ ذي الذِّكر﴾. ويعلمُ صاحبنا أنّ هذا القَسَم يعني الشهادة بأنّ هذا الوحي النازل في مكّة سيتّخذ شكل كتاب مقروءٍ من الناس، ومحفوظٍ في الصدور، ومفعَم بالمواعظ والتعاليم الصالحة لرفعة الإنسان وسموِّه وتَرَقِّيه. ويتساءل صاحبنا: ولكن بأيّة حقيقةٍ تشهد هذه الشهادة؟

ويعود إلى تسلسل السّوَر الموضوعيّ، مستعينًا بذلك على اكتشاف هذه الحقيقة التي أقسم عليها ربّنا، عزّ وجلّ، وقدّم هذا القرآنُ ذو الذِّكر شهادتَه بها. أي أن صاحبنا يعود أدراجه إلى سورة (الصّافّات) التي انطوت على إنذار الّذين قالوا ﴿.. وَلَدَ ا لله، وإنهم لكاذبون﴾، والتي أنهاها تعالى بقوله: ﴿أفبعذابنا يستعجلون ـ فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المُنذَرين ـ وتولَّ عنهم حتى حين. وأبصرْ فسوف يبصرون﴾ (١٧٦ ـ ١٧٩).

وهكذا يُلاحظ أنّ هذه الآيات قد حملت إنذارًا للّذين قالوا (ولَد الله) وسيحلُّ بهم صباحُ يومٍ من الأيام. ويدرك من ذلك أن الله تعالى جاء يُقدِّم في سورة (ص) شهادةً على أنّ هذا الإنذار الغيبيّ واقعٌ لامحالة. وهذه الشهادة، وهي هذا الوحي النازل في مكّة المكّرمة، سيتخذ شكل كتاب مقروءٍ بين الناس ومُفعَم بالمواعظ والبيِّنات، أي أنه تعالى قد جعل تحقّق ماحملته هذه الشهادة من أنباء شهادةً من الله تعالى على أنّه لابد أن يُنزل بالذين قالوا ﴿وَلَد الله﴾ عذابَه الذي أنذرهم به، ولو بعد حين من الزمان. ذلك من منطَلَقِ أنّ ربَّنا، عزّ وجلّ، هو علاّم الغيوب. فيتّضح لصاحبنا من هذا كلّه أنّ في قَسَمه تعالى الذي أتى به بعد حرف (ص) دلالةً على أن (ص) مختزلةٌ من صفة الله (الصادق).

ويتأكد لصاحبنا صحّة هذا الاختزال بقوله تعالى بعد ذلك مباشرة: ﴿بل الذّين كفروا في عزّة وشقاق ـ كم أهلكنا مِن قبلهم مِن قَرنٍ فنادَوا ولاتَ حينَ مَناص﴾ (٢ ـ ٣). أي أن هؤلاء الكفار الغربيّين الذين اعتقدوا أنه ﴿وَلَد اللهُ﴾ المسيح بن مريم، سيُبتَلون بصفة الاستكبار، هذه الصِّفة التي دلّ عليها لفظ (العزّة) هنا، كما سيبتلون بالاختلاف في الآراء فيما بينهم تجاه ماأتى به هذا القرآن من الذِّكر. وهذه أيضًا هي ماأفاده لفظ (وشِقاقٍ) في هذا المقام. وأن استكبارهم واختلاف آرائهم سيؤدّيان بهم إلى أن تشتبه عليهم الحقيقة، فلا يتعظون بمن سبقهم من الأمم الذين حلّ بهم العذاب، فندموا، ولات حين مناص. أي أنّهم استجاروا حين فاتهم وقت الدعاء.

ثم لفت الله تعالى أذهان هؤلاء إلى السبب الأهم الذي من أجله عُذِّبَ من سبقهم من الأمم، وهو الشِّرك بالله، عزّ وجلّ، وذلك بقوله: ﴿وعجِبوا أن جاءهم مُنذرٌ منهم، وقال الكافرون هذا ساحرٌ كذّاب ـ أجعَلَ الآلهة إلهًا واحدًا، إنّ هذا لَشيء عُجابٍ﴾ (٤ ـ ٥). وقد فعل ربّنا ذلك لأن هؤلاء المسيحيِّين الغربيِّين ابتلوا بالشِّرك لقولهم إن المسيح بن مريم هو ابن الله.

وعاد، جلّ شأنه، بعد ذلك يقول: ﴿. . بل هم في شكٍّ من ذِكري، بلٍ لّما يذوقوا عَذابِ﴾ (٨)، أي أنهم إذ يستهينون بما انطوى عليه الكتاب من الذكر، ويأتي بحرف الإضراب (بل) ليقول إنّ استهانتهم بالذِّكر مستمرّة، لأنه لم ينزلْ بهم العذاب الذي أنذرهم الذِّكر به ليعودوا إلى خالقهم الحقيقيّ.

وقد نبّه ربّنا، جلّ شأنه، الأذهان أيضًا إلى أنهّ لغرور هؤلاء واستكبارهم أساسًا ماديًّا أشار إليه بقوله تعالى بعدها: ﴿أم عندهم خزائن رحمة ربّك العزيزِ الوهّاب ـ أم لهم مُلك السماوات والأرض ومابينهما، فليرتقوا في الأسباب﴾ (٩ ـ ١٠)، وهذا الأساس المادّي هو استقطابهم كنوز الأرض واستنزافهم خيرات الشعوب، الأمر الذي حقق هيمنتهم الاقتصاديّة على العالم. فهو تعالى أتى في أوّل هذه الآية الكريمة بحرف العطف (أم) وهو حرف يستدعي الإجابة عما وراءه أي من أين تأتّت لكم خزائن مالكم، أهي عطاء رحمةٍ أم هي أموال اغتصاب غير شرعيّ؟ وهذه الألفاظ من الآية الكريمة تُخفي حقائق كشفت عنها أيّامُنا المعاصرة، وتحققت نبوءاتها واضحةً. ذلك أن الغرب زمن انحطاط المسلمين تمكّن من استعمار شعوبهم، واستنزاف خيرات بلادهم وتجميعها في بلاد أوربا وأمريكا، وهذا كله إثر اكتشافهم الآلة وتطوُّرهم على مستوى العلوم.

ثم إنه تعالى لما أضاف قوله: ﴿أم لهم مُلك السماوات والأرض ومابينهما﴾ أتى بحرف العطف (أم) مرّة ثانية، وفي نفس الآية الكريمة ليسألهم: وهل ظننتم، بعد تفوقكم الاقتصاديّ واستقطاب أموال العالم بصورة غير شرعيّة، أنكم أصبحتم تملكون السماوات والأرض ومابينهما؟ وبهذه الألفاظ نبّه ربّنا هؤلاء إلى أنهم مهما ارتقَوا في الأسباب، فلن يبلغوا هذا المستوى من التملّك، وتظلّ بذلك مقاليد السماوات والأرض ومابينهما بأيدي الله الواحد القهّار الذي أنذرهم بهذا العذاب.

ثم إنه تعالى أضاف قوله: ﴿جُندٌ ماهنالك مهزومٌ من الأحزاب﴾ (١١). ومعناه: ليلاحظ هؤلاء الغربيون كيف نُنبىء عن هزيمة جُند قُريش ومن اجتمع إليهم من الأحزاب ليحاصروا رسولنا الكريم محاولين القضاء عليه، وكيف أنّه ستلحق بهم الهزيمة على الرغم من تفوقهم عددًا وعُدّة على مالدى رسولنا من عَدَدٍ وعُدّة. ولتعلموا أنّه إذا ماتحققت هذه النبوءة كانت دليلاً جليًّا بيِّنًا على أنكّم ستذوقون الخَيبة والخُسران، وينزل بساحتكم عذابنا الذي ننذركم به، على الرغم ممّا جمعتم من عَددٍ وعُدّة.

ولنلاحظ كيف راح تعالى يُذَكِّر هؤلاء الذين قالوا (اتَّخذ الله وَلَدًا) بالحال الذي آل إليه مُختلف الأقوام التي أنذرها الله تعالى من قبلهم، كيف دمَّرهم العذاب الذي حلّ بديارهم، وذلك في الآية (٢٨) بقوله تعالى: ﴿أم نجعلُ الّذين آمنوا وعمِلوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، أم نجعلُ المتّقين كالفجّار ـ كتابٌ أنزلناه إليك مباركٌ لِيدَّبَّروا آياته، ولِيتذكَّر أولو الألباب﴾، وترَون كيف أتى، جلّ شأنه، بحرف العطف (أم) مكرِّرًا إياه مرّتين ليطالب من خلالها الإجابة عن تساؤلاته: أي هل من المعقول أن يُعامِل ربُّ العباد المتّقين منهم كالمفسدين في الأرض وكالفجّار؟

ثم إنّه تعالى أضاف قوله: ﴿قلْ هو نبأ عظيمٌ ـ أنتم عنه معرضون ـ ماكان لي مِن عِلمٍ بالملأ الأعلى إذ يختصمون ـ إنْ يُوحى إليّ إلاّ أنّما أنا نذيرٌ مبين﴾ (٦٧ ـ ٧٠) ليوضّح للنّاس أنه ينبىء عن مصير هذه الأقوام الغربيّة نبأً عظيمًا ذا شأن وجلال، وأنّه نبأٌ لايُقيمون له وزنًا بل هم ﴿عنه معرضون﴾، وأنّه تعالى لم يبعث رسوله محمّدًا الأمين نذيرًا لقُريش وحدهم، بل بعثه ليُنذر الذين قالوا اتّخذ الله ولدًا أيضًا، كما بيَّنت ذلك سورة (الكهف)، وهو (ﷺ) في بعثته هذه ﴿نذير مبين﴾ يحمل إلى هؤلاء هذا النبأ العظيم.

ثم راح تعالى فذكّر هؤلاء بقصّة آدم، عليه السلام، لينبّه إلى عواقب القنوط من رحمة الله ومن الاستكبار. ثم أنهى سورة (ص)، وهو يحذّر الناس كافّة بقوله تعالى: ﴿قلْ ماأسألكم عليه من أجرٍ، وماأنا من المُتكلِّفين - إنْ هو إلاّ ذكرٌ للعالمين - ولَتَعلَمُنّ نبأه بعد حين﴾ أي أن هلاك هؤلاء الغربيّين وفق هذا النّبأ العظيم سيُثبت أنّه تعالى (ص) أي صادق فيما أنبأ به وحذّر من دون مطالبةٍ بأجرٍ، ومن دون أن يكون عِرّيضًا يُلزم نفسه بما لايعنيه، كما يُثبت أنّ هذا القرآن الكريم ماأُنزل للعرب وحدهم بل هو ﴿ذِكر للعالَمين﴾.

- سورة (الزمر)

وإلى هنا يكون هذا الباحث المتدّبر قد تحقق من أنّ حرف الصّاد، الذي استهلّ تعالى به سورة (ص) قد اختزله ربّنا من إسمه (الصادق). لذلك ينتقل إلى السورة التي بعدها، وهي سورة (الزُّمَر)، التي لم يستهلّها تعالى بأحرف اختزال، فيدرك من ذلك أنّها تابعةٌ في مضمونها لسورة (ص) وفقًا لقواعد الاختزال القرآني وخطّته التي ترسّخت ملامحها في ذهن صاحبنا حتى الآن. لكنّه يتساءل عن سرّ هذه التبعيّة في مضمونها؟

ويتناول صاحبنا أوّل مايتناول أمر استجلاء الوشيجة القائمة مابين هاتين السّورتين. فيلاحظ أنّه تعالى أنهى سورة (ص) بقوله: ﴿إنْ هو إلاّ ذِكرٌ للعالمين - ولَتَعلمُنّ نبأه بعد حين﴾. وقد تضمنّت هاتان الآيتان بيانًا واضحًا بأنّ الوحي الذي كان يتنزّل في مكّة المُكرّمة، والذي لم يكن قد اتّخذ بعدُ شكل كتاب، هو وحيُ كتاب ذِكرٍ مُفعَمٍ بالمواعظ والتعاليم الصالحة لرِفعة المجتمع العربيّ وتقدُّمه وسموّه، بل رِفعة العالَمين جميعًا وتقدُّمهم وسموّهم. وقد احتوى على إنذار بدمار الأمم المسيحيّة الغربيّة الذين سيظهرون بعد نزول هذا الكتاب الذّكر بأكثر من ألف عام. وما دام الأمر كذلك فلا يُعقَل في نظر صاحبنا أن يُهمِل هذا الكتاب إثبات صحّة هذين البيانين. فيدفعه هذا ليقرأ مااستهلّ تعالى به سورة (الزُّمَر)، يلاحظ أنه تعالى يقول: ﴿تنزيلُ الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾. وتتجلّى لعينيه بوادر تُثبت له أنّه، جلّ شأنه، قد خصّص سورة (الزُّمَر) للبرهنة على صحة هذين البيانين.

ويفهم صاحبنا من ألفاظ هذه الآية الكريمة أنّه تعالى يتوجه في خطابه إلى هؤلاء المكذِّبين، ومن أوّل آية، ليقول لهم: ينبغي أن تأخذوا في حسبانكم أنّ ذات الله التي توحي بآيات هذا الكتاب، هي ذاتٌ شأنها عظيم، وأنّ صاحبها هو ﴿العزيز الحيكم﴾.

ولابدّ أن يذكر صاحبنا معنى صفة (العزيز) فهي تعني المنيع القويّ الشريف المكرَّم الذي لايُنال ولايغالَب، ولايُعجزه شيء، ولا مَثَل له، وأنّه المَلِك الغالب على أهل مملكته. كما أنه لابدّ لصاحبنا أن يذكر أيضًا دلالة صفة الله (الحكيم) أي العالم صاحب الحكمة والحُجّة القاطعة والبرهان السّاطع. فهو تعالى قد أراد إذن من صفتَي (العزيز الحكيم) جميع هذه الدّلالات. وهذا الأمر يعني بألفاظ أخرى: يامعشر المكذِّبين، إذا أنتم تدبَّرتم ماتدلّ عليه صفتاي (العزيز الحكيم) تبيّن لكم فحوى قولنا: ﴿إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحقّ﴾. أي نحن قضينا بإنزال هذا الكتاب، قضاءً من لدُنّا، بالعدل وبالصّدق. فهذه دلالات كلمة الحقّ. فما أنزلناه عَبَثًا ولا باطلاً. لذلك: ﴿فاعبد الله مخلصًا له الدّين﴾. أي أن شأننا أن نأمر ونقضي، من منطلق كوننا ﴿العزيز الحكيم﴾. وأنّ من شأن مخلوقنا أن يأخذ بمُقتضى تعاليمنا، مُخلصًا لنا الطاعة والخضوع.

ويلاحظ أنه أتى تعالى بحرف (ألا) الذي يفيد الاستفتاح والتنبيه فقال: ﴿ألا له الدّين الخالص﴾ أي لاشرع هو شرع العدل إلا شرع الله العزيز الحكيم، ولاتَبْلُغُ التشريعات الأرضيّة مُستوى شرع الله، عزّ وجلّ.

وأضاف تعالى قائلاً: ﴿. . .والّذين اتّخذوا من دونه أولياء مانعبُدهم إلا ليقرِّبونا إلى الله زُلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون، إنّ الله لايهدي من هو كاذبٌ كفّار﴾ (٣). فأكّد بذلك أن لاشرع إلاّ شرعُ الله، عزّ وجلّ، فهو الحقّ، لأنه تنزيلٌ من العزيز الحكيم.

ومُجمل ماتضمنّته هذه الآيات الأولى من سورة (الزُّمَر) هو أنّ اعتراضكم على هذا (الذِّكر)، واستهانتكم بما أنذركم به من العذاب، يُعَدُّ استهانة بصفتَيّ (العزيز الحكيم)، هاتين الصّفتين اللتين هما من صفاتي التنزيهيّة أنا من أنزل هذا القرآن (الذِّكر). ومعلوم أنّ من يستهين بمقام الله العزيز الحكيم لايؤيِّده دليل أو برهان، وليس له إلاّ أن ينظر: ﴿ولَتَعلَمُنّ نبأه بعد حين﴾. وهكذا تتجلّى لعينيّ صاحبنا الوشيجةُ القائمة مابين سورتي (ص) و(الزُّمَر) جليّةً واضحة وضوح الشّمس في رابعة النّهار.

والذي يُلاحظه هذا الباحث المتدبر هو أنّ الله، عزّ وجلّ، توجّه نحو هذه الأمم، قائلاً: ﴿لو أراد الله أن يتّخذ ولدًا لاصطفى ممّا يخلُقُ مايشاء، سُبحانَه، هو الله الواحد القهّار﴾ (الزمر - ٤). أي أنّ جميع ماورد في سورة (الزُّمَر) كان موجَّهًا أصلاً نحو الذين زعموا (ولَدَ الله)، هؤلاء الذين سبق له تعالى أن وصفهم بقوله: ﴿وإنّهم لكاذبون﴾، والمفترين على الله، الذين قال تعالى فيهم: ﴿أفبعذابنا يستعجلون - فإذا نزل بساحتهم فساء صباحُ المُنذَرين - وتولّ عنهم حتّى حين - وأبصرْ فسوف يبصرون﴾ (ص ١٧٦ - ١٧٩). أقول توجّه تعالى يفنّد افتراءات هؤلاء المذكورين، فينقضها، ويُثبت بُطلانها، من مُنطلق أنّ طبيعة التّناسل والولادة، تدلّ على احتياج المُتناسلين في بقائهم إلى التناسل. وأنّ الله تعالى هو الله الأحد في جميع أسمائه الحُسنى. وأنّ نظام التناسل وقانونه يُناقضان صفة الأحديّة هذه، وأنّ زعم هؤلاء أن الله اتّخذ ولدًا إنّما ينسب إلى الله، عزّ وجلّ، العجز والاحتياج، ويتناسى أن زاعميه مخلوقون، وأن الذي خلقهم ﴿هو الله الواحد القهّار﴾، أي أنّه متفرّدٌ وواحدٌ في صفاته، بل هو القهّار، والقهر يعني الغَلَبة على أمرٍ من الأمور جبرًا واضطرارًا، وهو صيغة مُبالغة. فالله تعالى واحد وقهّار، وهو يحقّق أهدافه ومشيئته، ولايجوز عليه التناسل. فما معنى أن تزعموا أنّ الله، جلّ شأنه، اتّخذ ولدًا بينما هو الواحد القهّار؟ إن في زعمكم هذا تضاربًا في الأقوال.

وراح تعالى بعدئذٍ يوضّح قدرته اللامتناهية بقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السماواتِ والأرضَ بالحقّ، يكوِّر الليل على النهار، ويكوِّر النّهار على الليل، وسخّر الشمس والقمر، كلٌّ يجري لأجَلٍ مُسمًّى، ألا هو العزيز الغفّار﴾ (٥).

ولفت الله تعالى الأنظار إلى أنّه هو الذي أبدع نظام التّناسل للمخلوقات، فهو مُنزَّهٌ بالأحرى عن التناسل. وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿خلقكم من نفسٍ واحدةٍ ثم جعل منها زوجها. .﴾ (٦)، وهذا الأمر يُثبت ضعفكم واحتياجكم إلى هذا النظام التناسلي لأنكم من هذه المخلوقات.

ثم أضاف تعالى قوله: ﴿. . وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج. .﴾ (٦)، أي لم يخلقكم ويتركْكم سُدى، بل سخّر لكم ثمانية أزواجٍ من الأنعام لتساعدكم على البقاء والتناسل. ثم أضاف تعالى قوله: ﴿. . . يخلقُكم في بطون أمهاتكم خلقًا من بعد خلقٍ في ظُلُمات ثلاث. . .﴾ موضحًا بذلك عظمة هذا الإحكام في الإبداع في طريقة الخلق والتطوير.

وانتهى تعالى من جميع ماأتى على بيانه ليقول: ﴿. . .ذلكُمُ اللهُ ربُّكم له المُلك، لا إله إلاّ هو، فأنّى تصرَفون﴾ (٦)، أي أنّ جميع ماذكره هو معالم لربوبيّة الله في هذا الكون، ويثبت بهذه المعالم أنّه تعالى هو المالك للسّماوات والأرض ومابينهما، وأنّه الله الواحد فيها أيضًا، وهو مستغنٍ عمّا تزعُمونه من أنّ له (وَلَدًا) ينمّ عن حاجته وضعفه، ﴿فأنّى تُصرَفون﴾ أي أنّى لكم أن تنجوا ممّا أنذركم به الله من عذابٍ واقعٍ بكم لامحالة؟ وعلى هذه الصورة أثبت تعالى أنّ الذين قالوا (ولَدَ الله) هم لامحالة كاذبون فيما يعتقدونه، وكيف يتفق زعمهم هذا مع كون الله (عزيزًا حكيمًا)؟

ومضى تعالى يُثبت كون هؤلاء كُفارًا جاحدين، إلى جانب كونهم كاذبين: كُفّارًا بأنعمه تعالى، وقال: ﴿إن تكفروا فإنّ الله غنيٌّ عنكم، ولايرضى لعباده الكفر، وإن تشكروا يرضَهُ لكم. .﴾ (٧)، وفتح بقوله هذا باب التوبة أمام عُقلائهم، ليعودوا إلى صراطه المستقيم، ويُؤمنوا بهذا القرآن الذّكر الكريم.

وأضاف قوله تعالى: ﴿ . . .ولاتَزِرُ وازرةٌ وِزر أُخرى، ثم إلى ربكم مرجعُكم فيُنبِّئكم بما كنتم تعملون، إنّه عليم بذات الصدور﴾ (٧).

والملاحظ أنّه تعالى وازَن بعد ذلك بين مايتّصف به هؤلاء الكاذبون، ومايتّصف به المؤمنون بهذا القرآن الذّكر من صفات، إبرازًا لمعالم التغيير الجذريّ الذي نزل هذا الكتاب لإحداثه. وانتهى تعالى من ذلك ليقول: ﴿اللهُ نزّل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا مثانيَ تقشعرُّ منه جلود الذين يخشَون ربَّهم ثم تلين جلودُهم وقلوبُهم إلى ذكر الله. . .﴾ فأتى باسم الإشارة (ذلك) بدل (هذا) هنا، إشارةً إلى عظمة هذا الكتاب، وأكمل يقول: ﴿. . .ذلك هُدى الله يهدي به من يشاء، ومن يُضلِلِ اللهُ فما له مِن هادٍ﴾ (٢٣).

وتابع، جلّ شأنه، بعدئذٍ يذكّرهم بأمثالهم من الأمم السّابقة الّذين أنذرهم الله تعالى بإنزال العذاب بهم فكذّبوا به وكفروا، فدَهَمَهم العذاب من حيث لايشعرون، وذلك في قوله تعالى: ﴿كذّب الّذين مِن قبلِهم فأتاهم العذاب من حيث لايشعرون ـ فأذاقهم الله الخِزيَ في الحياة الدّنيا، ولَعَذابُ الآخرة أكبرُ لو كانوا يعلمون﴾ (٢٦).

ثم راح تعالى يُعرّف لهم الآيات رحمةً منه تعالى ورأفة بالّذين يستحقّون الهداية من هؤلاء. وشرع يخاطب الناس كافّة بقوله تعالى: ﴿قل ياعبادي الّذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنَطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذّنوب جميعًا، إنّه هو الغفور الرحيم﴾ (٥٣). ثم ناشدهم الإنابة إليه، عزّ وجلّ، وأن يُسلموا لهذا

القرآن الذِّكر رعايةً لآخِرتهم. وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿وأنيبوا إلى ربِّكم وأسلِموا له مِن قَبل أن يأتيَكم العذاب ثمّ لاتُنصَرون ـ واتَّبعوا أحسن ماأُنزل إليكم من ربِّكم مِن قَبل أن يأتيَكم العذاب بغتةً وأنتم لاتشعرون﴾ (٥٤ ـ ٥٥). واستمر، جلّ شأنه، يعِظ وعظًا مُفعَمًا بالرحمة والشّفقة على عباده، وإلى آخر هذه السورة.

وعلى هذه الصورة يدرك هذا الباحث المتدبِّر سرّ إلحاق سورة (الزُّمَر) موضوعيًّا بمضمون سورة (ص)، ودلالةَ حرفها صاد المُختزَل من صفة (الصّادق)، والضرورة التي نشأت عن مضمون سورة (ص) وهي إثبات كَذِب الأقوام المسيحيّة الغربيّة المعاصرة التي ورد إنذارها في السور الماضية.

وبالإمكان تلخيص محتوى سورة (الزّمَر) بالقول: إنه تنبيه النّاس إلى أن التشريع القائم على العدل والصدق يستحيل أن يصدر عن غير الله (العزيز الحكيم). فالذين كذّبوا هذه الحقيقة مِن الأمم السّابقة واستهانوا بها، وكذّبوا رسُل الله وأنبياءه، أنزل الله تعالى بهم العذاب بغتةً وهم لايشعرون. وهاهو ذا، عزّ وجلّ، يفتح لهؤلاء الذين أنذرهم من أمم الغرب الذين اتّخذوا المسيح بن مريم ابناً لله، يفتح لهم باب الاتعاظ بمن سبقهم من الأمم، ويدعوهم لطلب غفرانه تعالى، والتوبة بين يديه، والإيمان بكتابه مِن قَبلِ أن يَنزِل بهم مايعِدُهم من العذاب المشار إليه آخِر سورة (ص) بقوله تعالى هناك: ﴿ولَتَعلَمنّ نبأه بعد حين..﴾. وقد وعظهم بعد ذلك بمختلِف أساليب الوعظ والبيان.

★ ★ ★

الفصل الثالث والعشرون

حم من سورة غافر أو المؤمن

وينتقل هذا الباحث المتدبِّر من سورتي (ص) و(الزُّمَر) إلى سورة (غافر)، أو (المؤمن) حسب ماتُسمى به أحيانًا. فيجد أن الله، عزّ وجلّ، قد استهلَّها بحرفَي اختزال جديدين هما ﴿حـم﴾. ويذكر أنّه سبق لله تعالى أن ندّد بالمكذِّبين الذين كفروا بنبيِّهم الذي أُرسل إليهم وهو محمد رسول الله (ﷺ) وذلك في سورة (ص) وفي سورة (الزُّمر) التّابعة لها، وأنّه تعالى أنذر هؤلاء المكذِّبين أنّ ساعة دمارهم وزوالهم آتيةٌ لاريب فيها، وذلك بعد أن دَحَض معتقدَهم.

أقول يذكُر صاحبنا أنّ هذا التسلسل الموضوعي اقتضى إعطاء فكرة واضحة عن ذات الإله الذي قام بإنذارهم، وأتى بالأدلة على أنّه صادقٌ فيما يُنذرهم به وأنّ صفاته تعالى تقتضي منه أن يدع باب التوبة والاستغفار مفتوحًا على مصراعيه أمام من يرغب في النّجاة من هؤلاء المُنذَرين.

من هذا المنطلَق يتدبَّر الآية التي تلي حرفَي ﴿حـم﴾، وهي قوله تعالى: ﴿تنزيلُ الكتاب من الله العزيز العليم﴾، فيلاحظ أنها الآية نفسها التي استهلّ بها تعالى سورة (ص). غير أنّه استبدل هنا (العليم) بـ (الحكيم). فيتساءل صاحبنا في نفسه عن حكمة هذا الاستبدال؟ ويقرأ الآية التي تليها، فيجد الجواب عن تساؤله في قوله تعالى: ﴿غافرِ الذنب وقابلِ التَّوبِ شديدِ العقابِ ذي الطَّول، لا إله إلاّ هوَ، إليه المصير﴾ (٢) فالله تعالى يقول هنا: إنّ إنزال هذا الكتاب قد تحقّق من جانب الله ﴿العزيز﴾ أي المنيع القويّ الذي لايُغالب، وهو غالِبُ أهلَ مملكته، ومن جانب الله ﴿العليم﴾ الذي أحاط علمُه بما يكسب عباده ويعملون، فلا تخفى عليه من ذلك خافية. ومن أسماء هذا الإله أنّه: ﴿غافرِ الذنب وقابلِ التَّوْب﴾، أي أنه مُفتَّحةٌ أبوابه لكلّ مستغفرٍ من عباده وتائبٍ من ذنبه. لكنّه في الوقت نفسه ﴿شديد العقاب﴾ يُنزل عقابه الشديد بالمعاندين المستكبرين، وأنّ من أسمائه الحُسنى (ذا الطَّوْل) أي يتصف بالفضل والبذل والعطاء بغير حساب. علمًا بأنّه ﴿لاإله إلاّ هو﴾، أي أن لامحبوب سواه، ولايستحق أحد التأليه من دونه.

وعلمًا بأنه تعالى يُمسك بعواقب الأمور، لذلك كان ﴿إليه المصير﴾، أي إليه تصير الأمور، على الرغم من أنوف المُكذِّبين المعاندين.

فإذا تفحّص صاحبنا دلالات هذه الصفات أدرك من فَوره أنّ حرفَي (حـم) مختزَلان من اسمين من أسماء الله الحسنى هما ﴿الحميد المجيد﴾. فالحميد، صيغة مبالغة من الحمد، صيغةٌ ضمّت سائر أنواع المحامد في ذات الله، عزّ وجلّ. والمجيد صيغةُ مُبالغة أيضًا لصاحب المجد، شريف الذات والخصال والفِعال، واسع الكرم، والذي جُمعت في ذاته سائر جوانب المجد.

وزيادةً في التوثيق يستعرض صاحبنا جميع آيات سورة (المؤمن) هذه فيلاحظ أنّ آياتها جميعًا دارت حول دلالات ﴿غافرِ الذَّنْب وقابلِ التَّوب شديدِ العقاب، ذي الطَّوْل، لاإله إلاّ هو، إليه المصير﴾.

فهو تعالى قال بعد آيات ﴿الذّين يحمِلون العرش ومن حولَه يُسبِّحون بحمد ربّهم ويؤمنون به ويستغفرون للّذين آمنوا، ربَّنا وسِعَت كُلَّ شيء رحمةً وعلمًا فاغفرْ للّذين تابوا واتَّبعوا سبيلك وقِهم عذاب الجحيم﴾ (٧) ـ فوضّح لنا، جلّ اسمه، أنّه بذلك ﴿غافرِ الذَّنْب وقابلِ التّوب﴾.

وقد تحدث تعالى بعد ذلك عن عاقبة الذين لايستفيدون من مغفرته، جلّ شأنه، ولايتوبون، والذين يُشبِه حالهم حال من ﴿.. كانت تأتيهم رُسُلُهم بالبيِّنات فكفروا فأخذهم الله، إنّه قويٌّ شديد العقاب﴾ (٢٢). أنذر تعالى هؤلاء بكونه شديد العقاب.

وفي الآية (٤٠)، ومن خلال قوله تعالى ﴿مَن عَمِل سيئةً فلا يُجزى إلا مِثلَها، ومن عمِل صالحًا من ذَكَرٍ أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنّة، يُرزَقون فيها بغير حساب﴾. أوضح، جلّ شأنه، كونه (ذا الطَّول) أي واسع العطاء.

ومن خلال تصويره تعالى مجرى الأمور يوم الحساب أوضح لنا أنّه ﴿لاإله إلا هو﴾ فالله وحده ﴿قد حكم بين العباد﴾ (٤٨).

ونلاحظ بعد ذلك أن الله تعالى يتوجّه إلى رسوله الكريم بقوله: ﴿فاصبرْ إنّ وعد الله حقّ، فإمّا نُرِيَنَّك بعضَ الذي نَعِدهم أو نَتَوَفَّيَنَّك فإلينا يُرجَعون﴾ (٧٧)، منبهًا إلى أنه ﴿إليه المصير﴾.

فيزداد هذا الباحث المتدبّر يقينًا، من خلال رؤيته هذه، بصدقِ حدسه، من أنّ ﴿حـم﴾ مُختزَلان من (الحميد المجيد). وأنّ سورة (المؤمن) قد انطوت على فكرةٍ واضحةٍ عن المملكة السّماويّة، وهو الأمر الذي اقتضاه التّسلسل الموضوعيّ

والمنطقيّ للسُوَر. هذه المملكة السماويّة التي يحكمها إلهنا الحميد المجيد الذي لايستكبر عن عبادته إلاّ كُلُّ عاتٍ مُكابرٍ مغرور.

كما تتجلّى لعينَي صاحبنا الوشيجة التي ربطت سورة (الزُّمر) بسورة (غافر) (أو المؤمن)، هذه السورة التي أنهاها ربُّنا، جلّ شأنه، بما يؤلِّف توطئة لبحث سورة (المؤمن)، فقد أنهى تعالى سورة (الزُّمَر) بقوله: ﴿وقالوا الحمد لله الذي صَدَقنا وعدَه وأورثنا الأرض نَتَبَوَّأ من الجنة حيث نشاء، فنعم أجرُ العاملين ـ وترى الملائكة حافِّين مِن حول العرش يُسبِّحون بحمد ربِّهم، وقُضي بينهم بالحقّ، وقيل الحمد لله ربِّ العالمين﴾ (٧٥).

وسأدلي برأيي في ذلك، على عادتي، فأقول لصاحبنا: لاتنسَ، ياصاحبي، أنّ الله تعالى شاء أن يُنبِّه قُرّاء كتابه العزيز، في سورة (المؤمن)، إلى أنّه لايزال يشير إلى الأمم المسيحيّة الغربيّة، مُنذرًا إياهم أن يعودوا عن زعمهم ﴿وَلَدَ الله..﴾ فهذا التّنبيه اقتضاه قول الله تعالى بعد آيات الاستهلال مُباشرة: ﴿مايُجادل في آيات الله إلاّ الذين كفروا، فلا يَغرُرْك تقلُّبُهم في البلاد﴾ (٤). عمد تعالى إلى هذه الإشارة فعبّر عنها من خلال حرف (ما) الذي أدخله على الفعل المضارع قائلاً: ﴿مايجادل﴾ إذ أراد من خلاله الزمنَ الحاضر المتعلّق بهؤلاء المُنذَرين. وقد نبّه تعالى أيضًا إلى أنّ أبحاثهم إنّما تتّصف بصفة (الجدال) المحض. والجدال يعني المخاصمة في البحث من دون تحرّي الحقيقة. كما نبّه تعالى إلى ضرورة الحذر من ظاهرة تفوّق هؤلاء وهيمنتهم على العالم عند مناقشتهم، وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿فلا يغررْك تقلُّبُهم في البلاد﴾.

وليلاحظ صاحبي كيف أتبع، جلّ شأنه، تنبيهه هذا، تنبيه هؤلاء أنفسهم إلى ماآل إليه حال المُبطلين قبلهم وذلك بقوله تعالى: ﴿كذّبت قبلهم قومُ نوحٍ والأحزاب مِن بعدِهم، وهّمت كُلّ أمّة برسولهم ليأخذوه، وجادلوا بالباطل لِيُدحِضوا به الحقّ فأخذتُهم، فكيف كان عقابِ﴾ (٥)، وقد أضاف تعالى قوله: ﴿وكذلك حقّت كلمة ربّك على الذين كفروا أنّهم أصحاب النّار﴾ (٦). كما يلاحظ صاحبنا كيف أعاد تعالى كلامه على هؤلاء، فقال: ﴿يومَ هم بارزون، لايخفى على الله منهم شيء، لِمَنِ الملكُ اليوم، لله الواحد القهّار ـ اليومَ تُجزى كُلُّ نفسٍ بما كسَبت، لاظلمَ اليوم، إن الله سريع الحساب﴾ (١٦ـ١٧). فقوله ﴿يومَ هم بارزون﴾ يشير إلى عصر بروز الذين قالوا اتخذ الله ولدًا، بروزهم كقوّة جبّارة تُهيمن على شعوب الكرة الأرضيّة. ذلك أن لفظ ﴿يومَ﴾ ورد هنا بمعنى الزمن والدّور. والبُروز معناه الظّهور بعد خفاء. فهو تعالى يشير إلى أنّ هذه الأمم كانت

من قبل بعيدة عن المسرح الدّولي بعد بعثة رسول الله (ﷺ). وأنّها ظلّت كذلك مغمورة إلى مابعد مضيّ ألف عامٍ على البعثة. وهو أمرٌ ليس بخافٍ على المؤرِّخين. وهذه هي المدّة التي صرّحت بها سورة (السّجدة) من خلال قوله تعالى: ﴿يُدبِّر الأمر من السّماء إلى الأرض في يوم كان مقداره ألف سنةٍ ممّا تعدّون﴾ (السجدة ٥).

ثم إنّ قوله تعالى: ﴿لايَخفى على الله منهم شيء﴾ يعني أنه تعالى يعلم غيْب المستقبل، وفي أيديه أسباب بروز هؤلاء إلى المسرح الدّولي.

ثم إنّ قوله تعالى: ﴿لِمَن المُلكُ اليومَ﴾. يعني ما لِهؤلاء يجولون ويصولون ويظلمون ويستكبرون، ولا تمتد يد الله إليهم بالعذاب الشديد، ما دام الله هو الواحد القهّار؟ فهذا سؤال سيسأله كلّ من يعايش هذه الأقوام. ويجيب تعالى نفسه عن تساؤل الذين مسّهم الظُّلم على أيدي هؤلاء، فيقول: ﴿لله الواحد القهار﴾. بمعنى لاتؤخذوا بظواهر الأمور، وتظنّوا أنّ حال هؤلاء الظالمين خافٍ على علم الله.. كلاّ فالله الذي يتّصف بالوحدانيّة والمتفرِّد في جميع مايحمله من صفات، لايُعقل أن يسكُتَ على من يزعم أنّ الله (اتخذ ولدًا). خصوصًا أنه ﴿القهّار﴾ أيضًا، أي الغلاّب الذي وعد رُسُله والذين آمنوا معه بالنّصر في قوله تعالى: ﴿إنّا لننصُر رسُلَنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾. ومادام الله، عزّوجلّ، قد وفى بوعده المذكور في جميع العصور الماضية، وقهر أعداءه وأعداءهم، فستثبت الأيام أنّه لن تدوم غلبة هؤلاء وبروزهم، بل سيزولون وتبقى عزة المؤمنين بالواحد القهار.

واستدرك، جلّ شأنه، بعد ذلك مصحِّحًا ماقد يتبادر إلى ذهن السّائل أن الله تعالى سيبطش بهؤلاء من دون التفريق بين مُحسنٍ منهم ومسيء. تدارك هذا بقوله تعالى: ﴿اليوم تُجزى كلُّ نفسٍ بما كَسَبت، لاظُلم اليوم، إنّ الله سريع الحساب﴾ (١٧)، أي أن الله القهّار هو شديد العقاب، إنّما سيفرِّق يومَ يبطش بهؤلاء بين محسن ومسيء، فيجازي كلّ نفسٍ بما كسَبت، ولاينزل عقابه بالمسيئين في الدنيا إلا لأنه ﴿سريع الحساب﴾.

وقد لوّح تعالى لهؤلاء بجوانب من هذا العذاب في قوله: ﴿وأنذِرْهم يوم الآزفة إذ القلوبُ لدى الحناجر كاظمين، ماللظالمين من حميمٍ ولاشفيع يُطاع - يعلم خائنة الأعين ومانُخفي الصّدور - والله يقضي بالحقّ، والذين يَدعُون مِن دونه لا يقضون بشيء، إنّ الله هو السميع البصير﴾ (١٨-٢٠). والمقصود لغةً من ﴿يوم الآزفة﴾ يوم حلول النهاية، ويحقّ الميعاد المقرّر في علم الله تعالى لمعاقبة

هؤلاء. وهو ما عبّر عنه تعالى بلفظ (الساعة) في السور الماضية. فهو، جلّ شأنه، نبّه أذهان هؤلاء المُنذَرين إلى أنهم ساعة نزول عذاب الله بهم ستتصعّد قلوبهم إلى حناجرهم من شدّة غيظهم وغضبهم لمصيرهم الذي سيلقَونه. فإلى هذا أشار قوله تعالى: ﴿إذِ القلوب لدى الحناجر كاظمين﴾.

كما نبهّهم إلى أنهم لن يجدوا وقتئذٍ أيّ مُحبّ أوشفيع تُسمع شفاعته عند الله، عزّ وجلّ، مقدِّرِ هذا العذاب. وقد أشار تعالى إلى هذه الحقيقة المُرّة في قوله: ﴿يعلم خائنة الأعينُ ومانُخفي الصدور﴾. أي مانُخفي صدور المُستضعَفين من الشّعوب لاحتقار هؤلاء إياهم نظرّيًا وعمليًّا. فقد أضحت هذه الشعوب نتيجة لذلك حاقدةً على هؤلاء المُتغطرسين، فلم يبق لهم من بينهم ﴿من حميمٍ ولا شفيعٍ يُطاع﴾.

ولاحظْ، ياصاحبي، كيف توجّه، عزّ وجلّ، بعد هذه البيانات الغيبيّة جميعها إلى رسوله الكريم يوصيه بقوله: ﴿فاصبرْ إنّ وعد الله حقّ واستغفرْ لذنبك وسبِّحْ بحمد ربّك بالعشيّ والإبكار ـ إنّ الذين يُجادلون في آيات الله بغير سلطانٍ أتاهم، إنْ في صدورهم إلاّ كِبرٌ ماهم ببالغيه، فاستعِذْ بالله، إنّه هو السميع البصير﴾ (٥٥ـ٥٦). فأوصاه بالصّبر على البلاء الذي سيعمُّ أمتّه والعالم بعد بروز هذه الأقوام الظالمة المستكبرة، مؤكّدًا أنّ وَعْده تعالى بهلاكها وإنهاء دورها العالميّ (حقٌّ) أي صدقٌ وعدل. وأضاف: ﴿واستغفرْ لذنبك﴾، وقد لاحظنا من خلال المعاجم اللغويّة أنّ الذّنب لايبلغ حدّ الإثم ما لم يكن مقصودًا. فقوله ﴿واستغفرْ لذنبك﴾ أي توجّه بالدعاء إلى الله أن يستر ما سيؤول إليه حال أمّتك من المسلمين. وهذا الأمر يتوافق مع قوله تعالى في سورة (النّصر): ﴿إذا جاء نصرُ الله والفتح ـ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجًا ـ فسبِّح بحمد ربّك واستغفره إنه كان توّابًا﴾. ففي آيات سورة (النّصر) إشارةٌ في قوله تعالى: ﴿واستغفرْه﴾ إلى أنّ نصر الله ودخول الناس في دين الله أفواجًا سيعقبهما تفسخٌ وانحراف يستدعيان طلب معونة الله وسِتره والتّوبةَ وتجديدَ الإيمان. وبشّر الله، عزّ وجلّ، رسوله الكريم باستجابة أدعيته، فكشف عنها قوله تعالى: ﴿وسبِّح بحمد ربّك بالعشيّ والإبكار﴾. والتّسبيح بحمد الله ينطق به لسان من استجاب الله أدعيته.

وأضاف تعالى قوله: ﴿إنّ الّذين يجادلون في آيات الله بغير سُلطانٍ أتاهم، إنْ في صدورهم إلاّ كبرٌ ماهم ببالغيه..﴾ أي لن يُفلحوا في عداوة ما استكبروا عن قبوله والرضوخ له، لأنهم يُخاصمون في آيات الله تعالى بغير دليل أو برهان. وهنا أوصى الله تعالى رسوله: ﴿فاستعذْ بالله﴾ أي لاتتّجه يومئذٍ لمقاتلة هؤلاء

بالسِّلاح الماديّ بل بالسِّلاح الروحيّ وهو الدّعاء، فهو الحربة السّماويّة المقدَّر نجاحُها فيهم في حينه. وطمأنه تعالى بقوله: ﴿إنّه هو السّميع البصير﴾ الذي يسمع آهات المظلومين، والبصير بأحوالهم وأحوال الظالمين. فهذه وصايا يستفيد منها كل مؤمن يعاصر هؤلاء الظالمين.

وتدبَّرْ، يا صاحبي، قولَه تعالى بعد آيات: ﴿إنّ السّاعة لآتيةٌ لاريبَ فيها ولكنّ أكثر النّاس لا يؤمنون ـ وقال ربكم ادعوني أستجبْ لكم، إنّ الّذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين﴾ (٥٩ـ٦٠). أي أنّ ساعة زوال هؤلاء التي وُعدوا بها، آتيةٌ لاشكّ فيها، لكنّ طريق الخلاص منها ومن شرورها طريقٌ فردٌ لاطريق سواه، وهو التركيز على حبل الدعاء والخضوع له، عزّ وجلّ، ولابُدّ للمستكبرين أن يدخلوا جهنّم صاغرين أذلّاء.

ولا بد أن يلاحظ صاحبي كيف أوصى تعالى رسوله الكريم أن يدأب على تبليغ هؤلاء قائلاً: ﴿قلْ إنّي نُهيتُ أن أعبُدَ الّذين تدعون مِن دون الله لمّا جاءني البيِّنات من ربّي وأُمرتُ أن أُسْلِمَ لربّ العالمين﴾ (٦٦). فهو، جلّ شأنه، أشار إلى أنّ وصيَّته هذه متعلِّقة بزمن ظهور هؤلاء إلى المسرح الدّوليّ لقوله: ﴿لمّا جاءني البيِّنات من ربّي﴾. ففي معجم (محيط المحيط): (مِن أوجُه (لمّا) أن تختصّ بالماضي، فتقتضي جُملتين، وُجدت ثانيتها عند وجود أولاهما، نحو: لما جاءني أكرمته. ويقال فيها حرف وجودٍ لوجود. وبعضهم يقول: وجوبٍ لوجوب).

على هذه الصورة يطمئن الباحث المتدبر إلى أنّ حرفَي (حـم) مُختزَلان من (الحميد المجيد) وهو الله ﴿غافرِ الذَّنْب وقابلِ التَّوْب شديدِ العقاب ذي الطَّوْل، لا إله إلّا هو، إليه المصير﴾.

★ ★ ★

الفصل الرابع والعشرون

|حم| من سورة |فصّلت|

فإذا انتقل من سورة (غافر) إلى سورة فُصّلت لاحظ أنّ الله تعالى استهلّ هذه أيضًا بحرفي (حمٓ). فإذا قرأ الآية التي تلي (حمٓ)، وهي قوله تعالى: ﴿تنزيلٌ من الرّحمن الرحيم.﴾ أدرك أنّه، جلّ شأنه، ينطلق في سورة (فصّلت) من اسمَيه (الحميد المجيد)، إنّما من زاويةٍ جديدة وهي زاوية كونه (الرّحمن الرحيم) وذلك قياسًا على ما حدث في سورة (المؤمن).

ثم يقرأ الآية الكريمة التي بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿كتابٌ فُصّلت آياته قرآنًا عربيًا لقوم يعلمون﴾، فتتبدّى له معالم رحمانيّة الله الحميد المجيد ورحيميّته من خلال ألفاظها ودلالاتها. ويتجلّى له أنّه تعالى لا يزال يوجّه خطابه (لقوم يعلمون). فقد أنبأ تعالى، وفي مكّة المكرّمة، قبل أن يتّخذ وحيُ الله شكلَ كتاب، أقول أنبأ أنّ وحيه هذا سيتّخذ شكل كتابٍ مفصّل الآيات، مقروء في كلّ مكان، وعربيٍّ يُفصح عمّا تضمنّه من تعاليم وعلوم، اقتضتها رحمانيّة الله ورحيميّته. والحكمة من هذا الإنباء لفتُ نظر الذين يعلمون إلى أنّه تعالى علاّم الغيوب.

ويتساءل هذا الباحث المتدبّر عن الوشيجة ما بين سورتي (غافر وفُصّلت). فيعود إلى الآيات الأخيرة من سورة (المؤمن) التي يسمّونها أحيانًا سورة (غافر)، ليجده، سبحانه وتعالى، يقول: ﴿فلمّا جاءتهم رُسُلهم بالبيّنات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون.﴾ (غافر٨٣). وقد شاء الله تعالى أن يثبت أنّ هؤلاء الذين يعلمون، أو قلْ الذين قهَروا في مُختلف العلوم من الغربيّين، سيسيرون على آثار سابقيهم من الأمم الكافرة فيحيق بهم ما كانوا به يستهزئون.

ويلاحظ صاحبنا أنّ الله تعالى أوصى رسوله الكريم بعد آيات الاستهلال هذه بقوله: ﴿قلْ إنّما أنا بشرٌ مثلكُم يوحى إليّ أنّما إلهكُم إلهٌ واحدٌ فاستقيموا إليه واستغفروا، وويلٌ للمُشركين﴾ (٦)، أي إن لم تلزموا هذه النّصيحة فلا مَناص من أن تُواجهوا الويل، أي الدّمار والهلاك والزّوال.

وأضاف تعالى قوله: ﴿وويلٌ للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون﴾ (٧). والمقصود من ﴿لا يؤتون الزكاة﴾ هنا أنّهم يجمعون الأموال ويكدِّسونها بين أيديهم، فلا يُطهِّرونها باستخراج ما للفقراء من حقٍّ فيها، طاعةً لله خالقهم. وقد استعمل لفظ الزكاة هنا بمعناه اللغوي، لا الشرعي.

فالزكاة لغةً تعني صفوة الشيء وطاعة الله، وما أخرجته من مالِك ورددتَه على الفقراء، لتُطهِّره به. فهي اسمٌ من التّزكية. وإلاّ فلا يقول المشركون بالزكاة.

هذا، ويلاحظ الباحث اختلاف النظام الاقتصادي الإسلامي عن النظام الرأسمالي في هذه النّقطة بالذّات. إذ إنّ الإسلام يعتبر كلّ ما في الأرض مُشاعًا لجميع البشر دونما استثناء. ولمّا كان من العسير توزيع ثروات الأرض بالتساوي بين الأفراد، فقد أوجب الإسلام نصاب الزكاة ليُرَدّ على المُحتاجين نصيبهم بعدأن تضافرت الأسباب فجعلتهم مُحتاجين محرومين.

فقد قال الإسلام من جهة: ﴿وسخّر لكم ما في الأرض جميعًا.﴾ وقال من جهةٍ أخرى: ﴿وفي أموالهم حقٌّ معلوم للسائل والمحروم﴾. فالسّائل هو الطّالب بلسانه. والمحروم هو المحروم من النّطق كالأنعام والنباتات.

وهو تعالى حين قال عن المشركين، ، رةويقصد بهم الذين اتخذوا لله ولدًا بالذات، إنّهم ﴿الذين لا يؤتون الزكاة﴾ علّل تعالى عيبهم هذا بقوله: ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ لأنّهم يكتفون على زعمهم بكفّارة المسيح. وهذا الأمر أنساهم عن إخراج صفوة أموالهم وردّها على السّائل والمحروم.

فلمّا انتهى تعالى من نقد نظام هؤلاء الاقتصادي، لجأ إلى مخاطبتهم بأسلوبهم العلمي الذي يفهمونه، وذلك قبل أربعة عشر قرنًا من الآن، وكشف لهم ما سيتوصّلون لاكتشافه بعد هذه المدّة الطويلة، إثباتًا منه، عزّ وجلّ، أنه هو خالق كوكب الأرض الذي يُعربدون على سطحه، فقال: ﴿قل أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادًا، ذلك ربّ العالمين ـ وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعةِ أيّامٍ سواءً للسائلين﴾ (٩ — ١٠)

ومن يطّلع على كتابي (النظريّة القرآنية الكونية) ص ١٣٠ يلاحظ شرح هذه الآيات الكريمة، ومطابقتها لما كشف عنه علم الغربيّين. وقد أثبت ربّنا بهذا الأسلوب أنّه خالق الأرض، الله الذي لا إله إلاّ هو، وأنّه سيتحقّق إنذاره ﴿ويلٌ للمشركين﴾.

ولم يقف، جلّ شأنه، عند هذا الحدّ من البيان، بل فسّر المقصود من قوله تعالى: ﴿ويلٌ للمشركين﴾. فأضاف قوله: ﴿فإن أعرضوا فقُل أنذرتكم صاعقةً

مثل صاعقة عادٍ وثمودَ.. فأمّا عادٌ.. فأرسلنا عليهم ريحًا صَرصَرًا في أيّامٍ نَحِساتٍ لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا، ولَعذابُ الآخرة أخزى وهم لا يُنصَرون﴾ (١٦). فأكّد تعالى لهم أنّه سيحلّ بهم نحوٌ من هذا العذاب، ولن يجدوا يومئذٍ وسيلةً للنجاة منه.

وأضاف تعالى قوله: ﴿وأمّا ثمودُ فهديناهم فاستحبُّوا العمى على الهُدى فأخذتهم صاعقة العَذاب الهُونِ بما كانوا يكسِبون﴾ (١٧).

ونبّههم، جلّ شأنه، قائلاً: ﴿.. وإنّه لكتابٌ عزيزٌ ـ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا مِن خلفه، تنزيلٌ من حكيمٍ حميد﴾ (٤١ ـ ٤٢). أي أنّ مكانة الكتاب القرآن عزيزة لا ترقى إليها مكانةٌ، ولا يمكن أن يعتريه باطل من أيّ جانب ﴿من بين يديه﴾ ولا مِن خلفه، لأنّه تنزيلٌ من (حكيم) عالِم ببواطن الأمور، (حميدٍ) يجمع في ذاته سائر المحامد، فلا يُظلم بين يديه أحدٌ من مخلوقاته.

وقبل أن ينهي تعالى سورة (فُصّلت) قال: (سنُريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ، أوَ لم يَكف بربِّك أنّه على كل شيءٍ شهيد ـ ألا إنّهم في مِريةٍ من لقاء ربِّهم، ألا إنّه بكلّ شيءٍ محيط﴾ (٥٣ ـ ٥٤).

وها هو العالَم بأسره قد لاحظ أنّ جميع ما أتت به سورة (فُصِّلت)، التي نزلت في مكّة في الزّمان الغابر قبل أربعة عشر قرنًا، أتت الأيام فصدّقت مضامينها، وكشفت ما تضمنته من حقائق يعجز عن بيانها في تلك الحِقبة من الزّمان أحد، إلا أن يكون الخالق نفسه.

وهكذا تجلّى صدق آيات الله تعالى في الآفاق وفي الأنفس، ولا بدّ أنْ يتحقّق ما لم يتحقّق لهؤلاء من إنذارٍ ووعيدٍ، فيثبت بذلك أنّ الله تعالى الذي أنزل القرآن المجيد هو: ﴿بكلّ شيءٍ محيط﴾.

وإلى هنا يطمئن هذا الباحث المتدبّر إلى دلالة (حمٓ) على اختزالها من صفتي الله ﴿الحميد المجيد﴾، ومن زاوية نظر الله ﴿الرحمن الرحيم﴾.

★ ★ ★

الفصل الخامس والعشرون

حم ـ عسق من سورة الشورى

فإذا انتقل الباحث المتدبّر إلى سورة الشّورى لاحظ أنّ الله قد استهلّها بالأحرف المُقطّعة (حمٓ ـ عسقٓ) (١ ـ ٢). فيحاول التوصُّل إلى أسماء الله الحُسنى التي اختُزلت منها الأحرف (عسق) على اعتبار أن حرفي (حمٓ) مختزلان من (الحميد المجيد). ولا بدّ أن يكون الله تعالى شاء أن يتكلّم من مُنطلق الحميد المجيد، ومن زاوية نظر جديدة. بعدما تكلّم في سورة (فُصّلت) من زاوية كونه (الرحمن الرحيم). وفي سورة (المؤمن أو غافر) من زاوية كونه (العزيز العليم).

وعلى هُدىً من قواعد الاختزال ينظر فيما قاله تعالى بعد هذه الأحرف (حم ـ عسق) فيلاحظ قوله: ﴿كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك، اللهُ العزيز الحكيم ـ له ما في السماوات وما في الأرض، وهو العليّ العظيم﴾ (٣ ـ ٤).

ويعلم من خلال معاجم اللغويّين أنّ ﴿كذلك﴾ مركّبة من كاف التشبيه، وذا الإشارة، ولام البعد، وكاف الخطاب. وتعني (كذلك) أي على هذه الشاكلة.

فالله، عزّ وجلّ، يقول إذن: على هذه الشاكلة يوحي الله العزيز الحكيم إليك وإلى الذين من قبلك، ومن منطلق كونه الحميد المجيد.

والسؤال هنا: ما الدّاعي للتدخّل في شؤون الناس؟

ويبرِّر الله ذلك من خلال قوله تعالى: ﴿له ما في السماوات وما في الأرض، وهو العليّ العظيم﴾، أي أنّ الله، عزّ وجلّ، هو العليّ العظيم الذي يملك ما في هذا الكون، ولا يدخل هذا الكون في مُلكية سواه. وما دام هذا العليّ العظيم هو المالك، فلا بدّ أن يكون عليمًا بما يجري على سطح الكرة الأرضية، ولا بُدّ أن يسمع آهات المظلومين فيها، ولا بُدّ أن يكون قادرًا على تأديب الظالمين.

وهكذا يتّضح لهذا الباحث المتدبّر أنّ الله تعالى أتى ب ﴿كذلك﴾ كخطاب اعتزازٍ وتعالٍ. ليقول إنّه تعالى يوحي من مُنطلق كونه الإله (الحميد المجيد)، إلى جانب كونه (العليم السّميع القدير). وقد رمز إلى ذلك ب (عسق)، فجاءت العين من (عليم)، والسّين من (سميع)، والقاف من (قدير). أي أنّ الله تعالى

جاء في سورة (الشورى) يوحي لكونه (عليمًا) بكلّ شيء من أشياء هذا العالم، و (سميعًا) لنداء المستغيثين، و (قادرًا) على التصرُّف في كل شيء. وهو تعالى لم يوح بهذه المواعظ إليك وحدك، بل إلى الذين من قبلك أيضًا.

والله تعالى إذ يوحي، يوحي وهو (العزيز) أي المنيع الذي لا يُغالَب. و(الحكيم) الذي يعلم بواطن الأمور، ويصرِّفها بحكمة بالغة.

فهو تعالى، تأكيدًا لما ذكرت، أضاف: ﴿له ما في السّماوات وما في الأرض﴾.

أي لِمَ لا يكون كذلك، وهو يملك جميع ما في السّماوات وما في الأرض، بل وهو ﴿العليّ العظيم﴾ صاحب الكلمة العليا في هذا العالم، ولا عظيم سواه فيه؟

وهو تعالى بقوله هذا يكون قد غمز بالذين اتّخذوا لله ولدًا من أولّ الطريق منذرًا إياهم بعذاب شديد. وهذا الغمز استدعى منه تعالى القول: ﴿تكاد السّماوات يتفطّرن من فوقهنّ..﴾ (٥)، أي تكاد تتشقّق حُزنًا وألمًا لزعمهم هذا الزعم الباطل. وقد أعاد تعالى، من خلال هذه الألفاظ إلى أذهاننا ما قاله في سورة (مريم) في هؤلاء: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدًا ـ لقد جئتم شيئًا إدًّا ـ تكاد السّماوات يتفطّرن منه وتنشقّ الأرض وتخرُّ الجبال هدًّا ـ أن دعَوا للرحمن ولَدًا﴾ (٨٨ ـ ٨٩). ويتكرّر الكلام على هؤلاء بعد سورة (الكهف) لأن الله، عزّ وجلّ، وضّح هناك أنّ من مقاصد بعثة محمد رسول الله (ﷺ) المهمة مقصدين: الأول، إنذار أمته، والثاني، عبّر عنه بقوله، عز وجل، في الآية الثانية من (الكهف): ﴿ويُنذر الذين قالوا اتخذ الله ولدًا.﴾. وسيستمرّ الكلام عن هذين الفريقين إلى آخر سورة من سور القرآن المجيد.

وقد أضاف تعالى قوله هنا في سورة (الشورى): ﴿والملائكة يسبِّحون بحمد ربّهم ويستغفرون لمن في الأرض..﴾(٥)، أي ينزّهون الله عن مزاعم هؤلاء المُبطلين، بل ويطلبون لهم المغفرة من ربّهم، عزّ وجلّ، أي السِّتر على ما اجترموه من إثم بحقه تعالى.

ثم أتى، جلّ شأنه، بحرف التّنبيه (ألا)، لينبِّه الأذهان إلى أن ما تقوم به ملائكته من تسبيح له واستغفار، إنما يهدف إلى وقاية هؤلاء المبطلين بواسع رحمته وكمال لُطفه بعباده، فقال: ﴿ألا إنّ الله هو الغفور الرحيم﴾ (٥). وهنا يخاطب رسولَه الكريم قائلاً: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء، الله حفيظٌ عليهم، وما أنت عليهم بوكيل﴾(٦).

ويلاحظ صاحبنا أن الله تعالى كرّر ﴿كذلك﴾ فقال: ﴿وكذلك أوحينا إليك قرآنًا عربيًّا﴾ (٧)، أي أنّه على هذه الشاكلة، ومن مُنطلق الحميد المجيد، والعليم السميع القدير، أوحى الله، عزّ وجلّ، إليك هذه الآيات لتصبح فيما بعد ﴿قرآنًا عربيًّا﴾ يفصح بنفسه عمّا فيه. أي أنه يحتوي على أصول تفسيره وبيانه. والمقصد من ذلك كله: ﴿. . لتُنذر أمَّ القرى ومَن حولَها. .﴾ (٧). وهم قوم محمد رسول الله (ﷺ)، ﴿. . . وتُنذِر يوم الجمع لا ريب فيه﴾ (٧). والجمع في اللغة خلاف التّفريق، والجماعة من الناس، ويُجمع على جُموع. وبه يكون تعالى قد أتى باصطلاح (يوم الجمع)، مفسرًا (السّاعة) ويوم (الآزِفة)، وجميع هذه المُصطلحات تتعلّق بالأمم المسيحيّة التي اتخذت المسيح بن مريم ولدًا لله، وخاصّة في الدّور الثاني للمسيحيّة، الذي سيهيمنون فيه على العالم بعد عصر انحطاط المسلمين وهو عصرنا بالذات.

واصطلاح (يوم الجمع) توطئة لعهدٍ تُجمع فيه الأمم وتُوحَّد، وتستعيد مكانتها، بعد أن يرتفع عنها كابوس هؤلاء المشركين الذين كانوا يستهينون بها ويستهزئون. فيوم الجمع هذا يوم يجتمع النّاس فيه على قبول الإسلام. لذلك أضاف، عزّ وجلّ، قوله: ﴿فريقٌ في الجنّة وفريقٌ في السّعير﴾ (٧)، أي فريق يرث جنان الأرض، وفريق يهلكون ويزولون ويمسُّهم عذاب السّعير.

وربّما أسيَ القارىء لمصير هؤلاء، وتساءل: لماذا لايهدي الله، عزّ وجلّ، هؤلاء بدل تعذيبهم. فجاء جوابه تعالى عن هذا التساؤل العفويّ بقوله: ﴿ولو شاء الله لجعلهم أمّةً واحدة ولكن يُدخِل من يشاء في رحمته، والظّالمون ما لهم مِن وليٍّ ولا نصير﴾(٨)، أي أنّه سبق أن قضت مشيئة ربّك أنه لا يؤيّد الظّالمين ولا يهديهم سبيلاً، ولا يُدخلهم في رحمته، ولا يترك لهم وليًّا ولا نصيرًا. فالله لا يهدي القوم الفاسقين.

ثمّ أتى، جلّ شأنه، بحرف (أم) الذي استؤنف به الجواب مشيرًا إلى حالة هؤلاء الفاسقة بقوله: ﴿أم اتّخذوا من دونه أولياء، فالله هو الوليّ وهو يُحيي الموتى، وهو على كلّ شيءٍ قدير﴾ (٩)، أي أنّ الولاية له، عزّ وجلّ، وأنّ إحياء النّفوس المَيتة لا يتحقّق إلّا على يديه. وبهذه الآية الكريمة فسّر تعالى أحرف (عسق) بأنه لا يكون ذلك إلا عن طريقه على اعتبار أنه (العليم السميع القدير).

وتوجّه، جلّ شأنه، بعدئذ يخاطب النّاس كافّة ويقول: ﴿وما اختلفتم فيه مِن شيءٍ فحكمُه إلى الله، ذلكم الله ربّي عليه توكّلت، وإليه أنيب﴾ (١٠)، أي أنّ الفصل فيما ينشأ بين الأمم من نزاع وخلاف لله أمره، عزّ وجلّ، ﴿ذلكم﴾

فأتى باسم الإشارة للبعيد تعظيمًا لمكانة الفصل الذي يتأتّى من لدُنه في النّزاع المذكور. هذا الفصل الذي يتصف بالعدل والحقّ بلا جدال، على اعتبار أنّ الله هو (الحميد المجيد) وهو (العليم السميع القدير) ويقوم بفصل الاختلاف من منطلق أنّه ﴿العزيز الحكيم﴾، فقال: ﴿ذلكُم الله ربي عليه توكّلت، وإليه أُنيب﴾.

على هذه الصورة لا يكون الله تعالى قد تطرّق للذين قالوا اتخذالله ولدًا، في سورة (الشورى)، إلا تلميحًا، بطريقٍ غير مباشر. وهذا التلميح يلاحظه صاحبنا في الآية (٣٦) في قوله تعالى: ﴿فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا﴾، إشارة إلى تجميع الغربيّين خيرات الأرض بين أيديهم. وأضاف: ﴿وما عند الله خيرٌ وأبقى للذين آمنوا﴾ أي ما يُخبئه الله للذين آمنوا من فتوحات خير وأبقى لهم وأضاف: ﴿وعلى ربّهم يتوكّلون﴾. وعدّد صفات هؤلاء المؤمنين وانتهى من ذلك عند الآية (٤٦)، وناشد عباده بمُنتهى الرّقة والرحمة وقال: استجيبوا لربّكم مِن قبل أن يأتي يومٌ لا مردَّ له من الله ما لكم من ملجأٍ يومئذٍ وما لكم من نكير﴾ (٤٧).

ثم توجّه، عزّوجلّ، يُخاطب رسوله محمدًا (ﷺ) ويقول له: ﴿فإن أعرضوا، فما أرسلناك عليهم حفيظًا، إنْ عليك إلاّ البلاغُ، وإنّا إذا أذقنا الإنسان منّا رحمةً فرِحَ بها، وإنْ تُصبْهم سيِّئةٌ بما قدّمت أيديهم فإنّ الإنسان كَفورَ.﴾. (٤٨) ملمِّحًا للمرّة الثانية إلى هذه الأمم التي تزعم أن الحضارة والإنسانية لها وحدها من بين شعوب الأرض.

ثم ربط تعالى آخر سورة (الشورى) بأوّلها موضوعيًّا، وأتى بكلمة (كذلك) للمرّة الثالثة، ليقول: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا، ما كُنتَ تدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ ولكن جعلناه نورًا نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنّك لَتهدي إلى صراطٍ مستقيم، صراطِ الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض..﴾ (٥٢ - ٥٣).

وأتى بحرف التّنبيه (ألا)، قبل أن ينهي سورة (الشّورى) فقال: ﴿ألا إلى الله تصير الأمور﴾، أي أنّ تطورات الأمور ستسير لمصلحة الدعوة الإسلامية يقينًا. ذلك أنّ الذي بعث محمدًا بهذه الدعوة هو الحميد المجيد، العليم السميع القدير، والعزيز الحكيم. ولا أحد سواه يتصف بهذه الأسماء الحُسنى أو يُسمّى بهذه الأسماء.

★ ★ ★

الفصل السادس والعشرون

|حم| من سورة |الزخرف|

فإذا انتهى الباحث المتدبّر من ذلك، انتقل إلى سورة الزخرف، ولاحظ أنه تعالى استهلّها بحرفي (حم) مُجدَّدًا، وعلى صورة آية مستقلة أيضًا، وأتبعهما بقَسَم، والقسم تقديم شهادة، فقال: ﴿والكتابِ المُبين﴾، أي أنّه تعالى ينبيء عن أنّ وحيه القرآني سيتخذ شكل كتابٍ مقروءٍ ومحفوظٍ موضّحًا ببيانه نفسه كلّ ما أنزل الله، عزّ وجلّ، فيه وأضاف تعالى: ﴿إنّا جعلناه قرآنًا عربيًّا لعلكم تعقِلون﴾، أي ليكون هذا الكتاب القرآن شهادةً على كون الخالق الذي أنزله هو الله (الحميد المجيد)، جامع المحامد كلها، نبيل الذات والصفات. علمًا بأنّ سورة (الزُّخرف) هذه أنزلها الله تعالى في مكّة، يوم لم تكن قد تبلورت معالم هذا الكتاب المبين. فمادام قد ثبت صدق هذه الشهادة، فقد ثبت منها أنّ الله تعالى هو الحميد المجيد أيضًا. كما ثبت أنّ الحروف المقطّعة أو حروف الاختزال وهي فواتح السّور، هي حروفٌ مُختَزَلة من أسماء الله الحسنى، وتشكّل مفاتيح لسور القرآن المجيد.

ويبحث صاحبنا عن الوشيجة التي تربط موضوع سورتي (الشورى والزخرف)، فيلاحظ أنّه تعالى حين أنهى سورة (الشورى) بقوله: ﴿صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض، ألا إلى الله تصير الأمور﴾، جاء تعالى يفصّل في سورة الزخرف) موضوع (صراط الله) تفصيلاً، وفي (الكتاب المبين) الذي أقسم به، عزّوجلّ. فوضّح تعالى للعقلاء من الناس معالم هذا الصراط المستقيم، بمختلف أنواع البراهين. ولذلك جاء يقول بعد قَسَمه بالكتاب المبين: ﴿إنّا جعلناه قرآنًا عربيًّا لعلّكم تعقلون﴾، مُضيفاً قوله: وإنّه في أمّ الكتاب لدينا لَعَليٌّ حكيم﴾. وأمّ الكتاب تعني لغةً أصل تعاليم الكتاب وعمادها، تنبيهًا لأذهان العُقلاء من الناس إلى أن تعاليم جميع الأديان تنبع من أصلٍ وأساسٍ واحد. وأن تعاليم القرآن المبين ليست خارجةً عن هذا الأصل والأساس. وإنّما انفرد هذا الكتاب بتعاليم مُتميّزة، هي في قِمّة الكمال والسموّ والحكمة، وهذا هو مدلول: ﴿..لدينا لَعَليٌّ حكيم﴾.

ويلاحظ هذا الباحث المتدبّر أنه تعالى، بعد أن توجّه بخطابه إلى الناس العُقلاء عامّة، أوصى رسوله في الآية (٤٣): ﴿فاستمسكْ بالذي أوحِي إليك، إنّك على صراطٍ مُستقيم - وإنّه لَذِكرٌ لك ولقومك، وسوف تُسألون﴾.

ويدقّق صاحبنا ألفاظ هذه الآية الواعظة، فينتبه إلى أنّ (سوف) للمستقبل البعيد. ومن المعلوم أن كُلّ وصيّة وُجّهت إلى رسول الله هي موجّهة بالتالي إلى قومه وأمته الإسلامية لكونه (ﷺ) أسوةً حسنة للمؤمنين. فما معنى أن يأتي الله تعالى هنا بـ (سوف)، وهي للمُستقبل البعيد، ولم يقل وستُسألون؟

ويفهم صاحبنا حكمة ذلك وهي أنّه تعالى يُحمِّل الأمة الإسلامية مسؤولية حمل دعوة الإسلام إلى العالم قاطبة، فإن هم قصّروا في ذلك، وقعدوا عن الدعوة إلى الإسلام، يُعتبرون في نظر خالقهم مسؤولين عن هذا التّقصير، ويُدانون عليه. خصوصًا أنه تعالى قال في مقام آخر: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليُظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون﴾.

وقد أكدّ لصاحبنا فهمَه هذا أنه تعالى راح يَلفِت أنظار أمّة محمد (ﷺ) إلى ما اعترى قبلهم من الأمم من انحرافات. كان أبرزها أن اتخذوا أحبارهم وعلماءهم أربابًا من دون الله، وتركوا الرجوع في أمور دينهم إلى الكُتب السّماوية التي أنزلها الله لهدايتهم.

وهنا تملّك صاحبنا شعورٌ بأنه في هذا التذكير تكمُنُ نبوءةٌ وهي أنّ أمّة المسلمين ستقع فيما وقع فيه من سبقها من الأمم. وهذه إشارةٌ واضحة لعصر الانحطاط الذي أشارت إليه سورة (السّجدة) من قبل.

وينتبه هذا الباحث المتدبّر إلى أنّ الله، عزّوجلّ، وقد انتهى من التذكير بزمن موسى وفرعون، انتقل ليقول ما لا يحتمل إلّا دلالة واحدة. قال: ﴿ولمّا ضُرب ابنُ مريم مَثَلًا، إذا قومُك منه يصِدُّون﴾ (٥٧).

فلا يجد صاحبنا مناصًا من أن يعود إلى معاجم اللغويين لتفهّم الألفاظ التي احتوتها هذه الآية الكريمة. فيلاحظ قول صاحب معجم محيط المحيط: المِثل أوالمَثَل في اللّغة، يُستعمل للشبّه والنظير والصّفة. ويُجمعُ على أمثال. ويستعمل (المَثل) تعبيرًا عن الحُجّة، كأن تقول: أقام له مَثَلًا أي حُجّة. كما يُستعمل تعبيرًا عن الحديث. تقول: بَسَط له مثلًا أي حديثًا. (ومثلًا) هو منصوب على المصدرية بمعنى أمثّل تمثيلًا أي تشبيهًا ونظيرًا ويكون ما بعده بيانًا له.

ومما أورده أصحاب المعاجم قولهم في حرف (لمّا): أنّه حرف وجودٍ لوجود.

ويكون جوابها جُملة اسمية مقرونةً بإذا الفُجائيّة، وفعلاً مضارعًا عند ابن عصفور لقوله تعالى: ﴿ولمّا نجّاهم إلى البرّ إذا هم يُشركون﴾.

وممّا قالوا في (إذا) أنّ الغالب أن تكون ظرفًا للمستقبل، متضمِّنة معنى الشرط، وتختصّ بالدخول على الجملة الفعليّة، ولا تعمل الجزم إلاّ في الضرورة، ومحلّها النصب أبدًا على الظرفية. وأمّا (إذا) الفجائية فتأتي في درج الكلام متأخرة، بينما تأتي (إذا) الظرفيّة في صدره.

ومما قالوه في (يَصِدّون). صَّد عنه صدودًا، أعرض ومال. وصّد الرّجل يصِدُّ صديدًا: ضجّ. وصدَّ فلانًا عن كذا: منعه وصرفه عنه.

والآن، وقد اتضحت لعينَي هذا الباحث المتدبّر دلالات ألفاظ الآية: ﴿ولمّا ضُرب ابن مريم مثلاً إذا قومُك منه يصِدُّون﴾، انتبه إلى أنّ الله، عزّوجلّ، يُنذر المسلمين، إذا ما تقاعسوا في حمل رسالة الإسلام إلى العالم، يُنذرهم ببعث مثيلٍ ونظيرٍ للمسيح بن مريم الذي بعثه الله تعالى لإحياء شريعة موسى وإكمال رسالتَه. وقد تمّ بعث المسيح بن مريم بعد بعثة موسى بأربعة عشر قرنًا من الزمان، أي أنّ نظير ابن مريم ومثيله سوف يبعث بعد محمد رسول الله (ﷺ) بأربعة عشر قرنًا من الزّمان، وهو زمان انحطاط المجتمع الإسلامي المُنبأ عنه في سورة (السّجدة) كما لاحظنا ذلك من قبل. فهذا هو ما فهمه هذا الباحث المتدبّر من قوله تعالى هنا، وبصورة لافتة لأنظار الباحثين: ﴿ولمّا ضُرب ابن مريم مثَلاً إذا قومُك منه يَصِدّون﴾، ويَصِدُّون عنه بمعنى لا يستجيبون له بالسُّرعة المطلوبة. فالآية الكريمة المذكورة تُنبىء إذن عمّا تحدّثت عنه أحاديث رسول الله (ﷺ) من نزول المسيح في آخر الزّمان، والتي ورد فيها «وإمامكم منكم» بمعنى أنّه مثيل ابن مريم، وليس شخصه.

ولمّا لم يكن صاحبنا بصدد تفسير القرآن الكريم، بل إثبات انتهاج كتاب الله تعالى فنَّ الاختزال اللغوي وفقًا لقواعده المعروفة لدى شعراء عرب الجاهلية، فلا يدخل في تفصيل أكثر فيما اعترضه من آيات، إنما يرسخ في مخيِّلته أنّ الله تعالى الذي ندَّد بالمنافقين في سورة (الأحزاب)، وأنبأ عن انحطاط المسلمين بعد مضي ألف عام على البعثة وذلك في سورة (السجدة)، اقتضى هذا التّسلسل الموضوعي أن يبعث الله، عزّوجلّ، مثيل ابن مريم لإصلاح حال المسلمين وقيادة مسيرة الدعوة إلى الإسلام من جديد.

ويلاحظ صاحبنا أن الله، عزّوجلّ، قال في الآية (٦١): ﴿وإنّهُ لَعِلْمٌ للسّاعة، فلا تَمتَرُنّ بها، واتّبعونِ، هذا صراطٌ مستقيم﴾. ويَفهم أن ضمير

﴿وإنه﴾ يعود على القرآن الذي يُعلِمُنا في هذه الآيات الكريمة عن ساعة زوال الذين اتخذوا لله ولدًا وهيمنوا على العالم بعد انحطاط العالم الإسلامي.

وها هو ذا، جلّ شأنه، يتوجّه للكلام عن هؤلاء ويقول: ﴿أم أبرموا أمرًا فإنّا مُبرمون ـ أم يحسبون أنّا لا نسمع سرّهم ونجواهم، بلى ورُسُلنا لديهم يكتبون ـ قل إن كان للرحمن ولدٌ، فأنا أوّلُ العابدين ـ سبحانَ ربِّ السماوات والأرض ربِّ العرش عمّا يصنعون ـ فذَرْهم يخوضوا ويلعبوا حتّى يُلاقوا يومَهُمُ الذي يوعدون﴾ (٧٩ ـ ٨٣).

وهذه الآيات واضحة الدّلالة على أنّ الله، عزّوجلّ، سبق أن خصّص ساعةً لزوال هؤلاء الغربيّين المشركين، وأنه يسمع سرّهم ونجواهم وما يُبرِمون.

وهكذا يدرك الباحث المتدبّر سرَّ استهلال الله تعالى سورة (الزخرف) بقوله تعالى: ﴿حمٓ ـ والكتابِ المبين ـ إنّا جعلناه قرآنًا عربيًّا لعلّكم تعقلون ـ . . . . ـ أفنضرِبُ عنكُمُ الذِكْرَ صفحًا أنْ كُنتم قومًا مُسرفين ـ وكم أرسلنا من نَبيٍّ في الأوّلين ـ وما يأتيهم من نَبيٍّ إلاّ كانوا به يستهزئون ـ فأهلكنا أشدَّ منهم بطشًا، ومضى مَثَلُ الأولين﴾. يدرك صاحبنا أنّ سورة (الزخرف) مُترابطة، تتصّل خاتمتها بمقدّماتها، وتدور جميع آياتها حول الكتاب المبين، على اعتبار أنّه ﴿عِلْمٌ﴾ للسّاعة، ولا يحيط بعلم هذا الكتاب إلاّ من كان عاقلاً دِلالات هذا الكتاب، خصوصًا أنّه تعالى قال: ﴿إنا جعلناه قرآنًا عربيًّا لعلّكم تعقلون﴾.

ويطمئن صاحبنا إلى أنّه لم يُخطىء إذ ذهب إلى أن حرفَي (حمٓ) مختزلان من (الحميد المجيد). فالله الذي يرأف بعباده، وينبئهم بعلم السّاعة، وبتطورات الأمور القادمة، هو الإله الحميد، ولا ريب، جامع المحامد، وهو المجيد يقينًا، نبيل الذّات والصّفات.

★ ★ ★

الفصل السابع والعشرون

|حم| من سورة |الدخان|

وعلى أساسٍ من هذا الفهم ينتقل هذا الباحث المتدبّر إلى سورة (الدُّخان)، ليُلاحظ أنّ الله، عزّوجلّ، استهلّها هي أيضًا بحرفَي (حـم). وأتبع ذلك بقَسَم بكتابه العزيز بقوله: ﴿والكتابِ المبين﴾. والقَسَم هو تقديم شهادة، فهو تعالى قدَّم وحي سورة (الدّخان) النازل في مكّة المكرّمة، على أن يتخذ شكل الكتاب المُفصح بنفسه عما يحتوي عليه من تعاليم يثبُت منها كون الله (حميدًا) أي جامعًا للمحامد، و (مجيدًا) أي نبيل الذّات والصّفات.

وقد أتبع، جلّ شأنه، قَسَمه المذكور بقوله: ﴿إنّا أنزلناه في ليلةٍ مُباركةٍ، إنّا كُنّا مُنذِرين ـ فيها يُفْرَق كلُّ أمرٍ حكيم ـ أمرًا من عندنا، إنا كنا مرسِلين ـ رحمةً من ربّكَ، إنّه هو السميع العليم ـ ربُّ السّماوات والأرض وما بينهما إن كُنتم موقنين ـ لا إله إلاّ هو يُحيي ويُميت، ربُّكم وربُّ آبائكم الأوّلين﴾ (٢ ـ ٧)، أي أنّه لمّا كان أمر إحياء النُفوس وإماتتها لا يقدر عليه سوى ربّ السّماوات والأرض، وكان هذا الإله سميعًا لتضرُّعات عباده وشكاواهم ممّا يحلُّ بهم من مظالم، وكان عليمًا بكلّ شيء يجري في هذا الكون، فقد أخذ على نفسه إنذار الظالمين بالعذاب إن هم تمادَوا فيه، رحمةً من ربّك. وهذا ما دعا إلى إنزال هذا الكتاب في هذه الليلة، أي الزّمن الذي خيَّم فيه الظّلام على العالم. وبهذا الوحي وهذا الإنذار الذي تحمله هذه الليلة تكون قد تحوّلت من ليلةٍليلاء إلى ليلةٍ مُبارَكة، يصدر فيها كلُّ أمرٍ حكيم. وقد أنزلنا هذا الكتاب المبين آيةً على أنّ الله هو (الحميد المجيد).

ويبحث صاحبنا عن الوشيجة التي تربط سورة (الدّخان) بما قبلها، فيلاحظ أنّ الله، جلّ شأنه، إذا كان قد اختتم سورة (الزخرف) بقوله تعالى: ﴿وقيلِهِ يا ربِّ إنّ هؤلاء قومٌ لا يؤمنون ـ فاصفح عنهم وقل سلامٌ، فسوف يعلمون﴾. وكان الكلام دائرًا حول إنذار الأمم المسيحيّة المعاصرة ابتداءً من سورة (الكهف)، ولا تزال. ولذلك يُعد قوله تعالى هنا: ﴿وقيلِهِ يا ربّ إنّ هؤلاء قومٌ لا يؤمنون﴾ قرينةً دالّةً عليهم وتعني أنّ المُسلم في عصرهم لا يتصوَّر قبولهم الإسلام فالمعنى

وقوله يا ربّ إنّ هؤلاء ميؤوس من إيمانهم. ولم يقل تعالى هنا وقال الرّسول بل أبهم شخصية القائل. وقد دعا تعالى إلى الصّفح عن هؤلاء، ومسالمتهم وانتظار نزول العذاب بهم. فهذه هي دلالة قوله تعالى: ﴿فاصفح عنهم وقُل سلامٌ، فسوف يعلمون﴾.

ولما كان تعالى قد أنهى سورة (الزُخرف) بما لاحظناه، فقد خصّص تعالى سورة (الدّخان) لبيان أسباب عدم اهتمام هذه الأقوام الغربيّة المسيحيّة بالتحقيق في أمر صدق دعوة الإسلام. وقال مضيفًا قوله تعالى: ﴿بل هم في شكٍّ يلعبون.﴾.(٩) أي ينظرون إلى الإسلام نظرة شكٍّ وليس نظرة تحقيق. و ﴿يلعبون﴾ أي يلهيهم قضاء شهواتهم وملذاتهم عن هذا الأمر المهمّ. فاللّعب معناه في اللغة العربية الفعل الذي يُقدم عليه المرء بقصد اللّهو وتحصيل الراحة وتجديد النشاط. واللعب ينطوي على العبث وترك الجدّ. كما يحتمل الإعراض عن الحقّ والإقبال على الباطل.

وفي حضارة الغرب المعاصرة كثيرٌ من هذه الدّلالات التي يفيدها (اللعب).

على هذه الصورة تكون سورة (الدّخان) قد ارتبطت بسورة (الزخرف) موضوعيًا في عينيَ صاحبنا، فيتشوّق لمتابعة بعض ما جاءت به أيضًا.

ويلاحظ أن الله، عزّوجلّ، جاء يُفصح عن علامةٍ جديدةٍ ستحدث في زمن ظهور هؤلاء إلى المسرح الدوليّ ويقول: ﴿فارتقبْ يوم تأتي السّماء بدُخانٍ مُبين ويَغشى الناسَ، هذا عذابٌ أليم﴾ (١١). وألفاظ هذه الآية الكريمة تنبىء، على حدّ فهمي واجتهادي، عن وقوع حربٍ قد تكون ذرّيّة، يغشى دخانُها وغبارُها بيئة الغربيّين ليكون به لهم عذاب أليم تصحبه النوائب والنوازل، خصوصًا أنّ سورة (الكهف) سبق أن أنبأت من خلال قوله تعالى فيها: ﴿وجعلنا بعضهم يموج في بعض..﴾ عن هذه الحرب صراحة. تقول ماج الجيش مع عدوه أي اقتتل وتحارب.

يلاحظ صاحبنا قول ربّنا، جلّ شأنه، بعدئذ: ﴿ربّنا اكشفْ عنّا العذاب إنّا مؤمنون﴾ (١٢)، أي أنّ هذا العذاب سيأتي بصحوةٍ عند أفراد تلك الأقوام توقظهم من غفلتهم بعض الشيء، لكنْ قال تعالى بعدها: ﴿أنّى لهم الذّكرى، وقد جاءهم رسول مُبين ـ تولّوا عنه وقالوا مُعَلَّمٌ مجنون﴾ (١٣ ـ ١٤)، أي أنّى لهم أن يصحوا ويتّعظوا ويؤمنوا، وقد سبق أن بعثنا محمدًا رسولنا بالبيّنات، فتولّوا عنه، زاعمين أنّ ما ادّعاه وحيًا إنّما هو اقتباسٌ من قسٍّ أو كاهن تخرّج عليه. إضافةً

إلى أنّهم اتّهموه بالسّحر تارةً، والجنون تارةً أخرى. كما تتجلّى هذه الاتهامات ممّا ينشره هؤلاء في صحفهم وكُتبهم، ممّا لا يخفى على الباحثين.

وراح تعالى يذكّر هؤلاء بعدئذ بما عرض لموسى مع فرعون، مبتدئًا الآية بلفظ ﴿كذلك﴾ أي على هذه الشاكلة: ﴿كذلك وأورثناها قومًا آخرين ـ فما بكت عليهم السّماء والأرض، وما كانوا مُنظرين﴾ (٢٨ ـ ١٩). أي على هذه الشاكلة سنعاملهم ونورث الأرض قومًا آخرين. فلا يحزن على زوالهم أحد، ولا يُنظرون.

وهكذا يستشف صاحبنا، من هذه الدلالات التي كشف عنها ﴿الكتاب المبين﴾ وتسلسلها الموضوعي، إشارتها إلى اختزال ﴿حمٓ﴾ من صفتي الله (الحميد المجيد). كما يُدرك سرّ قوله ﴿في ليلةٍ مباركة﴾ وعلاقتها بقوله آخر الآية ﴿إنّا كُنّا مُنذِرين﴾.

★ ★ ★

الفصل الثامن والعشرون

|حم| من سورة |الجاثية|

فإذا وصل صاحبنا إلى هذا الحدّ من العلم، انتقل من سورة (الدخان) إلى السورة التي بعدها وهي سورة الجاثية، فلاحظ أن الله تعالى قد استهلّها أيضًا بحرفي ﴿حمٓ﴾، فوَثِقَ أنّها تعني أن سورة (الجاثية) أنزلها الله الحميد المجيد. وهو إنّما يوقن بهذه الدلالة بعد ما ثبت له صحّة ذلك من خلال السور الخمس الماضية: المؤمن وفُصّلت والشورى والزخرف والدّخان.

فإذا قرأ بعد ﴿حمٓ﴾ قوله تعالى: ﴿تنزيلُ الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾، أدرك أنه تعالى راح يثبت هنا، من خلال تجلّي صفتيه ﴿العزيز الحكيم﴾ في أرجاء هذا الكون، كونَه حميدًا مجيدًا. فإلى هذا أشار تعالى في قوله بعد ذلك: ﴿إنّ في السّماوات والأرض لآياتٍ للمؤمنين﴾ (٣)، أي إن آفاق السماوات والأرض مفعمة باللّوائح البيّنة والشواهد الصادقة على أنّ خالق هذا الكون هو العزيز الحكيم، وأنّ الموقنين بوجوده تعالى لا يرون هذه العلامات الخارجة عنهم وحسب، بل يرونها في أنفسهم أيضًا وفي تكوين كُلّ مخلوقٍ يدبّ على وجه الأرض. وهذا المعنى يفيده قوله تعالى بعدئذ: ﴿وفي خَلقِكم وما يبثّ من دابّةٍ آياتٌ لقومٍ يوقنون﴾ (٤).

وها هو، جلّ شأنه، يخاطب الذين يعتمدون العقل وحده أداة معرفةٍ، ينبّههُم إلى نظام اختلاف الليل والنهار، وإلى نظام الطبيعة المتمثل بنزول الأمطار وما يسبّبه ذلك من إحياء للموات من الأرض، وإلى نظام الرّياح الذي يساعد في تحقيق أهداف الحياة على الأرض، يخاطبهم بقوله تعالى: ﴿واختلاف الليل والنّهار، وما أنزل الله من السّماء من رزقٍ فأحيا به الأرض بعد موتها، وتصريفِ الريّاحِ آياتٌ لقومٍ يعقلون﴾ (٥).

فلما انتهى، جلّ شأنه، من بيان ذلك، أتى باسم الإشارة (تلك) بدل (هذه) للتعظيم من شأن هذه الآيات والعلامات التي يدركها العقل المجرّد وأضاف قائلاً: ﴿تلك آياتُ الله نتلوها عليك بالحقّ، فبأيّ حديثٍ بعد الله وآياته يؤمنون﴾ (٦).

وحين انتهى ربّنا، عزّ وجلّ، من هذا التّمهيد الذي اقتضاه السّياق، توجّه بغتةً ليقول: ﴿ويلٌ لكلّ أفّاكٍ أثيمٍ يسمع آيات الله تُتلى عليه ثم يُصِرُّ مُستكبرًا كأن لم يسمعها، فبشِّرْه بعذابٍ أليمٍ﴾ (٧ ـ ٨). وهو تعالى أعدّ الأذهان بهذا الأسلوب للإقرار بضرورة إنزال العذاب بالمُصرِّين على استكبارهم وتعاليهم على قبول هذا الكتاب المُنزّل من الله العزيز الحكيم.

ويبحث صاحبنا عن الوشيجة الكائنة ما بين سورتَي (الجاثية والدُّخان). فينتبه إلى أنه تعالى اختتم سورة (الدخان) بقوله: ﴿فإنّما يسَّرناه بلسانك لعلّهم يتذكّرون ـ فارتقبْ إنّهم مُرتقبون﴾.

فإذا التمس كلمة (ارتقبْ) في معاجم اللغويين وجد أنّها تعني توقّعْ تطوّرات الأمور وتقلّباتها. ومعنى ﴿وإنّهم مُرتقبون﴾ أي يحاول هؤلاء أيضًا توقّع التطورات التي سيؤول إليها حال الدعوة الإسلامية. وقد قال تعالى في الآية الثانية من سورة (الجاثية): ﴿إنّ في السماوات والأرض لآياتٍ للمؤمنين﴾ ليربط ما بين مضمونَي السّورتين هادفًا ليقول: إن المراحل التي ستمرّ بها دعوة الإسلام ستكشف لمرتقبي هذه التطوّرات، علامات على صدق ما أورده هذا الكتاب المبين من نبوءات في مصلحة المؤمنين.

وهكذا يطمئن صاحبنا إلى كون ﴿حمٓ﴾ مختزَلةً من الحميد المجيد، (الحميد) أي جامع المحامد كلّها، و(المجيد) نبيل الذات والصّفات، وأنّ جميع ما فعله تعالى ويفعله داخلٌ في نطاق صفتَيه ﴿العزيز الحكيم﴾ أي المنيع والعليم ببواطن الأمور.

★ ★ ★

الفصل التاسع والعشرون

|حم| من سورة |الأحقاف|

فإذا انتقل هذا الباحث المتدبّر إلى سورة (الأحقاف) لاحظ أنّ الله، عزّ وجلّ، استهلّها أيضًا بـ ﴿حمٓ﴾، فلا يجد كبير عناء في إدراك أن حرفَي (حمٓ) مختزلان من (الحميد المجيد) الذي أنزل سورة (الأحقاف)، وهي جزء من هذا الكتاب الذي هو ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم.﴾ (٢). وقد ثبتت له صحّة هذه الدلالة من خلال جميع السّور الماضية المُستهلّة بهذين الحرفين (حم). لهذا لا يرتاب صاحبنا في دلالتهما على أنّهما مُختزلان من (الحميد المجيد).

وهنا سيبحث هذا الصّاحب عن الوشيجة التي تربط سورة (الأحقاف) بسورة (الجاثية) التي قبلها، فيلاحظ أنّ الله تعالى قد اختتم سورة (الجاثية) بقوله: ﴿فلله الحمدُ ربِّ السماوات وربِّ الأرض ربِّ العالمين وله الكبرياء في السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم﴾. أي أنّ ربوبيّة الله وكبرياءه وعظمته باديةٌ في كلّ ذرّةٍ من ذرّات هذا الكون. وربطًا لسورة (الأحقاف) بسورة (الجاثية) موضوعيًّا، جاء تعالى يقول في مستهلّ سورة (الأحقاف): ﴿ما خلقنا السّماواتِ والأرضَ وما بينهما إلا بالحقِّ وأجَلٍ مُسمّى، والذين كفروا عمّا أُنذِروا مُعرضون﴾ (٣)، أي أنّه تعالى يستدلّ من خلال إنعام النّظر في تكوين هذا الكون وما فيه، أنّه لم يخلقه عبثًا بلا مقصدٍ معيّن، بل خلقه بالحقّ أي بالعدل والصدق. كما يستدلّ أنّ هذا الكون لا بُدّ أن يزول في يوم من الأيّام، فهو مخلوقٌ لأجَلٍ مُسمّى. فمن شاء التوسع في فهم هذا الدليل فليعد إلى كتاب المؤلّف (النظريةُ القرآنية الكونية).

كما يلاحظ صاحبنا أنّ الله، عزّ وجلّ، لم يكتف بهذا الترابط، بل راح يقدّم الأدلّة على ما جاء به، ويطالب المُكذّبين بالحُجّة التي اعتمدوها في تكذيبه. ولذلك أضاف قوله: ﴿قل أرأيتم ما تدعون من دون الله، أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شِركٌ في السّماوات، ائتوني بكتابٍ من قبل هذا أو أثارةٍ مِن علمٍ إن كنتم صادقين﴾ (٤). أي ما لهؤلاء المكذبين مِن أمّ القرى ومن حولها، ومن سيأتي بعد عصر انحطاط المسلمين من المسيحيّين الغربيّين خاصّة، يعبدون غير الله ومن

دونه؟ فهل ثبت لهم بالحجّة القاطعة أنّ معبوداتهم قد شاركت الخالق في خلقه للأرض، فخلقت شيئًا منها ومن زعم منهم مشاركة معبوداتهم الخالقة في خلق السّماوات أو الأرض، فهو مُلزمٌ بتقديم الدليل القاطع الذي يمكن أن يُدلي به، وذلك من خلال الكتب السماوية السابقة التي هي بين أيديهم ليثبت زعمه ودعواه الباطلة. بل أين الأدلّة العلمية التي تسند هذه الأباطيل؟

ولم يقف تعالى عند هذه المُطالبة الحقّة، بل أتى، جلّ شأنه، بالدليل المعاكس، لما طالبهم به من خلال قوله تعالى: ﴿ومَن أضلُّ مِمّن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة، وهم عن دعائهم غافلون﴾. (الأحقاف ٥)، أي أنّ من خصائص الإله أن يستجيب لأدعية عباده، كما هو الحيّ القيّوم. فكيف تعبدون من لا يستجيب لكم ممّن تدعون مِن دونه إلى يوم القيامة؟. وأضاف تعالى بسخريةٍ ظاهرة قائلاً: ﴿وهم عن دعائهم غافلون﴾.

وبذلك تجلّى لهذا الباحث المتدبّر الترابط الموضوعي المحكم القائم ما بين سورتَي (الجاثية والأحقاف). هذا الترابط الذي يثبت من خلاله استحقاق الله الحميد المجيد، ربِّ السّماء وربِّ الأرض، ربِّ العالمين، استحقاقه الحمد كُلَّه، بل له الكبرياء في السّماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم.

فلمّا يصل هذا الباحث المتدبّر إلى هذا الحدّ من الإدراك، ويريد أن ينتقل إلى ما بعد سورة (الأحقاف)، يُلاحظ أنّ هناك ثلاث سوَرٍ هي (محمّد والفتح والحجرات)، لم يستهلّها ربّنا بأحرف اختزال، فهي، وفقًا لقواعد فنّ الاختزال القرآني وخطته، تابعة لسورة (الأحقاف).

فيدفعه هذا الأمر إلى التوسّع في فهم مضمون سورة (الأحقاف) ذاتها، ليستنتج من خلال ذلك الضرورة التي استدعت فرز هذه السور الثلاث بمضامينها الثلاثة أيضًا، ولتكملَ مضمون سورة (الأحقاف). هذه السّورة التي رأينا كيف استهلّها ربُّنا، جلّ شأنه، بحرفَي (حـم) مكرَّرًا ذلك المرّة السابعة الأخيرة، مشيرًا بذلك إلى اسمَي (الحميد المجيد) من أسماء الله الحُسنى.

ـ استعراض مضامين

ويعود هذا الباحث المتدبّر إلى التسلّسل الموضوعي بدءًا من سورة (طـه) التي اختزلها تعالى من (أيها الرجل العظيم). وانتهاءً بسورة (فاطر) . فيلاحظ أنّ الله تعالى ركّز في تلك السّور على إبراز بعثة محمّد رسول الله على أنها رحمة للعالمين. وأنبأ خلالها، وفي سورة (السجدة) نفسها، عن زماننا نفسه، وهو زمان انحطاط المُسلمين الذي أتى وفقًا لنصوص آياتها بعد ألف عام ممّا تعدُّون. كما أنبأ تعالى في سورة (الكهف) بظهور المسيحيّة في دورها الثاني إلى المسرح الدّوليّ، وهي منحرفةٌ عن تعاليم المسيح، وأنذرها تعالى فيها بعذابٍ أليم، لانتهاج أصحابها نهج المُفسدين الفاسقين.

ولا يقف صاحبنا عند سورة (فاطر)، بل يتناول بالعرض ما بحثه وتدارسه حتى الآن من سُوَر رُبع (يـس). من سورة (يـس) نفسها التي اختُزل اسمها من يا أيها السّيد الرسول، مبشرًا فيها باستتباب أمر السّيادة أخيرًا لمحمّد (ﷺ) ليس في شبه جزيرة العرب وحدها، بل في العالم بأسره بعد زوال مسيحيي الغرب بعذاب أليم. ويدرك من خلال سورة (ص) صدق ما بشّر به تعالى وأنذر، الأمر الذي يُثبت أنّه علاّم الغُيوب. فقد كشف في سورة (ص) ما سيتملّك أمم الغرب من استكبار وهيمنة اقتصاديّة، وناشدهم أن يثوبوا إلى رشدهم، ويعودوا عن استكبارهم، وينيبوا إلى بارئهم، كيلا يُصيبهم ما أصاب الأمم من قبلهم، كما ناقش دعواهم ﴿ولَدَ الله﴾ ودحضها بحُجّة المنطق والعقل السّليم.

ثم أتى، جلّ شأنه، بعد سورة (ص) بسبع سورٍ مستهلّةٍ بحرفي (حـم)، وبمعنى أنّ أبحاثه تعالى التي تمّ بحثها فيها، بملاحظة كونه، عزّ وجلّ، الحميد المجيد، أي بملاحظة كونه تعالى جامع المحامد كلها، ونبيل الذات والصفات، باحثًا في كل سورةٍ منها من زاويةٍ تختلف عن الأخرى. فقد بحث في سورة (المؤمن) من حيث كونُه، عزّ وجلّ، غافرَ الذّنب وقابلَ التّوْب، شديدَ العقاب، ذا الطّوْل، لا إله إلاّ هو، إليه المصير. وبحث في سورة (فُصّلت) من حيث كونُه الرحمن الرحيم. وبحث في سورة (الشورى) من حيث كونه الحميد المجيد والعليم السميع القدير. وبحث في سورة (الزخرف) من باب القَسم بكتابه المُبين، هذا القسم الذي أتى شهادةً للعقلاء تحثّهم على الاعتقاد بأنّ تعاليمه هي

الصراط المستقيم، وتحضُّهم على ضرورة التمسّك بهذه التعاليم، وقد بحث في سورة (الدخان) من باب القَسَم ثانية بكتابه المبين الذي أتى بشهادةٍ على أنّ ما ورد فيه إنّما تتجلّى به رحمة ربّ العالمين. وبحث في سورة (الجاثية) مُستقبل العلم وتطوّره، وظهور علامات ودلائل تثبت كون الله حميدًا مجيدًا. وأتى تعالى بسورة (الأحقاف) التي نحن بصددها، فأنبأ بأنّ الكشوف العلميّة تثبت وجود خالقٍ لهذا الكون حميدٍ مجيد. وأنّه لم يخلق الإنسان عبثًا، بل كان وراء ذلك مقصدٌ أسمى. وأنّ هذا العالم مخلوقٌ لأجَل مُسمّى، مشيرًا بذلك إلى النظريّة العلميّة التي باتت معروفة، وهي نظريّة الانفجار العظيم.

وينتبه صاحبنا أيضًا إلى أنه تعالى أطلق عدّة تسمياتٍ خلال هذه السّور متعلّقةٍ بمصير الأمم الغربيّة المعاصرة. من هذه التسميات: (يوم الآزِفة) في سورة (المؤمن) بمعنى تحقّق الميعاد المضروب المقدَّر لزوالهم. ووفقًا لِما أنذرتهم به سورة (ص) ، وما سمّته هناك ﴿ نبأً عظيمًا﴾. كما لوّحت سورة (فُصِّلت) بعذاب صاعقةٍ تنزل بساحتهم تشبه صاعقة قوم عادٍ وثمود. ذلك ليثبت أن القرآن المجيد لا يأتيه الباطل مِن بين يديه ولا مِن خلفه. وقد أعفى تعالى نبيّه من تبعة هداية هؤلاء الذين اعتقدوا أنّ المسيح الناصري وَلدٌ لله، عزَّ وجلَّ. وأفهمه أنه، جلّ شأنه، هو الحفيظ عليهم وقد أنبأهم بهلاكهم وزوالهم بعذابٍ أليم.

كما يلاحظ صاحبنا أنّ الله تعالى أتى باصطلاح ﴿يوم الجَمْع﴾ ليشير به أنه تعالى سيجمع العالم إثر زوال هؤلاء وراء إمامة محمّدٍ رسول الله تحت لواء الإسلام.

كما ينتبه صاحبنا إلى أنه تعالى توجه بالوعظ إلى مسلمي عصر الانحطاط وذلك في سورة (الزُّخرف)، فنبّههم إلى أنّ حالتهم البعيدة عن تعاليم الإسلام استدعت أن يبعث فيهم نظيرًا ومثيلاً لابن مريم، يأتيهم ببيّنات القرآن الكريم الحقيقيّة، ويُكمل نشر الإسلام على العالم. ونبّه تعالى عباده إلى أنّ ليلة نزول القرآن المجيد، التي كانت مُظلمةً أوّل أمرها، وقد خيّم فيها الظّلم والظلام على العالم، قد قلبها تعالى ليلةً مباركة، يُفرَق فيها كلُّ أمرٍ حكيم، رحمةً من رب العالمين. وأشار في سورة (الدّخان) إلى أنّ حربًا مدمّرة ستقع، يشكّل دخانها عذابًا أليمًا لمن أنذرهم من قبل. كما أشار في سورة (الجاثية) إلى سرّ إضلاله أممَ الغرب، وهو استكبارها وزَهْوها بما طلعت به على العالم من علوم، واستهانتها ببقيّة شعوب الأرض وظُلمها إيّاهم، ليثبت من خلال إضلاله تعالى إيّاهم كونه هو ربَّ السماوات والأرض وربَّ العالمين، وأنّ له الحمدَ والكبرياء في الكون كلّه.

وينتبه أخيرًا إلى ما أشار تعالى إليه في سورة (الأحقاف)، أي إلى المرض الحقيقي الذي ينتاب مختلف المجتمعات الجاهليّة، وهو تفسّخ نظام الأسرة وانحلالها فيها جميعًا، على حين أوصى تعالى في جميع كُتبه المُنزلة بضرورة المحافظة على كيان الأسرة، والإبقاء على تماسكها، لأنّها العمود الفقري لكل مُجتمع. ونبّه تعالى الأذهان إلى مخالفة مُجتمعَي العرب الجاهليين والمسيحيين الغربيين المعاصرين هذه الوصيّة، وإعراضهما عنها. وهذا ما انتهى بأقوامهما إلى أن يكونوا في زمرة الفاسقين. وهذا الأمر يستدعي منه، عزّ وجلّ، إنزال عقوبة بهؤلاء أيضًا. وقد اتّخذ هذا القرار الحاسم، فعبّر عنه بكملة ﴿بلاغ﴾ في آخر آية من سورة (الأحقاف)، إذ قال مُختتمًا هذه السّورة بقوله تعالى: ﴿فاصبرْ كما صبر أولو العزم من الرّسل، ولا تستعجلْ لهم، كأنّهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلاّ ساعةً من نهارٍ بلاغٌ فهل يُهلَكُ إلاّ القوم الفاسقون﴾. علمًا بأنّ البلاغ هنا بمعنى التّبليغ، أي هذا تبليغٌ من الله إليكم.

ويدرك هذا الباحث المتدبّر أنّ لفظ (بلاغ) المذكور، يفسّر استهلاله تعالى جميع السّور السّبع: المؤمن، فصّلت، الشورى، الدخان، الجاثية والأحقاف، بحرفَي الاختزال (حـم). وكأنّه تعالى نبّه أذهان عباده إلى أنّ ما احتوت عليه هذه السّور من وصايا ونصائح وتعاليم وإنذارات يشير إلى كون خالقهم (حميدًا مجيدًا) أي جامع المحامد كلها في ذاته، ونبيل الذات والصفات.

١ ـ سورة (محمّد)

ولا بُدّ لهذا الباحث المتدبّر، بعد عرضه المتسلسل الموضوعي للسور السابقة وإحاطته بمضمون سورة (الأحقاف)، أن يُلاحظ وجود حاجة لتفصيل بعض الأمور التي وردت فيها جميعها. كتفصيل الموقف الذي ينبغي لرسول الله (ﷺ) أن يقفه من مُشركي مكّة الذين أخرجوه منها. فيرى أنّ الله تعالى خصّص سورة (محمّد)، وأتبع مضمونها بسورة (الأحقاف)، لتفصيل هذا الأمر نفسه. فإنّه، جلّ شأنه، بعد أن كان أذن لرسوله الكريم، في سورة الحج الآية (٣٩)، أن يُقاتل هؤلاء لمقاتلتهم إيّاه بقوله تعالى: ﴿أُذن للّذين يُقاتَلون بأنّهم ظُلموا، وإنّ الله على نصرهم لقدير ـ الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقّ ـ إلاّ أن يقولوا ربُّنا الله.. إلخ الآية﴾. فهو تعالى جاء في سورة (محمّد) يحثّ رسوله الكريم على قتال هؤلاء

المعتدين بقوله تعالى: ﴿فإذا لقيتُمُ الذين كفروا فضَربَ الرقاب، حتى إذا أثخنتموهم فشُدُّوا الوَثاق، فإمّا مَنًّا بعدُ، وإمّا فداءً، حتى تضع الحرب أوزارها، ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلُو بعضَكم ببعض، والذين قُتلوا في سبيل الله فلن يُضِلَّ أعمالهم﴾ (٥). وأتبع تعالى هذا بوعده تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصرْكم ويثبِّتْ أقدامكم﴾ (٧)، مضيفًا قوله تعالى في الآية (١٣): ﴿وكأيِّنْ من قريةٍ هي أشدّ قوّةً من قريتك التي أخرجتك، أهلكناهم فلا ناصر لهم﴾. ووضّح تعالى حكمة حضّ المؤمنين على قتال المشركين بقوله في الآية (٣١): ﴿ولنَبلُوَنّكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصّابرين ونبلُوَ أخباركم﴾. كما أوصى تعالى المؤمنين بقوله ﴿يا أيّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول، ولا تُبطلوا أعمالكم﴾ (٣٣).

٢ ـ سورة (الفتح)

ويرى صاحبنا أنّ الله، جلّ شأنه، بعد أن خصّص سورة (محمّد) لبيان الأمور المذكورة، خصّص سورة (الفتح) بعدها لتبشير المؤمنين بما قدّر لهم ربُّهم في عاقبة محاربتهم أعداءهم. فقد بشّر تعالى رسوله والمؤمنين بفتحٍ مُبين يتجلّى في حياته (ﷺ)، وفتحٍ مبينٍ آخر يأتي بعد عصر انحطاط المسلمين المُصرَّح به في سورة (السجدة) من قبل. وهو زمن بعثة مثيل ابن مريم الذي أنبأت بظهوره سورة (الزخرف) من بين هؤلاء المُتخاذلين من المسلمين، ولذلك استهلّ ربّنا، جلّ شأنه، سورة (الفتح) هذه بقوله تعالى: ﴿إنّا فتحنا لك فتحًا مُبينًا ـ ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر، ويُتمّ نعمته عليك ويهديَكَ صراطًا مستقيمًا ـ وينصُرَكَ اللهُ نصرًا عزيزًا﴾. وإنّ بشارة الفَتحَين المذكورَينأشار إليها قوله تعالى: ﴿ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر. . .﴾ والمقصود من (الذّنب) هنا خطأٌ غير مُتعمّدٍ، فما تقدّم منه ففي حياته، وما تأخّر تعلُّقه بما يظهر من أخطاء بعد انتقاله إلى بارئه الأعلى، ويكون لها أساسٌ في حياته. وتبدو آثار هذه الأخطاء في عصر انحطاط المسلمين.

وقد عبّر، جلّ شأنه، عن الفتح المبين الذي قدّر أنْ يتحقّق في حياة رسوله الكريم بقوله تعالى: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحقّ، لَتدخُلُنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين مُحلِّقين رؤوسكم ومُقصِّرين لا تخافون، فعَلِمَ ما لم تعلموا

فجعل من دون ذلك فتحًا قريبًا﴾ الآية (٢٧). وهذا فتحٌ أخذت تبدو معالمه بعد صُلح الحديبيّة بعام، وانتهى بفتح مكّة المكرّمة نفسها.

وأتبع، جلّ شأنه، هذه الآية الكريمة بآيةٍ كريمة قال فيها: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودينِ الحقّ ليُظهره على الدّين كلّه، وكفى بالله شهيدًا﴾. ليشير تعالى إلى أنه لن يدع دين الحقّ من دون نصير في عصر تخاذل المسلمين الذي أنبأت به سورة (السّجدة)، والذي وعد أن يبعث فيه مَثيل ابن مريم ليحمل هدى دين الإسلام الحقّ، ﴿... ليُظهره على الدّين كله..﴾، وغفر الله تعالى بذلك ما تأخّر من أخطاء.

وجوابًا عمّا يُمكن أن يطرحه المرء من سؤال عن معالم زمن مثيل ابن مريم وجماعته المؤمنة المنتظر ظهورهم، أتى، جلّ شأنه، في نهاية سورة (الفتح) بوصفين متميّزين لبعثتين إسلاميّتين بأوصافٍ تفيد الباحث المتدبّر في الخروج بأعظم الحجج والأدلة عليهما. فوصف أصحاب البعثة الإسلامية الأولى بقوله، عزّ وجلّ: ﴿مُحمّدٌ رسولُ الله والذين معه أشدّاء على الكفّار رُحماءُ بينهم، تراهم رُكّعًا سُجّدًا، يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا، سيماهم في وجوههم من أثر السّجود، ذلك مَثَلُهم في التّوراة...﴾، وقوله تعالى هنا ﴿ذلك مَثَلُهم في التّوراة...﴾ إشارة إلى مماثلة بعثة الإسلام الأولى لبعثة موسى بالتوراة. وأضاف تعالى قوله يصف أصحاب البعثة الإسلامية الثانية التي تتحقّق على أيدي مثيل ابن مريم، بقوله: ﴿ومَثَلُهم في الإنجيل كزرعٍ أخرج شَطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقِهِ يُعجِب الزُّراع ليغيظ بهم الكُفّار، وَعَدَ الله الذين آمنوا وعملوا الصّالحات منهم مغفرةً وأجرًا عظيمًا﴾. وعلى هذه الصورة يكون الله تعالى قد أجاب عن التّساؤل المُتبادر للأذهان من جهة، ويكون تعالى قد أمدّنا سلفًا بما سيقوله في سورة (الواقعة) (١٣ ـ ١٤) ﴿ثُلّةٌ من الأولين وقليلٌ من الآخرين﴾. وهو ما سيأتي بيانه في حينه، على ترتيب تلاوته.

والمهمّ أنّ الباحث المتدبّر لا بدّ أن يستنتج الأمور الأربعة الرئيسة التالية من هذه النّصوص القرآنية وهي:

أولًا: وجود تناظُرٍ ومُماثلة ما بين موسى ومحمّد وأمّتيهما من خلال قوله تعالى: ﴿ذلك مَثَلُهم في التوراة، ومَثَلُهم في الإنجيل...﴾ والمَثَل في اللغة الوصف والنظير.

ثانيًا: وجود فرقٍ جوهريٍّ ما بين مَهَمّتَي كلٍّ من البعثتين الإسلاميّتين. دلّنا على ذلك قوله تعالى عن مهمّة جماعة البعثة الأولى: ﴿محمّد والذين معه أشدّاء على

الكُفّار. . .﴾ إشارة إلى خوضهم الحروب معهم. على حين لا يكون الأمر كذلك في البعثة الثانية. فقد وصفها، جلّ شأنه، بقوله تعالى: ﴿كزرعٍ أخرج شَطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يُعجِبُ الزُّراع ليغيظ بهم الكُفّار.﴾. فهو تعالى يشبِّهها بالشجرة التي اجتُثّت من فوق الأرض، لا بدّ أن يخرج لها شَطءٌ كثير. وهذا الشَّطء يتآزر بادىء ذي بدء، ثم يستغلظ، ثم يستوي على سوقه أي يصبح كل شَطءٍ من هذه الأشطاء دوحةً عظيمة، وتكون الشجرة المُجتثّة من فوق الأرض قد عُوِّضت بدوحاتٍ بديلة. والمعنى أن هذا ما سيحدث عند البعثة الإسلامية الثانية، ﴿يُعجب الزّرّاعَ ليغيظ بهم الكُفّار﴾، أي أن الإسلام سيعود أقوى ممّا كان عليه أضعافًا مُضاعفة، ممّا لم يتوقّعه الكُفّارُ الحاقدون على الإسلام.

ثالثًا: تنبيه الله، جلّت قُدرته، أذهان الباحثين إلى ما سيجري زمن هيمنة الأمم التي اتخذوا المسيح بن مريم ولدًا لله، هؤلاء الدّجالين الذين لا علاقة لهم أصلاً بالمسيح من قريب ولا من بعيد. أقول التنبيه إلى أنّ الله وقدراته لا تكون يومئذٍ بمعزلٍ عمّا سيحدث في العالم، بل تتدخّل مشيئة الله لتحقيق الوعد بالفتح المبين الآخر. فإلى هذا أشار تعالى بقوله: ﴿يُعجِب الزُّراعَ ليَغيظ بهم الكفّار. . .﴾.

رابعًا: وقد وعد الله تعالى الذين آمنوا من الفئتين المذكورتين بالمغفرة والأجر العظيم. لقوله تعالى آخر الآية: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرةً وأجرًا عظيمًا.﴾.

٣ ـ سورة (الحجرات)

على هذه الصورة ندرك معالم تخصيص سورتي (محمّد والفتح)، للتّفصيلِ في المضمون الذي احتوته سورة (الأحقاف). بل وتخصيص سورة (الحجرات) أيضًا، للغاية نفسها، ولما تضمّنته من مواعظ ونصائح ووصايا، اقتضتها هاتان البِعثتان الإسلاميّتان. وأهمّ هذه الوصايا الآية السادسة منها: ﴿يا أيّها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأٍ فتبيّنوا، أن تُصيبوا قومًا بجهالة، فتُصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾. وقد أتى تعالى بهذه الوصيّة بصيغة الجمع وقال: ﴿فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾، الأمر الذي يؤكّد أنّ هذه الوصية موجّهة إلى مسلمي عصر

انحطاطهم، وبعثة مثيل المسيح من بينهم، وضرورة ألا يتعجّلوا في الحكم عليه.

ومواعظ سورة (الحجرات) ونصائحها كثيرة: منها ضرورة التأدّب، وحسن الظّن، وعدم تجاوز الحدود، وتجنّب الاختلاف والاقتتال فيما بينهم، والبُعد عن هزء بعضهم ببعض، والتحاشي عن التنابذ بالألقاب.

والذي يلاحظه صاحبنا هو أنّ الله، عزّ وجلّ، توجّه بخطابه آخر سورة (الحجرات) إلى الناس كافّة، وقال: ﴿يا أيها النّاس إنّا خلقناكم من ذَكَرٍ وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير﴾. فأكمل بذلك دائرة مواعظه ووصاياه. وقد ضمّن تعالى هذه الآية الكريمة الأمور الستّة التالية:

أولاً ـ مبدأ إنسانيّة الرجل والمرأة ومساواتهما في الخطاب ﴿يا أيها الناس﴾.

ثانيًا ـ مبدأ اختلاف الرجل عن المرأة من حيث تركيبهما العُضوي الجسدي لا كيانهما الروحي الفطري، لقوله تعالى: ﴿إنا خلقناكم من ذَكَرٍ وأنثى﴾.

ثالثًا ـ إنّ مبدأ هذا التفريق العضوي كان المقصد منه استمرار الحياة وتجدّدها، لقوله تعالى: ﴿وجعلناكم شعوبًا وقبائل﴾ أي وبذلك تمكنّا من إكثاركم.

رابعًا ـ المقصد من جعلكم شعوبًا وقبائل ﴿لتعارفوا﴾ أي لتتعايشوا، وتتبادلوا مصالحكم، وتتعاملوا على قدم المساواة إلى حدّ التآخي فيما بينكم، لا أن يتعالى بعضكم على بعض، ولا أن يستبدّ بعضكم ببعض.

خامسًا ـ أن يكون تعارف الشعوب والقبائل على أساسٍ من الإيمان بالله وخشيته واتّقائه، بعيدًا عن الإذعان للأهواء والميول والشهوات، فإلى هذا أشار تعالى بقوله: ﴿إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

سادسًا ـ ونبّه تعالى الناس أخيرًا إلى أن مواعظه هذه قد أقامها على علمٍ ثابت، وخبرةٍ حقيقية لإتصافه بـ﴿العليم الخبير﴾.

وهو، جلّ شأنه، وقد أنهى سورة (الحُجُرات) بقوله: ﴿إنّ الله يعلم السّماوات والأرض، والله بصيرٌ بما تعملون﴾، نبّه عباده المؤمنين إلى أن ما تضمّنته آيات سورة (الأحقاف) والسُّوَر التابعة لها (محمّد والفتح والحجرات) من أنباءٍ غيبيّة هو من جانب خالقهم الذي لا يغيب عن بصره شيء في السماوات والأرض، ﴿والله بصيرٌ بما تعملون﴾.

ويطمئن باحثنا المتدبّر لما أحاط به علمًا حتى اللّحظة بما يتعلق باختزال حرفي (حم) من صفتي الله (الحميد المجيد)، هذين الحرفين اللذين استهل بهما الله، عزّ وجلّ، السّور للمرّة السابعة حتى الآن.

★ ★ ★

الفصل الثلاثون

|ق| من سورة |ق|

فإذا انتقل إلى السّورة التي بعدها، وهي سورة (ق)، لاحظ أنّ الله تعالى استهلّها بحرف (ق) . وهو لم يأت بحرف (ق) جُملةً مُستقلّة، بل جاء به جزءًا من آية، قائلًا: ﴿ق، والقرآنِ المجيد﴾، لكنّه، جلّ شأنه، أوجب الوقف عليه، بعد النّطق به وتلاوته.

ويتساءل الباحث المتدبّر عن الكلمة التي اختُزل منها هذا الحرف (ق) ويعود إلى قواعد الاختزال التي تقدّم بحثها في الباب الأول من هذا الكتاب، هذه القواعد التي أوجبت عليه العودة إلى سياق الكلام وتسلسله الموضوعي. فإذا فعل ذلك وجد أنّ الآية التي اختتم بها ربّنا سورة (الحجرات)، وهي قوله تعالى: ﴿إنّ الله يعلم غيب السماوات والأرض، والله بصيرٌ بما تعملون﴾، دلّ مضمونها على القدرة الفائقة. ذلك أنّ الذّات الذي يعلم غيب السّماوات والأرض هو قادر يقينًا على صُنع وخلق مثيل لهذه السماوات والأرض. على اعتبار أن الذي يُحيط بعلم شيءٍ من الأشياء، تعود له القدرة على صُنع شيء مثيلٍ له. وما دام تعالى قد أنهى هذه الآية الكريمة بقوله: ﴿والله بصيرٌ بما تعملون﴾ فقد أعطى لقدرته الفائقة بُعدًا لا حدود له، خصوصًا أنّ الله تعالى لم يقل ﴿والله يرى ما تعملون﴾ بل ﴿والله بصير بما تعملون﴾. والبصير بالأمور هو من يرى ظواهرها وبواطنها.

فمِن خلال هذا السّياق الذي لاحظناه يُدرك صاحبنا أنّ حرف القاف، في (ق، والقرآن المجيد﴾، لا بد أنّه قد اختُزل من اسم الله (القدير). فإذا ذكر أن سورة الحجرات قد حَفِلت بالمواعظ والنّصائح والوصايا إلى المؤمنين في جميع أدوار حياة الدعوة الإسلامية، ومن مسلمي البعثتين الإسلاميّتين، تجلّت لأعين صاحبنا الباحث الأسباب الدّاعية لاستهلاله تعالى سورة (ق) بهذا الحرف الدّال على

واسع قُدُراته، عزّ وجل. بل يدرك أن السّور القادمة ستراعي ذلك في جميع ما تضمَّنته من خطاب إلهي. خصوصًا أنّ الله تعالى لاحظناه يتحدّث عن زماننا المعاصر قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان وكأن هذا القرآن يتنزّل في عصرنا بالذات.

فالقاف في ﴿ق، والقرآن المجيد﴾، قد اختُزل إذن من (قادر) و(قدير). ثم إنّ الواو هنا هي واو القَسَم أيضًا. وقد علمنا أنّ القَسَم يعني لغةً تقديم شهادة. فقَسَمه تعالى ﴿والقرآن﴾ فحواه هو أنّ هذا الكتاب سيكون كتابًا مقروءًا في المجالس. وهذه الدلالة، في حقيقة أمرها، تُعَدُّ نُبوءةً سماويّة طالما أن سورة (ق) قد أنزلها ربّنا، عزّ وجلّ، في مكة المُكرمة، ولم يكن الوحي قد اتخذ شكل القرآن الذي هو بين أيدينا اليوم.

ثم إن فحوى قوله تعالى (المجيد) هي الكتاب السّامي العظيم لُغةً ومضمونًا. وقد أتى بالقَسَم ﴿بالقرآن المجيد﴾ لتأكيد أنّ هذا الوحي النازل في مكّة لا بدّ أن يُصبح كتابًا مقروءًا في كل مجالس الكرة الأرضية. لما يتضمّنه من أسمى التعاليم، وأعظم خزائن العلوم، ولصياغته بلُغَة بليغةٍ عذبة المورد، تعشقُها الأسماع، وتسكن إليها الألباب، وهي اللسان العربي المبين.

فإذا استقرّ هذا المعنى في ذهن صاحبنا كمدلولٍ لآية: ﴿ق، والقرآن المجيد﴾ لاحظ أن الله، عزّ وجلّ، أتبع سورة (ق) بسبعَ عشرةَ سورة خالية من أحرف الاختزال، لتكون تابعة في مضامينها لمضمون سورة (ق) نفسها، وفقًا لقواعد الاختزال وخطّته. وأدرك صاحبنا من هذه الظاهرة أيضًا أن هذه السّور جميعها ستحمل إلينا عجائب غيب الله وقُدُراته التي تَذْهلُ بها العقول، وتهيم بها الأفئدة.

وبعد أن يدرك صاحبنا، من خلال الوشيجة التي ربطت سورة (الحُجرات) بسورة (ق)، أنّ حرف القاف هذا مُختزَلٌ من اسم الله (القادر)، نلاحظه يتقصّى هذه الحقيقة من مضمون سورة (ق) ذاتها.

فصاحبنا يقرأ بعد ﴿ق، والقرآن المجيد﴾ قولَه تعالى: ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم ـ فقال الكافرون هذا شيءٌ عجيب، أإذا مِتْنا وكُنّا تُرَابًا، ذلك رجعٌ بعيد﴾، ويلاحظ أنّ الله تعالى أتى بحرف (بل) مباشرة، وهو حرف ابتداء ويفيد بُطلان ما ورد بعده. يُفيد بُطلان عجب الكافرين من سماعهم بأمر بعث الأموات من بعد موتهم. كما يلاحظ أن الله تعالى ردّ على عَجبهم بقوله: ﴿قد علمنا ما تنقُصُ الأرض منهم، وعندنا كتابٌ حفيظ﴾، أي لدينا كتاب حفيظ لكل من يحيا ومن يموت منهم. وبهذا الردّ يكون تعالى قد أتى بدعواه الأولى.

ويلاحظ أيضًا أنه تعالى أتى بحرف (بل) للمّرة الثانية وقال: ﴿بل كذّبوا بالحقّ لمّا جاءهم فهم في أمرٍ مَريج﴾، أي أنّهم بإنكارهم وتكذيبهم يكونون قد كذّبوا بالحقّ، أي أنكروا تعاليم العدل والصدق وهي دلالة الحق. ﴿فهم في أمرٍ مريج﴾، أي أنّ حالهم الذي هم فيه هو حال الجاهل الذي اختلطت عليه الأمور وأبتهمت، بل استعجمت مذاهبه وتنكّرت معالمه، وضلّت مسالكه، فأصبح يخبط خبط عشواء، ويكون تعالى قد أتى بدعواه الثانية. وهاتان الدّعويان تحتاجان إلى حُجّةٍ داعمة دامغة. وهذه الآيات الأربع، تُعدُّ بمجموعها تمهيدًا للأصل الذي بنى تعالى عليه مضمون سورة (ق). وأن الأدلّة القاطعة التي اشتملت عليها هذه السّورة، تؤكّد قدرات الله اللامتناهية، والتي يثبت بها صحّة هاتين الدّعويين.

فإذا تدبّر الباحث هذا التمهيد خلَص منه إلى قراءة قوله تعالى: ﴿أفلم ينظروا إلى السّماء فوقهم كيف بنيناها وزيّنّاها، ومالها من فروج ـ والأرضَ مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كلّ زوجٍ بهيج ـ تبصرةً وذكرى لكلّ عبدٍ منيب ـ ونزّلنا من السّماء ماءً مباركًا، فأنبتنا به جنّاتٍ وحبَّ الحصيد ـ والنّخلَ باسقاتٍ لها طلعٌ نضيد ـ رزقًا للعباد، وأحيينا به بلدةً مَيْتًا، كذلك الخروج﴾.

فإذا تأمّل صاحبنا هذه الآيات الكريمة، وتدّبرها تدبُّرًا جادًّا، تراءى لعينيه دليلٌ جليٌّ قاطع الدلالة على واسع قُدرات الله، عزّ وجلّ. وهذا الدّليل أُسّس على ثلاث مقدّماتٍ فكان النتيجة المستنبطة منها، وكُلُّ مقدّمةٍ من هذه المقدّمات قد قامت على عِدّة نقاط أيضًا:

المقدّمة الأولى لهذا الدليل، عبّر تعالى عنها بقوله: ﴿أفلم ينظروا إلى السّماء فوقهم كيف بنيناها وزيّنّاها، وما لها من فروج﴾. والملاحظ أنّ الله تعالى استهلّ هذه الآية الكريمة بحرفَي الجزم والاستفهام (أفلم). وهذان الحرفان قد رُكّبا من (لم) الجازمة للمضارع، والتي حين تدخل عليه تقلبه ماضيًا. وقد أدخل على حرف (لم) همزة الاستفهام، لتقلب الماضي السالب، إلى حقيقةٍ وإيجاب، ولتُفيد معنى التّقرير والتوبيخ في آنٍ واحد، مع بقاء أثر الجزم على الفعل المضارع. وقد فُصل أيضًا بين همزة الاستفهام وحرف الجزم بالفاء، فأضحت (أفَلم). وتتجلّى هذه المعاني التي حكيناها عن أصحاب المعاجم في الآية بوضوح من خلال قوله تعالى (أفلم ينظروا..)، والمراد: يا من تكُذّبون رسولنا الذي يخبركم بالبعث بعد الموت، ما لكم تتجاهلون حقيقةً ماثلةً أمام ناظريكم، وهي هذه السّماء التي تُظلّكم؟ على هذه الشاكلة يكون الله تعالى قد ضمّن هذه المقدّمة الأولى لدليله الكوني بُعدًا وبيانًا وقُوّةً، ما كانت لتكون لولا إدخاله عليها حروف (أفَلم).

وقد أسس، جلّ شأنه، هذه المقدّمة الأولى على نِقاطٍ ثلاث. عبّر عن النقطة الأولى بقوله: ﴿كيف بنيناها﴾. وكيف هنا تُفيد الاستفهام وهي في محل المفعول المُطلق، أي بناءً بنيناها. والمعنى أفلا تُلاحظون أنّ كل ما في السّماء، على سعتها اللامتناهية، قد جاء يُكمل بعضه بعضًا، فتتماسك الأجزاء، وتتداخل، لتؤلّف كُلًّا موثّق العُرى، قد خُلق لتحقيق مقصدٍ أسمى. فهذه السّماء هي بناءٌ وكُلٌّ لا يتجزأ.

وعبّر تعالى عن النُّقطة الثانية بقوله: ﴿وزيّنّاها﴾ أي راعينا في هذا البناء العظيم أن يكون زينةً للناظرين. زينةً تستوقف النّظر وتخلب اللبّ.

وعبر تعالى عن النقطة الثالثة بقوله: ﴿وما لها من فروج﴾. أي مهما ذهبتم بعيدًا، أنتم وخلفاؤكم، فحاولتم اختراق أجواز الفضاء في هذه السّماء، فلن يثبت لأحدٍ من العلماء في يوم من الأيّام وجودُ أيّ خللٍ في هذا البناء الكونيّ العظيم المُحيط بكم. بل سيتأكّد لكلّ عالم، خلافًا لذلك، صحّة جميع ما أعلنّاه لكم في وحينا هذا، من أنّ هذه السّماء بجميع كواكبها قد صمّمناها بناءً واحدًا مُتماسكًا لا انفصام فيه، وهو جزء من نظام كونيّ واحد، قد خلقناه لهدفٍ وغاية. وهذا ما يُثبت وحدانية الصّانع والمصمّم والمُبدع، وما يملكه هذا الصّانع من قُدرات لا تحدُّها حدود. وقد كانت هذه النِّقاط الثلاث هي المقدّمة الأولى لهذا الدليل الكوني.

وعبّر ربّنا، جلّ شأنه، عن المقدّمة الثانية لدليله الكوني بقوله، عزّ وجلّ: ﴿والأرضَ مددناها، وألقينا فيها رواسي، وأنبتنا فيها من كلّ زوجٍ بهيج - تبصرةً وذكرى لكلّ عبدٍ منيب﴾. وأسّس تعالى هذه المقدّمة الثانية على ثلاث نِقاطٍ أيضًا. عبّر فيها عن النقطة الأولى بقوله: والأرضَ مَددناها﴾ أي جعلناها صالحةً لحياتكم معشرَ المنكرين صانعَها ومكوِّنَها على الشاكلة التي ذكرناها.

وعبّر فيها عن النقطة الثانية بقوله تعالى: ﴿وألقينا فيها رواسي﴾ والرّواسي هي الجبال التي تختزن مياه السّماء، وتتفجّر أنهارًا، ممّا يساعد على استمرار الحياة على الأرض.

وعبّر فيها عن النقطة الثالثة بقوله تعالى: ﴿وأنبتنا فيها من كلّ زوجٍ بهيج﴾، أي أنّ بروز مظاهر الحياة، وتوالد الكائنات، هو خلقٌ معجزٌ في حدّ ذاته. فما كان يكفي أن تصلح الأرض وحدها للحياة. ولا كان يكفي أن تتهيّأ الجبال وحدها لاختزان مياه السّماء. فثمّة آية ثالثة. هي ما أنبتناه من كلّ زوجٍ

بهيج، أي خلقناكم على سطح الأرض هذه من ذَكَر وأنثى، كما خلقنا كلّ شيء أنبتناه من سالب وموجب أيضًا.

ولم يشأ، جلّ شأنه، أن يأتي بمقدمته الثانية ونقاطها الثلاث مُجَرّدة، بل أوضح الحكمة من جميع ما فعله وأقدم عليه. فكلّ ما خُلق إنما كان لهدفٍ وغاية خلال هذا الخلق. وقد عبّر عن حكمته البالغة هذه بقوله، عزّ وجلّ: ﴿تبصرةً وذكرى لكلِّ عبدٍ مُنيب﴾، أي عبرة وآيةً لكل عبدٍ ينيب إلى الخالق، مُستعينًا ببصيرته، يحاول بها استجلاء حقائق هذا الكون المُذهل الخلق والتكوين.

وقد عبّر، جلّ شأنه، عن مقدِّمة دليله الثالثة بقوله: ﴿وأنزلنا من السّماء ماءً مُباركًا، فأنبتنا به جنّاتٍ وحبَّ الحصيد ـ والنّخلَ باسقاتٍ لها طلعٌ نضيد﴾.

وقد أسّس تعالى مقدِّمة دليله الثالثة على ثلاث نقاطٍ أيضًا، يلاحظُها كلُّ إنسانٍ مفكّر عاقل:

فأدرج النقطة الأولى منها بقوله: ﴿وأنزلنا من السّماء ماءً مُباركًا﴾ أي أنزلنا ماءً يحمل الخير والخصب نَفّاعًا.

والنقطة الثانية عبّر عنها بقوله: ﴿فأنبتنا به جنّاتٍ وحبّ الحصيد﴾ أي أننا جعلنا ماء السّماء المبارك الذي أنزلناه وسيلة إنبات ما خلقناه في الأرض من الشّجر المُلتفّ جِنانًا، ومن الحبّ حصيدًا تحصدونه.

والنقطة الثالثة عبرّ عنها بقوله تعالى: ﴿والنّخلَ باسقاتٍ لها طلعٌ نضيد﴾، أي أنبتنا بهذا الماء السّماويّ الذي يتدفّق خيرًا وبركةً أشجار النّخيل. هذه الأشجار المُتميّزة بثمارها وكثرة عطائها.

ولم يشأ، جلّ شأنه، أن يأتي بمقدمة دليله الثالثة، وبنقاطها الثلاث مجرّدة، بل أوضح الحكمة البالغة من ورائها، فحصرها في أمرين اثنين:

الأوّل : أنه تعالى جعلها ﴿رزقًا للعباد﴾.

الثاني: أنه تعالى أحيا بها الأرض الموات.

وبعد أن فرغ تعالى من عرض هذه المقدمات الثلاث لدليله الكوني ونقاط بحث كُلٍّ منها برفقتها، وللبرهنة من خلالها على واسعِ قُدراته، عز وجلّ، انتقل تعالى إلى النتيجة المترتّبة على هذه المقدِّمات والمستخلَصة منها، وقد آلت إلى نتيجةٍ حتميّة لا مجال للنّقاش فيها. عبّر عنها بقوله تعالى: ﴿كذلك الخروج﴾. أي على هذا النّسق، وعلى هذه الشاكلة، سيتحقّق بعث أرواحكم بعد موتها وفراقها

أجسادكم. فيتحقّق خروجها أي بعثُها لتعود تنبض بالحياة مرّةً أخرى.
فأعظمْ بهذا الدليل الكوني العلمي حُجّةً ونتيجة، ودليلاً ناطقًا.

ويتوقّف هذا الباحث المتدبّر لينعم النظر بثاقب رأيه في معالم هذا الدليل المعروض بأرقى الأساليب العلميّة في سورة (ق) . وبعد أن مهدّ تعالى التمهيد الذي لاحظناه من قبل لطرحه أيضًا. فتتجلّى لعينيه عظمة هذا الدليل من جميع جوانبه، الأمر الذي يَثْبُتُ من خلاله ما لهذا الخالق البارىء المصوِّر من قُدرات لا تقف دونها حدود. وقد جاء بأماراته الجليّة وسِماته البيّنة بكلّ وضوح وجلاء.

ويفهم صاحبنا كيف أدلى ربّنا، جل شأنه، بحجّته هذه، فسدّ الطريق على الدهريّين ومن هم على شاكلتهم، أصحاب نهج التفكير الماديّ، الذين يزعمون أزلية المادّة وأبديّتها. وقد دلّل تعالى على أنّ هذه الظواهر الكونيّة ما هي إلاّ نتاج خلق خالق قادر، وليست مجرّد تطوُّر ذرّة.

وقد قسّم الله، عزّ وجلّ، ضمن دليله هذا الكون إلى أربعة أقسام:

الأوّل: هذه السماء التي فوقنا، وما تحويه من كواكب وسيارات وسواها.

الثاني: هذه الأرض التي تفترشها جميع مخلوقات الله، عزّ وجلّ.

الثالث: هذه المناطق الصحراويّة خاصّة من الأرض، وما تحويه من نخلٍ باسقات، لها طلعٌ نضيد.

الرابع: هذه المياه التي تُمطرها السّماء، فتحيا بها الأرض الموات، وتنمو الأشجار، وتورق الأغصان، ويخصب الزرع، ويونع الثّمر، فإذا الأرض جنّاتٌ فيحاء.

ويلاحظ صاحبنا كيف انطلق الله، جلّ شأنه، مبرهنًا بطرائق العلم الثلاث: الملاحظة والتجربة والاستنتاج. هذه الطرائق التي تبنّاها علماء عصرنا، وقامت وتقوم على أساسٍ منها جميع ما عرفته البشريّة من علوم.

فالله تعالى، حينما قال: ﴿أفلم ينظروا إلى السّماء..﴾، أخذ بالأساس العلميّ الأول، وهو الملاحظة، أي أوَلم تُلاحظوا، من خلال نظركم إلى السّماء، كيف تنبسط هذه القُبّة السّماوية بكواكبها وسياراتها ومجرّاتها، فلا ترون لها من حدود. بل كيف تبدو بناءً متماسكًا مُتكاملاً، وخاضعًا لقوانين كونيّة واحدة، في وجودها ودورانها وتفاعلها؟ وكيف أنّ هذا البناء البالغ الضّخامة قد كوّنه خالقه ليكون لأهل الأرض سقفًا وقُبّةً مُزدانةً تأخذ بمجامع القلوب؟ فهل تستسيغ العقول

السليمة التّسليم بأنّ الذّرّات المادّيّة قد تطوّرت هذا التطوّر العظيم، وأخذت هذا الشكل الذي ذكرناه، من دون تدخّل أيّ عاملٍ خارجيّ؟

وعلى أساسٍ من الملاحظة العلميّة أضاف تعالى ملاحظة متعلقةً بالكرة الأرضيّة، قال فيها ما معناه: أوَلم تلاحظوا، من خلال دراستكم تكوين هذه الأرض، كيف غدا سطحها صالحًا للحياة فوق أديمها، دون بقيّة السيّارات؟ وبرزت الجبال الشّامخات عليها رواسي ثابتة في أمكنتها، لا تمتدّ ولا تتحرّك. فاختزنت في أجوافها ما أنزل الله تعالى من ماء السّماء. ماء السّماء هذا الذي جعله الله، عزّ وجلّ، أداة لإنبات ما لا حصر له، ولا حدّ، من نبات مختلفٍ نوعُه وشكله ولونه وثمره ورائحته ونفعه. . . وجميل المنظر، رائع الحسن، ظريف الهيئة، لا يكاد يقع الطّرف على أجملٍ منه هيئةً وصورة ورائحة. فهل تستسيغ العقول السليمة العليمة أن تُسلِّم بأنّ اجتماع هذه العناصر جميعها قد حدث من دون تدخّل أيّ عاملٍ خارجيّ؟

وعلى أساس من الملاحظة العلميّة أضاف تعالى ملاحظة ثالثة متعلّقةً بما ينزل من السّماء من ماء، فقال ما معناه: أوَ لم تُلاحظوا كيف تتصاعد الأبخرة من مياه الأرض، فتتجمّع في السّماء وتتراكم على هيئة سُحُبٍ وغيوم. فإذا هي مُنقادة لقوانين جعلت من مياهها الملوّثة مياها طاهرة نافعة لإنبات الزّرع من مُختلف الأنواع؟ فلو بقيت الأبخرة المُتصاعدة إلى السماء على ما كانت عليه من التلوُّث والفساد لهطلت أمطارًا ضارّةً تتلف الحرث والزرع. فهل تستسيغ العقول السليمة العليمة أن تُسلِّم بأنّ هذه الظاهرة قد تحقّقت بجميع عناصرها من دون تدخُّل أيّ عاملٍ خارجيّ؟

وعلى أساسٍ من الملاحظة العلميّة أضاف تعالى ملاحظة رابعة، متعلِّقةً بالصحارى المُنبسطةً على سطح الكرة الأرضيّة في مختلف القارات. قال في هذه الملاحظة ما معناه: أوَ لم تلاحظوا، من خلال دراستكم هذه المناطق الصّحراويّة، كيف بسقت فيها، على نُدرةِ مياهها وقساوة جوّها الصّحراوي، أشجار النّخيل التي تمتاز على سواها من أشجار مثمرةٍ بشمُوخها وكثرة عطائها كمًّا ونوعًا؟ فأنّى لهذه الصحارى أن يتمكّن إنسان من العيش فيها لولا هذا الغذاء الفاخر، كامل عناصر التغذيّة، التي تؤتيه أشجار النّخيل الباسقات؟ فهل تستسيغ العقول السّليمة العليمة أنّ تُسلِّم بأنّ هذه العناصر المتعلِّقة بالصحارى قد تحقّقت من دون تدخّل أيّ عاملٍ خارجيّ؟

واللهُ، عزَّ وجلَّ، حين جَمَعَ بين هذه الملاحظات جميعها، والمتعلّقة بأربع كُتلٍ كونيّةٍ ضخمة بارزةٍ للعيان، لم يجمع بينها إلاّ ليقول لهؤلاء المُكذِّبين من الدهريّين أصحاب نهج التفكير المادي، وبألفاظ أخرى، إنّه يستحيل على العقل السّليم العليم أن يُسلّم بأن اجتماع هذه الأمور قد كان مُصادفةً، وأنّه تحقّق عنها، إلى ذلك، مقاصد سامية. فلو تضافرت هذه الأمور اتّفاقًا، من دون تدبير وحساب وتخطيطٍ لها، لَمَا كان لكواكب السّماء أن تنشأ على شاكلة ما ذكرناه، ولَمَا كان للأرض أن يبدو فوقها هذا البناء السّماويّ، بقُبّته الزرقاء المتلألئة بالأنوار. بل لَما كان للأرض نفسها أن تُصبح: ﴿تبصرةً وذكرى لكلّ عبدٍ منيب﴾. وما كان لماء السّماء أن يُصبح ماءً مباركًا نفّاعًا. وما كان ليُنبت في الصحارى ﴿والنّخلَ باسقاتٍ لها طلعٌ نضيد﴾. فلا يستسيغ العقل السّليم العليم أن تتجمّع هذه العناصر معًا بمصادفةٍ واتّفاق. فيُزعَمَ أنّها تطوّرت من نفسها، فاتّخذت لها هذه الأوضاع المحكمة. فإن لم تُسلّموا بهذا الدّليل العلمي القاطع كنتم كمن ﴿كذّبوا بالحقّ لمّا جاءهم﴾، وأثبتّم أنّكم: ﴿في أمرٍ مريج﴾ قد تجاذبتكُم أوهام، وتنازعتكم شكوك، لا تجزمون بواقعٍ، ولا تُقرّون بحقيقة، فتتساءلون ﴿أإذا مِتنا وكُنّا تُرابًا، ذلك رجعٌ بعيد﴾. وتنكرون بذلك قُدرات الله التي لا تقف دونها حدود.

ويُدرك هذا الباحث المتدبّر أن الله، عزّ وجلّ، بعد أن وصَلَ بالمُنكرين المكذِّبين إلى هذه النقطة من دليله الكوني العلمي البالغ الأهميّة، انتقل من هذه المقدِّمات إلى النتيجة التي لا مفرّ أن يُسفر عنها هذا الدليل العلمي. لذلك أنهاها ربُّنا بلفظين مُحدَّدَي الدّلالة، قائلاً: ﴿كذلك الخروج﴾ أي على هذا النسق والشاكلة من خلقنا هذا الكون من حولكم يُخلَق كونٌ جديدٌ، يؤدّي لخروجكم من عالمكم الذي تؤولون إليه من بعد موتكم، وهو عالَم البرزخ الذي سبق أن تحدّثنا عنه.

على هذه الصورة يكون الله، عزّ وجلّ، قد قدّم أوّل دليلٍ علميٍّ كونيٍّ على أنّه هو الإله القادر على كل شيء. وهذا هو المعنى والدلالة لحرف (ق) المُختزَل من (قادر أو قدير).

فإذا تابع صاحبنا الآيات أدرك أنّه تعالى لم يكتفِ بدليله المذكور، بل أتبعه بدليلٍ تاريخيّ، من تاريخ البشر أنفسهم، معبّرًا عنه بقوله: ﴿كذّبتْ قبلهم قوم نوحٍ وأصحاب الرّسّ وثمود ـ وعادٌ وفرعون وإخوان لوط ـ وأصحاب الأيكة وقومُ تُبّع، كلٌّ كذّب الرّسُل، فحقّ وعيدِ ـ أفعَيينا بالخَلق الأوّل، بل هم في لَبسٍ من

خلقٍ جديد﴾. وعبارة ﴿في لَبسٍ﴾ تعني اختلاط الأفكار في موازاة كلمة ﴿مريج﴾.

ويُلخَّص هذا الدليل التاريخي بأنّه تعالى شاء أن يقول لمُنكري يوم البعث، أي مُنكري قُدرات الله وإمكان تحقيقها لمشيئته وإرادته، أن يقول لهم: دونكم هذه المجموعات الثماني من الناس، والذين سبق أن جاءتهم رُسُلهم بهذا الوعيد، فهل صارت أمور جميع هذه الأمم إلاّ إلى المصير الذي توعّدهم ربّهم به عن طريق رُسُلهم، فحقّ وعيده تعالى فيهم، وتحقّق وصدق؟ فالإنسان العاقل السّليم التفكير لا يستسيغ أن يُسلِّم، من خلال هذه المصاير التي أتت وفقًا لوعد الله ووعيده، بأن تكون تلك العواقب الوخيمة التي آلت إليها جميع هذه الأمم قد تحقّقت بمحض الاتّفاق والمُصادفة، من دون أن يكون وراءها خالقٌ عالم بالغيب، وله من القُدرات ما لا تقف دونه حدود.

ويلاحظ هذا الباحث المتدبّر أن الله، عزّ وجلّ، وقد فرغ من تقديم هذا الدّليل التاريخيّ، انتقل منه إلى النتيجة التي أراد استنباطها منه، فقال: ﴿أفعَيينا بالخَلق الأوّل، بل هم في لَبْسٍ من خلقٍ جديد﴾، أي أنّ الله الذي أمكنه خلق هذا العالم الهادف، لا تعجز قدراتُه عن إبداء شيء جديد، ولا يحول دونها ودون خلقٍ ثانٍ مُكمِل هذا الخلقَ الأول عائقٌ أو حائل. وإنّ الذي لا يُسلّم بهذه النتيجة التي أسفر عنها هذا الدليل التاريخيّ لا بدّ أن يكون جاهلاً، وعَميت عليه المسالك، واختلطت عليه الأمور.

ويلاحظ صاحبنا أنه تعالى ما إن فرغ من تقديم دليله التاريخي المذكور، إثباتًا لعظيم قُدراته على إحياء النفوس بعد موتها، ومن ثم دينونتها، حتى قدّم دليلاً ثالثًا، للغاية نفسها، ومن واقع الإنسان نفسه وقال: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما تُوسوس به نفسه، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ـ إذ يتلقّى المُتلقيّان عن اليمين وعن الشّمال قعيد ـ ما يلفُظُ من قولٍ إلاّ لديه رقيبٌ عتيد ـ وجاءت سكرة الموت بالحقّ، ذلك ما كنتَ منه تحيد﴾.

فاستند تعالى في هذا الدليل الثالث إلى مقدِّمات ثلاث، واستخلص منها نتيجةً أيضًا بالأسلوب العلمي نفسه، مُبرهنًا بها على واسع قُدراته، وأنّ يوم البعث والدينونة أمرٌ لا مفرّ منه.

فقدَّم تعالى المقدمة الأولى لدليله الثالث على شكل قَسَم. أي أنّه تعالى قدّم ما أقسم به شهادةً ضمنيّة، وذلك من خلال قَسَمه تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾. فالواو هنا، هي واو القَسَم، وليست بعاطفة. وقد أورد أصحاب

المعاجم أنّ القَسَم إذا أُجيب بفعلٍ ماضٍ متصرّف مُثبت، دخلت على الفعل (قد) الحرفيّة بعد القَسَم، مُقترنةً بلامِ الابتداء فأصبحت (لقد). ودلّ دخول (قد) على تقريب الماضي من الحال. كقولك: تالله لقد آثرك الله علينا. وقد اجتمعت هذه الشروط هنا في قوله تعالى: ولقد خلقنا الإنسان﴾ وذلك أنّ خلق الله الإنسانَ قد تحقّق بعد خلقه السماوات والأرض والنباتات والحيوانات، وعلى حسب ما ثبت ذلك للعلماء بصورة علميّةٍ أيضًا.

ويلاحظ صاحبنا أنّه لم يكن المقصود من هذه المقدّمة، الكلام على تكوين الإنسان المادّيّ، بل الكلام على الغاية من خلق الإنسان. أي أنّ الله تعالى قد خلق جميع ما في هذا الكون، خلقه مُسخّرًا لصالح هذا الإنسان لكي يساعده تعالى على تحقيق الغاية من خلقه.

والقرينة اللغويّة التي وجّهت فهم صاحبنا هذا الاتجاه في فهمه دلالة ألفاظ الآية هي قوله تعالى مباشرة: ﴿. . .ونعلم ما تُوسوس به نفسه﴾ أي أن المقصد من خلقنا الإنسان على حالته أن نعلَمَ ما توسوسُ به نفسه، فلم يكن قصدنا النّظر إلى صورته وشكله. ذلك أنّ خلقنا الإنسان كان في حقيقة أمره هادفًا.

ويلاحظ صاحبنا أنّه تعالى استند في دليله الثالث المذكور إلى مُقدِّمة ثانية احتواها قوله تعالى: ﴿ونعلم ما توسوس به نفسه﴾ أي أنّ لدينا من القدرة على الإحاطة ما نعلم به جميع ما توسوس به نفس الإنسان إليه. هذه الوساوس التي تنُمّ على تصرّفاته ونوزاعه.

واستند تعالى إلى مقدّمة ثالثة عبَّر عنها بقوله: ﴿ونحن أقربإليه من حبل الوريد﴾، أي أنّ تمام علمنا وكماله بمعرفة ما توسوس به نفس الإنسان يوحي بأنّه أقربإليه حقًّا من حبل وريده الذي في عُنُقه. وهكذا يستحيل أن يخفى على الله، أو يخرج عن دائرة علمه المُطلق، ما يمكن أن يدور في خَلَدِ أحدٍ من البشر.

ويلاحظ صاحبنا أن الله، عزّ وجلّ، راح يعطي فكرةً عامّة توضّح مُقدِّمته الثالثه هذه ويقول: ﴿إذ يتلقّى المُتلقّيان عن اليمين وعن الشّمال قعيد ـ ما يلفُظ من قولٍ إلاّ لديه رقيبٌ عتيد﴾ (١٧). مع ملاحظة أن حرف (إذ) هنا قد يكون ظرفًا لـ (أقرب)، أو يكون مفعولاً به. والتقدير: اذكروا إذ يتلقى رقيبٌ عتيدٌ، قعيدٌ (أي ملازم لهذا الإنسانِ) ما يأتيه من وساوس نفس صاحبه عن يمين وشِمال، إشارةً وتفسيرًا لما أورده تعالى في سورة (الشّمس): ﴿ ونفسٍ وما سوّاها ـ فألهمها فجورها وتقواها ـ قد أفلح من زكّاها ـ وقد خاب مَنْ دسّاها﴾ (٧ ـ ١٠)، وإشارة

وتفسيرًا لقوله تعالى في سورة (الإسراء): ﴿وكُلَّ إنسانٍ ألزمناه طائره في عُنقه، ونُخرِج له يوم القيامة كتابًا يلقاه منشورًا﴾ (١٣). وقد فصَّلتُ الكلام على تركيب نفس الإنسان وفطرته في كتابي (نظريّة جذور الأخلاق)، فليُرجعْ إليه، لأنه يفيد في التّوسُّع في فهم دلالة ﴿إذ يتلقّى المتلقّيان عن اليمين وعن الشّمال قعيد﴾(١٧).

ويلاحظ صاحبنا أنّ الله، عزّ وجلّ، حدّد لنا نقطة المراقبة في الإنسان، ومكان تسجيل وساوسه من خلال قوله ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ (١٦). وهذه النقطة والمكان هي ضمن رقبة هذا الإنسان أي في عُنُقه، حيث تجتمع جميع أوردته وشرايينه وأعصابه ورأس جهازه الفقريّ. والعُنُقُ يبدو أنه أنسب عضو في الإنسان لعمليّة المراقبة والتسجيل هذه. لكنه يُلاحظ أيضًا أنه تعالى أحجم عن إعطائنا فكرةً عن ماهيّة هذا الجهاز الرائع، ولربّما لكونه جهازًا من ماهيّة نفس الإنسان ذاتها وتكوينه الباطني. إذ المعلوم أنّ نفس الإنسان لا تُدرك إلّا بآثارها. وبالتالي، فلا يُدرك هذا الجهاز إلّا بآثاره التي تجلوها الأحلام التي تُرى في النوم. فإذا كانت وساوس الإنسان وأفكاره شيطانيّة، تجسّدت له كوابيس شيطانيّة. وإذا كانت وساوسه وأفكاره رحمانيّة، تجسّدت له رؤى مؤثّرة جذّابةً تُسعده، ويُسَرُّ برؤيتها، وهو أمرٌ لا مجال للتّفصيل فيه في هذا المقام. وتشير الآيات الكريمة إلى أنّ حصيلة ما يُسجِّله الجهاز المذكور يتجلّى لصاحبه يوم القيامة ككتاب يلقاه منشورًا، علمًا بأنّ معنى (الرقيب العتيد) هو الحاضر المُهيّأ لهذه المَهمَّة التَّسجيليّة لوساوس النفس البشريّة.

ويلاحِظ هذا الباحث المتدبِّر، أنّ الله، عزّ وجلّ، ما إن فرغ من تقديم مقدّمات دليله العلمي الثلاث، حتى أتى بالنّتيجة المُستخلصَة منها أيضًا، وعلى شاكلة ما درج عليه في الأدلّة السّابقة. وقد عبّر تعالى عن نتيجته المُستخلصة هذه بقوله تعالى: ﴿وجاءت سكرة الموت بالحقّ، ذلك ما كُنتَ منه تحيد﴾ (١٩)، أي ما بالكم أيها المُكذِّبون قد غفلتم عن أنّ الإنسان مُكرهٌ على الموت، وقد كان مُخيَّرًا في جميع أفكاره وحركاته وسكناته؟

أفلا تُلاحظون أنّ الإنسان مهما حاول التخلّص من سكرة الموت، وجرّب أن يحيد عنها، فإنّه لا بُدّ أن يواجهها في يومٍ من الأيّام؟ وهل يُعتبر (الموت)إلّا نتيجة للمقدِّمات الثلاث التي ذكرناها، هذا الموت الذي لا بُدّ منه، لاستخراج نتائج تسجيلات هذا الجهاز المُلازم لعُنُقِ كلِّ نَفْسٍ بشريّة، ليكون ما فيه أساس محاسبة نفس صاحبه ودينونتها، ما كسبت وما اكتسبت، إنْ خيرًا فخير، أو شرًّا فشرّ؟

على هذه الصورة يتجلّى تكوين الفطرة البشريّة وما ينجمُ عنها، وما تتركه وساوس نفس الإنسان، دليلاً في حدّ ذاته يُثبت وجود يوم البعث والحساب.

وقد نبّه الله تعالى أذهاننا إلى عظمة هذا الدّليل من خلال قوله تعالى: ﴿ذلك ما كُنتَ عنه تحيد﴾. فقد أتى هنا باسم الإشارة للبعيد، بدل (هذا) للقريب. وقد أراد بهذا الاستبدال التّنويه بعظمة دليله الثالث المذكور.

والملاحَظ أنه تعالى ما إن فرغ من عرض هذه الأدلة الثلاثة التي شرحناها، والتي أتى بها إثباتًا لعظيم قُدُراته، عزّ وجلّ، وإحقاقًا ليوم البعث والحساب، أقول ما إن فرغ من ذلك حتى لاحظ صاحبنا أنّه، جلّ اسمه، قد كشف لمخلوقه الإنسان ما سيؤول إليه حاله يوم البعث. وليُثبت من خلال هذا الإنباء عظيمَ علمه وقدراته أيضًا، لذا قال ﴿ونُفخ في الصّور، ذلك يوم الوعيد ـ وجاءت كُلّ نفس معها سائقٌ وشهيد ـ لقد كُنتَ في غفلةٍ من هذا، فكشفنا عنك غطاءك فبصرُك اليوم حديد﴾ (٢٠ ـ ٢٢). ولنلاحظْ أنّه لا تضادّ ما بين قوله تعالى هنا: ﴿فبصرُك اليوم حديد﴾ وقوله تعالى في مقام آخر من كتابه العزيز: ﴿من كان في هذه أعمى، فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً﴾، ذلك أن معنى هذه الآية أنّ من عَمِيَ عن الحقّ في الدنيا فسيكون أعمى عنه في الآخرة، فيضِلّ عن سبيل النّجاة. أما معنى ﴿فبصرك اليوم حديد﴾ فهو أنك إذا كنتَ قد غفلت في الدنيا عمّا سينزل بك اليوم، أي يوم الآخرة، فإنّنا سنزيل عنك غفلتك لتُدرك ما كنت تنكره في دنياك.

ويلاحظ صاحبنا أنّ الله تعالى، بعد أن كشف تفصيل بعض ما سيحدث يوم بعث الأنفس، وذلك تأكيدًا للخطّة التي أعدّها لمُستقبل الإنسان، وإظهارًا لقُدراته الإلهيّة العظيمة التي لا تحدُّها حدود، قال: ﴿هذا ما تُوعدون لكلّ أوّاب حفيظ﴾ (٣٢). أي حفيظٍ لتعاليم الله ومواعظه. وأضاف قوله تعالى ناصحًا: ﴿من خشي الرّحمن بالغيب وجاء بقلبٍ منيب ـ ادخلوها بسلام، ذلك يوم الخلود ـ لهم ما يشاؤون فيها، ولدينا مزيد﴾ (٣٢ ـ ٣٥). وراح تعالى ينذر من يكذّب بيوم البعث ممّن لا يخشون ربّهم، ويقول: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قَرنٍ هم أشدّ منهم بطشًا فنقّبوا في البلاد هل من محيص﴾ (٣٦). أي ويلٌ لهؤلاء من عقابنا الذي لا مفرّ لهم منه ولا نجاة. ثم وضّح، جلّ شأنه، الحكمة من جميع ما أتى به من أدلّة ومواعظ في سورة (ق)، بقوله: ﴿إنّ في ذلك لَذكرى لمن كان له قلبٌ أو ألقى السّمع وهو شهيد﴾ (٣٧). أي أنّ فيها نذكره لهم موعظة وعبرة، إذا كانت لهم قلوبٌ متفتّحةٌ، أو آذان ينصتون بها إلى ما يُلقى إليهم من أنباء الغابرين،

وما يشهدونه بأنفسهم من عواقب ما يحلّ بالمُكذِّبين، مستفيدين ممّا تضمّنته سورة (ق) من أدلّة ومواعظ وتعاليم لا بدّ أن تستريح لها أفئدتهم، وتطمئن إليها نفوسهم.

فإذا تجاوز، جلّ شأنه، هذا الحدّ من البيان الإلهي جعل يندّد بما حرّفتهُ أيدي اليهود في التوراة، وما أورده خطأ بشأن خلق هذا العالم، وذلك وقع في سفر التكوين، الإصحاح الثاني، إذ جاء قولهم: «وفرغ الله في اليوم السّابع من عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السّابع من جميع عمله الذي عمل. وبارك الله اليوم السّابع وقدّسه. لأنّه فيه استراح من جميع عمله الذي عمله الله خالقًا» أقول: نندّد ربنا، عزّ وجلّ، بمزاعم التوراتيّين هذه التي تنتقص من قَدْر قُدراته تعالى، وتُقزّمُها بقوله: ﴿ولقد خلقنا السّماواتِ والأرضَ في ستّةِ أيّام، أي في ستّة أدوارٍ زمنيّة، وما مسّنا من لُغوب﴾ (٣٨). أي وما مسّنا من تعب على ما زعمه كاتبو التوراة المُعاصرة ونسبوه إلى خالقهم. ولقد جاء هذا التّنديد بهؤلاء في محلّه الأمر الذي يَثبتُ منه أنّ سورة (ق) التي أنزلها ربّنا، عزّ وجلّ، في مكّة المُكرّمة لم تكن من وحي أحدٍ، بل من الله ذاته الذي أنزل التوراة والقرآن.

والملاحظ أنّ الله تعالى بعد بيانه المذكور نصح رسوله الكريم بأن يصبر على ما يزعمون ويفعلون بقوله: ﴿فاصبر على ما يقولون﴾ (٣٩). أي على ما حرّفه التوراتيّون، وما يزعمه الدهريّون المكذّبون الذين استهل سورة (ق) بالكلام عليهم ﴿أإذا متنا وكُنّا تُرابًا، ذلك رجعٌ بعيد﴾ (٣). كما أطلع الله، عزّ وجلّ، رسولَه الكريم على ما سيفاجىء تعالى به هؤلاء، وما فاجأهم به فعلاً يوم فتح مكّة، وذلك بقوله تعالى: ﴿واستمعْ يوم يُنادِ المنادِ من مكانٍ قريب - يوم يسمعون الصَّيحة بالحقّ، ذلك يوم الخروج﴾ (٤١ - ٤٢). والصّيحةُ المُشار إليها هي صيحة: «من دخل بيته فهو آمن، ومن دخل البيت الحرام فهو آمن... إلخ.» وهذا المعنى بدلالة ﴿واستمعْ يوم ينادِ المنادِ من مكانٍ قريب﴾ وليس هذا الكلام متعلّقًا بيوم البعث، وهو لا يزال بعيدًا. فالمقصود أنّ يوم فتح مكّة المكرّمة سيشكّل بعثًا مُصغّرًا لهؤلاء من موتهم الرّوحاني.

لذلك أتبع تعالى نبأه المذكور بقوله: ﴿إنّا نحن نُحي ونُميت، وإلينا المصير - يوم تَشقّق الأرض عنهم سراعًا - (وهذا البعث الأخروي جيء به قياسًا على بعث الموتى الروحانيّين المُنبأ عنه آنفًا) - ذلك حشرٌ علينا يسير﴾ (٤٣ - ٤٤).

وقد أنهى ربُّنا، جلّ شأنه، سورة (ق) بقوله: ﴿نحن أعلم بما يقولون، وما أنت عليهم بجبّار، فذكّرْ بالقرآن من يخاف وعيدِ﴾.

إلى هنا يكون هذا الباحث المتدبّر قد أحاط علمًا بمواضيع سورة (ق) المَبحوثة فيها. فيدفعه شوقه للاطّلاع على مضامين السّور السّبع عشرة، المُلحقة بمضمون سورة (ق) وفقًا لقواعد الاختزال القرآني وخطته.

وأتدخّل بدوري لأقول: إنّا لسنا بصدد تفسير القرآن المجيد كي نتوسّع في الشّروحات لهذه السّوَر. وكل ما نبغيه إلقاء الأضواء على مضامينها، إثباتًا لتبعيّة مضامينها لمضمون سورة (ق) الأمّ، ولإثبات أنّها تناولت بالتفصيل الجوانب المُجملة منها، وتجيب عن أسئلةٍ تتخلّل آياتها، ووفقًا لتسلسلٍ موضوعيّ واضح المعالم. والذي يؤكّد ذلك أننا سنلاحظ معًا أنّ كُلّ سورة من هذه السّور السّبع عشرة ستبتدىء من حيث انتهت سابقتها.

١ - سورة (الذاريات)

فمن هذا المُنطلق يتناول صاحبنا بالبحث والتدبّر سورة (الذّاريات). ويعود إلى ما أنهى تعالى به سورة (ق) وهو قوله تعالى: ﴿واستمعْ يوم يُنادِ المنادِ من مكانٍ قريب - يوم يسمعون الصّيحة بالحقّ، ذلك يومُ الخروج - إنّا نحن نُحيي ونُميت، وإلينا المصير - يوم تَشَقّق الأرض عنهم سِراعًا، ذلك حشرٌ علينا يسير﴾ (٤١ - ٤٣). وسبق أن فهمنا من هذه الآيات دلالتها على ﴿الصّيحة بالحقّ﴾ التي يسمعها أهل مكّة يوم فتحها، ودلالتها على يوم البعث والنّشور.

فها هو تعالى يشير إلى من سيتحقّقُ على أيديهم فتح مكّة، ليوضح للمكذّبين مدى علم الله بالغيب، ومدى ما له من قُدُرات. وهذا هو سرّ استهلاله تعالى سورةَ (الذاريات) بقوله تعالى ﴿والذّارياتِ ذَروًا - فالحاملات وِقْرًا - فالجارياتِ يُسرًا - فالمقسِّمات أمرًا - إنّما توعدون لَصادق - وإنّ الدّين لواقع﴾ (١ - ٦).

فالواو في ﴿والذّارياتِ﴾ هي واو القَسَم. والقَسَم لُغةً يُعَدّ تقديم شهادة. وهو تعالى يشبّه في هذه الآيات أصحاب محمّد (ﷺ) بالرّياح الذاريات الحاملات حَملاً ثقيلاً (وِقرًا) وهو مسؤوليّة نشر دين الله الإسلام. والجَاريات يُسرًا يعني أنّهم سيمتلكون القوّة والنموّ بشكل طبيعيّ. فالمُقسِّمات أمرًا صادرًا إليهم من ربّهم، عزّ وجلّ، يأمرهم فيه بالتوجّه إلى مكّة لفتحها. فهؤلاء هم الصّحابة، وما سيتحقّق على أيديهم في المُستقبل القريب ﴿يوم ينادِ المنادِ من مكانٍ قريب﴾ سيكون

ما يتحقّق على أيديهم شهادة عمليّة من جانب الله، عزّ وجلّ، على أنّ ما توعدون به من إحياء نفوسكم الموتى دنيويًّا، وبعثها أخرويًّا لَوعدٌ صادق. وأنّ الدِّين الذي بُعث به محمّد الرسول الكريم، هذا الدين الذي يحمل الصّحابَةُ مسؤوليّة نشر لوائه لواقع أي أنّه ثابت، تقول وقع القول عليهم والحق: ثبت.

وقد أضاف تعالى بعد ذلك قوله: ﴿فورَبِّ السّماء والأرض إنّه لحقٌّ مثلما أنكّم تنطِقون﴾ (٢٣)، فأقسم بربوبيّته للسّماء والأرض، إشارة إلى ما أورده في مجال ذلك من أدلّة علميّة كونيّة في سورة (ق)، وقسَمُه هنا يُعدّ تقديمَه ذلك شهادة على ن ما أنبأ به عن فتح مكّة وعن يوم يوم البعث ﴿. . .إنّه لحقٌّ مثلما أنكّم تنطقون﴾ (٢٣).

ثمّ راح تعالى بعد ذلك يؤكّد أنّه سيُنجي المؤمنين ممّا سيحيق بأهل مكّة من عذاب. فأتى بقصص إبراهيم وموسى، وما حلّ بعادٍ وثمود وقوم نوح، التي ثبت من خلالها أنّ الله يُدافع عن المؤمنين ويخذل مُكذّبيهم على الدّوام.

وتبعًا لذلك ناشدهم تعالى بقوله: ﴿ففِرّوا إلى الله، إنّي لكم منه نذيرٌ مبين. ولا تجعلوا مع الله إلهًا آخر، إنّي لكم منه نذيرٌ مبين ـ ولا تجعلوا مع الله إلهًا آخر، إني لكم منه نذير مبين﴾ (٥٠ ـ ٥١). ونبّه تعالى أذهان الناس بعدئذ إلى المقصد من خلقهم بقوله تعالى: ﴿وما خلقتُ الجنّ والإنس إلاّ ليعبدونِ﴾ (٥٦)، مشيرًا إليهم وإلى الذين سيُهيمنون على مصاير النّاس في آخر الزّمان مِمّن اتخذوا لله المسيحَ بن مريم ولدًا، قائلاً: ﴿فإنّ للّذين ظلموا ذنوبًا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون ـ فويلٌ للّذين كفروا من يومهمُ الذي يوعدون﴾، قال تعالى هذا ليؤكّد على واسع علمه الغيبيّ، وواسع قدراته، عزّ وجلّ. وهكذا تكون سورة الذّاريات قد تبسّطت في الكلام عن ناحيةٍ مُعيَّنةٍ من نواحي موضوع سورة (ق). وهي الناحية المتعلّقة بفتح مكّة وإسلام أهلها.

٢ ـ سورة (الطّور)

وينتقل هذا الباحث المتدبِّر من سورة (الذاريات) إلى سورة (الطور)، وهو يتساءل عن حكمة استهلال هذه السورة بهذا القَسَم ﴿والطورِ﴾، وهو جبلٌ اقترن اسمه ببعثة موسى عليه السلام. فإذا عاد إلى ما أنهى به تعالى سورة (الذاريات)، أعني قوله تعالى: ﴿فإنّ للّذين ظلموا ذنوبًا مثلَ ذنوب أصحابهم، فلا يستعجلون

ـ فويلٌ للّذين كفروا من يومهم الذي يوعدون﴾، وكانت هذه الآيات إشارةً إلى الذين أنذرتهم سورة (الكهف)، ممّن قالوا ﴿ولَدَ الله﴾، والذين سيهَيمنون على مصاير الناس إثر ظهور عصر انحطاط العالم الإسلامي، فقد اقتضت هذه النقطة بالذات شرحًا وتفصيلاً لهذا الإنذار والوعيد، إظهارًا لواسع علم الله الغيبيّ وقُدُراته التي لا تقف دونها حدود.

ويدرك صاحبنا من خلال ذلك لماذا استهلّ تعالى سورة (الطّور) بالقَسَم بجبل الطور. استهلّها بهذا القسَم تذكيرًا لهؤلاء المسيحيّين من أمم أوربة وأمريكا بما أنبأ تعالى به موسى عن بثعة محمّد رسول الله على جبل الطّور، الإصحاح ١٨/١٥: «يُقيم لك الربّ إلهك نبيًّا من وسطك من إخوتك مِثلي. له تسمعون. حَسَبَ كلّ ما طلبت من الربّ إلهك، في حوريب يوم الاجتماع قائلاً: لا أعود أسمع صوت الربّ إلهي، ولا أرى هذه النار العظيمة أيضًا، لئلّا أموت. قال لي الربّ: قد أحسنوا فيما تكلّموا. أُقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتهم مثلَكَ وأجعل كلامي في فمه، فيكلّمهم بكلّ ما أوصيه به. ويكون أنّ الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلّم به باسمي، أنا أطالبه. وأمّا النبيّ الذي يُطغي، فيتكلم باسمي كلامًا لم أوصه أن يتكلّم به، أو الذي يتكلّم باسم آلهة أخرى، فيُقتل ذلك النبيّ. وإن قُلتَ في قلبك كيف نَعرِفُ الكلام الذي لم يتكلّم به الربّ؟ فما تكلّم به النبيّ باسم الربّ ولم يحدُث، ولم يَصِرْ، فهو الكلام الذي لم يتكلّم به الربّ، بل بطُغيانٍ تكلّم به النبيّ، فلا تخف منه». مع الملاحظة الهامة جدًّا، وهي أن التوراتيين المُعاصرين حَرّفوا جُملة (فيُقتل ذلك النبيّ) إلى (فيموت ذلك النبيّ) في طبعات كتابهم المقدّس الجديدة.

أمّا في نُسخة هذا الكتاب المطبوعة سنة (١٨٧٠) فما قبلها، فقد كانت (فيُقتل ذلك النبيّ)، وقد اطّلعت شخصيًّا على تحريفهم المذكور الذي قاموا به، نتيجة الضّغط الموجّه إلى هذه النبوءة بالذات وانطباقها على شخصيّة محمّد بن عبد الله (ﷺ) الذي وعده ربه بقوله ﴿والله يعصمك من الناس﴾.

فهذا هو سرّ استهلاله تعالى هذه السورة بالقسَم ﴿والطورِ﴾ أي أتقدّم بنبوءة موسى التي تلقّاها من ربّه على جبل الطور والمتعلقة ببعثة هذا النبيّ الصادق الأمين، على أنّها شهادة من الله على الويل الذي سيحلّ بالذين كفروا في يومهم الذي يوعدون. فهذه هي الوشيجة التي تربط سورة (الطور) بسورة (الذاريات).

ويلاحظ صاحبنا أن الله تعالى الذي أنزل هذه السورة في مكّة المُكرّمة أقسم للمرة الثانية بقوله: ﴿وكتابٍ مسطورٍ في رِقٍّ منشور﴾ فأنبأ عن أن وحيه هذا

سيتّخذ شكل كتابٍ مسطور في رِقٍّ منشور، ليكون شهادة ثانية من لدُنه تعالى على أن علمه الغيبيّ ينذر الذين كفروا بالويل في يومهم الذي يوعدون.

كما يلاحظ أنه تعالى أقسم للمرة الثالثة قائلاً: ﴿والبيتِ المعمور﴾. والبيت في الاصطلاح القرآني لا يعني سوى الكعبة وحرمها الشريف. ففي (البقرة) (١٢٥) قال: ﴿وإذ جعلنا البيت مثابَةً للنّاس وأمْنًا﴾، فأنبأ تعالى من خلال قَسَمه الثالث هذا عن أنّ أتباع محمّدٍ سيعمرُون هذا البيت ويكونون له أمناء، ليصبح ذلك شهادة ثالثة من لدُنه تعالى على أنّ علمه الغيبيّ الواسع ينذر الذين كفروا بهذا الويل الذي سيحلّ بهم في يومهم الذي يوعدون.

ويلاحظ صاحبنا أنّه تعالى أقسم للمرّة الرابعة بقوله: ﴿والسّقفِ المرفوع﴾، دلالة واستعارة لكلمة السّقف المرفوع على المنزلة التي سيحتلُّها رسوله الكريم بين قومه، ليؤكّد أنّ محمّدًا هو مصداق نبوءة الطّور، وشهادة على قدرته تعالى على تنفيذ وعيده بهؤلاء الذين كفروا في يومهم الذي يوعدون.

كما يلاحظ أنّه تعالى أقسم للمرّة الخامسة بقوله: ﴿والبحرِ المسجور﴾، دلالة واستعارةً لكلمة البحر المسجور على الكتاب الذي أتى به محمّد (ﷺ) المملوء علومًا ومعارف لا تنتهي خزائنها ولصالح الناس أجمعين، وليشكّل قسَمه هذا شهادة خامسة على واسع علمه تعالى الغيبيّ وقدراته، وصدق وعيده.

من هنا أدرك صاحبنا لماذا أتبع، جلّ شأنه، هذه الأقسام الخمسة بقوله، عزَّ وجلَّ: ﴿إنّ عذاب ربِّك لواقع ـ ماله من دافع ـ يوم تمور السّماء مَوْرًا ـ وتسير الجبال سيرًا ـ فويلٌ يومئذٍ للمكذّبين ـ الذين هم في خَوْضٍ يلعبون ـ يوم يُدَعُّون إلى نار جهنّم دَعًّا ـ هذه النار التي كنتم بها تكذّبون﴾.

ويعود صاحبنا إلى ما قاله اللغويّون في معاجمهم: (يوم تمور) من مارتِ السّماء، ماجت واضطربت وتحركت بسرعة. (في خَوض) من خاض في شيء تخبّط غير مكترثٍ بالأهوال. (يلعبون) من لعب بمعنى قصد اللذة والتنزّه من غير هدف معيّن. وفي ضوء هذه المعاني يتجلى لعين صاحبنا من هذه الآيات الإنباء عن الأمور التاليّة:

الأول: أن العذاب الذي يتوعّد الله تعالى به الأمم الغربيّة لا بدّ واقع، ما له من دافع.

الثاني: وحين نزول العذاب بهم، تضطرب الأجواء، وتُنسف الجبال.

الثالث: وأن واقع المجتمعات الغربيّة ﴿في خوض يلعبون﴾ أي يتخبّطون غير

مكترثين بالأهوال التي هي من حولهم، والتي ستحلّ بديارهم. فلا يطلبون إلاّ اللذة والرفاهية، من دون اعتبار مقصد للحياة.

الرابع: ﴿يوم يُدَعُّونَ إلى نار جهنّم دَعًّا﴾ أي أن وضعهم المذكور سيدفعهم إلى خوض حربٍ ناريّة دفعًا عنيفًا.

ويلاحظ صاحبنا أنّه تعالى راح ينبىء بعد ذلك عمّا أعدّه لعباده المتّقين من إنعام ونعماء وذلك من الآية (١٧) حتى الآية (٢٨). ثم أوصى رسوله الكريم أن يُخبر هؤلاء المكذّبين بما يتوعدهم به تعالى، على سبيل الذكرى، فلا يبالي أن يتّهموه بالكهانة والجنون وبقوله: ﴿فذكّر فما أنت بنعمة ربّك بكاهنٍ ولا مجنون﴾.

ثم راح تعالى يُبكّتُ الكافرين جميعهم من خلال آيات كان يستهلّها دومًا بحرف (أم) الذي يستدعي منهم جوابًا. ثم خاطب رسوله بقوله: ﴿فذرهم حتى يُلاقوا يومَهم الذي فيه يُصعَقون ـ يومَ لا يُغني عنهم كيدُهم شيئًا ولا هم يُنصَرون ـ وإنّ للذين ظلموا عذابًا دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ (٤٥ ـ ٤٧)، أي لن ينتهي الأمر عند إهلاكهم، وزوال شوكتهم من العالم، بل ينتظرهم عذاب يوم القيامة دون ذلك العذاب، ولكنّ أكثرهم لا يعلمون.

وأنهى، جلّ شأنه، سورة (الطّور) بقوله تعالى: ﴿واصبر لِحُكم ربّك، فإنّك بأعيننا، وسبّح بحمد ربّك حين تقوم ـ ومن الليلِ فسبّحه وإدبارَ النجوم﴾. وأشار من خلال قوله: ﴿فإنّك بأعيننا﴾ إلى رعايته تعالى هذا الدّين القويم حتى أبد الأبدين.

٣ ـ سورة (النجم)

ثم يصل هذا الباحث المتدبّر إلى سورة (النّجم)، وهي سورة مكيّة أيضًا. فيجد أنّها استُهلت بقَسَم جديد: ﴿والنّجمِ إذا هوى ـ ما ضلّ صاحبُكم وما غوى﴾. فإذا عاد إلى المفسّرين لاحظ ذهابهم مذاهب شتّى أغفلت المُعطيات العلميّة والتّسلسل الموضوعيّ.

فلفظ (النّجم)، مُعرّفًا بالألف واللاّم، وإن اصطلحته العرب في الأصل لنجم الثّريّا، لا يُقال فيه إنّه (هوى) أي سقط. ذلك أنّ الثريّا كوكب سيّار، وكُلٌّ في فلكٍ يسبحون. وهذه حقيقة علميّة، تُعَدّ في نَظر صاحبنا قرينةً لغويّة، تصرف

اللفظ عن معناه الحقيقي إلى معناه المجازي، خصوصًا أنّ كلمة (نجم) قد شاع استعمالها في عصرنا بكثرة، بمعناها المجازي أيضًا.

فكُتّاب عصرنا يكتبون: (تألّق نجم فلان) أي اشتهر. فكلمة (نجم) هنا مُناسِبةٌ لعصرنا، ومُنسجمةٌ مع تعابير أدبائه.

فإذا تذكر باحثنا أنّ آخر سورة (الطّور) قد اختَصَّ بالكلام على الأمم الغربيّة المسيحيّة المُعاصرة التي تألّق نجمها في العالم ذهب ذهنه فورًا إلى أنّ المقصود من قَسَمه تعالى: ﴿والنّجمِ إذا هوى﴾ هو إنباؤه، جلّ شأنه، عن سقوط نجم أمم الغرب وزوالها وانعدام سلطانها وطغيانها. ويؤكّد له هذا النّبأ قوله تعالى بعد قَسَمه المذكور: ﴿ما ضلَّ صاحبكم وما غوى﴾، أي أنّ تحقُّق هذا النّبأ بحقّ هؤلاء في المُستقبل سيُعَدُّ شهادة سماويّة من واقع هؤلاء ومصيرهم بأنّ رسوله محمّدًا (ﷺ) كان رسولاً صادقًا أمينًا، ما انحرف عن صراط ربّه، وما ضلّت ديانته طريقها المرسوم لها في السّماء، تصديقًا لما وعد به الرحمن رسوله في آخر سورة (الطّور) بقوله: ﴿فإنّك بأعيننا﴾.

ويعمد صاحبنا إلى التَوثُّق ممّا توصّل إليه فهمه من معنى لقوله تعالى: ﴿والنّجمِ إذا هوى﴾، فيلاحظ أنّه تعالى أتبع ذلك بقوله: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾، أي أنّ محمّدًا (ﷺ)، وقد أنبأ عن زوال نجم هؤلاء، ما نطق به عن هواه، بل ﴿إن هو إلاّ وحيٌ يوحى﴾ إليه من ربّ السّماء والأرض.

وأضاف تعالى قوله: ﴿علّمه شديدُ القوى﴾، أي أن من أوحى إلى محمّد بهذا الوحي وهذا الإنباء يملك من القوى والعلوم والصّفات، ما لا تحدُّه حدود. وهو تعالى: ﴿ذو مِرّةٍ فاستوى﴾ أي أنه لا يطرأ على ما لهذا الخالق من قوى وصفات أي تغيير أو تبديل لأنه: ﴿ذو مِرّة﴾ أي ذو قوّة وشدّة.

وهو تعالى إذ قال: ﴿.. فاستوى ـ وهو بالأُفق الأعلى﴾ أشار إلى أنّ قرار زوال أمم الغرب هو قرار قدري مُبرم لا رجعة عنه. فهو تعالى اتخذ قراره المذكور وقد استوى على عرشه بالأفق الأعلى، أي وهو على أعلى مستويات مركزه في مملكته السّماويّة.

وأتى تعالى بعد ذلك بحرف (ثُمّ) الذي يُفيد التّرتيب، وقال: ﴿ثُمَّ دنا فتدلّى ـ فكان قاب قوسين أو أدنى ـ فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾. وفعلُ (تدلّى) يعني قَرُبَ تودُّدًا وشفقةً ومحبّة، على شاكلة انحناء الأب مع ولده يداعبه تودُّدا ومحبّة. أي وبعدما أصدر الله، عزّوجلّ، قراره القَدَري المُبرم المذكور المتعلق بزوال نجم

الأمم الغربيّة التي زعمت قولها (وَلَدَ الله) وأشركت وافترت على الله كذبًا، وأسرفت في هيمنتها على شعوب العالم، بعد اتخاذ هذا القرار، دنا، عزّ وجلّ، من رسوله الكريم وقَرُب منه إلى أقرب ما يمكن أن يكون بشرٌ من ربّه، ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ من نبوءة. ﴿والنّجمِ إذا هوى﴾ التي أوردها تعالى على صيغة القَسَم، أي تقديم شهادة.

ثم أضاف تعالى قوله: ﴿ما كذَبَ الفؤاد ما رأى ـ أفتُمارونه على ما يرى﴾، أي أنّ جميع ما ذكرناه كان كالمعراج الروحيّ المحض، ولا علاقة لجسد رسولنا (ﷺ) به. لذلك لا يحق لأحدٍ مخاصمتنا فيما رآه رسولنا الكريم، لأنّ ما حدث لا دخل للمادّة فيه من قريبٍ أو بعيد.

ويطمئن هذا الباحث المتدبِّر إلى رصانة ما سلف ذكره من دلالات لهذه الآيات الكريمة، ويدرك أن ربّنا، جلّ شأنه، قد خصّص سورة (النّجم) هذه لتأكيد شأن الإنذارين اللذين تضّمنتهما سورتا (الذاريات والطّور). وليكشف بذلك عن واسع علمه الغيبيّ وقدراته، عزّ وجلّ، وعن عظمة منزلة محمّد بن عبد الله (ﷺ) لديه. وقد كان القصد من ذكر هذا المعراج الروحيّ الإفصاح عمّا تضمنته سورة (الطّور) خاصّة.

ولم يكتف الله تعالى بما أنبأ به وأعلم، بل مضى يُخبرنا بمعراجٍ آخر اختصّ بقراره المتعلّق بفتح مكّة وإسلام أهلها، وهو الأمر الذي تضمّنته سورة (الذّاريات). وعبّر عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ولقد رآه نَزلةً أخرى ـ عند سِدرة المُنتهى ـ عندها جنّةُ المأوى ـ إذ يغشى السِّدرةَ ما يغشى ـ ما زاغ البصر وما طغى ـ لقد رأى من آيات ربّه الكُبرى﴾ (١٣ ـ ١٨)، ممّا لا داعي للتفصيل فيه في هذا المقام.

وعليه فقد أدرك صاحبنا أنّ سورة (النّجم) أعلمتنا عن معراجين، لا عن معراجٍ واحدٍ، الأمر الذي ذهب إليه من أخذ بظاهر الآيات، من دون ربطها بالتسلسل الموضوعيّ للسورة. وقد كان المقصود من إعلامنا بهذين المعراجين الإعلان عن القرارين القدريّين المُتعلّقين بأعداء الإسلام من مُكذِّبي البعثة الإسلاميّة الأولى، والثانية التي يمثلّها نظير (ابن مريم).

فلما انتهى، جلّ شأنه، من إعلان هذين القرارين السّماويّين، قال: ﴿أم للإنسان ما تمنّى ـ فلله الآخرة والأولى﴾ (٢٤ ـ ٢٥)، أي لن تجري الأحداث وفق أمانيّ المكذِّبين. وستكون هاتان البعثتان الإسلاميتان لصالح المشيئة الإلهيّة وقراراتها.

ثمّ أضاف تعالى قوله: ﴿هذا نذير من النُّذُر الأولى ـ أزِفت الآزفة ـ ليس لها من دون الله كاشفة ـ أفَمِن هذا الحديث تعجَبون ـ وتضحكون ولا تبكون ـ وأنتم سامدون﴾ (٥٦ – ٦١). والمعنى أنّ محمّدًا الأمين جاء ينذركم بدنوّ السّاعة الموصوفة في السّور الماضية بالدنوّ، على شاكلة ما قام به مِن قبله جميعُ رسل الله الذين أنذروا أقوامهم بالعذاب المقدَّر لزوالهم، وعجبوا وضحكوا ولم يخافوا اليوم الموعود، وإنّ انذاره (ﷺ) إياكم بالعذاب المقدَّر لزوالكم هو أدعى للبكاء منه للضّحك والسّخريّة.

وختم، جلّ شأنه، كلامه هذا بقوله تعالى: ﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾. فهو، عزّوجلّ، دعاهم إلى العودة إلى رشدهم قبل فوات الأوان نجاةً بأنفسهم من سوء هذا المصير.

٤ ـ سورة (القمر)

وهكذا تكون قد تجلّت لهذا الباحث المتدبّر أن سورة (النّجم) قد خصّص الله تعالى مضمونها ليكشف عن واسع علم غيبه وقُدُراته بما يختصّ بمستقبل دعوة الإسلام. ويدفعه هذا لينتقل منها إلى السورة التي تليها، وهي سورة (القمر)، التي استهلّها، جلّ شأنه، بقوله تعالى: ﴿اقتربت السّاعةُ وانشقّ القمر ـ وإن يَرَوا آيةً يُعرِضوا ويقولوا سحرٌ مستمرٌ﴾.

فإذا عاد صاحبنا إلى كتب التفسير لاحظ إهمال مؤلفيها المُعطيات العلميّة والتسلسل الموضوعيّ أيضًا. ذلك أنّ (القمر) هو أسمٌ لكوكب سيّار، وكلٌّ في فلكٍ يسبحون. وهذه الحقيقة العلميّة تشكّل في نظر صاحبنا قرينةً تصرف المعنى الحقيقيّ للقمر إلى معناه المجازي. خصوصًا أنّ العرب، كانوا قد اعتبروا القمر شعارًا لهم في جاهليتهم على ما تبيّن من كتب السيرة والتاريخ.

ثم إنّ صاحبنا يبحث عن الوشيجة ما بين سورتَي (النّجم والقمر). فيلاحظ أنه تعالى اختتم سورة (النّجم) بقوله تعالى: ﴿أفمِن هذا الحديث تعجبون ـ وتضحكون ولا تبكون ـ وأنتم سامدون ـ فاسجدوا لله واعبدوا﴾. وقلنا في حينه إنه تعالى يناشد المكذّبين جميعهم النجاة بأنفسهم من سوء هذا المصير، وذلك بالاستجابة لدعوة الإسلام والخضوع لله، عزّوجلّ. وهذا التسلسل الموضوعيّ، اقتضى تبشير المؤمنين بخلاصهم من الظّلم الواقع بهم في مكّة، لذلك استهلّ تعالى

سورة (القمر) بإعلان بشارته هذه فقال: ﴿اقتربت السّاعة وانشقّ القمر﴾ أي اقتربت ساعة خلاص محمّد وأصحابه من مظالم المشركين المكذّبين وقد تقرّر في السّماء زوال الحكم العربيّ الجاهليّ. وأضاف قوله: ﴿وإنْ يَرَوا آيةً يُعرِضوا ويقولوا سحرٌ مستمرّ﴾، أي أن زوال حكمهم يشكّل آية وعلامة على صدق الإسلام.

لكنّ المُكابرين لا يتعظون بهذه الآية ﴿ويقولوا سحرٌ مستمرّ﴾. ويضيف تعالى مُخبرًا عنهم بقوله: ﴿وكذّبوا واتّبعوا أهواءهم، وكُلُّ أمرٍ مُستقرّ﴾. أي سيستمرّون في تكذيبهم، ولا بدّ للأوامر السّماويّة أن تنفّذ وتستقرّ. وأضاف تعالى قوله: ﴿ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مُزدَجَر ـ حكمةٌ بالغةٌ فما تُغنِ النُّذُر﴾ أي أن زوال الحكم العربي الجاهلي ما هو بأوّل نبأ غيبيّ أنبأنا به، بل سبقته أنباء وأنباء، والعجيب ألا يتّعظ هؤلاء بجميع هذه الإنذارات. فاقتضت الحكمة الإلهيّة زوال حكم العرب الجاهليّين. لذلك أضاف تعالى موصيًا: ﴿فتولَّ عنهم يوم يَدعُ الداعِ إلى شيء نُكُر﴾. وذكّر، جلّ شأنه، هؤلاء المكذّبين بما حلّ بمن سبقهم من الأمم: قوم نوح وعاد وثمود، وقوم لوط وآل فرعون. وأضاف تعالى قوله: ﴿أكفّارُكم خيرٌ من أولئكم أم لكم براءة في الزُّبُر ـ أم يقولون نحن جميعٌ منتصر ـ سيُهزَم الجمعُ ويُولُّون الدُّبُر﴾. وقد تحقّق هذا الكلام حرفيًّا في معركة الخندق يوم اجتمع الأحزاب من هؤلاء المكذّبين لمهاجمة الإسلام في المدينة المنوّرة.

فلمّا بلغ، جلّ شأنه، هذا الحدّ من البيان، أتى بحرف (بل) الدالّ على الإضراب لإبطال ما سبق، والإتيان بما هو أشدّ، وقال: ﴿بل السّاعة موعدهم والسّاعة أدهى وأمرّ ـ إنّ المجرمين في ضلالٍ وسُعُر ـ يوم يُسحَبون في النار على وجوههم ذوقوا مَسَّ سَقَر﴾، ومن خلال لفظ السّاعة عمّم تعالى إنذاره فشمل ساعة كل المكذّبين.

ثم علّل تعالى قراره القَدَريّ المُبرَم بحقّ المُكذّبين، آخر سورة (القمر)، بقوله تعالى: ﴿وكُلُّ شيءٍ فعلوه في الزُّبُر ـ وكلُّ صغير وكبير مُستَطر﴾. أي أن وثائق أفعالهم محفوظة لدينا تشهد عليهم يوم القيامة أيضًا.

على هذه الصورة يكون هذا الباحث المتدبّر قد أدرك أنّ سورة (القمر) أنزلها ربّنا في مكّة المكرّمة وتنبىء عن زوال الحكم الجاهلي، وما سيواجهه المكذّبون لدعوة الإسلام في مُختلف المراحل التي ستمرُّ بها. وخاصّة مرحلة الحكم الجاهليّ.

٥ ـ سورة (الرحمن)

وهذا الإدراك، يدفع بصاحبنا لينتقل من سورة (القمر) إلى سورة (الرّحمن)، ويتساءل عن معنى كلمة ﴿الرّحمن﴾ التي أتت على وزن فَعْلان، وهذه الزِّنَة غالبًا ما تدلّ على الامتلاء والغَلَبة حسب ما جاء في (بحر المحيط ص ٢٧)، أي أنّ الرّحمن هو الله الذي غلبت رحمته على كل شيء صدر عنه، فوَسِعت رحمته كُلّ شيء. والرّحمن صفة عامّة تشمل جميع أنواع الرّحمة الإلهيّة وعطاءاتها.

وهي اسم يختصّ بذات الله وحده، من دون سائر خلقه، على حسب قول النّحاة، ومنهم أبو علي الفارسيّ.

ويتساءل صاحبنا عن مضمون سورة (الرحمن)، وحكمة استهلالها بصفة الله (الرحمن). لهذا يعود إلى سياق الآية، وهي ما أنهى به تعالى سورة (القمر)، مُستلهمًا من التّسلسل الموضوعي، جواب تساؤله.

فقد أنهى تعالى سورة (القمر) بقوله: ﴿إنّ المُتّقين في جنّاتٍ ونَهَر ـ في مَقعد صدقٍ عند مليكٍ مُقتدِر﴾. أنهاها بهذه البشائر، ليُفهِمَ المُكذِّبين أنّ رحمة الله تعالى تقتضي ألاّ يوصِد الأبواب في وجوه الباحثين منهم عن حقائق هذا الوجود. بل فتح باب رحمته على مصراعيها لهم، مؤكّدًا معالم السّعادة التي تنتظر من يؤمن منهم بهذا الدّين. لكنّه تعالى ترك أمر الكلام في هاتين الآيتين على هذا المليك المقتدر، واكتفى بقوله تعالى: ﴿عند مليك مقتدر﴾، وذلك ليبعث الحاجة في نفوس الباحثين لاستنفاد جهدهم في تعرُّفه، جلّ شأنه، وإمعانًا في إغرائهم.

من هذا يلاحظ صاحبنا أن الله ربّنا قد أفرد سورة (الرحمن) ليتناول ما يتعلّق بهذا ﴿المليك المقتدر﴾. وتتجلى الواشجة ما بين السّورتين لعينيه، وكأنّه عاد يقرأ: (عند مليكٍ مُقتدر هو الرحمن) الذي اقتضت رحمته ألا يوصد في وجهكم الأبواب، وأنّ هذه هي حكمة استهلاله تعالى هذه السورة بصفته (الرّحمن).

ويشرع هذا الباحث المتدبّر في تدبّر ما احتوته سورة (الرحمن) من أمور. فيلاحظ، بصورة عامّة، أنّ الله تعالى شاء أن يضع بين يدي أيّ باحث عن الحقيقة ما اصطلح علماء عصرنا على تسميته (المُنطلقات الفكريّة النظريّة) التي ترشده إلى حالة عُرفانِ هذا (الرحمن). هذه المُنطلقات التي تجيب عن أسئلة مهمة يواجهها كلّ بَاحث عن الحقيقة خلال بحثه.

فالسؤال، على سبيل المثال، ما الداعي لإنزال القرآن المجيد في ذاك الزمان بالذّات؟ وما الداعي لتعليم الله تعالى آدمَ الأسماء كلّها؟ وما شاكل من تساؤلات فكريّة مُلحّة، إنما هو ليعرِّف الله تعالى الباحثين، عربًا كانوا أم عجمًا، عظيم قدرات الله (الرحمن) وواسع علمه.

ولمّا كان الله قد اختصّ بصفة (الرحمن)، هذه الصّفة التي تعني أن رحمته وسعت كافّة خلقه، فهو مالك للرّحمة، كاشف للضُرّ. فقد أراد هنا أن يُذكِّر الإنسان، بطريق غير مباشر، بما أنعم به عليه. فجعل يعدّد على عبيده بعضًا من نِعَمه، فذكر منها أنّه خلقه، فعلّمه القرآن، وعلّمه البيان أي النّطق والتعبير، وجعل له الشمس والقمر بحُسبان، كما جعل من نِعَمِه وضع الميزان الذي به نظام العالم. والمراد بالميزان هنا العدل وكلُّ ما تُعرف به المقادير. وذكر منها أنه وضع الأرض للأنام فيها فاكهةٌ والنّخل ذات الأكمام والحَبّ ذو العصف والرّيحان... فبأيّ نعمةٍ من نعمه يُكذِّب؟

والمنطلق الفكريّ النظريّ الأوّل الذي طرحه تعالى، طرحه بقوله: ﴿الرحمن ـ علّم القرآن ـ خلق الإنسان ـ علّمه البيان﴾. فأعلن من خلاله أنّ الإنسان مخلوق، وأنّ خالقه هو الذي علّمه البيان في أوائل سِنيّ وعيه، وهاهو يعلّمه القرآن أواخر مراحل نُضجه العقليّ، وبلغة البيان ذاتها التي علّمه إياها من قبل، ليثبت لمخلوقه أنّ خالقه هو المليك الرحمن المقتدر، الذي أعطاه كلّ هذا العطاء.

ولم يأت، جلّ شأنه، بهذا المُنطلق من دون البرهنة والتدليل عليه، بل أتى بدليلٍ فلسفيّ، عرضه بأسلوب بلاغيّ، أسلوب المقابلة في الكلام، وقال: ﴿الشّمسُ والقمر بحُسبان ـ والنّجمُ والشّجر يسجُدان﴾، أي لا يُسلِّم العقل أن يتكوّن نظام كونكم المعروف من نفسه، وما لهذا النظام من آثار تجلّت في تكوّر الليل والنهار، وظهور الفصول الأربعة، وبروز نظام ماء السّماء. فلا يستسيغ عقل الإنسان الباحث أن تتحقّق جميع هذه الإنجازات إلاّ (بحُسبان). أي إلاّ أن يكون خالق الإنسان، وموجد هذا النّظام الكونيّ، قد أتى به وأبدعه بمُنتهى الحسابات الدقيقة التي كانت دقّتها على مُستوى هذا الإعجاز.

على هذه الصورة لفت تعالى بدليله الفلسفيّ هذا أذهان الباحثين إلى ما بين النظام الكونيّ والنظام الرّوحيّ من تشابُه ملحوظ. ليخرج بنتيجة هي أن النظامين من نِعَمِ الله الخالق الرحمن أيضًا.

كما لفت تعالى أنظار هؤلاء إلى النتائج التي ترتّبت على هذين النظامين، حيث أضحى جميع نبات الأرض، صغيرة وكبيرة، يخضع خضوعًا كاملاً للنظام الشّمسيّ. الأمر الذي سيتحقّق بدوره، وهو أنّ جميع البشر، سيخضعون من حيث النتيجة لهذا النظام الرّوحيّ الذي صيغ بلُغة البيان ذاتها، وهي هذا اللّسان العربيّ المبين.

ولمّا كان من الفطرة أن يتساءل الإنسان بالبداهة، بعد أن سَمع بهذا الدّليل الفلسفيّ، عن المقصد الأسمى من إيجاد هذين النّظامين: المادّيّ والروحيّ، فقد جاء الجواب عن ذلك في قوله تعالى: ﴿ألاّ تطغَوا في الميزان ـ وأقيموا الوزن بالقسط ولا تُخسروا الميزان﴾. وقد جاءت هذه الإجابة بأرفع الأساليب البلاغيّة.

فقد وضّح تعالى أنّ المقصد الأسمى من هذين النظامين هو أن يعيش الإنسان في ظلّهما بعدلٍ ونظام لا إفراط فيه ولا تفريط. فيكون ذلك مظهرًا من مظاهر العدل والإنصاف. وقد أشار بذلك إلى أنّه، جلّ شأنه، قد أمر في جميع شرائعه السّماويّة بإقامة الميزان، ميزان العدل والإنصاف، سلوكًا وتعاملاً.

وقد أضاف تعالى على ما أجاب به قائلاً: ﴿والأرضَ وضعها للأنام ـ فيها فاكهةٌ والنّخلُ ذاتُ الأكمام ـ والحَبُّ ذو العصف والرَّيحان﴾، أي أن خالقكم الرحمن قد وفّر لكم جميع احتياجاتكم، ﴿فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾، أي بأيّ النّعم الظاهرة والباطنة التي غمرتْكُم بها تجحدون و(تكذّبان)؟

ويطرح سؤال نفسه هنا، وهو: لماذا أتى قولُه، جلّ شأنه: ﴿فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾ بصيغة التثنية، ولم يأت فيها بصيغة الجمع (تكذّبون)؟

وقد ذهب ذهن بعض المفسّرين إلى أن الخطاب موجّهٌ هنا إلى الإنس والجان. بينما تقول القاعدة اللغويّة بعدم عودة أيّ ضمير إلا لاسمٍ مُثبت في سياق الكلام. ولا يوجد في سياق هذا الخطاب أيّ ذكرٍ للإنس والجنّ مجتمعين. وهذه القرينة تدعو صاحبنا ليعيد النّظر فيما ذهب إليه هؤلاء المفسّرون.

وأجيب أنا فأقول: بما أنّ الله، عزّ وجلّ، دأب على إنذار فريقين مُختلفين من المكذّبين، ابتداءً من سورة (الكهف)، كما لاحظنا ذلك إلى الآن، فالمقصود من ﴿تُكذّبان﴾ توجيه خطابه تعالى إلى الفريقين المذكورين معًا، لا إلى الإنس والجانّ. وقد عمد تعالى آخِرَ سورة (القمر) إلى إغراء الباحثين من كلا الفريقين المذكورين بمحاولة التعرف على خالقهم (الرّحمن)، عسى أن يفوز أحدهم بمقعد صدقٍ عند هذا المليك المُقتدِر.

ويلاحظ صاحبنا أنّه تعالى لم يأت بمنطلقٍ فكريٍّ نظريٍّ واحد بل أتى بمنطلقٍ نظريّ آخر عبّر عنه بقوله: ﴿خلق الإنسان من صَلصال كالفخّار، وخلق الجانّ من مارجٍ من نار - فبأيّ آلاء ربّكما تُكذّبان﴾. وقد نبّه من خلال ألفاظ هاتين الآيتين إلى مرحلتين أساسيّتين مرّ بهما خلق الإنسان: حياة البشر ما قبل التاريخ التي عاش الإنسان خلالها كالأنعام غريزيًّا، مختبئًا أكثرَ أوقاته في الكهوف، وكانت فيها جِبِلّتهُ جِبِلّة غضب، وكأنه خُلق من مارجٍ من نار، وقد قُصد بالجانّ هنا إنسان ما قبل التاريخ وهو ما أطلق عليه المؤرّخون اصطلاح (رجل الكهف cave man) لغَلَبة صفة الاختفاء عليه. ولم يكن إنسان ما قبل التاريخ يعرف معنىً للتحضّر وبناء المساكن وحياة التعاون والانضباط بنظام وقانون والزراعة وغيرها، بل كانت تغلب على حياته شريعة الغاب.

وقد عبّر تعالى عن المرحلة الحضاريّة التي انتقل الإنسان إليها بعد دور ما قبل التاريخ، وهي التي يمرّ الإنسان خلالها في عصرنا أيضًا، والتي تتّسم برضوخ الإنسان لنظام وقانون وحياة تعاونيّة، وتتطور طبيعته فيها فيصير كأنه خُلق من صلصالٍ كالفخّار يُعطي صدىً عندما يُقرَع عليه. وبهذا الفهم والدّلالة أعطى، جلّ شأنه، حلاً لِلُغزٍ طالما اختلف الباحثون في حلّه، وهو كيفيّة حدوث هذه النّقلة النوعيّة في حياة (رجل الكهف). فلا زال الباحثون يفترضون لحلّ هذه المعضلة مُختلف الافتراضات، ويضعون مختلف النظريات، الأمر الذي لا مجال للتفصيل فيه في هذا المقام. ولربّما يشفي مؤلّفي (خلق الإنسان)، بعد طبعه، غليلَ هؤلاء الباحثين.

وهذا المنطلق الفكري الثاني له علاقة بقصّة آدم وبعثته، وهو موضوع أفاض تعالى في تنويرنا بشأنه في مناسبات عديدة من السّور السابقة واحتوت تلك الإفاضة أيضًا الأدلة القاطعة والوافية عليه. وهذا الأمر استدعى منه تعالى أن يترك أمر التّدليل على هذا المنطلق إلى ما سبق من بيان حتى الآن، دفعًا للتكرار، ودعمًا لإعجاز البيان.

وبعد أن أدلى، جلّ شأنه، بهذين المنطلقين الفكريّين النظريّين، لافتًا من خلالهما أنظار الباحثين إلى ما لِتدخّل العناية الرحمانيّة من أهميّة في موضوعهما، لاحظ صاحبنا أنّه تعالى راح يَلفت أنظار الباحثين إلى ظواهر طبيعيّة تجلّت لأعيننا في عصرنا بكل جلاء ووضوح، ولا يُسلّم العقل السّليم بحدوثها مُصادفة أيضًا.

لفت أنظار الباحثين المفكّرين إلى ما درج عليه أهل عصرنا من اصطلاح (المشرقَين والمغربَين). ولولا كرويّة الأرض، ولولا تقسيمات اليابسة على سطحٍ

الأرض، ما كان لهذا الاصطلاح أن يرى النّور. ولفت أنظارهم أنّ ثمّة يابسة وبحارًا، وبرازخ في اليابسة تصل بين البحار. وقد تنبّأ القرآن الكريم في سورة (الرحمن) هذه بترع تُحفر في اليابسة فتصل البحار بعضها ببعض. وتحقّقت هذه النّبوءة بعد إكمال حَفر تُرعتَي (السويس) و(بناما). وتنبّأ تعالى بهذه النّبوءات إشعارًا منه بواسع علم غيبه وعظيم قُدراته، وتذكيرًا بنِعَمه التي لا تُحصى. وما إن انتهى من لفت الأنظار إلى أمور أخرى حتى عمد إلى القول: ﴿سنفرُغ لكم أيّها الثّقلان﴾. فاستعمل كلماتٍ تستدعي من الباحث تدبُّرًا دقيقًا وعميقًا.

فالسّين، على حسب ما قال الزمخشري، إذا دخلت على فعلٍ أفادت أنّه واقع في المُستقبل لا محالة ولو تأخّر إلى حين. ثم إنّ معنى (فرغ له) قَصَد وعَمَد. علمًا بأنّ الله تعالى لا يشغله شأنٌ عن شأن. فقوله ﴿سنفرُغ لكم﴾ خطابٌ موجّه إلى زُمَرِ المكذّبين من الغربيّين المسيحيّين المعاصرين، أي سَنَعْمد في المستقبل إلى حسم قضيّتكم من دون أدنى شك.

وأمّا دلالة (الثّقلان)، فهذه كلمةٌ شبيهة بقولنا (الرافدان والخافقان). هذا ما يجيزه الاشتقاق اللّغوي والقياس. فالمقصود بها مُعسكرا الزمرة الثانية من المكذّبين من أمم الغرب، ممّن قالوا اتخذ الله وَلَدًا، الذين سلف إنذارهم في عدّة سُوَرٍ ابتداءً من سورة (الكهف). وفي لفظ (الثّقلان) نبوءة عظيمة عن انقسامهما إلى مركَزَي ثِقَل في العالم.

وهو تعالى قال: ﴿سنفرُغ لكم أيّها الثقلان﴾. وأضاف بعدها قوله: ﴿فبأي آلاء ربّكما تُكذّبان﴾ أي أن جميع ما أسبغناه عليكم من نعمائنا لم تُجدِ في جذبكم إلينا، وقد ثابرتم على تكذيب هذا الدّين القويم والاستهتار بما أنزلناه في هذا القرآن من بيِّنات، لذلك ليس أمامنا إلاّ أن نُنزل العقاب بكم، ويكون هذا العقاب (آلاء ربّكما الذي تُكذّبان بنعمائه ودينه).

وبعد هذا الإنذار خاطب تعالى أهل كلا المعسكرين قائلاً: ﴿يا معشر الجنّ والإنس إن استطعمتم أن تَنفُذوا من أقطار السماوات والأرض فانفُذوا، لا تنفُذون إلاّ بسُلطان ـ فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾. وقد استعمل تعالى لفظ (الجنّ) هنا في مقابل لفظ (الإنس). ولفظ الجنّ هنا من (جَنّ) أي خيّم وهيمن إشارة إلى طبقة حكام كلا المعسكرين الغربيّين. ولفظ (الإنس) هنا من يأنس الشيء ويميل إليهإشارة إلى شعوب هذين المعسكرين. فالخطاب موجّه إلى الأمم المسيحيّة الغربيّة حُكّامًا وشعوبًا، أن لا مهرب لكم ممّا قرّرناه بشأنكم. وقد تضمّنت هاتان الآيتان نبوءة عظيمة جديدة وهي الإشارة إلى محاولة أهل هذين المعسكرين كشف خفايا

الفضاء من فوقهم والنّفاذ من جاذبيّة كلّ كوكب يسبح في فلكٍ من أفلاكه.

وأكّد تعالى ما سبقت الإشارة إليه قائلاً: ﴿يُرسَل عليكُما شُواظٌ من نارٍ ونُحاس فلا تنتصران ـ فبأيّ آلاء ربّكما تُكذّبان﴾، والكلام بصيغة المبني للمجهول (يُرسَل)، وهوإشارة إلى وقوع حربٍ ذَريّة بينهما، أو صاروخيّة، ذلك أنّ (الشّواظ) لغةً لهبٌ لا دُخان فيه. والنار جوهر لطيف مضيء محرق، و(النّحاس) معدنٌ اشتُهر استعماله في أدوات الحرب كما اشتهر في صنع آنية المطبخ. ومُجمل ألفاظ الآية، وقد صيغت على صيغة المجهول، ربّما دلّت على هذا العذاب الذي لا يجدان منه مهربًا أو خلاصًا.

والملاحظ أنه، جلّ شأنه، أخذ بعد ذلك يصف أهوال ما سيكون يوم إنزال العذاب، ممّا لا حاجة بنا للتفصيل فيه. وكلّ ما يُهمُّنا هو أنّ الله، عزّوجلّ، بعد أن قارب على إنهاء سورة (الرّحمن)، قال: ﴿ولمن خاف مقام ربّه جنّتان﴾. (٤٦)، تنبيهًا لأذهان الباحثين عن الحقيقة من هؤلاء خاصّة، ورحمةً بهم، إلى ما أعدّه المليك المقتدر الرحمن للمُتّقين من نعماء. وأنهى تعالى هذه السورة بقوله: ﴿تبارك اسمُ ربِّك ذي الجلال والإكرام﴾، أي هذه هي عطاءات هذا المليك المقتدر الرحمن ذي المهابة والعطاء.

٦ ـ سورة (الواقعة)

ويطمئن هذا الباحث المتدبّر إلى ما فهمه من معاني ودلالات لسورة (الرحمن) فينتقل منها إلى سورة (الواقعة). هذه السّورة التي استهلّها ربّنا بقوله تعالى: ﴿إذا وقعت الواقعة ـ ليس لوقعتها كاذبةٌ ـ خافضةٌ رافعةٌ﴾. والواقعة في اللغة تفيد المُصادمة والحرب والنّازلة الشديدة. وقد ربط تعالى بهذا الاستهلال ما بين سورتَي (الرحمن والواقعة)، وكأنه قال إنّ ما أنبأتْ عنه سورة (الرحمن) من عذاب ودمارٍ سيحلّ بمعسكَري الأمم الغربيّة هو واقع لا محالة، ولا محيد عنه، وسيُسفر عن اختلال موازين القوى في العالم، فتزول قوى وتبرز قوى جديدة إلى مسرح الأحداث.

والمعلوم أن سورتَي (الرحمن والواقعة) قد أنزلهما الله تعالى في مكّة المُكرّمة، وقبل أربعة عشر قرنًا من الزمان، وهاهي الظروف والأحوال جميعا قد تغيّرت باتّجاه

ما أنبأت عنه هاتان السّورتان، وهذا إعجاز من الله الرّحمن علاّم الغيوب، يفوق التّصوّر والخيال.

وانطلق الله، عزّوجلّ، يعطي فكرةً مختصرة وبليغة عمّا ستسفر عنه هذه الحرب الضّروس التي أنبأ تعالى عنها، فقال: ﴿إذا رُجّت الأرض رجًّا - وبُسّتِ الجبالُ بَسًّا - فكانت هباءً مُنبثًّا﴾. ولا شك أننا نعذر مُفسّرينا القدماء إذا ذهب ظنّهم أنّ هذه الأوصاف إنّما تشير إلى يوم القيامة، على اعتبار أنها لم تكن قد اكتُشفت في أزمنتهم آلات مثل هذه الحرب وهذا الدّمار في الدّنيا.

وقد أنبأ، جلّ شأنه، بعد ذلك عمّا ستُسفر عنه هذه الواقعة، وقال: ﴿وكُنتُم أزواجًا ثلاثة - فأصحابُ الميمنة ما أصحاب الميمنة - وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة - والسّابقون السّابقون - أولئك المُقرّبون - في جنّات النّعيم - ثُلّةٌ من الأولين - وقليلٌ من الآخِرين﴾. (٧ - ١٤)

وراح تعالى من الآية (١٥) وإلى الآية (٤٠) ينبىء بما أعدّه من نعماء وجزاءٍ دنيويٍّ وأخرويّ لأصحاب الميمنة، وللسّابقين منهم في البعثتين الإسلاميّتين. كما راح تعالى ينبىء عما سيصير إليه حال أصحاب الشّمال من أهل المُعسكَرين المُدمَّرين بقوله تعالى عنهم: ﴿وأصحاب الشّمال ما أصحاب الشّمال - في سَمُومٍ وحميم - وظلٍّ مِن يَحموم - لا باردٍ ولا كريم﴾. كما نبّه تعالى بعدها إلى أن هذا المصير ما هو بظلم من ربّهم بل هو بما كسبت أيديهم. وعبّر عن أسباب ذلك بقوله تعالى: ﴿إنّهم كانوا قبل ذلك مُترَفين - وكانوا يُصِرّون على الحِنث العظيم﴾ (٤٥ - ٤٧). والحِنث هو الإثم. والحِنث العظيم هو الشّرك بالله تعالى. (تنبيهًا إلى أنّهم كانوا يُصِرّون على عقيدة التثليث واعتقاد أن المسيح ابن مريم هو ابن الله). ﴿وكانوا يقولون أإذا مِتنا وكُنّا ترابًا وعظامًا، أإنّا لمبعوثون - أوَ آباؤنا الأوّلون - قلْ إنّ الأوّلين والآخِرين - لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾. (٤٧ - ٥٠). وظلّ تعالى يناقش معتقدات أصحاب الشّمال، وينبىء عمّا سيواجهونه في الآخرة أيضًا، إلى أن انهى سورة (الواقعة) آمرًا رسوله الكريم بقوله تعالى: ﴿فسبِّحْ باسم ربّك العظيم﴾ (٧٤).

ولمّا كانت هذه الأنباء الغيبيّة تُحيطها هالة من الإعجاز الغيبيّ، ولم تكن لتُدرَك من دون مُعطَيات، فقد عمد تعالى إلى القَسَم، وقال: ﴿فلا أقسم بمواقع النّجوم - وإنّه لَقَسَمٌ لو تعلمون عظيم - إنّه لقرآنٌ كريمٌ - في كتاب مكنون - لا يَمسّه إلاّ المُطهَّرون - تنزيلٌ من ربّ العالمين - أفبهذا الحديث أنتم مُدْهِنون﴾. والقَسَم في القرآن تقديم شهادة من الله، عزّوجلّ. والله نبّه أذهان الباحثين من

خلال هذه الآيات الكريمة إلى ما احتوته السّماء من كواكب وسيارات ومجرّات لا تُرى لها نهاية لا من حيث أعدادُها ولا من حيث خفاياها، وذلك لينقُل ذهن هذا الباحث إلى كنوز المعارف والعلوم والأنباء الواسعة العظيمة التي احتوى عليها القرآن الكريم، كثير الكرم والعطاء، وكأنه تعالى يقول بألفاظ أخرى إنّ خزائن كتابه تُضاهي هذا الكون العظيم.

وعاد تعالى يتكلم عن أصحاب المشأمة فذكّرهم بأنّ الموت حقٌّ كتبه الله على عباده، ليحاسبهم عن تصرُّفاتهم في حياتهم الدنيا. فإن كان الإنسان من المُقرَّبين فروحٌ وريحانٌ وجناتُ نعيم. وأمّا إن كان من المكذِّبين الضالّين، فنُزُلٌ من حَميم وتَصلِيَةُ جحيم. وهذه العاقبة هي حقّ اليقين. وأنهى السورة بقوله تعالى: ﴿فسبِّح باسم ربّك العظيم﴾، أي أنّ من لا يُسبح هذا الربّ العظيم لا يكون على شيءٍ من اليقين.

وعلى هذه الصّورة تكون سورة (الواقعة) قد بحثت جانبًا من دلالات سورة (ق) أي (القدير)، السورة الأمّ، فألقت ضوءًا على ما سينتهي إليه حال الذين اتخذوا لله وَلَدًا، وبرزوا إلى المسرح الدّوليّ إثر انحطاط المجتمع الإسلامي.

٧ - سورة (الحديد)

وينتقل هذا الباحث المتدبّر إلى سورة (الحديد)، وهي السورة التي استهلّها ربّنا، جلّ شأنه، بقوله تعالى: ﴿سَبَّح لله ما في السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم﴾، أي أنّه تحقّق تنزيه الله الرحمن إذا ما وقعت الواقعة، لكون الله عزيزًا لا يقدر أحد على مُغالبته، ولتصريفه تعالى جميع أموره بمُنتهى الحكمة ظاهرًا وباطنًا. والخطاب هنا موجّهٌ إلى مُسلمي عصر الانحطاط خاصّة، وهم المؤمنون بالله وبعظيم قُدُراته، وواسع علمه الغيبيّ. وقد ذكّرهم تعالى أنّهم آمنوا على أساس أنّ ربّهم هو مالك السماوات والأرض، وأنّه يُحيي ويُميت، وأنّه على كلّ شيء قدير، وأنّه الأوّل والآخِر والظاهر والباطن، وأنّه بكلّ شيء عليم، وأنه خلق هذا الكون في ستّة أدوارٍ زمنيّة ولمقصد معلوم، وأنّه بما تعملون بصير، وأن إليه تُرجع الأمور، وأنّه عليمٌ بذات الصدور.

وقد دعا الله، جلّ شأنه، بعد هذا التّذكير كلّه، مُسلمي عصر الانحطاط، ليجدّدوا إيمانهم بالله وبرسوله وقد جعلهم مُستخلَفين في حمل رسالة الإسلام بقوله

تعالى: ﴿آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مُستخلَفين فيه، فالّذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجرٌ كبير ـ وما لكم لا تؤمنون بالله والرّسول يدعوكم لتؤمنوا بربّكم ـ وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين﴾ (٧ ـ ٨).

لا شكّ أن سورة (الحديد) مدنيّة النّزول، وليست مكّية. ويوم نزلت بترتيب النّزول أفادت في حثّ المؤمنين على البذل والعطاء. أمّا بترتيبها التّلاوي، ووفقًا للتسلسل الموضوعي الذي وضّحناه، فخطابها مُوجّه الآن إلى مسلمي عصر الانحطاط الذي أنبأت به سورة (السّجدة) من قبل. وهذا هو السّبب في أنّ الله، عزّ وجلّ، انطلق في الآية (١٦) من هذه السّورة يخاطب هؤلاء بقوله تعالى: ﴿ألم يأنِ للّذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحقّ ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبلُ فطال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، وكثيرٌ منهم فاسقون﴾، ومضيفًا قوله تعالى بعدها: ﴿اعلموا أنّ الله يُحيي الأرض بعد موتها، قد بيّنّا لكُمُ الآياتِ لعلكم تعقلون﴾. أي أن بُعد المسلمين عن صدر الإسلام هذه القرون الكثيرة، وانحرافات أفهامهم لكتاب الله أودت بهم إلى هذا التفسّخ وقساوة القلوب، وميل كثير منهم إلى حياة الفسوق والفجور. فتناسَوا أنّ الله، عزّ وجلّ، لا يدع أهل الأرضِ ينحرفون، بل يُحيي الأرض بعد موتها. وهنا خاطب عقولهم في آخر الآيتين بقوله تعالى: ﴿قد بيّنّا لكم الآيات لعلّكم تعقلون﴾، مُنوِّهًا في هاتين الآيتين ومذكِّرًا إياهم أنّه أنبأ تعالى من قبل حينما قال في سورة (الزُّخرف): ﴿ولمّا ضُرِب ابنُ مريم مثلاً إذا قومُك منه يصُدّون﴾ (٥٧)، أنبأ بأنّ حال مسلمي عصر الانحطاط اقتضى أن يبعث الله تعالى من بين مسلمي عصر الانحطاط مثيلاً لابن مريم، وقد جاء تعالى هنا في سورة (الحديد) يحثّهم على البحث عن هذا المثيل، وعلى تجديد إيمانهم على يديه، والقيام بالبذل والعطاء، على شاكلة ما أقدم عليه السّابقون الأوّلون في المدينة المنوّرة. ولذلك يُلاحظ أنّ الله تعالى خاطبهم في الآيات (٢٠ ـ ٢٤) بقوله: ﴿سابِقوا إلى مغفرةٍ من ربّكم وجنّةٍ عَرضُها كعَرض السّماء والأرض، أُعِدّت للذين آمنوا بالله ورُسُله، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم ـ ما أصاب من مصيبةٍ في الأرض ولا في أنفسكم إلّا في كتابٍ من قبل أن نبرأها، إنّ ذلك على الله يسير ـ لكيلا تأسَوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم، والله لا يُحب كُلّ مُختالٍ فخور ـ الذين يبخلون ويأمرون النّاس بالبُخل، ومن يتولّ فإنّ الله هو الغنيّ الحميد﴾.

ويلاحظ هذا الباحث المتدبِّر، الأمور التالية:

أولاً - دلالة قوله تعالى (سابقوا). فمعنى سبقه إليه: تقدّمه وجازه وخلّفه وراء ظهره. وعليه فالله، عز وجلّ، يحثّ المسلمين المعاصرين أن يهجروا ما هم عليه من جمودٍ وتخلُّفٍ، ويسارعوا إلى العودة إلى إسلامهم فكرًا ودعوة وتطبيقًا، مسارعةَ المتسابقين في مضمار السّباق. وذلك لينالوا من ربّهم المغفرة والجنّة الموعودة وهي الفضل العظيم منه تعالى.

ثانيًا - وأنّ الله، عزّ وجلّ، يعتبر وضع المسلمين المعاصر (مُصيبة) ليس على أنفسهم وحسب، بل على أهل الأرض جميعًا. ونبّه تعالى أنّ هذه المصيبة ليست مُستعصية الحلّ عليه، جلّ شأنه، فعلمه الغيبيّ الذي لا تحُدّه حدود، يمكّنه من علاج كُلّ مصيبة، ويُهيّىء أمر برئها وشفائها، قبل حلولها. من هنا كان تدبير أمر شفاء المُسلمين المعاصرين من جمودهم وتخلّفهم، موفّرًا عِلاجه قبل حلول زمانه. وذلك على الله يسير غير عسير.

ثالثًا - وأنّ الله، عزّ وجلّ، نبّه المُسلمين المعاصرين إلى هذين الأمرين من قبل حدوثهما لكيلا يندموا في المستقبل إن هم لم يسارعوا إلى الاستجابة فيقولوا يا ليتنا استجبنا لداعي السّماء، وتناولنا ما أتى لنا به من علاج، ولكيلا يفرحوا بما لديهم من العلم فيختالوا فخارًا، ويبخلوا بالهداية على أنفسهم وعلى النّاس الذين يصدّون عن سماع صوت داعي السّماء. والله، عزّ وجلّ، يحذّر هؤلاء المسلمين المُعاصرين ويقول لهم إنّ بُخلهم هذا، إن وقعوا فيه، لن يقف حجر عثرة في طريق داعي السّماء الذي يأتي لصالحهم وصالح دعوة الإسلام، ذلك أنّ الله هو (الغنيّ الحميد).

كما يلاحظ هذا الباحث المتدبِّر أنّ الله، جلّ شأنه، انطلق يُذكِّر هؤلاء إلى أنّ من سُنّته تعالى أن يوكل أمر بيّنات الكتاب السّماوي، في جميع الأزمنة، إلى المُصلحين السماويّين من أنبياء ومرسَلين. ولا يُصلح أمرهم المُعاصر ويأتيهم ببيّنات القرآن الكريم، ووفقًا لوعده في سورة (القيامة) في قوله تعالى: ﴿ثمّ إنّ علينا بيانَه﴾ (١٩)، إلاّ أن يبعث فيهم مثيل ابن مريم.

وقد نبّه تعالى إلى هذه الحقيقة من خلال إشارة قوله هنا: ﴿وقفّينا بعيسى ابن مريمَ وآتيناه الإنجيل..﴾ (٢٧)، علمًا بأن معنى الإنجيل: البشارة.. فلم يأت تعالى في الآية على ذكر موسى، وهو نظير سيد المُرسَلين كصاحب شريعة. والسّبب، وحكمة ذلك، هو أنّ سياق هذا الكلام الإلهيّ متعلّق هنا بوضع مسلميّ عصر الانحطاط وعلاج أمرهم، ولا يتعلّق أصلاً بزمن صدر الإسلام.

ويلاحظ صاحبنا أنه، جلّ شأنه، عاد يخاطب المسلمين المعاصرين قائلاً: ﴿يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا الله وآمنوا برسوله يُؤتكم كِفلَين من رحمته ويجعلْ لكم نورًا تمشون به، ويغفرْ لكم، والله غفور رحيم ـ لئلاّ يَعلم أهل الكتاب ألّا يقدِرون على شيءٍ من فضل الله، وأنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، واللهُ ذو الفضل العظيم﴾ (٢٨ ـ ٢٩).

وهذه الآيات جُمعت فيها جميع البشارات التي بشّرت بها السّور السابقة عن زمن البعثة الإسلامية الثانية لمن تدبّر الآيات وأحاط بها وبدلالاتها. وعليه فإنّ هذا الباحث المتدبِّر يُدرك من مضمون سورة (الحديد) أنّها بحثت جانبًا من قُدرات الله وعظيم علمه الغيبيّ العائد إلى مضمون سورة (ق) الأمّ.

٨ ـ سورة (المجادلة)

لذلك ينتقل من سورة (الحديد) المدنيّة إلى سورة (المجادلة) المدنيّة أيضًا. وقد وضع نُصب عينَيه أنّ لهذه السورة، وإن أنزلها تعالى في المدينة المنوّرة قبل أربعة عشر قرنًا، فعالج عن طريق ما أنزله من الوحي أوضاع المسلمين يومذاك، أن لها علاقتَها الوشيجة بتسلسل السّوَر الموضوعيّ، من حيث ترتيبُ تلاوتها.

وما دام الله، عزّ وجلّ، قد أنهى سورة (الحديد)، وخطابُه موجّهٌ إلى مسلمي عصر الانحطاط بقوله تعالى: ﴿يا أيّها الذّين آمنوا اتّقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كِفلَين من رحمته، ويجعل لكم نورًا تمشون به ويغفرْ لكم، والله غفور رحيم﴾، فإنّه، جلّ شأنه، انطلق في سورة (المجادلة) يكشف للمسلمين هؤلاء مساوئهم وانحرافاتهم وتخلُّفهم الذي وقعوا فيه. وعدّد هذه النّقائص بالترتيب التّالي: مُناداة بعضهم زوجاتِهم بأمهات المؤمنين، في حين حصرت سورة (الأحزاب) هذه التّسمية وهذا المقام بزوجات الرّسول وخلفائه. ومُحادَدَة هؤلاء اللهَ ورسوله بالعمل خلافًا لأوامرهما. ونجواهم فيما بينهم بالإثم والعُدوان، وهم كانوا قد نُهُوا عن مثل هذه النّجوى الشّيطانيّة. ومخالفة مجالسهم مجالسَ الإيمان وقواعدها. وتقصيرهم في مجال التضحية بأموالهم وتقديم الصّدقات. وتولّيهم أقوامًا غضب الله عليهم. واتّخاذهم أيمانَهم جُنّة، يصدّون بذلك عن سبيل الله. واستحواذ الشيطان على نفوسهم حتى أنساهم ذكر الله، عزّ وجلّ.

فجميع آيات سورة (المجادلة) دارت حول هذه المساوىء التي عدّدناها. وأكمل الله بذلك ما بحثه في سورة (الحديد). من هذا يلاحظ هذا الباحث المتدبّر سرّ قوله تعالى وحكمته في الآية (٢٠): ﴿إنّ الذّين يُحادُّون الله ورسوله أولئك في الأذَلّين﴾ منبِّهًا، جلّ شأنه، مسلمي عصر الانحطاط إلى أنّه يستحيل أن يكتب الله لهم العزّة بين شعوب الأرض، وهم على هذه الحال والمساوىء التي عدّدها لهم. هذه المساوىء التي يستحقون معها أن يُنزل الله، عزّ وجلّ، بهم أقسى أنواع الذّلة والمهانة. فلا يحقّ لهم أن يطالبوه بما نصّ عليه قانونه القدريّ: ﴿كتب الله لأغلِبَنّ أنا ورُسُلي، إنّ الله قويٌّ عزيز﴾ (٢١).

ويلاحظ صاحبنا أنّه، جلّ شأنه، أنهى بعد ذلك سورة (المجادلة) بتقديمه معيارًا لهؤلاء، بإمكان المرء أن يميز به المؤمن من المنافق، وذلك بقوله تعالى: ﴿لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخِر يُوادُّون من حادَّ الله ورسوله، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروحٍ منه، ويُدخلُهُم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، رضي الله عنهم ورضوا عنه، أولئك حِزب الله، ألا إنّ حزب الله هُمُ المفلحون﴾.

على هذه الصورة كشف الله، عزّ وجلّ، في سورة (المجادلة) عن واسع علمه الغيبيّ، وشرح طرفًا ممّا احتوته سورة (ق) الأمّ.

٩ ـ سورة (الحشر)

لذلك ينتقل هذا الباحث المتدبِّر إلى السورة التي تليها، وهي سورة (الحشر) وهي سورة مدنيّة أيضًا. ويستهلّها بما سبق أن استهلّ به سورة (الحديد) من قبل، قوله تعالى: ﴿سبّح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم﴾ هذه الآية الكريمة التي علمنا في حينه دلالتها على تحقُّق تنزيه الله، عزّ وجلّ، لكونه عزيزًا لا يقدر أحدٌ على مغالبته، ولتصريفه أمور هذا الكون بمُنتهى الحكمة ظاهرًا وباطنًا، علمًا بأنّ خطاب الآية المذكورة كان المقصود به مسلمي عصر الانحطاط خاصّة.

ولا يلاحظ الباحث المتدبّر من فرقٍ، إلا أنه، جلّ شأنه، في حين قال هناك بعد آية الاستهلال هذه: ﴿له مُلك السماوات والأرض، يُحيي ويُميت، وهو على كلّ شيءٍ قدير ـ هو الأول والآخِر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾ مُتناولاً

موضوع معالجة وضع مسلمي عصر الانحطاط، قال هنا في سورة (الحشر) بعد آية الاستهلال: ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأوّل الحشر، ما ظننتم أن يخرجوا، وظنّوا أنّهم مانِعتُهم حصونُهم من الله فأتاهُمُ الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرّعب، يُخرِبون بيُوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ (٢). وقد تناول هنا قضيّة اليهود التي ستؤرِّق مضاجع مسلمي عصر الانحطاط، فهم الذين كفروا مِن أهل الكتاب وأخرجهم الله من حصونهم في صدر الإسلام. وقد أنهى هذه الآية بقوله تعالى: ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾، أي اتّعظوا بما حدث وأيقنوا بأنّ إلهكم هو القادر على معالجة قضية هؤلاء اليهود، فسارعوا إليه واستجيبوا لصوت السّماء الذي يسعى لإحيائكم من موتكم الروحانيّ.

والسؤال هنا: ما معنى قوله تعالى: ﴿لأوّل الحشر﴾؟ ويعود صاحبنا إلى معاني الألفاظ في معاجم اللغويّين. تقول: أوّل الشيءإليه: رجّعه. وتقول: حشر الناس جمعهم. والحشر مصدر. (محيط المحيط).

فالملاحظ أن الله، عزّ وجلّ، لم يقل (ليوم الحشر)، بل قال: (لأوّل الحشر). فلو قال (ليوم الحشر) لذهب ذهننا إلى يوم القيامة. أمّا وقد قال (لأوّل الحشر) وتبعًا لمعاني الألفاظ، فقد أراد جمع اليهود من جديد زمن انحطاط المسلمين. تصديقًا لما ذكره تعالى في سورة (الإسراء): ﴿وقُلنا من بعده لبني اسرائيل اسكنوا الأرض، فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفًا﴾ (١٠٤)، فهذا الكلام يشير إلى ذاك الكلام.

وقد نبّه، جلّ شأنه، أذهان هؤلاء المسلمين المعاصرين من خلال حديثه عن طرده اليهود من حصونهم في صدر الإسلام، وجمعهم من مختلف الجنسيات وحشرهم من جديد، نبّههم إلى المآل الذي يصير إليه من يشاقق الله ورسوله. وما تكلم بعد ذلك عن النفاق والمنافقين إلّا تنبيهًا لأذهانهم أيضًا إلى المآل الذي يؤول إليه من ينتهج نهج المنافقين من المسلمين.

والذي يؤكّد ما ذكرناه هو توجّهه تعالى بعدها إلى مخاطبة هؤلاء المسلمين بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله ولتنظُر نفسٌ ما قدّمت لغدٍ، واتّقوا الله إنّ الله خبير بما تعملون ـ ولا تكونوا كالذين نَسُوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون﴾ (١٨). وإلى أن قال: ﴿ وتلك الأمثال نضربها للنّاس لعلّهم يتفكّرون﴾ (٢١)، أي أنّ ذكر اليهود والمنافقين في سورة (الحشر)، كان القصد

منه تنبيه أذهان مسلمي عصر الانحطاط إلى المآل الذي آلوا إليه من قبل، إثارة لتفكيرهم وإعادة نظرهم حول حالهم السّيئة التي هم فيها.

ويلاحظ هذا الباحث المتدبّر أيضًا أن الله، عزّ وجلّ، لم يُنه سورة (الحشر) إلاّ بعد أن ذكّر هؤلاء المسلمين بما يعلمونه من كتاب الله من أسماء حسنى يتّصف بها خالقهم ومعبودهم. فقد قال تعالى: ﴿هو الله الذي لا إله إلاّ هو عالِمُ الغَيب والشهادة، هو الرحمن الرحيم ـ هو الله الذي لا إله إلاّ هو الملِك القُدّوس السّلام المؤمن المُهَيمن العزيز الجبّار المتكبّر، سبحانَ الله عمّا يشركون ـ هو الله الخالق البارىء المصوِّر، له الأسماء الحُسنى، يسبِّح له ما في السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم﴾. وهو تعالى بتعداد أسمائه الحسنى يحثّ هؤلاء أن يعودوا إلى نهج التفكير الروحانيّ.

١٠ ـ سورة (المُمتحنة)

وينتقل هذا الباحث المتدبِّر إلى سورة (المُمتحنة) فيلاحظ معالم الوشيجة التي ربطت بين موضوعَي سورتَي (الحشر والمُمتحنة) واضحةً كلّ الوضوح. فها هو تعالى يستهل سورة (المُمتحنة) بمخاطبة هؤلاء المسلمين قائلاً: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتّخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء تُلقون إليهم بالمودّة وقد كفروا بما جاءكم من الحقّ يُخرجون الرسّول وإيّاكم أن تؤمنوا بالله ربّكم إن كنتم خرجتم جهادًا في سبيلي وابتغاء مرضاتي، تُسِرّون إليهم بالمودّة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم، ومن يفعلْه منكم فقد ضلّ سواء السّبيل﴾. فلا يتخذ عدّو الله وعدوّه وليًّا إلا من تغافل عن أسماء الله الحُسنى.

ولمّا كانت سورة (المُمتحنة) قد أنزلها الله تعالى في المدينة المنوّرة، فقد عالج عن طريقها أوضاع مسلمي عصر صدر الإسلام. ويعالج بها أوضاع مسلمي عصرنا، بداعي موضعها من التسلسل الموضوعيّ بين سور القرآن المجيد. فهو تعالى ينبِّههم إلى أنّه إذا لم يأخذوا في اعتبارهم على الصعيد السلوكيّ ولم يفرِّقوا بين عدوّ دينهم وصديقه فقد ضلّوا سواء السّبيل. ولذلك أنهى الله تعالى هذه السورة بقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولّوا قومًا غضب الله عليهم، قد يئسوا من الآخرة، كما يئس الكُفّار من أصحاب القبور﴾. وظاهرة موادّدة أعداء الله وأعداء الأمة الإسلامية تُعتبر أحد أبرز المساوىء التي وقع فيها حُكّام بعض الدّول العربيّة والإسلاميّة. والناس، على حسب ما يقول المثل، على دين ملوكهم.

١١ ـ سورة (الصّفّ)

وينتقل هذا الباحث المتدبّر إلى سورة (الصّفّ). فيلاحظ الوشيجة التي تربطها بسورة (المُمتحنة). فقد أنهى الله تعالى سورة الممتحنة بالنّهي عن تولّي قوم غضب الله عليهم. وجاء تعالى في سورة (الصّف)، وبعد آية الاستهلال، يقولُ: ﴿يا أيّها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون ـ كبُر مقتًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾. فالخطاب في كلتا السّورتين موجّه إلى مسلمي عصرنا وهم من تجلّت في أعمالهم هذه النقائص والمثالب التي تناولتها هاتان السّورتان.

وعليه يدرك صاحبنا حكمة استهلاله تعالى سورة (الصّف) بقوله: ﴿سبّح لله ما في السماوات وما في الأرض، وهو العزيز الحكيم﴾. أي ها قد تحقّق جميع ما أنبأ به الإسلام، وتنزّه الله، وثَبَت أنّه هو العزيز الذي لا يُغالَب، وأنّه هو الحكيم العليم ببواطن الأمور. فما لكم يا أيها الذين آمنوا يناقض سلوككم العمليّ ما يقتضيه إيمانكم بالله الذي له مثل هذه القُدرات والأوصاف؟ فاعلموا أنّ مقت الله لسلوككم المذكور قد عظُم واشتد، ولا بُدّ أن تكون له عواقبه السّيئة الوخيمة بالنسبة لكم. فالله، عزّ وجلّ، إن أحبّ من المؤمنين أحدًا فقد أحبّ صحابة رسوله الكريم ﴿الذين يقاتلون في سبيل الله صَفًا كأنّهم بُنيانٌ مرصوص﴾. وكأنّه، جلّ شأنه، يقول لمسلمي عصرنا: ألا لقد اتّسع وكبر الفارق بينكم وبين مسلمي صدر الإسلام، فما عاد مناسبًا السكوت على حالكم.

ويلاحظ صاحبنا أنّ الله تعالى، بعد أن أبدى شديد مقته لهؤلاء، راح يذكّرهم بمن سبقهم من الأمم، وبقوم موسى خاصّة، وبالمراحل التي مرّ بها بنو إسرائيل، وكيف أنّهم عندما زاغوا عن صراط نبيّهم موسى، أزاغ الله قلوبهم، ونبذهم، وعدّهم من الفاسقين. إلى هذا أشار تعالى بقوله: ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم لِمَ تؤذونني وقد تعلمون أنّي رسول الله إليكم، فلمّا زاغوا أزاغ الله قلوبهم، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾.

ويفرض هنا سؤالٌ نفسه وهو: ماذا سيكون بعد تمادي هؤلاء في الضّلال والغلوّ في الجهالة؟

وقد أجاب، جلّ شأنه، هو عن هذا السؤال بقوله: ﴿وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إنّي رسول الله إليكم مُصدِّقًا لما بين يديَّ من التوراة ومُبشِّرًا

برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد، فلمّا جاءهم بالبيّنات قالوا هذا سحرٌ مبين﴾.
فمن خلال هذه الآية الكريمة، لفت، عزّ وجلّ، أذهان المسلمين المعاصرين بأسلوب رائع وبليغ ملؤه الرحمة والحنان، أقول لفت أذهانهم إلى ما نبّههم إليه في سورة (الزُّخرف) الآية (٥٧)، بقوله: ﴿ولمّا ضُرب ابن مريم مثلاً إذا قومُك منه يصِدّون﴾ من أنّهم إن استمرّوا على حالهم من العصيان والقعود عن نشر الدّعوة، فإنّهم سيحتاجون إلى أن يُبعث فيهم مثيل المسيح بن مريم. فهو تعالى ذكّرهم في هذه الآية من سورة (الصّف)، وجوابًا عن السؤال الذي طرح نفسه، بأنّ إصلاح أمرهم سيكون على شاكلة ما حدث لأمّة موسى حين بعث الله فيها المسيح بن مريم بالبيّنات وعلى الشّريعة نفسها.

ويتأكّد لهذا الباحث المتدبّر صحّة ما فهمه من دلالات آيات سورة (الصفّ) من مخاطبته، جلّ شأنه، هؤلاء المسلمين المعاصرين، مما اختتم به ربّنا هذه السّورة، وهو قوله تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريّين مَنْ أنصاري إلى الله، قال الحواريّون نحن أنصار الله، فآمنت طائفةٌ من بني إسرائيل وكفرت طائفة، فأيّدْنا الذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين﴾، أي ناصروا مثيل ابن مريم الذي سيأتيكم بالبيّنات أيضًا ويكون على شريعة سيد المرسلين محمّد (ص).

١٢ ـ سورة (الجُمُعة)

وينتقل هذا الباحث المتدبّر إلى سورة (الجُمُعة)، وهي سورة مدنيّة كما هو معلوم. فيلاحظ أنّ الله تعالى استهلّها بقوله: ﴿يسبِّح لله ما في السّماوات وما في الأرض المَلِكِ القدّوسِ العزيزِ الحكيم﴾. على حين استُهلّت سورة (الصّف) بقوله تعالى: ﴿سبّح لله ما في السّماوات وما في الأرض، وهو العزيز الحكيم﴾، أي أن الله تعالى أتى بفعل التّسبيح في سورة (الصفّ) بصيغة الماضي، على حين قد أتى به في سورة (الجُمُعة) بصيغة المضارع ﴿يسبِّح﴾. فما حكمة هذا التّبديل في الصّياغة؟ فليس من المعقول أن يجري مثل هذا التصرّف في التعبير من دون حكمة بالغة.

فإذا استعرض صاحبنا التّسلسل الموضوعيّ للسّورة، تنبّه إلى أنه تعالى أنهى سورة (الصفّ) بقوله تعالى: ـ والخطاب كما علمنا موجّه إلى مسلمي عصر

الانحطاط ـ ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله، كما قال عيسى بن مريم للحواريّين مَنْ أنصاري إلى الله، قال الحواريون نحن أنصار الله، فآمنت طائفةٌ من بني إسرائيل،وكفرت طائفة، فأيّدنا الذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين﴾. علمًا بأنّ (كما) مؤلّفة من (الكاف) ويغلب أن تأتي للتشبيه أو تأتي للتعليل أو التوكيد. وهي هنا للتشبيه وفي موضع نصب.أي أقول لكم مثل قوله. والمعنى المراد: انصروا مثيل المسيح، كما نصر الحواريّون المسيح عيسى بن مريم، وذلك لمشابهة حالكم بحال أولائكم.

واعلموا أنّ هذا الموقف يفيد الدعوة الإسلاميّة، مثلما كان موقف الحواريّين يفيد الدّعوة الموسويّة. وتأكيدًا لهذه المعاني والدّلالات، استهلّ ربّنا سورة (الجُمُعة) بصيغة المضارع ﴿يُسَبِّح لله..﴾ أي أنّ موقفكم هذا سيدفع بمسيرة الدعوة الإسلاميّة إلى الأمام في العصر المذكور، ويتحقّق بذلك انتصار الإسلام من جديد على العالم بأسره، فإذا ما تحقّق ذلك يتحقّق تنزيه الله تعالى من جديد في السّماوات والأرض، ويزول عنكم تخلُّفكُم وآثاره أيضًا.وكأنّه، جلّ شأنه، حسم الأمر في سورة (الجُمُعة)، وقرّر بعث مثيل المسيح. وهذا الأمر يعني، بألفاظ أخرى، أنّ أمر إعادة الكيان الإسلامي وإصلاح المسلمين المعاصرين، لم يعد بأيدي مُنظّماتهم والقادة الدينيّين، وأنّ مساعيهم لن تجدي نفعًا على هذا الطّريق، بل آل أمر إعادة الكيان الإسلاميّ إلى هذا المبعوث السّماويّ، وهو المسيح الموعود.

ولاحظ صاحبنا أن بين آيتَي الاستهلال لسورتَي الصّف والجُمُعة فرقًا آخر، وهو اشتمال آية سورة (الجُمُعة) على صفتين جديدتين، هما ﴿الملك القُدّوس﴾، ويستحيل إلا أن تكون لهذه الإضافة حكمة بالغة أيضًا.

فإذا استعرض صاحبنا سور القرآن المجيد فلن يجد اجتماع هذه الصّفات الأربع إلّا في الدّعاء الإبراهيمي من سورة (البقرة): ﴿ربّنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم، إنك أنت العزيز الحكيم﴾ (١٢٩). فـ(يتلو عليهم آياتك) هي مقابل صفة (الملك)، و(يزكّيهم) مقابل صفة (القدّوس)، ويعلّمهم الكتاب مقابل صفة (العزيز). و(الحكمة) مقابل صفة (الحكيم). فالدعّاء الإبراهيمي يتوسّل بهذه الصفات الأربع المذكورة. وكأنّ إبراهيم، عليه السلام، توسّل قائلاً: أيها الملك العزيز الحكيم القُدّوس ابعث أحدًا من نسلي رسولاً يتلو على الناس آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم إنك أنت العزيز الذي لا يُغالَب وأنت الحكيم العليم ببواطن الأمور.

والله، عزّ وجلّ، وقد استجاب لدُعاء إبراهيم عليه السلام، انطلق في سورة (الجُمُعة) يقول: ومن مُنطلق أسمائه (الملك القُدّوس العزيز الحكيم): ﴿هو الذي بعث في الأميّين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويُزكّيهم ويعلّمهُم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبلُ لفي ضلالٍ مبين﴾. وبذلك أكون قد استجبت لدُعاء رسولي إبراهيم.

وهنا نبّه تعالى إلى أنّ إبراهيم كان بشرًا لا يعلم الغيب، وقد جاء دعاؤه على قدْر علمه، لكنّ علم الله الغيبيّ اقتضى أن يبعث ظلّ هذا الرسول الأميّ ومثيلاً لابن مريم في أمته أيضًا، وإثر تخلُّف المسلمين وتناقضهم مع إسلامهم، وليشكّل هذا (الظل) وهذا (المثيل) جماعة (الآخرين)، على نسق (ثُلّة الأوّلين)، ولذلك اضاف تعالى قوله: ﴿وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم، وهو العزيز الحكيم﴾ أي، ومصداقًا للدعاء الإبراهيمي: ﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾.

ولمّا كان بالإمكان الاعتراض والقول: لم يكن في الدّعاء الإبراهيميّ مثل هذا الطّلب، فما معنى هذه الزيادة على محتوى الدّعاء؟

أجاب تعالى بأنّ هذه الزيادة اقتضاها أمران هما علم الله الغيبيّ وواسع فضله وكرمه، وهو ما عبّر عنه بقوله تعالى بعدها: ﴿ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم﴾. وأتى باسم الإشارة (ذلك)بدل (هذا) لتعظيم شأن هذا الفضل الإلهيّ الذي تفضّل به على الذي جاء مِصداقًا لدعاء إبراهيم.

وقد استعمل، جلّ شأنه، تعبير (وآخرين منهم) ليربط بين موضوعَي سورة (الجُمُعة) وسورة (الواقعة)، في قوله: ﴿ثُلّةٌ من الأولين، وقليل من الآخرين﴾.

ثم إنّ واو العطف في (وآخرين منهم) دلّ على حذف فعل (بَعَثَ). ذلك أن الأصل أن يُقال (وبعث آخرين منهم). لأنّ آخرين معطوف على (أميّين). وكأنّه، جلّ شأنه، أراد أن يقول: هو الذي بعث في (الأوّلين) الأميّين. وسيبعث في (الآخرين) غيرهم رجلاً منهم.

وقوله تعالى ﴿ولمّا يلحقوا بهم. . .﴾ ورد في معجم (محيط المحيط) أنّ «لمّا تختصّ بالفعل المضارع وتجزمه، وتنفيه، وتقلب المضارع ماضيًا، لتعطيه معنى الجزم واليقين بوقوعه في المستقبل». وقد استوفت لمّا هنا كل ما أورده صاحب هذا المعجم.

ثم إن لسيبويه قولا يختصّ بحرف (لمّا). قال: «أعجَبُ الكلمات كلمة (لمّا)، إن دخل على الماضي يكون ظرفًا، وإن دخل على المُضارع يكون حرفًا، وإن

دخل على المُضارع يكون حرفًا، وإن دخل لا على الماضي ولا على المضارع يكون بمعنى (إلاّ)، كما في سورة (هود)، في قوله تعالى: ﴿وإنّ كُلًّا لّما ليوفينّهم..﴾.

أمّا (يلحقوا) فإذا قال أحدهم: لحق فلانٌ بفلان قصد: أدركه والتحق به بل ولصق به. ولنُلاحظ قوله تعالى في سورة (الطّور): ﴿والذين آمنوا واتّبعهم ذرّيّتهم بإيمان، ألحقنا بهم ذرّيّتهم...﴾ (٢١). وقوله في سورة (يوسُف): ﴿تَوَفَّني مسلمًا وألحِقني بالصّالحين...﴾ (١٠٠)، أي ضُمَّني إليهم.

وبناء عليه فإنّ قوله تعالى: ﴿وآخرين منهم لّما يلحقوا بهم، وهو العزيز الحكيم﴾ يفيد أمورًا ثلاثة هي:

الأوّل ـ سيبعث الله تعالى مثيلَ المسيح بن مريم وليس المسيح بن مريم نفسه لقوله (منهم).

الثاني ـ وستتكوّن على هذا المسيح الموعود ثُلّة من الآخرين على نسق ثُلّة الأوّلين.

الثالث ـ وأنّ بعثة مثيل المسيح هذا أمرٌ لا مناص منه لدلالة (لّما) على ذلك.

ويثبُت من بعثة هذا المُصلح أنّ الله هو (العزيز الحكيم).

ومن يتدبّر الآيات التي استهلّ تعالى بها سورة (الجُمُعة)، والتي وضّحتُ دلالاتها، وأمعن نظره فيها وتدبّرها تدبُّرًا حقيقيًّا، تملّكته رعشة ودهشة لا حدّ لها، لعظمة ما انطوت عليه هذه الآيات من أنباء وبشارات، تضمّنت وسيلة خلاص مسلمي عصر الانحطاط من تخلّفهم وفرقتهم وذِلّتهم، فيندفع ليكون من أنصار الله.

وأنقل ما ذهب إليه ابن كثير في تفسيره بهذا الخصوص، تحت تفسيره قولَه تعالى: ﴿وآخرين منهم لّما يلحقوا بهم..﴾، كتب يقول: «قال الإمام أبو عبد الله البخاري، رحمه الله تعالى: حدّثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدّثنا سليمان بن بلال عن ثور عن أبي الغيث عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: كُنّا جُلوسًا عند النبي (ﷺ)، فأُنزِلت عليه سورة (الجُمُعة) ﴿وآخرين منهم لّما يلحقوا بهم..﴾ قالوا: من هم يا رسول الله؟ فلم يُراجعهم، حتى سُئل ثلاثًا، وفينا سلمان الفارسي، فوضع رسول الله (ﷺ) يده على سلمان الفارسي ثمّ قال: لو كان الإيمان عند الثُّريّا، لناله رجالٌ أو رجلٌ من هؤلاء. رواه مسلم والترمذي والنّسائي وابن أبي حاتم وابن جرير، من طُرقٍ، عن ثور بن يزيد الديلميّ عن سالم أبي الغيث عن أبي هريرة.»

والباحث المتدبّر يلاحظ، ممّا أورده ابن كثير في تفسيره، أنّه فهم من هذه الآية موضع بحثنا ما أفادته الدّراسة اللغويّة التي قمت بها، وأفادت الأمور الثلاثة التي سبق أن ذكرتها من قبل. كما يوقن أنّ الله، عزّ وجلّ، وضع من خلال سورة (الجُمُعة) بين أيدي مسلمي عصرنا مفتاح خلاصهم من محنتهم.

ويتّضح لعينيه أنّه وإن كان محمّد رسول الله (ﷺ) مصداقًا للدّعاء الإبراهيميّ، فإنّ هذا الدّعاء نفسه كان يفتقد اقتران استجابة الله به بالدّعاء لدوام أمّته، فقد تفضّل الله، عزّ وجلّ، واحتوى هذا النّقص، وشمل أمّة محمّد (ﷺ) بهذا الفضل العظيم. وهذا الأمر أشار إليه بقوله تعالى: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم﴾.

فلمّا فرغ، جلّ شأنه، من إعلان قراره النهائي بَعْثَ مثيل ابن مريم لإصلاح حال مسلمي عصر الانحطاط، وفتح الطريق من جديد لرقيّ الإسلام وإكمال مسيرته، انطلق يغمز بهؤلاء المسلمين المتخلّفين، وقال: ﴿مَثَلُ الذين حُمِّلوا التّوراة ثم لم يحملوها، كمثل الحمار يحمل أسفارًا، بئس مَثَل القوم الذين كذّبوا بآيات الله، والله لا يهدي القوم الظالمين﴾. وأترك أمر تفسير هذه الآية الكريمة لابن كثير، كتب يقول: «يقول تعالى: ما لليهود الذين أُعطوا التّوراة وحُمِّلوها للعمل بها، ثم لم يعملوا بها، مثلُهم في ذلك كَمَثَل الحمار يحمل أسفارًا، أي كمثل الحمار إذا حُمِّلَ كُتُبًا لا يدري ما فيها، فهو يحملها حَمْلاً حِسِّيًّا، ولا يدري ما عليه. وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه: حفظوه لَفظًا ولم يتفهّموه، ولا عملوا بمُقتضاه. بل أوّلوه وحرّفوه وبدّلوه، فهم أسوأ حالاً من الحمير، لأنّ الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فُهومٌ لم يستعملوها، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أولئك كالأنعام، بل هم أضلّ، أولئك هم الغافلون﴾. وقال تعالى ها هنا: ﴿بئس مثل القوم الذين كذّبوا بآيات الله، والله لا يهدي القوم الظّالمين.﴾.» فلو كان ابن كثير في عصرنا، ولاحظ حال المُسلمين المعاصرين، وأدرك التّسلسل الموضوعي، لكان أدرك، رحمه الله تعالى، أنّ الله، جلّ شأنه، جاء بهذا المثال ليغمز بهؤلاء المسلمين ويقول لهم: لقد شابه حالُكم حال أولائكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع. ذلك لأنهم عادوا يقولون ما لا يفعلون.

ثم إنّ لفظ (بئس) هو فعل ذمٍّ ماضٍ لا يتصرّف، لأنّه مُزالٌ عن موضعه، ومنقول من (بَئِسَ الرجل) بمعنى ساء حالاً واشتدّ سوءًا وافتقر. وعليه فالله تعالى يذمّ هؤلاء الذين يقولون ما لا يفعلون لسوء حالهم التي انحدروا إليها، وافتقروا فيها إلى محبّة الله وتأييده ونُصرته.

والله تعالى، وقد أنهى هذه الآية الكريمة بقوله: ﴿والله لا يهدي القوم الظّالمين﴾، يكون قد بيّن عِلّة ذَمّه إيّاهم وإعراضه، سبحانه، عن تأييدهم، مُعتبرًا إيّاهم قومًا قد ظلموا أنفسهم ورسولهم ودينهم وأُمّتهم، للحال الذي صاروا إليه.

وأتبع، جلّ شأنه، ذلك بقوله: ﴿قُل يا أيّها الذين هادوا، إن زعمتم أنّكم أولياء من دون النّاس، فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين﴾. ويُلاحظ هذا الباحث المتدبّر أنّ الله تعالى، لو كان يخاطب اليهود في هذا المقام، لخاطبهم على حسب ما اعتاد أن يخاطبهم به بألفاظ (يا بني إسرائيل). لكنه قال هنا: ﴿قل يا أيّها الذين هادوا..﴾. فالخطاب لا يزال موجّهًا، وفقًا للتسلسل الموضوعي، إلى المؤمنين الذين يقولون ما لا يفعلون، والذين طلب منهم في سورة (الصّف) أن يكونوا أنصار الله. فالمعنى يا أيّها الذين شابه حالُهم حال اليهود، أي (هادوا) من الوجهة العمليّة.

وهكذا يُلاحظ صاحبنا أنّ الله تعالى فصّل في سورة (الجُمُعة) في أمر مسلمي عصر الانحطاط، وأثبت واسع علمه وعظيم قدراته.

١٣ ـ سورة (المنافقون)

وينتقل إلى سورة (المنافقون)، فيلاحظ أن الله تعالى قد استهلّها بقوله تعالى: ﴿إذا جاءك المنافقون، قالوا نشهد إنّك لرسول الله، والله يعلم إنّك لرسوله، والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون ـ اتّخذوا أيمانهم جُنّة فصدّوا عن سبيل الله، إنّهم ساء ما كانوا يعملون﴾. ويُدرك من توّه أنّ الله تعالى وقد أنزل هذه السّورة في المدينة المنوّرة، استهلك مفعولها هناك لمعالجة أمر المنافقين فيها.

أمّا تسلسل السّور الموضوعيّ فقد اقتضى أن تُرتّب هذه السورة وراء سورة (الجُمُعة) من حيث ترتيبُ التلاوة أيضًا، لعلاقة مضمونها بحال مسلمي عصر الانحطاط. وقد لاحظ صاحبنا أيضًا الوشيجة التي تربط بين السورتين. فالله تعالى أنهى سورة (الجُمُعة) بقوله ﴿وإذا رأوا تجارةً أو لهوًا انفضّوا إليها وتركوك قائمًا﴾، أي تركوك قائمًا وحدك تواجه حملات أعداء الإسلام من الذين قالوا اتخذ الله ولدًا، وتتصدى لما يكيدونه للإسلام من مكائد. وأضاف: ﴿قل ما عند الله خيرٌ من اللهو ومن التجارة، والله خير الرازقين﴾. واستهلّ تعالى هذه السورة (المنافقون)، بالكلام على المنافقين ليربط بين السّورتين موضوعيًا، لشبه حال

المنافقين بحال الذين يقولون ما لا يفعلون. ولا حاجة بنا للدخول في تفاصيل آيات هذه السّورة. ويكفي أن يلاحظ صاحبنا أنّ الله، عزّ وجلّ، وبعد أن عرّض بالمنافقين وبصفاتهم عاد آخرَ السّورة يخاطب المسلمين قائلاً: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُلهِكُم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ـ وأنفقوا ممّا رزقناكم مِن قَبلِ أن يأتي احَدَكُمُ الموتُ فيقولَ ربِّ لولا أخّرتني إلى أجلٍ قريب فأَصَّدَّقَ وأكُن من الصالحين ـ ولن يؤخّر الله نفسًا إذا جاء أجلُها، والله خَبيرٌ بما تعملون﴾.

١٤ ـ سورة (التغابُن)

وينتقل هذا الباحث المتدبِّر إلى السورة التي تليها، وهي سورة (التّغابن). والغابن في اللغة اسم فاعل بمعنى الفاتر عن العمل. والتّغابُن مصدر تغابَنَ. وتغابن القوم: غبن بعضهم بعضًا. فيلاحظ أنّ الله تعالى استهلّها بقوله: ﴿يسبّح لله ما في السماوات وما في الأرض، له الملك وله الحمد، وهو على كلِّ شيءٍ قدير ـ هو الذي خلقكم، فمنكم كافرٌ ومنكم مؤمنٌ والله بما تعملون بصير ـ خلق السماوات والأرض بالحقّ وصوّركم فأحسن صُوَركم، وإليه المصير ـ يعلم ما في السّماوات وما في الأرض ويعلم ما تُسرّون وما تعلنون والله عليمٌ بذات الصّدور﴾.

والله، عزّوجلّ، يذكّر هؤلاء المسلمين أنّ كل شيء في هذا الكون ينزِّه إلههم عن كل ضعف وشرك، وأنّ المُلك لملكته، وأنّ جميع الحمد لا يستحقه إلاّ هو، وأنه لا يعسر على قدرته أمر. كما ينبّههم إلى أنّ البشر أنقسموا منذ فجر تاريخهم إلى مؤمن بوجود الله، وكافر بوجوده. لذلك ظهر نهجان من التفكير: نهج تفكير مادّيّ إلحاديّ، ونهج تفكير روحانيّ إيمانيّ. وليس عصرهم بِدعًا بين جميع العصور. ولم يخلق الله الإنسان عبثًا، بل خلقه لمقصد معينٍ بدليل أنّ الله خلق السماوات والأرض بالحقّ. وأنّ فطرة الإنسان العظيمة لأكبر دليل أيضًا على أنّ الذي صوّرها أحسَن صورتها، وما دامت جميع هذه الأمور على ما ذُكر فلا بدّ أن تصير الأمور إليه، سبحانه، خصوصًا أنّه لا يخفى عليه شيء فهو عليم بذات الصدور.

وصاحبنا، من خلال ما استهلّ به الله تعالى سورة (التغابن) يُدرك الوشيجة الكائنة بينها وبين سابقتها التي أنهاها، جلّ شأنه، بقوله: ﴿..والله خبير بما تعملون.﴾.

ويلاحظ أنه، جلّ شأنه، ما إن انتهى من هذا التمهيد حتى ذكّر هؤلاء المسلمين بحال الذين لم يستجيبوا لصوت السّماء بقوله تعالى: ﴿ألم يأتِكم نبأ الذين كفروا من قبلُ، فذاقوا وَبَال أمرهم ولهم عذابٌ أليم ـ ذلك بأنه كانت تأتيهم رسُلُهم بالبيّنات فقالوا أبشرٌ يهدوننا، فكفروا، وتولّوا، واستغنى الله، والله غنيّ حميد﴾. وهو تعالى نبّه في هذه الآية الكريمة المسلمين المعاصرين الذين لا يكونون من (أنصار الله)، ويظلّون يقولون ما لا يفعلون، نبّههم إلى المآل والنتائج التي سيواجهونها وهي:

الأوّل : ﴿فذاقوا وبال أمرهم﴾، أي حُرموا من تأييد الله ونصرته.

الثاني: ﴿ولهم عذابٌ أليم﴾، أي لا بُدّ من مواجهتهم عذابَ الله تعالى.

الثالث: ﴿واستغنى الله والله غنيّ حميد﴾، أي يستغني الله عنهم ويستبدل بهم قومًا آخرين لكونه الغنيّ الحميد.

وقد نبّههم تعالى إلى أن من اليسير عليه أن يحيي نفوسهم وخاطبهم قائلاً: ﴿فآمنوا بالله ورسوله والنّور الذي أنزلنا، والله بما تعملون خبير﴾. واستمرّ تعالى يعظ هؤلاء إلى آخر سورة (التّغابن).

١٥ ـ سورة (الطّلاق)

وأتى، جلّ شأنه، بسورة (الطّلاق) وهي سورة مدنيّة أيضًا، وقد عالج تعالى في آياتها موضوع الطّلاق وقت النزول، وقد رُتّبت بعد سورة (التّغابن) لتُعالج مُجتمع مُسلمي عصر الانحطاط أيضًا. ذلك أنّ من مظاهر التخلّف كثرة قضايا الطّلاق ا لذي يتأتّى عن تخلخُل نظام الأسرة، والبعد عن تقوى الله، عزّ وجلّ.

وقد استهلّ، جلّ شأنه، سورة (الطّلاق) بتمهيد له ارتباطه بدلالة آخر آية من سورة (التغابُن)، وهو الوشيجة التي تربط بين السّورتين.

فلمّا انتهى تعالى من الآيات المتعلقة بأحكام الطّلاق، والتي مهّد بها ليعود إلى أصل الموضوع، وهو الكلام عن مسلمي عصر الانحطاط ومساوئهم، انطلق

يقول محذِّرًا إيّاهم: ﴿وكأيِّنْ من قريةٍ عتت عن أمر ربّها ورُسُله فحاسبناها حسابًا شديدًا وعذّبناها عذابًا نُكْرًا ـ فذاقت وبالَ أمرها وكان عاقبةُ أمرها خُسرًا﴾. أي أنّ أهل أيّة قرية تعتو وتتمرّد على أمر ربّها ورسُلِهِ، فتتملّص من مسؤوليّاتها وتُجاوز حدودها، وتستكبر وتتجبّر لا بُدّ أن يحاسبها ربُّها حسابًا شديدًا، ولا مناص من أن يعذِّبها ربُّها عذابًا نُكرًا، وتذوق بذلك وبال أمرها. وهذا التّحذير، أعقبه الله تعالى بقوله تعالى: ﴿أعدّ الله لهم عذابًا شديدًا، فاتّقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا، قد أنزل الله إليكم ذِكرًا﴾، مُنبّهًا، جلّ شأنه، إلى أنّه أعدّ للذين لا يكونون من (أنصار الله) من هؤلاء المسلمين المعاصرين، أعدّ لهم عذابًا شديدًا. ويطالب الله أصحاب العقول والألباب منهم بتقوى الله، ويخصّ بالذّكر الذين لبّوا نداءه منهم وآمنوا وأصبحوا من (أنصار الله). ومُنبّهًا إلى أن الذين أصبحوا من أنصاره هو (ذِكرٌ) لهم أي وسيلة عزّتهم ورفعتهم.

وأضاف تعالى بعدها مباشرة قوله تعالى: ﴿رسولاً يتلو عليكم آيات الله مُبيّناتٍ..﴾. ورسولاً هنا تفسير لكلمة (ذِكرًا) الواردة في الآية السابقة. فإذا نحن اشتققنا كلمة (ذِكرًا) من الذكرى، كان المقصود أننا أرسلنا إليكم نظير ابن مريم تذكيرًا لكم بآيات الله البيّنات. وقد نشتقُّها من الذِّكر، أي من ذَكَر الشيء يذكره: بمعنى حفظه في ذهنه. قال صاحب الكُلّيات: «الذِّكر يتعدّى إلى مفعوله الثاني، مرّةً بعلى ومرّة باللام، نحو ذكرته له. ولا تأكلوا ممّا لم يُذكَر اسم الله عليه. وأنّ الذِّكر له معنيان: أحدهما التّلفُّظ بالشيء. والثاني إحضاره في الذّهن فلا يغيب عنه. وهو ضدّ النسيان.» وعليه فإنّ اللام في قوله تعالى (ليخرج) هي لام العاقبة التي تعدّاها فعل الذِّكر الذي يعني هنا ضرورة الحفظ وعدم النسيان.

١٦ ـ سورة (التّحريم)

وينتقل هذا الباحث المتدبّر إلى سورة (التحريم). فيلاحظ أنّ الله تعالى قد أتى بتمهيد للموضوع الذي بحثه فيها، فتكلّم على تجاوزات حدثت أيّام البعثة الإسلامية الأولى، وأنبأ الله تعالى رسوله الكريم بتلك التّجاوزات، ونبّهه إلى أنّه تعالى هو عليم بذات الصّدور. وانتقل بعد هذا التّمهيد ليقول: ﴿يا أيّها الذين آمنوا قُوا أنفسكُم وأهليكم نارًا وقودُها النّاس والحجارة عليها ملائكةٌ غِلاظٌ شدادٌ لا يعصُون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون﴾ (٦)، ومضيفًا قوله تعالى بعدها: يا أيّها الذين كفروا لا تعتذروا اليومَ إنّما تُجزَون ما كنتم تعملون﴾ (٧).

ويتوقّف هذا الباحث المتدبّر عند ألفاظ هذه الآية الكريمة ويستعرض جميع آيات القرآن المجيد، فيلاحظ أن الله تعالى لم يستعمل صيغة ﴿يا أيّها الذين كفروا﴾ سوى هذه المرة في كتابه العزيز، وهو يعلم أنّ الله تعالى لا يكلّم الكافرين يوم القيامة ولا ينظر إليهم بدليل ما قاله في الآية (١١٨) من سورة البقرة: ﴿ولا يكلّمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذابٌ أليم﴾. وقولُه تعالى هذا يُعَدُّ في نظر هذا الباحث المتدبِّر قرينة تُلزمه أن يفهم من خطابه تعالى هنا: (يا أيّها الّذين كفروا. . .) كُفران هؤلاء بنعمة الإسلام فهم يقولون ما لا يفعلون، وليس المقصود به أن يعدَّهم كُفّارًا وأعداءً للإسلام.

ويتأكّد لصاحبنا هذا المعنى من خلال قوله تعالى بعدها مخاطبًا إيّاهم: ﴿يا أيّها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبةً نَصوحًا عسى ربُّكم أن يُكفِّر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، يومَ لا يُخزي الله النّبيّ والذين آمنوا معه، نورُهم يسعى بين أيديهم وبأيْمانهم يقولون ربّنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا، إنّك على كُلّ شيء قدير﴾ (٨). ويخاطب تعالى بعد ذلك رسوله الكريم، فيقول له ويأمره: ﴿يا أيّها النبيّ جاهد الكفّار والمنافقين واغلُظ عليهم، ومأواهم جهنّم وبئس المصير﴾.

ويلاحظ صاحبنا أيضًا أنّه تعالى ضرب لهؤلاء بعد ذلك عدّة أمثلة المقصود بها تنبيهُهم إلى أنّ كلّ نفسٍ رهينةٌ بما كسبت، وأنّ مُجرّد الانتساب إلى الرسول، سواءً من جهة النّسب أم من جهة الإيمان باللّسان، لا يُغني صاحبه شيئًا ما دام يقول ولا يفعل.

١٧ـ سورة (المُلك)

ويأتي هذا الباحث المتدبّر إلى سورة (المُلك) التي هي آخر سورة من السُّوَر السبع عشرة التابعة لسورة (ق) الأمّ. ويلاحظ أن الله تعالى استهلّها بقوله: ﴿تبارك الذي بيده المُلك وهو على كل شيء قدير﴾.

وقد عاد بذلك إلى أصل موضوع سورة (ق) ، ونبّه الناس قاطبة إلى أنّه هو مالك هذا الكون، وقادر على تحقيق كلّ شيء، وليؤكّد أنّه اختزل الحرف (ق) من (الله القدير)، وأنّ جميع السّور التابعة له توسّع فيها شرحًا وتفصيلاً لقدرته.

ولمّا كان تعالى قد أدلى في سورة (ق) بعدّة أدلّة أثبت من خلالها عظيم قدراته وواسع علمه، فقد تكرّم على البشريّة في سورة (المُلك) أيضًا، فقدّم قبل أربعة عشر قرنًا دليلاً كونيًّا، كشف العلم عن عظمته بعد تقدُّم العلوم الفلكيّة في عصرنا الحاضر. وجاء بهذا الدّليل على سبيل التّمهيد.

وعبّر، جلّ شأنه، عن دليله الكونيّ هذا بقوله: ﴿الذي خلق سبع سماوات طِباقًا ما ترى في خلق الرحمن مِن تفاوُت، فارجِعِ البَصَرَ هل ترى من فطور ـ ثم ارجِع البصر كرَّتين ينقلبْ إليك البصرُ خاسئًا وهو حسير﴾.

ويعود صاحبنا إلى معجم محيط المحيط يستقصي معاني الألفاظ. فقد ورد فيه عن معنى الطِّباق: طباق الأرض ما علاها. والسّماوات طِباق أي مُطابقة بعضها بعضًا. وهذا طِبق هذا أي مطابِقُه. أما التّفاوت، فتقول تفاوت الشيئان: تباعد ما بينهما واختلفا. وقال الفرّاء: التفاوُت والتفوُّت هما بمعنى واحد، كالتعاهد والتّعَهُّد، وهو الاختلاف وعدم التناسب، فإنّ كُلاًّ من المتفاوتَين قد فاته بعض ما في الآخر. أمّا الفُطور وهو مصدر من فَطَر الشيء: شقّه. وفطر الأمر: اخترعه وابتدأه وأنشأه. ثم إنّ كلمة (خاسئًا) أي بعيدًا. وكلمة (حسير) من حَسَرَ البصر: كَلَّ وانقطع من طول المدى. وفي ضوء هذه المعاني ينكشف دليل كونيّ أثبتت صحّته العلوم الكونيّة المعاصرة. فقد كشف هذا الدّليل عن أن السّماء التي تشاهد العين المجرّدة أنها تضمّ شمسًا وقمرًا وأعدادًا من النجوم، ليست هي كذلك، بل هناك طبقات من هذا السّقف المنظور لا حصر لها على اعتبار أن رقم (سبع) يستعمل في اللغة العربية ليس للعدد حصرًا وحسب، بل للدلالة على الكثرة أيضًا. وإلى هذا أشار تعالى بقوله: ﴿الذي خلق سبع سماوات طِباقًا﴾. وهذا الأمر لم يعد بخافٍ على العلماء.

والأمر الثاني الذي كشف عنه هذا الدّليل الكونيّ هو أنّ القوانين النّاظمة لجميع ما يحتويه هذا الفضاء المحيط بكرتنا الأرضية، هي واحدة فيها جميعها. الأمر الذي يُثبت أن جميع ما في هذا الكون قد صدر عن ذاتٍ واحدة هي ذاتُ الله الرحمن. وهو ما عبّر عنه تعالى بقوله: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾. وقد أثبت علم الفلك الحديث وحدة القوانين الكونيّة الناظمة لجميع ما فيه من شموس ومجرّات.

والأمر الثالث الذي كشف عنه هذا الدّليل الكونيّ هو أنّ بين محتويات هذا الفضاء تناسقًا وتناسبًا وترتيبًا مُذهلاً، وهو ما عبّر عنه تعالى بقوله: ﴿فارجِع البصر

هل ترى من فُطور﴾. وهذه الحقيقة تجلّت لجميع من ارتقى أجواز الفضاء على ظهر المركبات الفضائيّة.

والأمر الرابع الذي كشف عنه هذا الدليل في زمانٍ غابرٍ ما كان البشر فيه يرون السّماء إلا سقفًا، ولا كانت لديهم المراصد الجويّة وما تجمّع في عصرنا من علوم، هو أنّ السّماء أو الفضاء من حولنا لا تقف حدوده عند هذا السّقف المنظور، بل هو واسع جدًّا سَعَة يقصر عن اكتشافها جميع ما سيتهيّأ للإنسان من وسائل وأسباب. وهو ما عبّر عنه تعالى بقوله: ﴿ثم ارجِع البصر كرّتين ينقلبْ إليك البصر خاسئًا وهو حسير﴾.

هذه بعض ملامح هذا الدليل الكونيّ الذي أتى به ربُّنا، جلّ شأنه، في سورة (المُلك) ممهِّدًا به لبحثه. ولا مجال للتفصيل فيه أكثر ممّا ذكرناه.

وقد أتى، جلّ شأنه، بعد هذا الدّليل المتعلّق بالنظام الكونيّ الماديّ، بدليل آخر متعلق بالنظام الكونيّ الرّوحيّ المشابه للنظام المادّيّ، والذي سبق أن نبّه، جلّ شأنه، إلى وجوده في سورة (الرحمن). وقد عبّر تعالى عن هذا الدليل الثاني بقوله: ولقد زيّنّا السّماء الدّنيا بمصابيح وجعلناها رجومًا للشّياطين، وأعْتَدْنا لهم عذاب السّعير ـ وللّذين كفروا بربّهم عذابَ جهنّم، وبئس المصير﴾. ولا مجال لشرح هذا الدّليل في هذا المقام.

وكلُّ ما أراده تعالى من تمهيده هذا الذي احتوى على هذين الدليلين، هو إثبات مِلكيّته لهذا الكون، وقدرته على كل ما فيه، وأنّه تعالى خلق الموت والحياة ليبلو البشر أيُّهم أحسنُ عملاً وهو العزيز الغفور.

★ ★ ★

الفصل الحادي والثلاثون

إن من سورة القلم

وينتقل هذا الباحث المتدبِّر من سورة (المُلك) إلى سورة (القَلم)، وذلك بعد أن تأكّد له أنّ سورة (ق) والسّوَر السبع عشرة التابعة لها تشكّل في مجموعها كتلة موضوعيّة.

ويلاحظ صاحبنا أنّ ربّنا قد استهلّ سورة (القلم) بحرف (نون)، وضِمن قوله تعالى: ﴿ن، ـ والقلمِ وما يسطرُون ـ ما أنت بنعمةِ ربِّك بمجنون﴾. فيتساءل عن الصّفة الإلهيّة التي اختُزل منها حرف (ن)ـ، ويعود إلى المعاجم يبحث فيها عن معاني الكلمات، كما اعتاد، فيجد أنّ سَطَرَ الكتاب معناه كتبه، وأنّ النّعمة معناها الصّنيعة والمِنّة. وقال صاحب التعريفات: النّعمة هي ما قُصِد به الإحسان والنّفع لا لغرضٍ ولا لِعوَض. ثم إنّ كلمة مجنون اسم مفعول من مصدر: جُنَّ، ومعناه فساد العقل أو زواله.

ويكون معنى الآية الكريمة: ما أنت بفضل هذه النّعمة التي أنعم بها الله عليك، وهي النبوّة، بمجنون أي فاسد العقل. وهو تعالى بهذا يودّ أن يخاطب الكفّار ويقول لهم: أيّها المكذّبون تتّهمون رسولنا محمّدًا أنّه مجنون فاسد العقل. وغايتكم إثبات أنّه بعيد عن أن يكون مُنعَمًا عليه من ربّه يحمل هذه الرّسالة السّماويّة. فها نحن أولاء نقدّم لا دليلاً واحدًا ولا شهادة واحدة على كمال عقله ودينه، بل شهادتين تثبتان ذلك. الشّهادة الأولى تأييدنا لدعوته ونُصرتُنا إيّاه. وهذا التأييد ستبتدىء معالمه على مرّ الأيّام. والشّهادة الثانية، هي هذه العلوم المختلفة التي سيؤلّفها ويسطرُها مختلف علماء العالم على مرّ الزّمان. هذا، والواو في قوله تعالى (والقلم) هي واو القَسَم. والقَسَم الإلهي تقديم شهادة.

أمّا كيف تمكّن هذا الباحث المتدبِّر من اعتبار حرف (النون) دالاًّ على النُّصرة والتأييد الإلهي، فقد تحقق هذا لديه من خلال رجوعه إلى سياق السّورة وتسلسلها الموضوعيّ.

فقد لاحظ صاحبنا أنّه تعالى أنهى سورة (المُلك) بقوله: ﴿قلْ هو الرحمن آمنّا به، وعليه توكّلنا، فستعلمون مَن هو في ضلالٍ مبين ـ قلْ أرأيتم إنْ أصبح ماؤكم غَوْرًا فمن يأتيكم بماءٍ مَعين﴾. والمعنى أن الإنسان الضّالّ فاسد العقل لا يُكلّمه الرحمن ولا يؤيّده ولا ينصره. فلا يؤيّد الرحمن إلاّ الذي آمن به وتوكّل عليه. فمِثل هذا يفوز بنصر الله وتأييده وبكلامه أيضًا. ذلك أنّنا علمنا سابقًا أنّ الله تعالى شبّه وحي السّماء هنا بماء السّماء. وهذا السّياق يوصلنا إلى أنّ حرف (النّون) اختُزل من الله (النّصير)، وأنّ سورة (القلم) خصّصها ربّنا للكلام على تأييده رسولَه الكريم ونصرته إيّاه والمحافظة عليه في مواجهته مكذّبيه. ويكون معنى الآية التي استهلّ الله تعالى بها سورة (القلم) هو (أننا الرحمن النّصير نشهد بتأييدنا لرسولنا الكريم على كامل عقله ودينه).

والذي توصّل إليه صاحبنا هو أمرٌ منطقيٌّ جدًّا. فما دام تعالى أتى بسورة (ق) التي اختُزل حرفُها من (الله القادر)، وعرض قُدُراته تعالى التي لا تُحَدّ، وعلمَه الغَيبيّ الذي لا يغيب عنه شيء، وذلك من خلال سورة (ق) والسّور السّبع عشرة التابعة لها، وأثبت من خلالها مِلكيّته لهذا الكون الفسيح، فمنطقيٌّ جدًّا أن يعمد إلى طرح شهادته هذه بكمال عقل رسوله وكمال تأييده إياه، وهو الذي اصطفى محمّدًا (ﷺ) لحمل رسالته إلى عباده، إلى جانب إبراز أهميّة نزول وحيه عليه (ﷺ).

والذي يلاحظه هذا الباحث المتدبّر هو أنّ الله، عزّ وجلّ، لم يقف عند حدّ تقديم شهادتَيه هاتين، المُتعلّقتين بمستقبل رسوله ومستقبل دعوة الإسلام، بل أتى بشهادة ثالثة من خلال قوله تعالى: ﴿وإنّ لك لأجرًا غيرَ ممنون﴾. والأجر في اللّغة هو الجزاء على العمل، والثّواب والكِراء والذِّكر الحسن. تقول أجَرَ فلان فلانًا: أي جزاه وأثابه. أما معنى ﴿غيرَ ممنون﴾ أي مستمرٌّ غير مقطوع. ومغزى هذا الكلام هو أنّ الإنسان المجنون الفاسد العقل لا يستحقّ أصلاً أيّ أجرٍ أو جزاء أو كِراء، ذلك أنّه لا يقوم أصلاً بأيّ عملٍ مُنتج مفيد. لكنّ رسولنا هذا قد أثبتت الأيام ذكره الحسن لنُبل نفسه وطيب عنصره وصدق ذمّته وعهده وسموّ شمائله وخُلُقه، فضلاً عن دوام عطائه واستمرار بذله. وقد وعد الله تعالى عباده بمواصلة دعوتهم إلى الحقّ بفضل المجدِّدين، فقال في حديثه القدسيّ: (إنّ الله يبعث لهذه الأمّة على رأس كلّ مائة سنة من يجدِّد لها دينها)، وليُعيد عن طريق هؤلاء المجدِّدين نضارة الإسلام ووجهه الوضّاء. وكأنّه تعالى غمز بمسلمي عصرنا، فهم إن أضحَوا

يقولون ما لا يفعلون، فلن يضرّوا هذا الدّين القويم شيئًا، بل يبعث الله تعالى من يستبدل بهم أُمّةً جديدةً، تحبّ الله والإسلام، ويحبُّهم الله، عزّ وجلّ، من جانبه أيضًا، والله عزيز حكيم.

وقد يقول قائل: إنّ هذه الدّلائل والشّهادات الثلاث مُتعلّقة بالمُستقبل، ويطالب هذا المُعترض بأدلّة وشهادات من نوعيّة مغايرة يحيط بها فكره، ويتقبّلها لمجرّد سماعها، خصوصًا أنّ سورة (القلم) هي من أوائل السُّوَر التي أنزلها ربّنا، عزّ وجلّ، في مكّة المكرّمة، يوم كانت أخبار إعلان محمّد بن عبد الله أمر نُبوّته جديدًا على مسامع أهلها، ومسامع من جاورها.

والجواب عن ذلك أنّ الله، جلّ شأنه، قد عمد إلى تقديم شهادةٍ من نوع إلزاميّ لهؤلاء المُكذِّبين الذين فاجأهم هذا الإعلان، لتشكّل هذه الشّهادة في حدّ ذاتها دليلًا على بُطلان كون محمّد (ﷺ) مجنونًا، فاسد العقل والدّين.

وهذه الشّهادة الرّابعة عبّر عنها تعالى بقوله: ﴿وإنّك لعلى خُلُقٍ عظيم﴾. والخُلُق، بضمّ الخاء، يُطلق في اللغة العربيّة على التكوين الباطنيّ للإنسان. هذا على عكس لفظ الخَلْق، بفتح الخاء وسكون اللام، الذي يُطلَق على التكوين الجسمانيّ للإنسان. وقد لفت الله تعالى أنظار المُكذِّبين من خلال قوله: ﴿وإنّك لعلى خُلُقٍ عظيم﴾ إلى أنّكم، أيّها المكذبون، قد سبق أن لقّبتُم محمّدًا في حداثة سنّه بلقب (الصادق الأمين) اعترافًا من جانبكم بأنّ محمّدًا على خُلُقٍ عظيم. لقّبتموه بهذا اللقب وأنتم تعلمون أنّ من يُصاب بالجنون يستحيل أن يكون ذا خُلُقٍ عظيم. أفقدْ تبدّل صدق محمّدٍ وأمانته لتتّهموه بالجنون وفساد العقل، أم أنّ مُجرّد تَلَقّي محمّدٍ وحيَ ربّه قد دعاكم إلى التّجنّي عليه ورميه بالجنون؟ فشهادتكم بأنّه الصّادق الأمين حجّةٌ بيّنةٌ دامغةٌ والزاميّةٌ لكم على كذب دعواكم بأنّه مجنون.

وعاد تعالى إلى شهاداته ودلائله الأولى لينبّه إلى أنّ طلب الحقيقة يقتضي من هؤلاء أن ينتظروا تطوّر الأوضاع على أقلّ تقدير، فلا يتعجّلوا، ويبتّوا في أمر رسولنا الكريم من دون أن ينتظروا عاقبته. فالعاقبة ستكون حكمًا له أو حكمًا عليه. وهذا ما عبّر عنه، جلّ شأنه، بقوله: فستُبصر ويُبصرون ـ بأيّكم المفتون﴾. وقوله فستبصرُ أتى من أبصر يُبصر إبصارًا. والباء في (بأيّكم) زائدة على شاكلة ما زيدت في قوله تعالى: ﴿وكفى بالله شهيدًا﴾. والمفتون هو المجنون، على صيغة اسم مفعول. (فبأيّكم) مبتدأ، والمفتون الخبر، أي ستبصرون أيُّكم المفتون أنتم أم هو.

وهكذا يكون تعالى قد طلب من هؤلاء المكذّبين، إن كانوا يعقلون ويطلبون الحقيقة، ألاّ يتسرّعوا في إصدار أحكامهم الواهنة، بل عليهم أن يراقبوا الأحداث عن كَثَب، فيضمّوا واحدة إلى الأخرى، ليتجلّى لأعينهم بعدئذ دلائل نُصرة الله وتأييده لمحمّد رسوله الأمين. هذا التأييد الإلهيّ الذي لن يأتيه مُصادفةً أو عبثًا، وسيثبت بذلك كمال عقله وسداد خطواته وما تلقّاه من تعاليم، وكونَه رسولاً يوحي ربّه إليه.

ويلاحظ هذا الباحث المتدبِّر أن الله، عزّ وجلّ، ما إن انتهى من تقديم أدلّته وشهادته القاطعة على سداد عقل رسوله ودينه، وعلى كون الله الرحمن يُوحي إليه ويؤيِّده وينصره، حتى قال تعالى: ﴿إنّ ربّك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين ـ فلا تُطع المكذِّبين ـ وَدُّوا لو تُدهِن فيُدهِنون﴾، ناصحًا رسوله أن يتمسّك بنهج التفكير الروحانيّ، فلا ينهج نهج أصحاب التّفكير المادّيّ الذين لا يؤمنون بغيبٍ أو وحي، الأمر الذي يثبت بالتّالي عدم أصالة ما يعتقدونه. ويلاحظ صاحبنا أن الله، عزّ وجلّ، انبرى هنا يُصوِّر ويعدِّدُ لرسوله ما اتصفت به غالبيّة أصحاب نهج التّفكير المادّيّ، في مقابل ما اتّصف به أصحاب نهج التفكير الروحانيّ. فلمّا انتهى من هذا التّعداد والتّصوير انطلق يعظ رسوله الكريم بقوله تعالى: ﴿ولا تُطعْ كُلَّ حلاّفٍ مَهين ـ همّازٍ مَشّاءٍ بنميم ـ منّاعٍ للخير مُعتدٍ أثيم ـ عُتُلٍّ بعد ذلك زنيم ـ أن كان ذا مالٍ وبنين ـ إذا تُتلى عليه آياتنا قالأساطير الأوّلين﴾، أي أنّ صاحب نهج التفكير المادّيّ الذي لا رابطة بينه وبين ربّه، عزّ وجلّ، يُكثر من الحَلْف، فيجعل الله ربّه عُرضةً لأيمانه. ويكون ذليل النّفس حين حاجته، ولا يتورّع عن الطّعن بصُلحاء أمّته، من دون بيّنة أو دليل بين يديه. ويمشي بين الناس بالنميمة، ويُوقع بينهم. وهو منّاعٌ للخير، مستأثرٌ، لا يفكّر إلاّ بنفسه. ولا يلتزم بقوانين بلاده وأنظمتها، بل يخرُقها ويخرجُ عليها، ويتجاوز حدوده كلّما سنحت له الفرصة ووجد إلى ذلك سبيلاً. وهو يُكثر من ارتكاب الآثام والمعاصي. ويكون (عُتُلاًّ) أي غليظًا شرهًا جافي الطّبع، همّه إشباع رغباته وتحقيق ملاذّه، لا يُراعي حقّ جسده عليه. فإن أنت بحثت عن شجرة نسبه تجده خليطًا لا نَسَب له. ويعيش حياته بين تفاخُرٍ بماله وأولاده واستكبارٍ وتَعالٍ على الآخرين. فإذا جدّ عليه جديد من أمور وعلوم وأفكار، فلا يبحث عن الحقيقة كما هي أصول البحث، بل يسارع للتكذيب بها، وهو يزعم أنّها أساطير الأوّلين، أي مجرد تكهّنات وخرافات.

كما يلاحظ صاحبنا أنّ الله، عزّ وجلّ، ما إن انتهى من تعداد صفات

أصحاب النّهج المادّي حتى انبرى تعالى يُعطي رسوله الكريم المحكّ الحقيقي للكشف عن أمثال هؤلاء، وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿سنَسِمُهُ على الخُرطوم﴾. والسِّمة هي العلامة. تقول وسَمَه أي كواه، وأثّر فيه بِسَمة.

أمّا الخرطوم فهو الأنف أو مقدَّمهُ، أو ما ضممت عليه الحنكَين. وتقول اخرنطم الرّجل إذا رفع أنفه واستكبر وغضب. وخراطيم القوم ساداتهم. وعليه فإنّ قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُه على الخُرطوم﴾ معناه سنجعل على أنفه سمةً يُعيَّر بها ما عاش، والقصد إذلاله غاية الإذلال. والسِّمة أي العلامة إنّما تكون على الوجه أو على الأنف خاصّة.

ويلاحظ صاحبنا أنّ الله تعالى، بعد إنبائه المذكور، شبّه المكذِّبين بحال من طاف على جنّته بعد رعايةٍ لها وانتظار، فأصبح وقد نزل بجنّته طائف من حريق فحرمه من عطائها ونعمائها، مشيرًا بهذا المثال إلى عاقبة من ينتهج نهج التفكير المادّيّ.

فلمّا انتهى، جلّ شأنه، ممّا وضّحه لنا قال في الآية (٣٣): ﴿كذلك العذاب. . .﴾ أي على هذه الشاكلة سيكون عذاب هؤلاء في الدّنيا. وأضاف ﴿ولَعذاب الآخرةأكبر، لو كانوا يعلمون﴾. وفي مقابل ذلك قال تعالى عن عاقبة المؤمنين الذين انتهجوا نهج التفكير الرّوحانيّ: ﴿إنّ للمتّقين عند ربّهم جنّاتِ النّعيم، أفنجعلُ المسلمين كالمجرمين ـ ما لكَم كيف تحكمون﴾ (٣٩). وبعد أن ندّد تعالى بما سيصير إليه هؤلاء، قال: ﴿فذَرني ومن يكذِّبُ بهذا الحديث، سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ـ وأُملي لهم، إن كيدي متين﴾ (٤٤ ـ ٤٥) أي ستثبت الأيّام صحّة إنذارنا ووعيدنا لهؤلاء من خلال التدبير السّماويّ الذي ندبِّره، وهو تدبيرٌ ما فوقه من تدبير.

فلمّا وصل تعالى هذا الحدّ من البيان أنهى سورة (القلم) بقوله: ﴿وإن يكادُ الذين كفروا لَيُزلِقونك بأبصارهم لمّا سمعوا الذِّكر ويقولون إنّه لمجنون ـ وما هو إلاّ ذِكرٌ للعالَمين﴾. ويكاد هنا من باب علم، قارب ولم يفعل. وقيل وُضعت لمقاربة الشيء، فعِلَ أم لم يُفعل. أمّا ﴿لَيُزلِقونك بأبصارهم﴾فمعناه ينظرون إليك نظرًا شديدًا يكاد يصرعك. وعليه فإن قوله تعالى: وإن يكادُ الذين كفروا لَيُزلِقُونك بأبصارهم﴾ معناه: إنّ هؤلاء سينظرون إليك وأبصارُهم حاقدةٌ عليك مستهجِنةً ما تدّعيه، لِما سمعوه عن لسانك من وحي هذا الذِّكر الذي تكمن فيه رفعتهم وشرفهم وعزّتهم. وهم سيتنحّونَ عنك بَدَل أن يُقبلوا عليك مستبشرين. ولن يقفوا عند هذا الحدّ، بل سيتّهمونك بفساد عقلك. وهم لو تدبّروا ما بُعثتَ به

وما تتلّقاه من وحي لأدركوا أنّه ﴿ذِكر للعالمين﴾. فهذا الوحي لا يحمل أسباب عزّتهم وحدهم من دون النّاس، بل عزّة الناس أجمعين.

على هذه الصّورة تكون سورة (القَلَم) المُستهلّة بحرف (نون) المختزَل من (نحن الرحمن النّصير) وفقًا لمعطيات السياق والتسلسل الموضوعيّ قد خصّها الله، عزّ وجلّ، بالكلام على الأمور التالية:

١ ـ كمال عقل محمد رسول الله وكمال دينه.
٢ ـ لا ينبغي الاستعجال في إصدار الأحكام على من ادّعى تلقّي الوحي الإلهي.
٣ ـ كل من ينتحل صفة الاتصال بالله مفتريًا على الله الكذب حُرم نُصرة الله وتأييده، ولا يفلح المجرمون.
٤ ـ هناك نهجا تفكير: نهجٌ ماديّ ونهج روحانيّ. وأصحاب كلّ نهجٍ، سلبيّاتهم وإيجابيّاتهم ونتائج تفكيرهم.
٥ ـ إن عاقبة أصحاب نهج التفكير المادّيّ الذّلّةُ والخسران. على حين أن عاقبة أصحاب نهج التفكير الروحانيّ هي الفلاح على الدوام.
٦ ـ ورسالة الإسلام المتمثّلة بتعاليم هذا الكتاب وهو القرآن ليست هي تعاليم قوميّة مخصوصة بالعرب وحدهم، بل هي ذِكْر للعالَمين. فلا عزّة لأيّ قومٍ عند الله، عزّ وجلّ، بعد نزول هذا القرآن إلّا باتّباع تعاليمه.

ولمّا كان الله، جلّ شأنه، قد الحق بسورة (القلم) تسع سُوَرٍ بتمامها، حقّ لنا أن نقول، قياسًا على جميع ما مرّ معنا، إنّ مضامين هذه السّور التّسع لا بدّ أن تدور حول هذه النّقاط الستّ التي تضمّنتها سورة (القلم). ولا حاجة بنا للتوسّع في الكلام على هذه السّور لكي نفسح في المجال للباحثين المتدبّرين. ذلك أني لست في معرض تفسير السّور، بل في حدود تفسير الأحرف المقطّعة التي تُستهَلُّ بها سور القرآن الكريم وإثبات أنّها تمثّل صورًا لممارسة ما أطلقت عليه (فنّ الاختزال القرآني).

والذي يُتابع جميع ما أسلفت بيانه لا بدّ أن يوافقني على رأيي ويؤيّدني فيما ألقيت الضوء عليه، وجلّيت معالمه بفضلٍ من الله ورحمته وتأييده وتفهيمه.

ولا أجد مندوحةً عن أن أضرب للباحث المتدبّر مثالاً على ذلك من سورة (الحاقّة). وهي السّورة التّابعة لسورة (القلم).

١ ـ سورة (الحاقّة)

فلنتساءل ما معنى الحاقّة؟

تقول: حقَّ فلانٌ فلانًا، فتقصد أنّه غلبه على الحقّ، ثم إنّ الحاقّة هي النّازلة الثابتة. وحقَّ الله الأمر: أوجبه وأثبته. وقد جاء في سورة (الزّمر): ﴿وحقّت كلمة العذاب على الكافرين﴾ أي وجبت وثبتت ووقعت دونما أيّ شكّ. هذا ما أفاده صاحب معجم (محيط المحيط).

ومن هذه المعاني اللغويّة ندرك أنّ الله تعالى انطلق في سورة (الحاقّة) ينبّه أذهان الذين يتّهمون محمّدًا رسوله بالجنون وفساد العقل، وأنّه يهذي فيما يقول وينطق به، ينبِّههم ويحذّرهم أن ينهجوا نهج هؤلاء المكذِّبين، وذلك بعد ما سبق أن قدّم لهم في سورة (القلم) الأدلّة القاطعة على كمال عقل رسوله وكمال دينه.

وقد تناول تعالى في سورة (الحاقّة) نقطتين ممّا بحثته سورة (القلم)، وفصّل القول فيهما، استكمالا لموضوعهما.

تناولت الآيات موضوع نهجَي التفكير المادّيّ والروحي. ففصّلت القول في أمر عاقبة أصحاب النهج المادّي ممّن كذّبوا رسول الله من عرب الجاهليّة خاصّة. وضربت لهؤلاء أمثلة عديدةً ممّا آل إليه حال من سبقهم من الأمم، ممّن انتهجوا النهج المادّيّ. وذلك بدءًا من قوله تعالى: ﴿كذّبت ثمودُ وعادٌ بالقارعة ـ فأمّا ثمودُ فأُهلكوا بالطّاغية ـ وأما عادٌ فأُهلكوا بريحٍ صرصرٍ عاتيه﴾ وقد استوفت الآيات حكاية حال هؤلاء وما حاق بهم من الهلاك وما واجهوه من عاقبة. وإلى أن قال تعالى: ﴿لنجعلها لكم تذكرةً، وتعِيَها أذُنٌ واعية﴾. والمعنى أننا أتينا لكم بهذه الأمثلة المتعلّقة بمن انتهجوا نهج التفكير المادّيّ في حياتهم، لِتَعِيَ آذانكم المآل الذي حقّ على هؤلاء وآلوا إليه. ذلك لأنّهُ سبق أنّ الله قد حذّرهم من جسامة أخطار التفكير المادّيّ. وها قد تحقّقت أخيرًا كلمة العذاب على الكافرين، بعد أن أُنذِروا وحُذِّروا على يد من بعث الله إليهم من الأنبياء والرّسل.

ومضى تعالى ينذر المكذِّبين بما سيحلُّ بهم في الدُّنيا والآخرة، لينتهي من ذلك الإنذار عند الآية (٣٨)، ويضيف: ﴿فلا أقسِم بما تُبصرون ـ وما لا تبصرون ـ إنّه لَقولُ رسولٍ كريم ـ وما هو بقول شاعرٍ، قليلاً ما تؤمنون ـ ولا بقول كاهنٍ، قليلاً ما تَذَكّرون ـ تنزيل من ربّ العالمين﴾.

ثم تناول، جلّ شأنه، نقطة ثانية من النِّقاط الستّ التي تناولتها سورة (القلم) بالبيان. وهذه النقطة هي ادِّعاء شخصٍ ما الاتّصالَ بالله، عزّ وجلّ، والافتراء عليه. وأنّه لا يُفلح المجرمُون. وتوسّع تعالى فيها، مُنبّهًا الأذهان إلى أنّ من المعروف أنّ القوانين الوضعيّة لا تحتمل مثل هؤلاء المُدّعين المُفترين، ولا بدّ أن تحلّ بهم أقسى العقوبات. فلا تسكتُ القوانين الأرضيّة عن شخصٍ ينتحل مكانةً ليست له. فلا بدّ للسّلطات المسؤولة في بلده أن تُنزل به ما يستحق من العقاب. فما بالكم بمن يملك السّماوات والأرض وما بينهما، فهل تستسيغ عُقولكم أن يكون هذا الإله المالك أقلّ اهتمامًا بمن ينتحل صفة (الكليم)، فيتقوّل على ربّه الأقاويل؟ وهل تحسبون أنّ هذا الإله المُفترى عليه سيدع هذا المفتري من دون حساب أو عقاب؟

ويمضي تعالى يؤكّد شناعة انتحال الصّفة المزعومة، ويقول في رسوله الكريم في هذا الصّدد: ﴿ولَو تقوّلَ علينا بعض الأقاويل﴾ ـ بعضَها، وليس جميعها، ليستمرّ في تقوُّلاته ـ ﴿لأخذنا منه باليمين ـ ثم لَقطعنا منه الوَتين ـ فما مِنكم من أحدٍ عنه حاجزين﴾

وقد أشار، جلّ شأنه، بذلك إلى وعده الذي قطعه لرسوله الأمين بقوله: ﴿يا أيّها الرّسول بلِّغ ما أُنزل إليك من ربّك، وإنْ لم تفعل فما بلّغتَ رسالته، والله يعصمك من النّاس، إنّ الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ (المائدة ٦٧).

وبعد أن توسّع جلّ شأنه في هذه المسأله التي سبق أن بحثتها سورة (القلم)، أضاف قائلاً: ﴿وإنّهُ لتذكرةٌ للمُتقّين﴾ أي أن ما فصّلناه من هذين الأمرين في سورة (الحاقّة) هذه، كان قد استدعى ذلك وجود أشخاص منكم استحقّوا أن نهديهم سواء السّبيل. وأضاف: ﴿وإنّا لنعلَمُ أنّ منكم مُكذِّبين ـ وإنّه لَحسرةٌ على الكافرين ـ وإنّه لَحقُّ اليقين ـ فسبِّح باسم ربّك العظيم﴾. قال تعالى قوله هذا بكمال جلاله، وها أنّها قد مرّت السّنون، وستحقّ الحاقّة بهؤلاء المكذِّبين، ويتنزّه الله ربُّ العرش العظيم.

فهذا نموذجٌ من هذه السّور التّسع التي توسّعت في شرح النقاط السّت التي تناولتها سورة (القلم) المستهلّة بالحرف (ن) المختزَل من (نحن الله النّصير)، ننصر رُسُلنا والذين آمنوا، ونُحقّ العذاب بالمكذِّبين.

٢ ـ سورة (المعارج)

وينتقل هذا الباحث المتدبِّر إلى سورة (المعارج)، واضعًا نُصب عينيه أنّها ستبحث أحد العناصر السّتة التي بحثتها سورة (ن)، وذلك وفقًا لقواعد الاختزال القرآنيّة وخطّته، خصوصًا أنّ سورة (الحاقّة) سارت في بحثها على هذا المنهاج كما رأينا، فبحثت العاقبة التي سيلقاها أصحاب نهج التفكير الماديّ من العرب الجاهليّين، وعقوبة من ينتحل ما ليس به علمٌ فيفتري على الله ظلمًا وجَورًا.

والذي يُلاحظه صاحبنا هو أنّه تعالى استهلّ سورة (المعارج) بقوله تعالى: سأل سائلٌ بعذابٍ واقع ـ للكافرين ليس له دافع ـ من الله ذي (المعارج) ـ تعرُجُ الملائكة والرّوح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألفَ سنة ـ فاصبرْ صبرًا جميلا﴾.

ويعود صاحبنا إلى المعاجم ليتدبَّر معاني الألفاظ. فيلاحظ أنّ لفعل (سأل) معنيَين: الطّلب والاستدعاء أو الاستخبار. وأنه يتعدّى إلى مفعولين بنفسه، كقولك: سألتك درهمًا. هذا إذا كان بمعنى الطّلب: ماديًا كان أم معنويًا. فإن كان السؤال استدعاء أو استخبارًا، فإنّه يتعدّى إلى المفعول الأوّل بنفسه. وأمّا تعدّيه إلى المفعول الثاني فبالاستعانة بإحدى أداتين: الأولى (عن)، كقولك: سألته عن حاجته أي استخبرت منه عن حاجته. والثانية حرف الباء، كقولك: سَلْ به خبيرًا.

وما دام تعالى قد أتى في قوله: ﴿سأل سائلٌ بعذابٍ واقع﴾ بتعدية السؤال بالباء، فهو إذن بمعنى الاستخبار، وليس الطّلب. ويكونُ معنى الآية الكريمة أنّ سائلاً يسألك، وأن مستخبرًا يستخبر منك عن عذابٍ مقدَّر محتوم ﴿للكافرين ليس له دافع﴾.

ولكنْ أيَّ الكافرين قد قَصَدَ هنا في هذا الاستفسار؟ وأيَّ الكافرين المعهودين ذهنيًّا منهم؟ ذلك أنّ الإجابة عن هذا السؤال تُحدِّد مسار بحث هذه السورة. وسنلاحظ أن هذه السورة خُصِّصت للكلام على الكافرين الذين أنذرتهم سورة (الكهف) بقوله تعالى: ﴿ويُنذِرَ الذين قالوا اتّخذ الله ولدًا﴾. (الكهف ٤)، هؤلاء المكذّبين الذين توالى الحديث عنهم في السّوَر التي بعدها، وهم الذين ألحقتهم سورة (ن) بأصحاب نهج التفكير الماديّ. وهوأمر دلّ عليه تسلسل السّوَر الموضوعيّ، خصوصًا أنّ سورة (الحاقّة) انفردت بالكلام عن المكذّبين من العرب الجاهليّين.

و(المعارج) جمع معراج، وهو السُّلَّم الذي يُرتَقى به. فإذا قلت: عرج الرجل، فهو إمّا صعد السُّلَّم أو ارتقى.

أمّا (ذو)، فتُعرَب بالواو والألف والياء، ومعناها صاحب. ولا تكون إلاّ مُضافةً إلى نكرة موصوفًا بها نكرة. فإن أضيفت إلى اسم مُعرّفٍ بلام، كانت لام الجنس، فبقيت على شرطها، كقوله تعالى: ﴿من الله ذي المعارج﴾.

ومعنى قوله تعالى: من الله ذي المعارج ـ تعرُجُ الملائكة والرّوح إليه في يومٍ كان مقدارُه خمسين ألفَ سنة﴾ أنّ العذاب واقعٌ من جانب الله ذي المعارج الذي تعرُج الملائكة إليه، وجبريلُ منهم خاصّة، في يوم، أي في مُدّة كان مقدارها خمسين ألف سنة. وهذا البيان الإلهيّ له في هذا المقام دلالته وأهميّته. فهو تعالى يرسم ويعطي هؤلاء المكذّبين فكرة عن معالم السّموّ والعظمة التي يتمتّع بها، عزّ وجلّ، لعلهم يتّعظون بذلك ويهابون. نبّههم تعالى بمقاييسهم نفسها.

فهم يقيسون المسافات بين الكواكب في عصرنا بسرعة الضوء البالغة (٣٠٠٠٠٠) كم في الثانية. والملاحظ أيضًا أن الله، عزّ وجلّ، كشف من خلال هذه الآية الكريمة أمورًا هي:

الأول ـ أعطى الله تعالى فكرة عن عظمة مملكته السّماويّة التي وُجّه هذا الإنذار من طرفها، تنبيهًا إلى عجز المملكة الأرضيّة عن ردّ هذا العذاب.

الثاني ـ التنبيه إلى الفارق الكبير في العظمة والسّموّ ما بين الله تعالى وملائكته.

الثالث ـ تصوير الحركة الدائبة التي تعجُّ بها السّماوات العُلى حين يصدر فيها أمر إلهيّ تُستنفر الملائكة من أجل تنفيذه.

وهذه الأمور الثلاثة المُهمّة استدعت أن يُطلق على الذات الإلهيّة (ذا المعارج)، على حسب ما وصف به الله تعالى هنا نفسه بنفسه، إثباتًا منه تعالى أنّه هو الله الحيّ القيّوم الذي لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم، له ما في السّماوات وما في الأرض.

ثم التفت، عزّ وجلّ، إلى رسوله يخاطبه: ﴿فاصبرْ صبرًا جميلاً﴾. و(اصبرْ) فعل أمر من صَبَر ضدّ جزع. ومعنى صبر الرّجل على الأمر: تجلّد وشجُع وجرؤ، فهو صابر. وتختبىء وراء ﴿فاصبرْ﴾ في هذا المقام قرينةٌ دالّةٌ على أنّ المقصود من المكذّبين هنا الغربيون المعاصرون ممّن قالوا اتّخذ الله ولدًا. هؤلاء الذين استعمروا أقطار المسلمين وغير المسلمين، واستنزفوا خيرات بلادهم، وجرّوا عليهم كوارث لانهاية لها بدسائسهم ومؤامراتهم، بل اصطحبوا اليهود معهم إلى فلسطين أيضًا،

تصديقًا لحديث رسول الله (ﷺ). لذلك أوصى الله تعالى رسوله الكريم أن يصبر صبرًا جميلاً. وقد قصد تعالى بهذه القرينة التي أتى بها فعل ﴿فاصبرْ﴾ تحديدَ شخصيّة هؤلاء المكذّبين. فهو تعالى لم يُنزل بكفّار مكّة ومن حولها هذا العذاب الذي أنذرت به سورة (المعارج) إطلاقًا. أمّا يوم القيامة فجميع الكفّار فيها سواء في مواجهة العذاب.

وهذه القرينة تلفت أذهان المؤمنين إلى ما حملته سورة (الضُّحى) من وعدٍ في قوله تعالى: ﴿وللآخِرة خيرٌ لك من الأولى ـ ولَسوف يعطيك ربّك فترضى﴾ (٤ ـ٥).

وهذه الاستنتاجات تؤكد ما قصده تعالى بعد ذلك بقوله: ﴿إنّهم يرونه بعيدًا ـ ونراه قريبًا﴾ (٦ـ٧). فالغربيّون المعاصرون يستبعدون أنْ ينزل بهم مثل هذا العذاب الذي نصتّ عليه سورة (المعارج) هذه.

وشرع تعالى يصوّر بعد ذلك للمكذّبين معالم ما سيقع بهم من عذاب، بقوله ﴿يومَ تكون السّماء كالمُهل﴾. والمُهل يُطلق على ما يجمع معادن الجواهر، إشارة إلى ما ستحدثه حرب ذرّيّة من حرارة هائلة تنجم عن تحطيم الذرّات.

﴿وتكون الجبال كالعِهن﴾، علمًا بأنّ العِهن هو القطن المندوف، وهذا تصوير ما سيحلّ بالجبال من خراب.

﴿ولا يسأل حميمٌ حميمًا﴾، والحميم هو الصّديق، والمعنى أنها لا تعود تُجدي الصّداقات يوم وقوع العذاب. فكلّ امرىءٍ يكون مهتمًّا بأمر نفسه، محاولاً النجاة بنفسه من هذا العذاب والدّمار.

ويتبسّط تعالى في شرح حال هؤلاء المكذّبين، حين نزول عذاب الله بهم فيقول: ﴿يُبَصَّرونَهم، يودّ المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذٍ ببَنيه ـ وصاحبتِه وأخيه ـ وفصيلتِه التي تؤويه ـ ومن في الأرض جميعًا ثم يُنجيه﴾. وجميع ما ورد هنا متعلّق بالحياة الدنيا حيث يجتمع الأبناء والصّاحبة والولد والفصيلة التي ينتمي إليها صاحبها. ولا علاقة لهذه الأمور بيوم الحساب.

وقد تبسّط تعالى أكثر فأكثر إفصاحًا وبيانًا عمّا سيكون يوم نزول عذاب الله بهؤلاء المكذّبين، وقال: ﴿كلاّ إنّها لَظى ـ نزّاعةً للشّوَى ـ تدعو من أدبر وتولّى ـ وجمع فأوعى﴾، واللظى معناه لهب النّار، وهو النّار الشديدة التي ستنجم عن تفجير آلات الدّمار. والشّوى حرارتها الهائلة التي تشوي أطراف الأبدان من أيدٍ وأرجُل وقحف رأس، من دون أن تُصيب من الإنسان مقتلاً من أعضائه. ثم إنّ

المقصود من قوله تعالى ﴿جمع فأوعى﴾ الإشارة إلى ما يمتاز به مُجتمع هؤلاء الكفّار من مؤسّسات مصرفيّة بكثرةٍ ظاهرة، يجمع هؤلاء فيها ما جمعوه، ويخزّنونه في حساباتهم. ذلك أنّ معنى (أوعى المال): جعله مخزونًا في مأمن.

ويضيف ، جلّ شأنه، قوله: ﴿إنّ الإنسان خُلق هلوعًا ـ إذا مسّه الشرُّ جزوعًا ـ وإذا مسّه الخير مَنوعًا ـ إلاّ المصلّين﴾. وقد أشار ونبّه من خلال ألفاظ هذه الآيات إلى حالة هؤلاء الذين لا يؤمنون بوحْي أو دين، قد عميت بصائرهم، وأصبحوا أصحاب نهجٍ في التفكير ماديّ لا يُخالطه شيء روحانيّ. وقد جاء هذا من قبيل التّذكير الإلهيّ بأحكام الإسلام التي تنهى عن كنز المال، وعن التّعامل بالرّبا. ولهذا لاحظناه، جلّ شأنه، وقد استثنى من هذا السّلوك الغريزيّ عباده المؤمنين بقوله: ﴿إلاّ المُصلّين﴾، أي إلاّ الذين يؤمنون بوجود الله وتعاليمه، ويتضرّعون بين يديه يرجون رضاه. وعدّد بعدها شروط الإيمان التي وردت من قبلُ في سورة (المؤمنون).

فلمّا انتهى، جلّ شأنه، من بيان ما ذكرناه تناول عاقبة هؤلاء المكذّبين بسخريّة ظاهرة، وقال: ﴿فما للّذين كفروا قِبَلَكَ مُهطعين ـ عن اليمين وعن الشّمال عِزين ـ أيطمعُ كلُّ امرىءٍ منهم أن يُدخَلَ جنّةَ نعيم ـ كلاّ إنّا خلقناهم ممّا يعلمون﴾ (٣٦ ـ ٣٩). والمُهطع هو من مدّ عُنُقه وصوّب رأسه يديم النّظر خائفًا في ذُلٍّ وخُضوع. ثم إنّ (عِزين) مفردها عِزة، وهي الفرقة، وعِزين أي جماعات.

ويلاحظ هذا الباحث المتدبّر أنه، جلّ شأنه، ما إن فرغ من تصوير عاقبة هؤلاء المكذّبين حتى أقسم، وقسَمُه تعالى هو استدلال بما يُقسم، فقال: ﴿فلا أقسِم بربّ المشارق والمغارب إنّا لَقادرون ـ على أن نُبدِّل خيرًا منهم وما نحن بمسبوقين ـ فذرْهم يخوضوا ويلعبوا حتّى يُلاقوا يومهُم الذي يُوعَدون﴾. (٤٠ ـ ٤٢). وقد لاحظ صاحبنا كيف نبّه تعالى في سورة (الرّحمن) إلى ما لربوبيّة الله من تدخُّل في أمر تقسيم يابسة الكرة الأرضيّة إلى مشارق ومغارب. وقد استدلّ تعالى بهذا، وقدّمه شهادةً منبِّهًا إلى أنّه تعالى ما قصد بتقسيم الأرض إلى مشارق ومغارب ليعطي الغربيّين هيمنةً على الشّرق، بل كان هدفه أن تتعارف شعوب المشارق والمغارب فيما بينهم، ويتآخوا على أساسٍ من تعاليم ربّهم الذي خلقهم وبثّهم في هذه المشارق والمغارب، وهو قد أنزل لمصلحتهم هذا الذّكر المبين أيضًا.

ثم انطلق الله، عزّ وجلّ، ينبىء عن تغييرٍ جذريٍّ سيحدث في العالم الأرضيّ، بعد وقوع هذا العذاب، يساعد على تغييرِ مسار تفكير البشر، وتبديل نهجهم الحياتيّ، ويدفعهم إلى تقبُّل تعاليم الدّين الإسلامي. وقد عبّر تعالى عن

ذلك التّغيير والتبدل المهمّ في تاريخ البشر بقوله تعالى: ﴿يومَ يَخْرُجون من الأجداث سِراعًا كأنّهم إلى نُصُبٍ يُوفِضون ـ خاشعةً أبصارُهم تَرهَقُهم ذِلّة﴾ (٤٣ ـ ٤٤). وهذا الإنباء ورد بصيغة المجاز.

وفي الآية الأخيرة التي أنهى ، جلّ شأنه، بها سورة (المعارج) بقوله ﴿. . . ذلك اليومُ الذي كانوا يوعَدون﴾، أتى تعالى باسم الاشارة للبعيد (ذلك) تفخيمًا وإشهارًا لوقع عذاب يومئذٍ على هؤلاء المكذّبين. وأشار بقوله ﴿الذي كانوا يوعدون﴾ إلى أنّ عذاب يومئذٍ سبق أنْ وَعَدت به سورة (الكهف) وما بعدها من سور، فلم يتّعظ هؤلاء بهذا الوعيد وهذا الإنذار.

٣ ـ سورة (نـوح)

ويطمئن هذا الباحث المتدبّر لما توصّل إليه من فهم لمضمون سورة (المعارج)، فينتقل منها إلى سورة (نوح)، ليلاحظ أنّ الله، عزّ وجلّ، قد استهلّها بقوله: ﴿إنّا أرسلنا نوحًا إلى قومه أن أنذِرْ قومك مِن قبل أن يأتيَهم عذابٌ أليم﴾. وانطلق بعد ذلك يُعطينا، وهؤلاء المكذّبين خاصة، فكرة واضحةً عن المواقف التي وقفها قوم نوح من رسولهم الذي بعثه الله تعالى لمصلحتهم وإصلاح أحوالهم، وكيف استضعفوه ودأبوا على السّخريّة منه وممن آمن به منهم.

ثمّ وجّه تعالى الأنظار إلى الكيفيّة التي قيّض بها تعالى نجاة نوحٍ وصحبه من ويلات العذاب الذي دأب نوحٌ يُنذر قومه به حتّى حلّ بهم عذاب ربّهم. وكيف أنّ نوحًا اضطُرّ، نتيجة إعراض قومه عنه ومضايقتهم إياه، إلى أن يتوجّه إلى ربّه ويقول: ﴿وقال نوحٌ ربِّ لا تذَر على الأرض من الكافرين ديّارًا ـ إنّك إن تذَرْهم يُضِلّوا عبادك ولا يلِدوا إلاّ فاجرًا كفّارًا﴾، مُشيرًا بقوله هذا إلى غطرسة هؤلاء المكذّبين محمّدًا ودعوته،وهم الذين رسّخوا في مُجتمعاتهم نهج التفكير بأسلوب مادّي. الأمر الذي سيبعد شعوبهم والنّاس عن الهدف الأسمى الذي جعل الله لهم من أجلّ تحصيله وتحقيقه.

فإذا تأمّل صاحبنا المدخَلَ إلى ما بحثته سورة (نوح)، وانطلاقًا ممّا قدّمه تعالى من مثال نوح مع قومه. أدرك من ذلك أنّ ما أنبأت به سورة (المعارج) من عذاب سيُنزله الله بالذين قالوا اتّخذ الله ولدًا من المعاصرين منهم، ينشأ عنه سؤال يطرح نفسه وهو: هل يُعقَل أن يُنزِل الله، عزّ وجلّ، بالمخلوق من تلك الشّعوب مثل هذا العذاب والدّمار؟

فيبدو أنّ الله عزّ وجلّ، قد خصّص سورة (نوح) ليجيب من خلالها عن هذا التساؤل بالذّات، ليذكّر من يتساءل هذا التساؤل بما سبق أن حدث من مثالٍ مُشابهٍ لما يجري في زماننا، يوم أن بعث الله تعالى نوحًا بشريعةٍ سماويّةٍ فيها خير بني جنسه ونفعُهم، فأعرضوا عنه ساخرين منه.

فهو تعالى أتى بمثال ما وقع لقوم نوح، وهو أن عمد، جلّ شأنه، إلى إغراق جميع أفراد المكذّبين من قومه بالطّوفان الذي حلّ بمنطقتهم، وكيف أنه لم ينجُ من ويلات ذاك الطّوفان إلّا نوحٌ والذين آمنوا معه، كما نوّه تعالى بالتغيير الجذريّ الذي أحدثه الطّوفان في نفوس من نجا من ويلاته، هذا التّغيير الإيجابي الذي ساعد على إدامة عُمُر شريعة نوح ما يقارب ألفًا إلا خمسين عامًا. وكان المقصد من هذا التّنويه في البيان الإلهيّ الإشارة إلى ما سيعقُبُ حدوثه إثر نزول هذا العذاب الذي أنذِر به هؤلاء. هذا العذاب الذي لن ينجو من أهواله إلّا من كان من أنصار الله، وانتهج نهج تفكيرٍ روحانيّ. وتصديقًا لما ورد في دُعاء نوح نفسه: ﴿ربِّ اغفرْ لي ولوالدَيّ ولمن دخَل بيتي مؤمنًا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تَزِد الظّالمين إلّا تبارًا﴾. فهذا الدّعاء نفسه سيتكرّر ثانية على ألسنة من لبّوا صوت السّماء في عصرنا، وكانوا أنصارًا لله، عزّ وجلّ. وهذه الدلالات هي ما اقتضاها تسلسل سورة (نوح) الموضوعيّ.

٤ ـ سورة (الجنّ)

وينتقل هذا الباحث المتدبّر إلى السّورة الرّابعة التابعة لسورة (ن)ـ الأمّ، وهي المُسمّاة سورة (الجنّ). نسبةً إلى وفد الغرباء عن مكّة المكرمة من زعماء مسيحيّي نصيبين الذين ورد ذكرهم في أكثر من كتاب.

ويعود صاحبنا إلى النقاط الستّ التي بحثَتها سورة (ن)ـ، منقّبًا عن النّقطة منها التي توسّع تعالى في شرحها في سورة (الجنّ). فيلاحظ ارتباط موضوع هذه السّورة بالنّقطة الأولى منها، وهي ضرورة ألّا يتعجّل المكذّبون في إصدار أحكامهم على من جاء بوحي السّماء من المرسَلين، وأنّ على الناس الإقبال على هؤلاء المرسَلين، والتّحقّق من صدق ما يأتون به بسلاح الحُجّة والبرهان، لا بالمهاترات والاتهامات والأباطيل.

وهو، جلّ شأنه، نبّه هؤلاء المكذِّبين إلى مثال هذا الوفد الذي قدِم نصيبين متخفّيًا خشية أن يناله أذى أهل مكّة لِما شاهدوه من هياج هؤلاء ضدّ محمّد (ﷺ) وما أتى به في أوائل سِنيّ دعوته.

وكانت الغاية من الاستدلال بهذا الوفد المسيحيّ من مسيحيّي نصيبين خصّيصًا، على اعتبار أن الإنذار بالعذاب موجّهٌ خاصة إلى مسيحيّي الغرب المعاصرين، تذكيرًا لهم بالرّعيل الصّادق من المسيحيّين الذين عاصروا بعثة محمّدٍ سيّد المرسَلين (ﷺ)، ودفعًا لهؤلاء المكذِّبين وحضًا منه تعالى إيّاهم ليعودوا إلى كُتبهم المقدّسة ويستوثقوا من انطباق نبوءاتها على هذا الرّسول الأمين، فلا يكذبوه ويكذّبوا بذلك كتُبهم نفسها، ولا يقفوا من أنصار الله موقفًا سلبيًّا. وكأنه تعالى أتى في سورة (الجنّ) يقول لهؤلاء المكذِّبين: ما لكم تتعجلّون في حكمكم على رسولنا، وقد مضى على بعثته أربعة عشر قرنًا من الزّمان، وقد تحقّق أكثر ما أنبأ به القرآن المجيد الذي أنزله ربّكم على هذا الرّسول؟ فأنتم لم تتّعظوا بجميع ما حدث، أفلا تخشَون تحقّق ما يُنذركم به من عذاب؟

وهذا الباحث المتدبِّر يتجنّب هنا الدّخول في الجدل القائم حول (الجنّ) أحقيقةٌ هم أم خيال. فقد كفاه ما أشار إليه ابن كثير من أنّ هؤلاء الجنّ، كانوا سبعة من جنّ نصيبين، وقد نقل هذا عن كتب السّيرة المطوّلة. كما كفاه أن يؤيّده في ذلك صاحب تفسير فتح البيان (ج ٣ ص ٣٥٥) الّذي نبّه إلى أنّ ما ورد في سورة (الأحقاف)، حكاية عن أنّه تعالى صرف نفرًا من الجنّ للتّحقيق في صدق محمّد رسول الله وصدق دعوته، من أنهمّ كانوا أيضًا وفدًا من أفغاستان. وهل يحدّد هؤلاء اسمَي (نصيبين وأفغاستان) من دون مُعطيات تاريخيّة أساسيّة. فما من نار بلا دخان.

كما يؤكِّد حَدْسَ صاحبنا وفهمه هذا ما نقله تعالى على لسان وفد جنّ نصيبين، قولهم: ﴿وأنّه تعالى جَدُّ ربِّنا ما اتّخذ صاحبةً ولا ولدًا﴾.

فما عقيدتهم هذه إلاّ عقيدة المسيحيّين. أي أنّ الوفد النصيبينيّ كان نصرانيًّا، وما كان يهوديًّا ولا وثنيًّا. وعلى أساس من هذا الفهم انطلق صاحبنا يتدبّر آيات سورة (الجنّ)، قبل أن يقطع بشيءٍ ممّا أتت به من معاني ودلالات.

وصاحبنا وقد قطع أنّ وفدًا نصرانيًّا قدِم من نصيبين ليحقّق في صدق رسالة محمّد (ﷺ)، تأتّى جزمه في الموضوع ممّا استهلّ به تعالى سورة (الجنّ) بقوله تعالى: ﴿قلْ أوحي إليّ أنّه استمع نفرٌ من الجنّ فقالوا: إنّا سمعنا قرآنًا عَجَبًا﴾. فصاحبنا لاحظ أنّه، جلّ شأنه، أتى بفعلَي (استمع وسمع). فاستمع معناه أصغى.

والمعلوم أنّ الإصغاء إلى الكلام صفة يتّصف بها من يريد أن يعي الكلام ويتدبّر فحواه ومغزاه من الناس، للاستفادة منه. أما (سَمِعَ) فدلالته على الفهم والإدراك. قال صاحب معجم مفردات الرّاغب: إنّ السّمع هو حاسّة الأذن، كما يعني الفهم والإدراك والطّاعة.

وما تَنَكُّرُ وفد نصيبين المسيحيّ إلّا ليدفعوا عن أنفسهم أذى أهل مكّة الذين كانوا يُناصبون محمّدًا رسول الله العداء. فلمّا تحقّق أعضاء الوفد المذكور من انطباق نبوءات كتبهم المقدّسة على ما أعلنه محمّد بن عبد الله (ﷺ) من وحيٍ قرآني، عادوا إلى قومهم مُستبشرين يبشّرونهم بما أصغَوا إليه وسمعوه، وما أدركوه وفهموه، لذلك جاء: ﴿. . .فقالوا إنّا سمعنا قرآنًا عَجَبًا يهدي إلى الرّشد فآمنّا به، ولن نُشرك بربّنا أحدًا ـ وأنّه تعالى جدُّ ربّنا ما اتّخذ صاحبةً ولا ولدًا﴾. وقولهم هذا وفّر على هذا الباحث المتدبّر مشقّة البحث والتوسّع في مجال المدّة التي قضاها الوفد المذكور في مكّة المكرّمة، وعَنَاء البحث ومعرفة الأسئلة التي وجّهوها إلى شخص محمّد رسول الله (ﷺ) حول دعوته، خصوصًا أنّ آيات سورة (الجنّ) لم تنفِ أنّ محمّدًا (ﷺ) لم يدْرِ بوجود أعضاء هذا الوفد إطلاقًا. ولا يُهمّه بعدئذٍ أن يفسِّر بعضهم هذه السّورة خلافًا لذلك.

ذلك أنّ لفظ (الجنّ) اشتُقَّ إمّا من جَنَّ بمعنى سيطر وخيّم، وإمّا من جُنَّ عنه بمعنى اختفى واستتر. ومن هذا صّح أن يُطلق القرآن الكريم في هذه السورة اسم (الجنّ) على وفد هؤلاء الغُرباء الذين تخفّوا للتّحقيق.

وفرغ، جلّ شأنه، من بيان ما قام به وفد نصارى نصيبين الذين لم يتعجّلوا في أمر دعوى محمّد (ﷺ)، وحقّقوا عن أدلّة صدقه، فأسلموا وسَلِمُوا من عذاب ربّهم. والذي قصده، جلّ شأنه، من بيان قصّتهم هو أنْ يتّعظ مسيحيّو عصرنا بهذا الرّعيل من أجدادهم، فلا تغُرّنّهم كثرتهم وكثرة عُدَدِهم وما لَهم من سلطان على شعوب الأرض، بل يسيروا على نهج أولئك الأجداد، وإلّا فلا بد أن يواجهوا ما أُنذِروا به من عذاب. وهذه حكمة قوله تعالى بعد ذلك: ﴿حتى إذا رأوا ما يُوعَدون فسيعلمون مَنْ أضعفُ ناصرًا وأقلُّ عددًا ـ قُل إن أدري أقريبٌ ما توعَدون أم يجعل له ربّي أمدًا﴾

ويُلاحِظ صاحبنا كيف اختتم، جلّ شأنه، هذه السورة بقوله تعالى: ﴿عالِم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحدًا ـ إلّا من ارتضى من رسول فإنّه يسلُك من بين يديه ومِن خلفه رَصَدًا ـ ليعلمَ أن قد أبلغوا رسالات ربّهم وأحاط بما لَديهم وأحصى كلّ شيء عددًا﴾. وقد انطوت هذه الآيات الكريمة على دليل قاطع يثبُت منه صِدق

رسالة محمّد بن عبد الله (ﷺ) الذي أبلغ رسالة ربّه، وأحاطه الله تعالى بتأييده وعنايته، وكان مصداق ما ورد من نبوءات في كتب هؤلاء الغربيّين المقدّسة. اللهمَّ صلِّ على محمّد وعلى آل محمّد وسلِّم وبارك، إنّك حميد مجيد.

٥ ـ سورة (المزمل)

وتُدهش صاحبَنا عظمةُ العلاقة الموضوعيّة التي ربطت سورة (الجنّ) بسورة (ن) الأمّ. وينتقل منها إلى سورة (المُزَّمِّل)، التي استهلّها ربّنا، جلّ شأنه، بخطابه لرسوله الكريم ﴿يا أيّها المُزَّمِّل﴾ ،ويندفع يبحث عن دلالاته، وعن الوشيجة التي تربط سورة (المزّمّل) بسورة (ن)، وهي السّورة الخامسة التابعة في مضمونها لموضوع سورة (ن) وفقًا لقواعد الاختزال القرآنيّ وخطّته.

ويُراجع صاحبنا تفسير ابن كثير الذي كتب تحت هذه الآية يقول: «يأمر الله تعالى رسوله (ﷺ) أن يترك التزمّل، وهو التغطّي في الليل،وينهض إلى القيام لربّه، عزّ وجلّ. كما قال تعالى: ﴿تتجافى جنوبُهم عن المضاجع يدعون ربّهم خوفًا وطمعًا وممّا رزقناهم ينفقون﴾. وكذلك كان (ﷺ) متمثّلاً ما أمره الله تعالى به من قيام الليل. . . قال ابن عبّاس والضّحّاك والسّدي ﴿يا أيّها المُزَّمِّل﴾ يعني يا أيّها النّائم. وقال قتادة: المزّمّل في ثيابه. وقال إبراهيم النخعيّ: نزلت وهو متزمّل بقطيفة. وقال شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عبّاس ﴿يا أيّها المُزَّمِّل﴾، قال يا محمّد زُمِّلت القرآن.»

ولم يَشفِ ما ذكره ابن كثير في تفسيره غليل صاحبنا، لذلك عاد إلى معاجم اللغويّين يبحث فيها عن دلالات ألفاظ الآية الكريمة ﴿يا أيُّها المُزَّمِّل﴾ فلاحظ أن صاحب معجم المقاييس قال: زَمَلَ. . . أصلان، أحدهما يدلّ على حمل ثقل من الأثقال. والأصل الثاني صوت. فالأوّل، الزّاملة: بعير يستظهِرُ به الرجل، أي يحمل عليه متاعه. ومن الباب الزّميل، وهو الرّجل الضّعيف الذي إذا حزّ به أمرٌ تزمّل، أي ضاعف عليه الثياب حتى تصير كأنّها حمل. والأصل الآخر الأزمل، وهو الصّوت. وممّا شذّ عن هذين الأصلين: الإزميل الشّفرة، ومنه: أخذت الشيء بأزملة.

وقال صاحب (محيط المحيط): زمل الأعرج يزمل زمالًا، عدا مُعتمدًا على أحد شقّيه، رافعًا جنبه الآخر. وزمل الفرس: مشى كأنه يظلَع من نشاطه (أي

يغمز في مشيه). وزمل الشّيءَ: حَمَله. وزمله زمولًا: تبعه. زمّله أخفاه ولفّه. وتزمّل الرّجل: تلفّف بثوبه. والزّامل من يزمل غيره، أي يتبعه. والزّميل هو الرّديف. وإذا عمل الرّجلان على بعيريهما فهما زميلان. أما إذا كانا بلا عمل فهما رفيقان. والأزمل كلّ صوت مُختلط. المُزَّمِّل: المُدَّثِّر بثيابه المتلفّف بها.

ويدرك صاحبنا اتّفاق أصحاب المعاجم على أنّ لفعل (زمل) أكثر من أصل واحد وأكثر من معنى. ويستنتج من أقوالهم الدلالات التالية:

أولاً - زمل الشيء حمله.

ثانيًا - الزَمِلُ: الرّجل الضّعيف الذي إذا حزَّ به أمرٌ تزمّل، أي ضاعف عليه الثياب حتى تصير كأنّها حِمل.

ثالثًا - الزَمَل: اتّباع امرىءٍ آخر سواه، فزمله أي تبعه.

رابعًا - وزمل يفيد الإخفاء. تقول زمّله بمعنى أخفاه ولفّه. وتزمّل الرجل تلفّف بثوبه.

وهذه المعاني جميعها أساسيّة بالنسبة لفعل زَمَلَ. والسؤال الذي واجه صاحبنا هو: أيّ هذه المعاني نزل بها قوله تعالى ﴿يا أيّها المزّمل﴾؟ مع ملاحظة أنّ من الضّروريّ أن يكشف هذا المعنى أيضًا علاقه هذه السّورة بالّتي قبلها موضوعيًّا.

وأتدخّل في الوقت المناسب لأقول لهذا الباحث المتدبّر: ألا تذكر النّقطة الأولى التي تناولتها سورة (ن) بالبحث، وهي تقديمها مُختلف الأدلّة القاطعة على كمال عقل رسول الله (ﷺ). هذا الرّسول الذي اتّهمه قومه بالجنون؟ فقد كان طبيعيًّا جدًّا أن يُثبت الله تعالى لهؤلاء وبصورةٍ عمليّة تكليف رسوله الكريم بتكاليف يعجز عن القيام بها أيّ إنسانٍ اعتياديّ، بَلْهَ الرّجل المجنون. فهذا الأمر كان في حقيقته مدعاة لتخصيص هذه السّورة بهذه الحكمة الإلهيّة. لذلك لاحظنا أن الله، عزّ وجلّ، استهلّ هذه السّورة بهذه المسؤوليات والمَهمّات بقوله: ﴿يا أيّها المزّمّل - قم الليل إلّا قليلاً - نصفَه أو انقُص منه قليلاً - أو زِد عليه ورتّل القرآن ترتيلاً - إنّا سنُلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾. أي فها أنذا ربّك أُلقي عليك قولاً ثقيلاً أي رسالةً فيها من التكليف واليقين ما يجعلها مهيبةً ثقيلةً في الاعتبار، يعجز الإنسان الفاتر العقل عن حملها.

وأقول: إن شئت، يا صاحبي، معرفة الوشيجة التي تربط هذه السّورة بما قبلها، فعُد إلى ما اختتم الله، عزّ وجلّ، به سورة (الجنّ) من آيات. إنّه قال:

﴿عالِم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحدًا ـ إلاّ من ارتضى من رسول فإنّه يسلُك من بين يديه ومِن خلفه رَصَدًا ـ ليعلَمَ أن قد أبلغوا رسالات ربّهم، وأحاط بما لديهم وأحصى كلّ شيءٍ عددًا﴾. وقد بيّنت حين أوردت هذه الآيات وكتبت حرفيًّا قولي: ﴿ويكون تعالى قد قدّم لهؤلاء دليلاً قاطعًا مستقبليًّا، يثبُت منه صدق نبوّة رسوله العظيم محمّدٍ خاتَم النبيّين﴾. وها هو تعالى أتى في هذه السورة يقول: ﴿سنُلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾، ليؤكّد نبوّة محمد (ﷺ)، لتأتي الأيّام ويثبُت صِدق نبوّته عليه السلام. وقد ثبَت ذلك فعلاً، كما هو معلوم للقاصي والدّاني من النّاس.

وها هو تعالى يظهر العلاقة بين سورة (المُزّمّل) وسورة (ن) الأمّ من خلال قوله تعالى: ﴿ربُّ المشرق والمغرب لا إله إلاّ هو، فاتّخذْه وكيلاً ـ واصبرْ على ما يقولون واهجرْهم هجرًا جميلاً﴾ ليوحي إلى رسوله الكريم أنّ موضوع سورة (المُزّمّل)، تُكمل الكلام على زمرة المُنْذَرين بالعذاب في السّوَر السّابقة، وهم من قالوا: ﴿وَلَدَ الله...﴾، هذه الفئة التي شرع تعالى ينذرهم ابتداءً من سورة (الكهف)، خصوصًا أنّه تعالى كان انتهى من الحديث عن إنذار الفئة الأولى من مشركي مكّة في سورة (الحاقّة) كما سبق أن بيّنّاه في وقته.

هذا وقد نبّه، جلّ شأنه، من خلال ألفاظه ﴿ربُّ المشرق والمغرب...﴾ إلى هذين الإنذارين، لذلك أضاف قوله تعالى: ﴿واصبرْ على ما يقولون واهجرْجهم هجرًا جميلاً﴾. والهجر يعني تأخير الاهتمام بأمر هذه الفئة الثانية من المكذّبين المتعلقين بالمغرب، فإلى هؤلاء يعود ضمير قوله تعالى هنا ﴿واصبرْ على ما يقولون...﴾ أي على ما يزعمون من فساد عقلك.

لاحظ، يا صاحبي، كيف عاد تعالى فأكّد عودة الضّمير إليهم من خلال قوله تعالى ﴿وذرْني والمكذّبين أولي النّعمة ومهّلهم قليلاً ـ إنّ لدينا أنكالاً وجحيمًا ـ وطعامًا ذا غُصّةٍ وعذابًا أليمًا ـ يوم ترجُف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبًا مَهيلاً﴾.

كذلك أكّد تعالى ذلك المرّة الثالثة حينما قال بشأنهم: ﴿إنّا أرسلنا إليكم رسولاً شاهدًا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً ـ فعصى فرعونُ الرّسول فأخذناه أخذًا وبيلاً ـ فكيف تتّقون إن كفرتم يومًا يجعلُ الوِلدان شِيبًا ـ السّماءُ مُنفطِرٌ به، كان وعدُه مفعولاً﴾ (١٥ ـ ١٨).

وهو تعالى عندما قال بعد ذلك: ﴿إنّ هذه تذكرة...﴾ فقد قصد تذكير هؤلاء المكذّبين، ممّن قالوا: ﴿وَلَد اللهُ...﴾، باليوم الموعود الذي ينزل فيه

العذاب بهم. وعندئذٍ تتجلّى ملامح النشأة الثّانية للإسلام.

واعلم، يا صاحبي، أنّ جميع الآيات الكريمة، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ربُّ المشرق والمغرب لا إله إلاّ هو، فاتّخذْه وكيلاً﴾، وانتهاءً بقوله تعالى ﴿إنّ هذه تذكرةٌ فمن شاء اتّخذ إلى ربّه سبيلاً﴾، هي بمَثابَة حاشيةٍ بين قوسين، يُدخلها الكاتب بين السّطور، ثمّ يُتابع بعدها بحثه الأصليّ. وهذا هو السّبب في أنّه تعالى عاد يُخاطب رسوله الكريم ويقول: ﴿إنّ ربّك يعلم أنّك تقوم أدنى من ثُلُثَي الليل ونصفَه وثُلُثَه، وطائفةٌ من الذين معك..﴾ إشارة إلى أنّ ما مرّ الحديث عنه كان من قبيل الجملة المُعترضة في الحديث، وأنّ خطابه، عزّ وجلّ، الذي استهلّ به هذه السّورة لم يكن المقصود به حثّه على أن يقوم للعبادة ليلاً فيتهجّدُ وحسب، بل كان خطابَ تمهيدٍ اقتضاه التّسلسل الموضوعيّ لهذه السّورة. بل لينبِّه إلى أنّ الرّسالة التي أسندها إلى محمّد (ﷺ)، هي رسالةٌ ذات خطورة بما تحويه من حقّ وهداية ويقين. ولذا جاء قولها ﴿قولا ثقيلا﴾. ولا شكّ أنّ من اضطلع بها سيكون له من رُجحان العقل وسداد الفكر ما يُناسب حمل الرّسالة، وأنّه في قمّة الرّجال الذين انتهجوا نهج التفكير الروحانيّ.

٦ ـ سورة (المدثر)

ويطمئنّ هذا الباحث المتدبِّر إلى صحّة ما أدليت به، فينتقل من ذلك إلى سورة (المُدَّثِّر) التي استهلّها ربّنا، جلّ شأنه، بقوله تعالى: ﴿يا أيّها (المُدَّثِّرُ) ـ قم فأنذرْ ـ وربَّك فكبِّرْ ـ وثيابَك فطهِّرْ ـ والرِّجزَ فاهجرْ ـ ولا تمنُنْ تستكثرْ ـ ولربِّك فاصبرْ﴾.

وعلى عادة صاحبنا يُراجع معاجم اللغة، فقد قالوا: دَثَر الطّائر أصلح عُشّه. ودثَر القومَ أهلكهم. وادّثر الرّجل اقتنى دثرًا من المال. وقام ضدّ قعد وبمعنى نشط. وقام بأمرِه تولّاه. ومعنى أنذِرْ، أي حذِّر من عواقب الأمور قبل حلولها. والرِّجز هو الشرك بمختلف أقسامه.

ويفهم صاحبنا من ﴿يا أيّها المُدَّثِّر﴾ جميع دلالات هذا اللفظ لعدم وجود ما يخصّصه بمعنى واحد. ففيه الإشارة إلى ضرورة التنظيم والاستزادة من العلم. لذلك يكون معنى (قُم): انشَطْ في نشر دعوة الاسلام، ويكون معنى ﴿قمْ فأنذِرْ﴾: انشَطْ وحذِّرْ هؤلاء المكذِّبين من عواقب تكذيبهم قبل حلول العقاب بهم.

ويطرح سؤال نفسه، وهو: من المقصود بالإنذار في هذه السورة؟ وأقول لصاحبنا، ومن خلال ما يفرضه التّسلسل الموضوعي على الباحث، وتبعيّة هذه السورة للنقطة الخامسة من نقاط سورة (ن) السّتة. فالكلام على أصحاب نهج التفكير الماديّ من المكذِّبين، أي حذّرهم من خطر التزامهم بنهجهم هذا وعواقبه المنتظرة، مع تخويفهم من نتائجه عليهم. ووضّح لهم أنّ نقص نهجهم يتجلّى في أنّهم لا مَوْلى لهم يدافع عنهم، ويزيدهم علمًا، ويسلّحهم بما يُسلّح به المُتّقين.

وقد شاء تعالى أن يحصر إنذاره هنا بالفريق الثاني من المكذِّبين بعدما حصر إنذار سورة (الحاقّة) بالعرب الجاهليّين، حيث قال هناك: ﴿فإذا نُفخ في الصّور نفخةٌ واحدة﴾ بينما قال هنا: ﴿فإذا نُقِرَ في النّاقور ـ فذلك يومئذٍ يومٌ عسير ـ على الكافرين غيرُ يسير﴾، فالنّاقور معناه الصّور أيضًا.

وراح تعالى يؤكّد ذلك بقوله تعالى بعدها: ﴿ذَرني ومن خَلقتُ وحيدًا ـ وجعلت له مالاً ممدودًا ـ وبنينَ شهودا ـ ومهدّت له تمهيدًا ـ ثمّ يطمع أن أزيدَ ـ كلّا إنّه كان لآياتنا عنيدًا ـ سأرهقُه صَعودًا ـ إنّه فكّر وقدّر ـ فقُتل كيف قدّر ـ ثم قُتل كيف قدّر ـ ثم نظر ـ ثم عَبَس وبَسَر ـ ثم أدبر واستكبر ـ فقال إنْ هذا إلاّ سحرٌ يُؤثَرُ ـ إنْ هذا إلاّ قولُ البشر ـ سأصليه سَقَرَ ـ وما أدراك ما سَقَرُ ـ لا تُبقي ولا تَذَرُ﴾. والمقصود بـ(سقر) ليس لهيب نار جهنّم، بل لهيب العذاب الذي سينزل بهؤلاء في الحياة الدّنيا بدليل قوله تعالى بعدها: ﴿لوّاحةٌ للبشر﴾، أي أنّ هذا اللّهب المُحدِق بهم يشير إلى أنه مصداق هذا الإنذار الإلهي.

وأضاف تعالى من قبيل التّخويف بالإنذار قوله ﴿عليها تسعةَ عَشَرَ. . .﴾. فلمّا انتهى تعالى من الكلام على ما يخصّ هذا الإنذار المشار إليه في قوله ﴿قم فأنذر﴾، عاد تعالى يقول: ﴿كلاّ هذه تذكِرة﴾، أي أنّ إنذارنا كان من قبيل التّحذير لهؤلاء من مغبّة أن يركبوا رؤوسهم، وأن يستمرّوا في انتهاجهم التفكير الماديّ، فلا يُعيدوا النظر في اعتقادهم (وَلَدَ اللهُ. . .). وأضاف ﴿فمن شاء ذكره﴾ (٥٥)، على اعتبار أنّه لا إكراه في الدّين.

واختتم جلّ شأنه سورة (المُدَّثِّر) بقوله: ﴿وما يذكرون إلاّ أن يشاء الله، هو أهلُ التّقوى وأهلُ المغفِرة﴾.

فإذا عُدت، يا صاحبي، إلى الآية (٣٢) أي إلى ما بعد قوله ﴿وما جعلنا أصحاب النّار إلاّ ملائكة. . .﴾. إذا عُدت إلى قوله تعالى ﴿كلاّ والقمرِ ـ والليلِ إذ أدبرَ ـ والصّبحِ إذا أسفرَ ـ إنّها لإحدى الكُبَرِ ـ نذيرًا للبشر ـ لمن شاء منكم أن

يتقدّم أو يتأخّر ـ كلُّ نفسٍ بما كَسَبت رهينة ـ إلّا أصحابَ اليمين﴾. إذا تدبَّرتَ هذه الآيات فقد أقسم تعالى فيها بالقمر، وبالليل إذ أدبر، وبالصّبح إذا أسفر. وقسمُه تعالى يعني تقديم هذه شهادةً. فما مناسبة هذا القَسَم بهذه الأشياء في هذا المقام؟ إلّا أن تكون إرهاصًا لقوله بعدها: ﴿إنّها لإحدى الكُبَر ـ نذيرًا للبشر﴾. فالقمر يستمدّ نوره من الشّمس. وهذا يفسّر ﴿نذيرًا للبشر﴾ أي أنّ النّذير القادم بمثابَة قمرٍ يستمد نوره من الشمس المحمّدية، فلا يأتي بشرع جديد. وهذه إشارة إلى بعثة مثيل المسيح ليس إلّا. ويُقصد بالليل، الليل المخيِّم على مسلمي عصر الانحطاط، فسيُدبِر هذا الليل على يديه. ويُقصد بالصّبح في ﴿والصّبح إذا أسفر﴾ بداية إشراقة فجر بعثة الإسلام الثانية من جديد، على يديه أيضًا، فتدبَّرْ. لذلك أضاف بعد ذلك قوله ﴿لمن شاء منكم أن يتقدّمَ أو يتأخّرَ﴾. فكأنّه تعالى فتح للإسلام بهذا المثيل طريق التقدّم من جديد. فكلّ نفسٍ يومئذٍ بما كسبت رهينة، إلّا أصحابَ اليمين أي إلا من كُتب لهم التقدّم والنجّاة من المؤمنين بهذا المثيل فهم ﴿في جنّات...﴾ (٤٠).

٧ ـ سورة (القيامة)

ويطمئن هذا الباحث المتدبِّر إلى ما وضّحناه له من معاني سورة (المُدَّثِّر). فينتقل منها إلى سورة (القيامة). ويُلاحظ أنّ الله تعالى استهلّها بقَسَمين، وكأنّه قدّم شهادتين. فهو قال: ﴿لا أقسم بيوم (القيامة). ولا أقسم بالنّفس اللّوامة﴾. و(القيامة) معناها البعث. فيتساءل: وأيّ قيامةٍ أو بعثٍ يُقصَد بتقديم هاتين الشّهادتين، دلالةً عليه، وإثباتًا له؟

ويلاحظ صاحبنا أنّه تعالى نفسه قال مُجيبًا عن هذا السؤال: ﴿يسأل أيّانَ يومُ القيامة﴾ أي أيّانَ يوم البعث؟ وأيّ بعثٍ هو؟ يقول تعالى: ﴿فإذا بَرِقَ البصرُ ـ وخَسَف القمرُ ـ وجُمِع الشّمسُ والقمرُ ـ يقول الإنسان يومئذٍ أين المَفرُّ ـ كلّا لا وَزَرَ ـ إلى ربِّك يومئذٍ المُستقَرُّ﴾.

ويعود صاحبنا على عادته إلى معاجم أصحاب اللغة، يبحث عن دلالات ألفاظ هذه الآيات. فيُلاحظ قولهم: بَرِقَ البصَر يبرَق بَرَقًا: تحيّر حتّى لا يطرف، أو دُهش فلم يُبصر. والبصر حاسّة الرؤية، وهو العلم، ويُجمع على أبصار. وخَسَفَ القمر: ذهب ضوءُه وأظلم. فالكسوف للشّمس، والخسوف للقمر.

ويحدث كسوف الشّمس حين يكون القمر والشمس، نسبةً إلى الكرة الأرضية، على خطّ واحد، بينها وبين الشمسّ. وأين: ظرفٌ مبنيٌّ على الفتح، يُسأل به عن المكان الذي حلّ به الشيء. فإذا دَخَلَتْه (مِن)، سُئِلَ به عن المكان الذي برز منه الشيء. ويستعمَل الظرف (أين) للدّلالة على البُعد أو الفرق بين الشّيئين، نحو: أين يُذهب بكَ، وأين هذا من ذاك؟ والمفرّ: من فرّ الرّجل من عدوّه أي هرب. وفرّ: راغ. والمفرّ هو موضع الفِرار. أمّا الوَزَر، فمن وزره وزرًا: حَمَله. والوِزر هو الإثم والحمل الثقيل، يُجمع على أوزار. والوَزَر هو الجبل المنيع، وكلّ معقِلٍ أو ملجأ أو مُعتَصَم.

فإذا استعرض صاحبنا هذه المعاني التي استقاها من معجم (محيط المحيط). تجلّت لعينيه دلالات الآيات السّالفة الذّكر، وكأنّها علامة كونيّة عُظمى، قُصد بها تحديد زمن ظهور مثيل ابن مريم، الذي نبّهت إلى ظهوره سورة (المُدَّثّر)، وإلى أنه سيستمد نوره من شمس محمّد خاتَم النبيّين، كما لاحظنا ذلك في حينه.

فقوله تعالى هنا ﴿فإذا بَرِق البصَر﴾، أي إذا دُهش بصر الإنسان لوفرة ما شاهده من اختراعات تحقّقت على أيدي الذين قالوا ﴿وَلَدَ اللهُ﴾، وإذا خَسَف اللهُ القمر وكسف الشمس في شهرٍ واحدٍ عادت البشريّة لا تعرف طريق نجاةٍ حقيقيّ.

والحقيقة هي أن رسول الله (ﷺ) أنبأ عن هذه الظاهرة الكونيّة في أحاديثه كعلامةٍ لظهور مجدّد آخِر الزمان ومَهديه.. فإذا ما عُدنا إلى ما ورد في كتاب الحديث للدّارقطني في الصفحة المائة، لاحظنا أنّه نقل عن رسول الله (ﷺ) قوله: ﴿إنّ لمهدينا آيتين لم تكونا منذُ خَلْقِ السماوات والأرض، ينخسف القمر لأوّل ليلةٍ من رمضانٍ، وتنكسف الشّمس في النّصف منه.﴾ وهذه الظاهرة السّماويّة حدثت وتحقّقت عام (١٣١١) هـ الموافق عام ١٨٩٤ للميلاد، شرقيّ الكرة الأرضية في أوربة وإفريقية، كما ظهرت وتكرّر ظهورها عام ١٨٩٥ م غربيّ الكرة الأرضيّة في أمريكة. وقد تحقّق ذلك من مؤسّسات الرّصد الفلكيّة في عدّة أقطار.

وهو تعالى أتبع هذه العلامة بقوله: ﴿كلاّ لا وَزَرَ - إلى ربّك يومئذٍ المُستقرّ﴾. فحرف (كلا) عند سيبويه والخليل والمبرّد والزّجاج وأكثر البصريّين هو حرفٌ يفيد الرّدع والزّجر. حتى إنّهم يُجيزون الوقوف عليه، والابتداء بما بعده. وزاد الكسائي وأبو حاتم، فأضاف إلى (كلاّ) معنى (حقًّا). وجعلها بمعنى (ألا) الاستفتاحية، وذكر أنّها تكون حرف جواب بمنزلة أي ونعم. وفي الكليّات: قد تجيء بعد الطّلب لنفي إجابة الطالب.

وبذلك يكون معنى ﴿كلاّ لا وَزَرَ﴾ أنّ الله، عزّ وجلّ، يزجر المُنذَرين من الأقوام الغربيّة، والمُعاصرين لظُهور هذه الآية الكونيّة، ويقول لهم: لا مَعْقِل لكم ولا ملجأ يومئذٍ، ولا مُعتصم تعتصمون به من هذا العذاب الذي أنذرتكم به حتى اللحظة. ذلك أنّه: ﴿إلى ربّك يومئذٍ المستقرّ﴾، أي أنّ الأمور ستسير على غير هواكم، وتنتهي لمصلحة دعوة الإسلام الّتي قدّر الله أن تكون دين النّاس قاطبةً، وفقًا لقوله تعالى في سورة (الصّف): ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهُدى ودين الحقّ ليُظهره على الدّين كلّه، ولو كره المشركون﴾ (٨). وكأنّه تعالى يقول بألفاظٍ أخرى، لا حاجة أن يبرَق بصَر الإنسان ويدهش بما تحقّق على أيدي هؤلاء المكذّبين من علوم ومُخترعات.

وقد اختتم، جلّ شأنه، هذه السّورة بقوله تعالى: ﴿أيحسب الإنسان أن يُترك سُدىً - ألَم يَكُ نطفة مِن مَنيٍّ يُمنى - ثمّ كان علَقةً فخَلَق فسوّى - فجعل منه الزّوجَين الذّكرَ والأنثى - أليس ذلك بقادرٍ على أن يُحيي الموتى﴾. وهذه الآيات تؤيّد ما ذهب إليه صاحبنا من معاني لما سبقها من آيات. ذلك أن الموضوع يدور أصلاً حول النفوس الموتى التي تحتاج إلى إحياء. وإنّها لآيات مفعمةٌ بالمعاني البليغة الدلالات والقاطعة الحُجَج والبراهين، ممّا لا مجال للتّفصيل فيه في هذا المقام.

٨ - سورة (الدّهر)

ويطمئن صاحبنا إلى ما شُرِحَ له، وينتقل من سورة (القيامة) ليتدبّر السّورة التي تليها، وهي سورة (الدّهر). ويقف يتساءل عن إحدى النّقاط الستّ التي توسّع الله تعالى في شرحها في هذه السّورة.

ويعود صاحبنا على عادته إلى معاجم اللّغويّين، يتبيّن منها دلالات معنى (الدّهر). قال صاحب (محيط المحيط): الدّهر الزمان الطّويل والأمد الممدود، وألف سنة. يُجمع على أدهُرٍ ودهور. أمّا صاحب معجم المقاييس فقد قال: الدّهر أحرفه أصلٌ واحدٌ وهو الغَلَبة والقهر. وسُمّي الدّهر دهرًالأنّه يأتي على كلّ شيء ويغلبه. والدّهر مُعرّفًا يعني الأبد بلا خلاف. والدّهريّ هو المُلحد القائل ببقاء الدّهر، الذي يقول إنّ العالم موجود أزلاً أبدًا، لا صانع له. وعليه في سورة (الأنعام): ﴿وقالوا إن هي إلاّ حياتنا الدّنيا نموت ونحيا، وما يُهلكنا إلاّ الدّهر﴾.

ومعاني كلمة الدّهر هذه تنبّه إلياهميّة هذه السّورة المسمّاة بهذا الاسم، ولعلاقتها بالدّهريّين أصحاب نهج التفكير الماديّ.

ويأتي صاحبنا إلى ما استهلّ به تعالى سورة (الدّهر)، وهو قوله تعالى: ﴿هل أتى على الإنسان حينٌ من الدّهر لم يكن شيئًا مذكورًا﴾. وقد احتوى على سؤال مهمّ، طرحه جلّ شأنه، مُتّخذًا منه مدخلاً إلى موضوع هذه السّورة.

أمّا مضمون هذا السّؤال فهو ما يحاول كلّ امرىء معرفته عن نشأة الإنسان، وعن تطوّره، وعن الأدوار التي مرّ بها إلى أن اتّخذ وضعه الحاليّ: صاحب فكرٍ وبصيرةٍ وإرادة. وبهذا المضمون يغمز تعالى بأصحاب نهج التفكير الماديّ من الدّهريّين، ويُلوِّح به إلى فلاسفة عصرنا خاصّة الذين فسّروا الظواهر على أساسٍ ماديّ بحت.

قال تعالى: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدّهر لم يكن شيئًا مذكورًا﴾. أي قد أتى حقًّا حينٌ من الدّهر لم يكن الإنسان فيه ذا شأن يُذكر. ولا بدّ في تناول وجود الإنسان وتطوّره أن نمرّ بالنّاحية الذهنيّة منه. فلم يكن الإنسان في بدء وجوده صاحب فكرٍ وبصيرة يقينًا. إذ كانت تسيّره غرائزه وميوله وشهواته. كان يحمل في رأسه دماغًا لا يزال على فطرته البدائية، لم يُزوَّد بعلوم أو تجارب تغنيه. أو قلْ إنّ الإنسان لم يكن قد خطا أيّ خطوة في طريق التحضّر.

وإنّها لحقيقةٌ جليّةٌ أنّ هذه النّاحية الذهنيّة هي المقصودة بما تضمّنته آية الاستهلال هذه. وهو أمرٌ يُسلِّم به جميع علماء تاريخ الجنس البشري.

وقد انبرى الله، جل شأنه، نفسه يجيب عن هذه المسألة إجابةً شافية ووافية، يقول: ﴿إنّا خلقنا الإنسان من نُطفةٍ أمشاجٍ نبتليه فجعلناه سميعًا بصيرًا﴾. والمقصود أن لاحظوا الفرق بين نُطفة الإنسان ونُطفة الحيوان. فبين تصميم النّطفتين فرق واضحٌ للباحثين المُدقِّقين.

إنّ نطفة الإنسان خلقناها وصمّمناها (نُطفة أمشاج)، من خليطٍ يختلف عن خليط نطفة الحيوان، تمييزًا منّا للإنسان عن الحيوان. ذلك أننا أعطينا للإنسان عقلاً يؤهّله للتفكير به، ليتصرّف نتيجةً لذلك عن بصيرة. وبهذا التّفريق في التصميم نُثبت أنّنا، ومن أوّل خطوة خطوناها على طريق خلق الإنسان، لم نخلق هذا الإنسان سدى، بل لنحقّق لحياته مقصدًا أسمى، وهو أن نجعله ﴿سميعًا بصيرًا﴾، أي صاحب فكرٍ وبصيرة. ونحن قد طوّرناه كذلك من خلال ما نبتليه به

من التّجارب وبما أنزلنا عليه من تعاليم وهوايات: ﴿إنّا هديناه السّبيل إمّا شاكرًا وإمّا كَفورًا﴾. والسّبيل في اللغة هي الطّريق الواضحة. ثم إنّ كلمة (إمّا) مركّبة عند سيبويه من (إن) و (ما)، ولها خمسة معاني: الأوّل هو الشّك، والثاني هو الإبهام، والثالث هو التخيير، والرابع هو الإباحة، والخامس التّفصيل. وقد استعملت (إمّا) في هذه الآية بمعنى التفصيل. أي إنّا بيّنا للإنسان الطّريق، فمن النّاس من آمن وكان شاكرًا، ومنهم من جَحَد وكان من الكافرين.

وفحوى هذه الآية الكريمة هو أنّ الإنسان، والغربيّ خاصّة، لم يبلغ الدّرجة التي هو عليها حاليًّا من الإدراك والبصيرة العلميّة من نفسه وتلقائيًّا، وبغتةً، بل بلغ هذا المستوى بعد أن استفاد أجداده ممّا نزلت به هدايات السّماء.

والحقيقة هي أنّ القرآن المجيد قد كشف معالم الحلقات التي مرّرته بها الشّرائع السّماويّة التي بُعث بها أنبياء الله ورسله، في بقاعٍ عديدةٍ من عالَمنا، وهو موضوع لا مجال للتفصيل فيه في هذا المقام.

ففي منطقتنا نفسها تحقّق، بوساطة آدم، قيام أوّل تعاونيّة بدائية، وهي ما سمّاه ماركس المُشاعة البدائية. فإلى هذه النّقطة وأمثالهاأشار قوله تعالى: ﴿إنّا هديناه السّبيل إمّا شاكرًا وإمّا كفورًا﴾، أي أنّ تدخّل العناية الإلهية لتطوير الإنسان انتهى ليفترق البشر إلى فريقين شاكرين وكافرين أي أصحاب تفكير روحانيّ، وأصحاب تفكير مادّيّ. وبذلك يحدِّد الله، عزّ وجلّ، محور بحثه معتبرًا موضوع صياغة نطفة الإنسان ﴿نطفة أمشاج﴾ المتّكأ الأول لهذا البحث، وموضوع حريّة الإنسان في اختيار النهج الذي يشاء المتّكأ الثاني له.

ثم أتى، جلّ شأنه، إلى نتائج ذلك، ليجعل النتائج دليلاً عمليًّا على وجود هذين النّهجين من التفكير لدى البشر، وليُميِّز الإنسان المفكّر بين ثمار كلٍّ من هذين النّهجين.

فتناول تعالى ثمار نهج التفكير المادّيّ بقوله: ﴿إنّا أعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالاً وسعيرًا.﴾ وقد نبّه بذلك إلى ما أسفر عنه النّهج المادّيّ من ظواهر ثلاث: الأولى (سلاسل)، بمعنى أنّ هؤلاء الماديّين ينغمسون في مشاغل الحياة انغماسًا يبدون فيه وكأنّهم شُدّوا إلى الأرض بسلال. والظاهرة الثانية تسفر عنها الأولى بمعنى أنّ هذه السّلاسل والمشاغل ينتج عنها (أغلال) في عُنُق المشدود بها تشدّه بدورها إلى الأرض، فتحول دون ترقّيه الرّوحيّ، وسُمُوّه، وتطلّعه إلى السّماء.

والظاهرة الثالثة تسفر عن هذه وتلك وتؤدي بصاحبها إلى أن يرتمض صدره بسعير الحرص على المال والطّمع ﴿وسعيرًا﴾. فيعود هذا الماديّ متمنّيًا أن يُصبح في عداد أصحاب الملايين. فيفقد بالتّالي قوّة القناعة التي هي كنزٌ لا يفنى. فهذه هي ثمار نهج التفكير المادّيّ ﴿سلاسلاً وأغلالاً وسعيرًا﴾، وهذه الظّواهر تؤدي إلى انغماس هؤلاء المادّيّين في معصية خالقهم إلى أخمص القدمين. فلا يعود الواحد منهم مؤهّلاً للقاء ربّه ووصاله. ويصبح بالتالي أعمى عن رؤية أنوار ربّه، عز وجلّ، وتجليّاته. ولا يكون هذا المادّيّ قد ظُلم فيما آل إليه من مصير. فهذه الظّواهر تمثّل حصاد نهج تفكيره وأعماله. فلا تخرج حياته عن أن تكون مجرّد ردود أفعال وحصيلة ما انتهجه من تفكير. هذا وعلى اعتبار أنّ إلى ربّك المُنتهى، فهو المُنتهى لجميع العلل والمعلولات. وهذا هو سرّ شروع هذه الآية بقوله تعالى: ﴿إنّا أعتَدنا﴾.

ثم تناول تعالى ثمار نهج التّفكير الروحانيّ بقوله: ﴿إنّ الأبرار يشربون من كأسٍ كان مزاجها كافورًا، عينًا يشرب بها عبادُ الله، يفجّرونها تفجيرًا﴾. وكلمة أبرار، من برَّ والدَه أي أحسن إليه ووَصَله. والبارّ هو الصّالح المُطيع المُحسن الصادق، وضدُّه العاقّ.

والمُلاحَظ أنّه تعالى يعبّر عمّا يريد إفهامنا إيّاه وتنبيهنا إليه بلسان المجاز والاستعارات، وبأسلوب جدّ بليغ. وها هو يقول: ﴿يشربون من كأسٍ﴾ أي من كأس الهدايات السّماويّة التي تروي ظمأ فطرتهم وتوقانَها لمعرفة خالقهم وتعرّفه، كما يروي الماء المادي ظما العطشان.

وعن كأس الهداية قال ﴿كان مزاجها كافورًا﴾. قال صاحب (محيط المحيط): إنّ الكافور طِيبٌ يكون من شجرٍ بجبال بحر الهند والصّينيُظِلّ خلقًا كثيرًا، وخشبُه أبيض هشّ خفيف جدًّا، وفي أجوافه الكافور وهو أنواع. ويستعمل الكافور مضادًّا حيويًّا للمواد السُّميّة. وهو مشتقٌّ من الكَفْر أي التّغشية والإخفاء.

يشير تعالى في قوله: ﴿كان مزاجها كافورًا﴾ إلى أنّ تعاليم هداية السّماء تُخمد في نفوس الأبرار مُيولهم الفاسدة، وشهواتهم الدنيئة، فتغشّيها وتَدفِنها، كما يُدْفَنُ أو يُخمَد السّمُّ بالكافور.

وبعبارة أخرى إنه، عزّ وجلّ، ينبّه إلى نتائج التفكير الروحانيّ، فأصحابه الأبرار تبرد في نفوسهم محبّة الدّنيا وزخارفها.

ثمّ صوّر لنا، جلّ شأنه، القوى العلميّة الجبّارة الكامنة في تعاليم الإسلام، هذه التي يشرب بها الأبرار، قائلاً: ﴿عينًا يشرب بها عباد الله يفجّرونها تفجيرًا﴾.

والعين في اللغة، من عانَ فلانٌ القوم: أتاهم بالخير، وصار لهم عينًا. والعين مصدر بمعنى الباصرة. وقال صاحب الكلّيّات: «وقد يُراد بالعين حقيقة الشيء المُدركة بالعيان، أو ما يقوم مقام العيان.» لذلك شبّه تعالى تعاليم الإسلام بالعين.

وعندما قال: ﴿يشرب بها﴾، فالباء حرف جرّ، يستعمل لافضاء معاني الأفعال إلى الأسماء. واستُعملت الباء هنا بمعنى التّبعيض. وأضاف تعالى قوله: ﴿يفجّرونها تفجيرًا﴾ على اعتبار أنّ هذه التعاليم الإسلاميّة تُمدّ الأبرار بمُنطلقاتٍ ومناهج تساعدهم على تقدمّهم في جميع مجالات العلوم.

إلى هنا يجعل الله، عزّ وجلّ، جميع نقاط بحثه التي بحثها مدخلاً لموضوع السّورة الأساسيّ وتمهيدًا له. ويتطرّق بعد ذلك للكلام على موعد إنزال عذابه بالمكذّبين وفقًا لإنذاره الموجّه إليهم من قبل، ويبشّر عباده الأبرار أنّه كتب لهم النجاة من عذاب يومئذ. عبّر عن هذا كلّه بقوله تعالى: ﴿يوفون بالنذر ويخافون يومًا كان شرُّه مُستطيرًا.﴾ والنّذر في اللغة هو ما يوجبه الإنسان على نفسه تبرُّعًا، وما كان وعدًا على شرط. أي أنّ الأبرار أصحاب نهج التفكير الروحانيّ قد نذروا أنفسهم أصلاً لله ربّهم، ولنشر تعاليمه بين النّاس تبرُّعًا منهم، لا يريدون عليه أجرًا من الناس ولا شُكورًا. فمن صفاتهم أنّهم ﴿يوفون بالنذر﴾، أي أنّهم أوفياء لِما نذروا أنفسهم له، ينشدون قرب الله ومحبّته، ويُوقنون بوقوع عذاب الله بالمكذّبين المذكورين الذين قالوا ﴿وَلَدَ الله. . .﴾ وانتهجوا نهج التفكير المادّيّ.

فهؤلاء الأبرار ﴿يخافون يومًا كان شرُّه مُستطيرًا﴾، أي يحسبون لزمن وقوع هذا العذاب حسابه. ثم إنّ كلمة (مُستطيرًا) اشتُقّت من استطار الفجر، بمعنى انتشر، وأسرع في الانتشار.

وقد أضاف تعالى يؤكّد خشية هؤلاء الأبرار من شرور عذاب هؤلاء، فقال: ﴿ويُطعمون الطّعام على حُبّه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا ـ إنّما نُطعمكم لوجه الله لا نُريد منكم جزاءً ولا شُكورًا ـ إنّا نخاف من ربّنا يومًا عبوسًا قَمطريرًا﴾.

ثم نبّه تعالى الأذهان إلى مُبادرته لإنقاذ هؤلاء الأبرار من عذاب يومئذٍ بقوله تعالى: ﴿فوقاهم الله شرّ ذلك اليوم ولقّاهم نضرةً وسرورًا﴾. والنّضرة هي النّعمة والعيش الهنيء والغنى والحسن والرّونق واللُّطف. والنّاضر من النّبات، شديد الخضرة. ثم إنّ (سرورًا) من سُرّ أي فرح فهو مسرور. والسّرور لذّةٌ في القلب عند حصول نفعٍ أو توقّعه أو دفع ضرَر. والسّرور هو الحبور. فلم يقل الله تعالى: ﴿ولقّاهم نضرةً وفرحًا﴾، لأنّ الفرح يورث البطَر، فهو يُذَمّ. ثمّ إنّ السّرور

والحبور يكونان عن القوّة الفكريّة بينما يكون الفرح عن القوّة الشهّويّة. هذا ما أدلى به صاحب الكلّيّات من معلومات. لذلك لاحظنا قوله تعالى: ﴿ولقّاهم نضرةً وسرورًا﴾ كبشارة للأبرار بنجاتهم من أهوال يوم نزول العذاب.

بل يلاحِظ هذا الباحث المتدبِّر أنّ الله تعالى بشّر الأبرار بما ينتظرهم بعد فراقهم لحياتهم الدنيا، قائلاً: ﴿إنّ هذا كان لكم جزاءً، وكان سعيُكم مشكورًا﴾.

وما إن بلغ، جلّ شأنه، هذا الحدّ من البيان الإلهيّ حتى توجّه يُوصي رسوله الكريم، ومن آمن به من أصحابه، أن يلتزموا بنهج تفكيرهم الرّوحانيّ الذي اختطّوه لأنفسهم، وأن يكون هذا الرّسول من الشّاكرين ليتأسى به هؤلاء المؤمنون.

ومن ثمّ عاد، جلّ شأنه، إلى أصل موضوع السّورة وقال: ﴿إنّ هؤلاء يحبّون العاجلة ويَذَرون وراءهم يومًا ثقيلاً﴾، أي أن حبّ هذه الحياة الدّنيا قد غلب على طبائع المكذِّبين من أصحاب نهج التفكير المادّيّ، متجاهلين هذا اليوم الثّقيل الذي أنذرهم به القرآن المجيد.

وأضاف تعالى قوله: ﴿نحن خلقناهم وشدَدنا أسرهُم، وإذا شئنا بدّلنا أمثالهم تبديلاً﴾ (٢٨). ومعنى ﴿وشدَدنا أسْرَهم﴾ خلقناهم ذوي قوّةٍ وشدّةٍ في خَلْقهم وخُلُقهم. والإسار هو ما يُشَدّ به. والمعنى أننا إذ خلقناهم كذلك فلأنهم لم ينتهجوا نهج الشّاكرين الأبرار، لذلك إذا شئنا بدّلنا أمثالهم تبديلاً.

وعاد تعالى بعد بيانه المذكور يقول: ﴿إنّ هذه تَذكِرةٌ، فمن شاء اتّخذ إلى ربّه سبيلاً﴾. بمعنى أنّ الله تعالى أحدث ما أحدثه على أساسٍ من تخيير الإنسان في تفكيره وعمله، فلا يُكرهُه خالقُه على اختيار نهجٍ معيّنٍ من التّفكير، لذلك فالإنسان حرٌّ، بعد هذا التّذكير كله، في أن يختار سبيلاً واضحة جاء بها هذا الدّين القويم.

وأضاف تعالى: ﴿وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله...﴾ (٣٠). وبذلك فتح الله الخالق لهؤلاء المكذِّبين باب رحمته وهدايته على مصراعيه، مُضيفًا قوله تعالى: ﴿...إنّ الله كان عليمًا حكيمًا - يُدخِل من يشاء في رحمته، والظّالمين أعدّ لهم عذابًا أليمًا﴾ (٣١).

على هذه الصورة تتجلّى لعينَي صاحبنا عظمة ما أتت به سورة (الدّهر) من أمورٍ شرحًا وتفصيلاً. فقد توسّعت في شرح عاقبة أصحاب نهج التفكير الرّوحاني خاصة، وأنبأت عن مصيرهم المأمون الذي سيؤولون إليه. وبذلك تُحكِم هذه

السّورة ترابطَها وتسلسلَها الموضوعي مع سورة (القيامة) أيضًا الّتي اختتمها، جلّ شأنه، بقوله: ﴿أيحسب الإنسان أن يُترَك سُدىً - ألم يَكُ نطفةً من مَنيٍّ يُمنى - ثم كان من عَلَقةٍ فخَلَق فسوّى فجعل منه الزّوجين الذّكر والأنثى، أليس ذلك بقادرٍ على أن يُحيِيَ الموتى﴾. هذا بينما استهلّ تعالى سورة (الدّهر) بقوله: ﴿هل أتى على الإنسان حينٌ من الدّهر لم يكن شيئًا مذكورًا - إنّا خلقنا الإنسان من نُطفةٍ أمشاجٍ نبتليه فجعلناه سميعًا بصيرًا﴾ وبذلك أوجد الوشيجة ما بين هاتين السّورتين.

٩ - سورة (المُرسَلات)

وينتقل هذا الباحث المتدبّر إلى سورة (المرسَلات) آخذًا بعين اعتباره أنّ هذه السّورة تُعتبر آخر سورة، في القرآن الكريم، من حيث التّسلسل الموضوعيّ. على اعتبار أنّ (جزء عمّ) بعدها، هو خلاصةٌمُطوّلةٌ لهذا القرآن العظيم.

فيلاحظ صاحبنا أنّ الله، عزّ وجلّ، استهلّ سورة (المرسَلات) بقوله تعالى: ﴿والمُرسلاتِ عُرفًا﴾. فيتساءل في حديث نفسه عن دلالتها ودلالة قَسَمِها. ويعود على عادته إلى معاجم اللُغويّين، ليلاحظ ما ذكره صاحب معجم المقاييس، إذ قال: «إنّ المُرسَلات هي الرّياح. واشتقاقها من رَسَلَ. هذه الأحرف التي لها أصلٌ واحدٌ يدلُّ على الانبعاث والامتداد.»

امّا (عُرفًا) فن عَرَف. ولها أصلان صحيحان، يدلّ أحدهما على تتابع الشّيء متصلاً بعضه ببعض. يُقال جاءت القَطا عُرفًا: أي بالتتابع بعضها خلف بعض. وسُمّي عُرفُ الفرس بذلك لتتابع الشّعر عليه. والأصل الآخر يدلّ على السّكون والطّمأنينة. تقول: عَرَفَ فلانٌ فلانًا عِرفانًا ومعرِفة: سكن إليه ولم يتوحّش منه.

وعليه فقد تضمّن قوله تعالى: ﴿والمُرسلات عُرفًا﴾ قَسَمًا وتشبيهًا لصحابة رسول الله الّذين وصفهم في سياق السّورة بالأبرار، شبّههم بالرياح التي تنبعث حاملةً الخير إلى الناس مُتتابعين في صفٍّ واحد، يخيّم على أفئدتهم السّكون والطُمأنينة. إشارةً منه تعالى إلى أنّ هؤلاء الأبرار مشمولون برحمته يقينًا.

وراح تعالى يكمل جوانب هذا التشبيه الذي شبّه به صحابة رسوله الأبرار، فقال ﴿فالعاصفاتِ عصفًا﴾، أي أنّهم على سكينتهم إلى ربهم سيحملون رسالة الإسلام إلى العالم، كما تعصِف الريّاح بشيءٍ من الأشياء.

وأضاف قائلاً: ﴿والنّاشراتِ نشرًا﴾، أي لا يعصفون برسالة الإسلام اعتباطًا، بل يذيعونها ويوصلونها بطريق قويم.

وأضاف: ﴿فالفارقاتِ فَرقًا﴾، أي وسيفرّقون فيما ينشرونه من تعاليم هذا الدين القويم بين الحقّ الذي نزل به والباطل الذي ينكبُّ النّاس عليه.

وأضاف: ﴿فالمُلقياتَ ذِكرًا﴾، أي موزّعين بذلك آيات العزّة والشّرف والرفعة على مَن حولهم من أُمم الأرض. ﴿عُذرًا أو نُذرًا﴾، أي يوزّعون ذلك ﴿عُذرًا﴾، تعذِرهم، وهو ما تقتضيه الرّحمة. أو ﴿نُذرًا﴾، تنذرهم، وهو ما يقتضيه العذاب، وفي آنٍ واحد.

ثم أجمل، عزّ وجلّ، شهادات أقسامه هذه التي أقسم بها على أنّ ما وُعدوا به حقٌّ لا شكّ فيه، إذ قال: ﴿إنّما توعَدون لَواقع﴾، أي إنما تُوعدون به من عذابٍ مقدّرٍ، أيها المكذّبون لهذه الرّسالة السّماويّة، متحقّقٌ يقينًا.

وبلسان المجاز أتى تعالى ببعض العلامات التي تحدث قُبيل نزول العذاب المذكور، مشيرًا بـ (إذا) إلى أنّها ستحدث فيما يُستقبل من الزمان. وقال: ﴿فإذا النّجومُ طُمِست ـ وإذا السّماء فُرِجت ـ وإذا الجبال نُسِفت ـ وإذا الرُّسل أُقّتت﴾. ومعلومٌ أنّ حديث رسول الله شبّه أصحابه بالنجوم بقوله (ﷺ) (أصحابي كالنّجوم، بأيّهم اقتديتم اهتديتُم). وطُمِس الشيءُ معناه دَرَس وانمحى. وهذه إشارة إلى زمان انحطاط المسلمين. ثم إن قوله تعالى: ﴿وإذا السّماء فُرجت﴾، تقول: فرج الله الغمّ عن فلان: كشفه وأذهبه، وهو لُغةٌ في فرّجه. وفرج بين الشيئين: فتح، وهذه إشارة إلى أنّ الله تعالى سيفرّج عن المسلمين يومئذٍ على يد مثيل المسيح الذي بشّرهم ببعثته في آخر الزمان. ثم إنّ قوله تعالى: ﴿وإذا الجبالُ نُسِفت﴾، تقول هذا الرّجل جبلٌ في قومه أي سيّد وزعيم. وهذه إشارة إلى اقتلاع زعامات المُكذّبين من على المسرح الدّوليّ. ثم إنّ قوله تعالى: ﴿وإذا الرّسلُ أُقّتتْ﴾، وأُقّتت بمعنى وُقّتت، أي جُعل لها وقتٌ تظهر حقائقها فيه. ذلك أنّ العرب تُعاقب بين الهمزة والواو كقولهم: وكّدت وأكّدت. وهذه إشارة إلى عودة الناس إلى الدّين. وعلى كل حال فلسنا بصدد التوسّع في التفسير.

فإذا أكمل، جلّ شأنه، سرد هذه العلامات، أضاف قائلاً: ﴿لأيّ يومٍ أُجّلت ـ ليوم الفصل ـ وما أدراك ما يومُ الفصل ـ ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين﴾، أي أنه متى تحققت هذه العلامات التي أجّلنا ظهورها إلى يوم الفصل في أمر هؤلاء المكذّبين، فقد بات تحقُّقها يومئذٍ علامة بارزة على قُرب زمان نزول هذا الويل والدّمار بهؤلاء المكذّبين.

ويُلاحظ هذا الباحث المتدبِّر في سورة (المرسَلات)، أنّ الله، عزّ وجلّ، كرّر صيغة: ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين﴾ عشر مرات. وكرّر قوله تعالى ثانيةً: ﴿ألم نُهلك الأوّلين ثم نُتبعُهم بالآخرين، كذلك نفعل بالمجرمين. ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين﴾، أي أننا أهلكنا المكذِّبين من الأمم السابقة. وسنُتبع هؤلاء المُكذِّبين بهم أيضًا فنُنزل بهم الويل والدّمار، خصوصًا أنّهم انتهجوا نهج التّفكير المادّيّ. وعلى هذه الشاكلة عاملنا وسنعامل المُجرمين الذين يكذِّبون بيوم الدّين.

ويلاحظ صاحبنا أنّه تعالى يكرّر صيغة ﴿ويل يومئذ للمكذِّبين﴾ للمرّة الثالثة ويقول: ﴿ألم نخلقْكُم من ماءٍ مَهين - فجعلناه في قرارٍ مَكين - إلى قدَرٍ معلوم - فقَدَرنا فنِعم القادرون - ويلٌ يومئذ للمكذِّبين.﴾. أي ألم يُلاحظ هؤلاء المكذِّبون عظمة قُدراتنا، إذ قدَّرنا خَلْقهم من نُطفةٍ من ماءٍ مَهين. فهذه حُجّةٌ على أنّ لدينا من القُدرة على إهلاكهم ما لا يحول دونها حائل.

وللمرّة الرّابعة يقول تعالى: ﴿ألم نَجعلِ الأرض كِفاتًا - أحياءً وأمواتًا - وجعلنا فيها رواسي شامخاتٍ وأسقيناكم ماءً فُراتًا - ويلٌ يومئذٍ للمُكذِّبين﴾، أي ما دام قد ثبت لهؤلاء بالعلم إعجازُنا في إعمار الأرض، بحيث تضمُّ الأحياء والأموات. وقد شمل الإعمارُ هذه الرّواسي من الجبال، يتفجّر منها الماء فُراتًا عيونًا وأنهارًا. فهذه حُجّةٌ أيضًا لنا عليهم، بأنّه لا يحول دون قُدُراتنا وإمكانيّة القضاء عليهم حائلٌ أو سلطان. فويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين.

وللمرّة الخامسة يقول تعالى: ﴿انطلِقوا إلى ما كُنتم به تكذِّبون - انطلِقوا إلى ظلٍّ ذي ثلاث شُعب - لا ظليلٍ ولا يُغني من اللّهب - إنّها ترمي بشررٍ كالقَصْر - كأنّه جِمالَةٌ صُفْرٌ - ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين﴾، أي ما دمتم قد انتحلتُم لأنفسكم نهج حياتكم، فتحمّلوا عواقبه المأساويّةالثلاث التي سبق أن وضّحناها لكم (السّلاسل والأغلال والسّعير).

وفي المرّة السّادسة يقول تعالى: ﴿هذا يومُ لا ينطقونَ - ولا يُؤذَن لهم فيعتذرون - ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين ﴾ أي أن ما سيحلّ بهم من ويل ودمار لا مجال للاعتذار عند حلوله، على اعتبار أنّه جاء حصيلةً لأعمالهم، والنّهج المّاديّ الذي انتهجوه.

وفي المرّة السابعة يقول تعالى: ﴿هذا يومُ الفصل جَمعناكم والأوّلين - فإن كان لكم كيدٌ فكِيدونِ - ويل يومئذٍ للمكذِّبين.﴾ أي هذا يومُ ستُفصل فيه الأمور، فينال كلٌ جزاء ما فرط منه، فهل في وسعكم أن تتجنّبوا ذلك وتقابلوا سلطان ربّ العالمين بسُلطان؟ ﴿فكِيدونِ﴾، أي اتّخذوا التّدابير التي تشاؤون اتّخاذها لتحول

دوني ودون إيقاع عذابي بكم إن كنتم قادرين على ذلك، لكن اعلموا سلفًا أنّكم لن تفلحوا في ذلك ولا بّد أن يحلّ بكم عذابي، فويلٌ يومئذٍ للمكذّبين.

وللمرة الثامنة يقول تعالى: ﴿إنّ المتّقين في ظلالٍ وعيون ـ وفواكهَ ممّا يشتهون ـ كُلُوا واشربوا هنيئًا بما كنتم تعملون ـ إنّا كذلك نَجزي المحسنين ـ ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين﴾، أي أنّنا سنفي بوعودنا للمتّقين أيضًا يومئذٍ فنؤتيهم نضرةً وسرورًا كما سبق أن وعدناهم. إنّا كذلك نجزي المحسنين إنّما ويلٌ يومئذ للمكذّبين.

وللمّرة التّاسعة يقول تعالى: ﴿كلُوا وتمتّعوا قليلاً إنّكم مجرمون ـ ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين﴾، أي لا بأس أن تتمتّعوا في هذه العاجلة، ولكن لن يستمرّ ذلك طويلاً، فلا بدّ أن تلقَوا جزاء إجرامكم بتكذيبكم هذه الآيات وهذا الدّين.

وفي المرّة العاشرة والأخيرة قال تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ـ ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين﴾، أي إذا دُعوا للتّسليم بواقع الأمر، والخضوع لله الذي خلقهم، يستكبرون وينأون جانبًا، فلا تعود لهم أيّة حُجّةٍ علينا بعد ذلك، ولا بدّ من أن يلقَوا الويل والعذاب.

واختتم، جلّ شأنه، سورة (المرسَلات) هذه بقوله تعالى: ﴿فبأيّ حديثٍ بعده يؤمنون﴾، أي إذا استمرّ تكذيبهم، وقد رأوا هذه الحُجج الدامغة والبراهين السّاطعة على وجود الله ووحدانيّته وقدراته، فلن يؤمنوا بحديثٍ بعد ذلك البتّة. وأيُّ حُجّةٍ يمكن أن تُقنع مماحكٍ متعنّت يماري في الباطل، لا تراه إلّا مُكابرًا مغالطًا؟ وكأنه تعالى قد قال بألفاظ أخرى: وهل للعقل أن يفسّر موقف هؤلاء الغربيّين المكذّبين للإسلام إلّا أنّه موقفٌ لا مبرّر له، وإنْ هو إلّا اندفاع وراء الأطماع والشهوات؟

على هذه الصّورة، وبهذه الألفاظ المُفعَمة بالدّلالات ﴿فبأيّ حديثٍ بعده يؤمنون﴾، أنهى الله، عزّ وجلّ، السّوَر الموضوعيّة لكتابه العظيم. ليوجز ذلك كلّه، وبأسلوبٍ يأخذ بريقه بمجامع القلوب، في السّور الصّغيرة التي احتواها (جزء عَمّ)، والّتي لُخّصت في المعوّذات الأخيرة من هذا القرآن المجيد.

★ ★ ★

الباب الثالث

مجمل بحوث فنّ الاختزال

أمّا وقد فرغتُ من فصول الباب الثّاني التطبيقيّة، هذه الفصول التي طبّقت فيها ما احتواه الباب الأول النظريّ من مُعطَيات نظريّة تتعلّق بأحرف المقطّعات التي استُهلّت بها سُوَرٌ كثيرةٌ من سُوَر القرآن المجيد، فقد رأيت أن أخصّص الفصل الأوّل من الباب الثالث لكي أستعرض بإيجاز ما تقدّم من مواضيع وأمور.

وللقارىء العزيز أن يُلاحظ أنّ الله، عزّ وجلّ، لم يستهلّ سورة (الفاتحة) بأحرفٍ مقطّعة. والسبب في ذلك هو أنّ سورة (الفاتحة) تُعَدّ فاتحة القرآن وخلاصة موجزة جدًّا لما احتوى عليه من مضامين.

أمّا سورتا (البقرة) و(آل عمران)، فقد اسْتُهلّتا بالأحرف المقطّعة (الم). ولم يكن هذا من دون سببٍ وجيه دعا إلى ذلك. فالأحرف (الٓمٓ) حدّدت الكلمات التي اختُزلت منها هذه الأحرف، بناءً على ما نقله تفسير ابن كثير عن رسول الله (ﷺ) بطريق ابن عباس من أنّ (الٓمٓ) تعني (أنا الله أعلم).

وعلى هذه الصّورة تكون هذه الرّوايّة قد وضعت في أيدينا مفتاح فنّ الاختزال القرآنيّ الذي تجد معالمه في هذا الكتاب.

فلماذا استُهلّت (البقرة) و(آل عمران) بالأحرف (الٓمٓ)؟ الجواب هو بسبب دوران أبحاث هاتين السّورتين حول علم الله الواسع.

وقد بحَثَتْ كلُّ سورةٍ منهما علمَ الله من زاويّة مُعيّنة تغاير الزاويّة التي بُحثت منها السّورة الأخرى.

ذلك أنّ سورة (البقرة) تناولت العلم الإلهي من زاويةٍ تاريخيّة، على حين تناولت سورة (آل عمران) العلم الإلهي من حيث كون الله (حيًّا قيّومًا).

فسورة (البقرة) نبّهت من الوجهة التّاريخيّة إلى مسألتين أساسيّتين: الأولى، نبوءات التوراة والإنجيل المتعلّقة ببعث محمّد رسول الله (ﷺ) وإنزال القرآن المجيد. والثانيّة، إحياء ذكرى الدّعاء الإبراهيميّ. وعلى اعتبار أنّ محمّدًا بعثه ربّه لإحياء ما بدأته بعثة إبراهيم، عليه السّلام. فجميع آيات سورة (البقرة) إنّما تدو حول هذين المحورين، بأسلوب رائعٍ فريد، بالغ الرّوعة.

أمّا سورة (آل عمران) التي تناولت علم الله تعالى من حيث كونه حيًّا قيّومًا فقد تناولت إثبات هذه الحقيقة عن طريق تقديم دليلين عظيمين، أحدهما تاريخيّ، والآخر علميّ. وشرحت هذين الدّليلين على مدى ما احتوته من آياتٍ كريمة.

ولمّا كان الموضوع الذي طرقته سورة (آل عمران) واسعًا جدًّا ومُتشعّب الفروع فقد استلزم ذلك إلحاق ثلاث سُوَرٍ، (النّساء والمائدة والأنعام)، بمضمون سورة (آل عمران) موضوعيًّا، لاستيفاء هذا الموضوع وإيفائه حقّه من الشّرح والتّوثيق. ولا بدّ أن القارىء قد لاحظ ذلك في حينه.

ثمّ أتى الله، جلّ شأنه، بسورة (الأعراف) مُستهلّةً بالأحرف (المص). وقد سبق أن أشرت بالدّليل إلى أنّ هذه الأحرف مختزَلةٌ من (أنا الله العليم الصّبور). وقد نبّهت سورة (الأعراف) إلى أنّ كلّ شيء في هذا الكون يخضع للتطوّر والتكامل. وبذلك يتجلّى كونُ الله ربَّ العالمين. وأنّه الصّبور على عباده، أي الحليم الذي لا يتعجّل العقوبة. لذلك نلاحظ أنّ آيات هذه السّورة نوّهت بالصّبر والدّأب. ولمّا كان مضمون سورة (الأعراف) واسعًا جدًّا أيضًا فقد استلزم ذلك من الله، عزّ وجلّ، إلحاق سورتَي (الأنفال والتّوبة) بهذه السّورة شرحًا وتوثيقًا. وهذا هو سرّ أنّه تعالى لم يستهلّهما بأحرف مُقطّعات، لتبعيّتهما لمدلول (المص)، وذلك وفقًا لقواعد الاختزال القرآني وخطّته.

والمُلاحظ أنّه تعالى أتى بعد سورة (الأعراف) وتوابعها بثلاث سورٍ جديدةٍ هي(يونُس وهود ويوسُف)، واستهلّها تعالى جميعها بأحرف اختزالٍ واحدة هي (الر)، ولابدّ أن يكون القارىء قد لاحظ أنّي أثبتّ في حينه أنّ هذه الأحرف مختزَلة من (أنا الله أرى). أمّا لماذا فعل، جلّ شأنه، ذلك؟

أقول فعل ذلك على غِرار ما فعله في استهلال سورتَي (البقرة وآل عمران) بالأحرف (الم). وقد ثبتَ هناك أنّ كلّ سورةٍ منها، تناولت بالبحث علم الله من زاوية معيّنة. وقد تناول تعالى في هذه السّور الثلاث أيضًا رؤيته تعالى للأحداث، في كلّ سورةٍ منها، من زاويّةٍ مُعيّنة.

فسورة (يونُس) بحثت رؤية الله الثاقبة للأحداث ومجراها والقوانين النّاظمة لها.

ثمّ تلتها سورة (هود) تبحث هذه الرؤيّة الإلهيّة من زاويةٍ لم تبحثها سورة (يونُس). وهذه الزاوية الجديدة للنّظر التي تناولتها سورة (هود)، تتعلّق بترتيب القرآن الكريم مُنزّلاً بين آياتٍ مُحكمات وآياتٍ مفصّلات.

أمّا سورة (يوسُف)، فقد بحثت الرؤية الإلهيّة من وجهتها التّفصيليّة: ماضيها وحاضرها ومُستقبلها. وقد لاحظنا أنّه تعالى بسط لنا قصّة يوسُف، عليه السّلام، في هذه السّورة مثالاً عمليًّا، يثبت من خلاله ما لهذه الرؤية الإلهيّة من أبعاد.

ثم أتى الله، عزّ وجلّ، بسورة (الرّعد)، بعد هذه السّور المذكورة، فاستهلّها بالأحرف (المر). وقد أثبتّ في حينه أنّ هذه الأحرف قد اختُزلت من (أنا الله أعلم وأرى). وقد جمع مضمون هذه السّورة بين علم الله تعالى ورؤيته الأحداث في سورة واحدة. وشاء ربّنا، عزّ وجلّ، أن يُفهمنا من خلال مضمون سورة (الرّعد) هذه أنّ رؤيته تعالى للأحداث، لم تكن رؤيةً مُجرّدةً عن علمٍ سابق لها، بل كانت مقرونة دومًا بعلمٍ تامٍّ بحقائق ما يراه ربّنا، عزّ وجلّ، أي أنّه هو، جلّ شأنه، خالق الأشياء ومبدعها ومُحرّكها أيضًا. فما خلق تعالى شيئًا إلّا على أساسٍ من علمه الذي لا تحدُّه حدود.

كما نلاحظ أنّه تعالى ما إن انتهى من سورة (الرّعد) هذه حتّى أتى بسورة (إبراهيم). وقد عاد فاستهلّها، بما استهلّ به السور الثلاث: (يونُس وهود ويوسُف)، أي أنّه استهلّها بالأحرف (الر) مختزَلةً من (أنا الله أرى). أي أنّه تعالى عاد يبحث رؤيته الإلهيّة من زاويةٍ جديدةٍ، لم تتطرّق لبحثها السّور الماضية. وزاوية النظر الجديدة هذه هي رؤيته مُستقبل أحداث كلّ شيء، علمًا غيبيًّا، يكشف الآتي، وينبىء به، إلى جانب ما يرتبط بهذا العلم الغيبيّ المستقبليّ من نجاحات للأحداث أو إخفاقات، وما ستؤدّي إليه من عواقب مقصودة أو غير مقصودة.

ولم يأت ربنا، جلّ شأنه، بسورة (إبراهيم) مُستهلّةً وحدها بالأحرف (الر)، بل أتبعها تعالى بسورة (الحِجر) أيضًا مستهلّة بالأحرف (الر) نفسها، ودلالتها على (أنا الله أرى)، وقد كانت زاوية الرؤية الإلهيّة التي بحثتها هذه السّورة، متعلّقة بالوحي الإلهيّ النازل في مكّة المكرّمة فهي تنبىء بأنّ هذا الوحي سيتّخذ شكل كتاب له جميع خصائص الكتب القيّمة وشرائطها، فتؤثّر حتى في قلوب الكافرين أنفسهم الذين يصدّون عن آيات الله تكذيبًا لهذا الكتاب العظيم. وقد وعد الله، جلّ شأنه، أيضًا في سورة (الحِجر) بالمحافظة على كتابه القرآن أبد الآبدين ليدلّ، عزّ وجلّ، على واسع علمه، واطّلاعه على ما هو آت، وعلى قدراته التي لا تحدّ.

ولمّا كان مضمون سورة (الحِجر) هذه واسعًا جدًّا فقد ألحق تعالى به مضامين ثلاث سوَرٍ هي (النّحل والإسراء والكهف)، شرحًا لهذا المضمون، وما تفرّع وتشعّب منه من شؤون.

ففي سورة (النّحل) أكّد، جلّ شأنه، ضلالة بني إسرائيل التي كانت سببًا لإلغاء الله تعالى ميثاقه الذي كان عقده مع نبيّه موسى، عليه السلام، وأعاد عَقدَه مع نبيّه محمّد، رسول الله وخاتَم النبيّين، لتعود أرض كنعان إلى العرب المسلمين. وذلك أنّ العرب قد هجروا ما كانوا عليه زمن موسى من الوثنيّة، وعادوا موحّدين صالحين لسُكنى هذه الأرض، بدل هؤلاء اليهود المغضوب عليهم. فهذه السّورة بحثت طرَفًا من موضوع الرؤية الإلهيّة الأصلي.

وفي سورة (الكهف) استعرض، جلّ شأنه، رؤيته المتعلّقة بتاريخ المسيحيّة قبل الإسلام وبعده، لصلة هذا الموضوع بالموضوع الذي بحثته سورة (الحِجر) من جوانب عديدة. وقد كشفت سورة (الكهف) عنإنذارَين الهيّين موجّهين إلى فريقين من المكذِّبين: فريق العرب الذين عاصروا البعثة الإسلاميّة، وفريق المسيحيّين الذين اتّخذوا المسيح بن مريم ابنًا لله، وأهل أوربة وأمريكا خاصّة الذين سيعاصرون عصر انحطاط المسلمين في المستقبل بعد زمان إنزال سورة (الكهف). هذه السّورة التي كشفت عن أسلوب تصحيح وضع المسلمين يومئذٍ، والوسيلة التي سيتّخذها الله تعالى لتحقيق هذا التصحيح والغاية من ذلك.

وحين فرغت الآيات من بيان ذلك كُلّه، عن طريق هذه السّور التي ذكرناها، أتى الله، جلّ شأنه، بسورة (مريَم). وقد استهلّها بخمسة أحرفٍ هي (كهيعص). وقد سبق أن ثبت لدينا أنّ هذه الأحرف مختزلةٌ من (كافٍ وهادٍ يا عليم ويا صادق). إشارةً إلى أنّ الله تعالى، ليس بمعزِلٍ عن عباده، بل هو حيٌّ قيّوم، يُجيب تضرّعات المحتاجين واستغاثات الملهوفين والسّاعين لمعرفة ربّهم، والتقرّب منه على الدّوام. ولهذا السّبب نفسه ضرب الله للنّاس أمثلة من عباده الّذين سبق أن تضرّعوا على أعتابه، واستجاب لأدعيتهم أيضًا.

وإلى هنا، كانت جميع السّور القرآنيّة التي أتينا على ذكرها، تخاطب النّاس كافّة، من دون أيّ استثناء. وسيلاحظ القارىء كيف أنّ جميع السوّر التي ستأتي بعدها أخذت تتوجّه بالإنذار إلى فئتين من النّاس. وقد نبهّت سورة (الكهف) إلى أنّ من المقاصد الرئيسة لبعثة رسول الله (ﷺ) توجيهَ إنذارٍ لهاتين الفئتين، وهما العرب الذين عاصروا بعثة محمّد رسول الله (ﷺ)، والمسيحيّون الغربيّون المُعاصرون، الذين لهم الهيمنة اليوم على جميع شعوب الأرض. وقد ظلّ الخطاب الإلهيّ موجّهًا إلى الناس كافّة أيضًا، وفي الوقت نفسه.

وهذه الخطوة الجديدة المُتميّزه باشرها الله تعالى ابتداءً من سورة (طـه). والحرفان (طـه) سبق أن ثبت لدينا أنّهما مختزَلان من (أيّها الرّجل العظيم). والمقصود بهذا الخطاب هو محمّد رسول الله الصّادق الأمين.

وقد طمأن الله تعالى، في هذه السورة، هذا الرّجل العظيم سيِّد المرسلين إلى أنّ في اصطفاء الله تعالى إيّاه خيرَه وسعادتَه في الدّارين. وقد مهّد لذلك تحنُّثُ محمّد بن عبد الله في غار حِراء. هذا التحنُّثُ الذي كان يجد فيه محمّد طُمأنينة نفسه وشفاء غليله إلى معرفة ما في الكون، فأدّى تحنّثه هذا إلى هذا الفوز العظيم. وها هو الله ربّ العالمين يتجلّى له بكامل صفاته المتعلّقة بهذا الكون. وقد وعظ الله رسوله أن يتحلى بالصبر ويتحمّل أذى المكذِّبين. وحذّر تعالى المُكذِّبين في نهاية هذه السّورة من أنّ تطوُّر الأحداث سيكشف مَنْ يكون من أصحاب الصراط السّويّ فيسلك طريق المُهتدين.

وجاء مضمون سورة (طـه) مكثّفًا جدًّا فلم يكن بدٌّ من تفصيل كثيرٍ من جوانبه، وقد استلزم ذلك من الله، عزّ وجلّ، أن يأتي بخمس سورٍ تابعةٍ لمضمون سورة (طـه) تقوم بتفصيل جوانب هذا المضمون. وهذه السّور هي: الأنبياء والحجّ والمؤمنون والنّور والفرقان.

وقد خصّص الله تعالى سورة (الحجّ) لتحمل إلى النّاس الأدلّة القاطعة على صدق رسالة هذا الرّجل العظيم إلى جانب أنّه، جلّ شأنه، ألقى الضوء فيها على التحوّل الجذريّ الذي ستحدثه الرسالة السماويّة المُلقاة على كتفيه، إحياءً لتعاليم إبراهيم عليه السلام.

وقد خصّص تعالى سورة (الأنبياء) ليوضّح للنّاس أنّ المَهَمّة الأساسيّة لبعث هذا الرجل العظيم هي أن يجعله رحمة للعالمين.

وقد خصّص الله تعالى سورة (المؤمنون) ليوضّح فيها شروط بيعة المؤمنين الذين يستجيبون لهذه الرّسالة السّماويّة. هذه الشروط الإيمانيّة التي ستكون أساس رُقيّهم الرّوحانيّ. وأنذر تعالى فيها الفئتين اللّتين ستتصدّيان لتكذيب هذه الرّسالة السّماويّة، وتقوما باضطهاد هؤلاء المُبايعين، الفئتين اللّتين أنذرتهما سورة (الكهف) في آياتها الخمس الأولى: فئة العرب الجاهليين، وفئة الأقوام المعاصرة لنا من المسيحيّين الغربيّين. هؤلاء الذين أقاموا زعامتهم على أنقاض عصر انحطاط المُسلمين.

وقد خصّص الله تعالى سورة (النّور)، ليوضّح للنّاس أنْ لا نجاة لهم من مساوئهم جميعها: الاجتماعية منها والأخلاقيّة والروحيّة وسواها، إلاّ بالرجوع إلى

الإيمان بتعاليم الإسلام، والعمل عليها، والالتزام بهذه العُروة الوثقى التي لا انفصام لها، فهي طريقُ العزّة والكرامة والفلاح. ودعامتها نظام الخلافة الروحيّة.

وقد خصّص الله تعالى سورة (الفرقان) لتوضيح أمرين اثنين:

الأوّل اعتراضات المكذِّبين ووجهة نقدهم. وقد فنّدها تعالى، ودفعها، جلّ شأنه، بأقوى الحُجج والبراهين. والأمر الثاني هو إعطاء المكذِّبين فكرةً واضحةً عن سمات الذين يؤمنون بهذه الرسالة السماويّة، ونزوعهم إلى معالي الأمور في مختلف نواحي الحياة، وعجزهم هم، أي المكذِّبين، عن اللّحاق بهم وإدراك عظيم شأنهم.

على هذه الصورة أتت سورة (طـه) كسورةٍ أمٍّ، تليها خمس سُوَرٍ تابعةٍ لمضمونها شرحًا وتوثيقًا، وهي سُوَر الأنبياء والحجّ والمؤمنون والنور والفرقان.

ثم أتى ربّنا، عزّ وجلّ، بسورة (الشعراء)، واستهلّها بالأحرف (طسـم)، هذه الأحرف التي سبق أن ثبت لدينا أنّها مختزَلةٌ من (أنا الله القُدّوس الطّاهر السّميع المجيد). وقد أراد الله، جلّ جلاله، من هذا الاستهلال تنبيه أذهان رسوله والنّاس جميعًا إلى أنّه، عزّ وجلّ، لا يهدي من المكذِّبين إلاّ من تخلّق بهذه الصفات السامية.

وقد أوصى الله تعالى رسوله الكريم في سورة (الشّعراء) هذه أنْ: ﴿جاهِدهم به جهادًا كبيرًا﴾. ويقصد بألفاظه هذه عدم التّواني في تبليغ الناس تعاليم هذا القرآن الكريم. وقد أعلم الله رسوله أيضًا من جهةٍ أخرى أنّه: لن يكون أكثرُ النّاس ولو حرصتَ بمؤمنين.

ثمّ أتى، جلّ شأنه، بسورة (النّمل) واستهلّها بحرفَي (طس). وقد ثبت لدينا أنّ هذين الحرفين قد اختُزلا من (أنا الله القُدّوس الطّاهر السّميع). وقد أراد تعالى أن يجعل ما احتوته هذه السّورة ﴿هدىً وبُشرى للمؤمنين﴾.

وأكّد ذلك في الآية السّادسة بقوله تعالى: ﴿وإنّك لتُلقّى القرآن مِن لدُن حكيمٍ عليم.﴾. وفي هذا القول طمأنة للرّسول وللمؤمنين أنّ مسيرتهم في رعاية ربّهم الحكيم العليم. وأوصاهم بتحمُّل أذى أعداء الله، من خلال الأمثلة العديدة التي ذكّرهم بها بمَنْ سبقهم من المؤمنين الذين عانَوا النّصَب من أعدائهم قبل أن يأتيهم ربّهم بالنّصر المبين.

ثم أتى تعالى بسورة (القَصَص)، واستهلّها بالأحرف (طسم) وهي الأحرف نفسها التي استهلّ بها مِن قبلُ سورة (الشّعراء)، والتي ثبت لدينا في حينه أنّها مختزَلةٌ من (أنا الله الطّاهر القّدوس السميع المجيد) وإشارة إلى أنّه تعالى لا يهدي القوم الفاسقين.

وقد أمر الله تعالى في هذه السّورة أن يستبشر الرّسول بأوّل خطوةٍ ستأتي على طريق خلاصه وخلاص أصحابه من أذى أعدائهم. وهذه الخطوة هي هجرته من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة، والتي سيعقبها فتح مكّة نفسها على يده وأيدي أصحابه من المسلمين. وقد عبّر تعالى في الآية (٨٥) عن هذه البُشرى القادمة، بقوله، عزّ وجلّ: ﴿إنّ الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معادٍ، قل ربّي أعلم مَنْ جاء بالهُدى ومن هو في ضلالٍ مبين.﴾. علمًا بأنّ ربّنا، جلّ شأنه، لم يخصِّص سورة (القصص) لسرد أخبار الأوّلين من دون غايةٍ ابتغاها. فقد كان القصد من قصّ هذه الأخبار أنْ يتّعظ بها المؤمنون من جهة، والإنباء بما سيواجهه محمّد رسول الله وأصحابه ودعوة الإسلام من عقباتٍ من جهةٍ أخرى.

والمُلاحظ أن الله، عزّ وجلّ أتى بسورة (العنكبوت)، وقد استهلّها بالأحرف (الم). وهي الأحرف نفسها التي استهلّ بها سورتَي (البقرة وآل عمران). والتي انتهينا إلى أنّها مختزَلةٌ من (أنا الله العليم)، وأنّ كل سورة منها بحثت العِلم الإلهي من زاويةٍ مُعيَّنة. وها هو، جلّ شأنه، قد استهلّ سورة (العنكبوت) بالأحرف (الم). وقد ثبت لدينا أنّها تبحث العِلم الإلهيّ من زاويةٍ جديدةٍ، وهي زاوية عِلم الله تعالى بمساوىء الشّرك، ونتائجه الفاسدة على المشركين، إلى جانب العِلم بفوائد التّوحيد الخالص من جميع شوائب الشّرك بنوعَيهِ الجليّ والخفيّ.

ثم أتى، جلّ شأنه، بسورة (الرّوم)، وقد استهلّها بالأحرف (الم) نفسها، وهي تعني (أنا الله العليم). وقد خصّصها الله تعالى لبحث عِلمه الإلهي من زاوية النّظر إلى بواطن الأمور وخفاياها، في الوقت الذي زفّ فيه البُشرى للمؤمنين بأنّ الأمور بخواتيمها، وستكون خاتمة المؤمنين مِسكًا، ما تمسّكوا بالتّوحيد المبرّأ من الشّرك بأنواعه، وأنّ الله تعالى، وهو العليم ببواطن الأمور وخفاياها، بيده عاقبة كلّ أمرٍ من الأمور.

ثم أتى، جلّ شأنه، بسورة (لقمان)، وقد استهلّها بالأحرف نفسها (الم). وبحث فيها زاوية عِلمٍ إلهيٍّ جديدة. تتلخّصُ بأنّه تعالى أنزل هذا القرآن الكريم على أنّه ﴿هدىً ورحمةً للمحسنين﴾. وأنّ ما عند غير المحسنين من الناس لا يعدو

زُخرفَ القول ولهوَ الحديث، يُضِلّون به سواهم عن سبيل الله من دون علمٍ منهم، أو حُجّةٍ وبُرهان. فهاتان المُسَلّمتان طرحتهما سورة (لقمان) مدعّمتين بمختلف الأمثلة والمواعظ، حاثّةً عباد الله أن يستمسكوا بعُروة الإسلام الوُثقى، فهي سبيل المحسنين.

ثم أتى، جلّ شأنه، بسورة (السّجدة)، واستهلّها أيضًا بالأحرف (الم)، أي (أنا الله أعلم). وبحث فيها عَلمه الإلهيّ من زاويةٍ جديدة، زاوية أنّ كتابه العزيز الذي أنزله ﴿لا ريب فيه﴾ أي خِلوٌّ من كلّ أمرٍ ظنّيّ. وأنّه لم يبحث موضوعًا إلاّ دعّمه بالحُجج والبراهين الساطعة. وأنّه لا يمكن أن تصادف البشريّة معضلةً تعصى على الحلّ، في زمنٍ من الأزمان، إلاّ وفي القرآن الكريم حلٌّ لها وعلاج، يتجلّى لكلّ مؤمن متدبّر.

هذا، وقد حدّدت سورة (السّجدة) بدء زمان انحطاط المسلمين وتخلّفهم، وانتقال دور الهيمنة في العالم بأسره إلى الأمم الغربيّة. ولمّا كان هذا الموضوع الذي بحثته سورة (السّجدة) واسعًا جدًّا، وقد تعدّدت نواحيه، فقد ألحق به، جلّ شأنه، مضامين ثلاث سورٍ هي: (الأحزاب وسبأ وفاطر).

ففي سورة (الأحزاب)، تناول تعالى موضوع كون هذا الكتاب الحكيم آخر الشّرائع المُنزلة، وأنّه لا شرع ينزل بعده، بسبب كمال تعاليمه وصلاحيّتها لكلّ زمانٍ ومكان. وأنّ محمّدًا رسول الله هو خاتم النبيّين أيضًا، فلا نبيّ يأتي بعده بشرعٍ جديد.

وفي سورة (سبأ)، استعمل الله، جلّ شأنه، للزمن الذي سيأتي بعد ألف عام من البعثة المحمّديّة، وهو الزّمن الذي بحثته سورة (السّجدة)، استعمل له كلمة (الآخِرة) بمقابل البعثة الإسلاميّة الأولى فهذه الفترة الزّمنيّة التي ستأتي بعد ألف عام هي آخِرة هذه البعثة الأولى من حيث العروج والتنزّل في عصر انحطاط المسلمين وتخلّفهم، الأمر الذي سيفسح في المجال لظهور الغربيّين ليهيمنوا على العالم بأسره.

كما استعمل تعالى كلمة (السّاعة) أيضًا، للغرض نفسه. وهذا هو السّبب في أنّ الله تعالى، قد عَمَدَ قبل سورة (سبأ) إلى تحذير هؤلاء الغربيّين وسواهم بقوله تعالى: ﴿قل إنّما أعظُكُم بواحدةٍ أن تقوموا لله مثنى وفُرادى، ثم تتفكّروا، ما بصاحبكم من جِنّةٍ، إنْ هو إلاّ نذيرٌ لكم بين يدَي عذابٍ شديد﴾ (الآية ٤٦).

وقد خصّص الله، جلّ جلاله، سورة (فاطر) للكلام عمّا سيحدث بعد زوال زعامة المسيحيّين الغربيّين المكذّبين من العالم. فأنبأ في هذه السورة بأنّ العالم

مُقبلٌ بعد زوال عصر هيمنة هؤلاء على تأسيس نظام بل قانونٍ عالميٍّ، مُستقى من تعاليم القرآن المجيد، ومن منطلق الإيمان بوجود الله العزيز الحكيم، وأنّ العزّة له، عزّ وجلّ، جميعًا، وأنّه لا يستوي في نظر الله الأعمى عن حقيقة ربّه والبصيرُ بها، وأنّ الاستكبار والمكر السيّء لا يحيق إلّا بأهله، كما ثبت هذا الأمر باستجلاء سُنن الأوّلين. وأنّ الله لا يُعجزه شيء في السّماوات والأرض، فهو عليم وقدير. وأنّه لو يُؤاخذ الله النّاس بما كسبوا، ما كان قد ترك على ظهر الأرض من دابّة، لكنّه يعفو عن كثير.

على هذه الصّورة أتت سورة (السّجدة) والسّوَر التابعة لها، لتؤلّف مجموعةً متميّزةً، على شاكلة ما ألّفته سورة (طـه) والسّور التابعة لها. وما إن فرغ ربّنا، عزّ وجلّ، من هذا حتّى أتى بسورة (يـس).

وسورة (يـس) أنزلها الله تعالى يحضّ فيها النّاس كافّة، وبمختلف أساليب الوعظ والبيان والإقناع والبراهين، يحضّ على الانضواء تحت لواء محمّد خاتَم النبيّين (ﷺ). هذا وقد سبق أن ثبت لدينا أنّ كلمة (يـس) تعني (أيّها الإنسان السّيِّد). وقد خاطب الله، عزّ وجلّ، محمّدًا رسوله بهذا الخطاب تكريمًا له، لأنّه كان قد قدّر أن تكون لهذا الرسول العظيم السّيادة في العالم، خصوصًا بعد زوال أمم المسيح الدّجال.

ثم إنّ اتّساع مضمون سورة (يـس)، اقتضى أن يُلحق تعالى بها سورة (الصّافّات) زيادةً في الشرح والتّفصيل. لذلك لم يستهلّ تعالى سورة (الصّافّات) بأحرف اختزال، وذلك وفقًا لقواعد الاختزال القرآنيّة وخطّته.

وقد كان المقصود بالصّافات، الإشارة إلى صحابة رسول الله (ﷺ) وإعطاء فكرةٍ عن هؤلاء الصّحابة الذين اشتهروا بأنّهم كانوا يقاتلون صفًّا كأنّهم بُنيانٌ مرصوص. فعدّدت سورة (الصّافّات) صفات هؤلاء الصّحابة، المؤهّلين لنقل رسالة الإسلام إلى جميع النّاس.

كما أكملت سورة (الصّافّات) الكلام على المكذّبين ممّن اتّخذوا لله ولدًا، فأنذرتهم، وبشّرت المؤمنين بعودة عزّة الإسلام ومجده من جديد بعد زوال هؤلاء المكذّبين. على هذه الصورة تؤلّف سورتا (يـس) و(الصّافّات) إطارًا موضوعيًّا واحدًا.

ثم أتى، جلّ شأنه، بسورة (ص)، وقد سبق أن ثبت لدينا أنّ حرف (ص) قد اختزله ربّنا من اسمه (الصّادق). وأنبأ تعالى في هذه السّورة التي أنزلها في مكّة المكرّمة أنّ وحيه النازل سيتّخذ شكل كتاب يقرؤه النّاس، ويحفظونه في

صدورهم، وقد امتلأ هذا الكتاب مواعظ وتعاليم قد اتُّخذت لرفعة الإنسان وتقدُّمه. وبذلك يغدو هذا الكتاب دليلاً عمليًّا، ومعجزةً سماويّة، ودليلاً قاطعًا على أنّ إنذار الله تعالى الموجّه إلى الذين قالوا (وَلَدَ الله) لا بدّ واقعٌ بهم، ليثبت من خلال وقوعه بهم كون الله صادقًا، وأنّه تعالى علاّم الغيوب أيضًا.

من هنا يتبيّن سبب تعرّض سورة (ص) لمساوىء هؤلاء المكذّبين الغربيّين والكشف عنها: كابتلاء هؤلاء بالشرك من جرّاء اعتقادهم (وَلَدَ الله)، وعدم اتّعاظهم بما جرى للمشركين ممّن سبقهم من الأمم، ولاستهانتهم بما أتى به القرآن الكريم من أنباء وتعاليم، إلى جانب غلبة الكِبْرِ على نفوسهم، وسعيهم الدّائب لاستنزاف خيرات الشّعوب المقهورة.

وقد ندّد الله تعالى بهؤلاء في الآية (٢٨) بقوله: ﴿أم نجعلُ الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعلُ المُتّقين كالفُجّار﴾. وأضاف تعالى منذرًا إيّاهم: ﴿قل هو نبأٌ عظيم ـ أنتم عنه مُعرضون. . .﴾ (٦٨). ومضى تعالى يذكّرهم بقصّة آدم وعاقبة الاستكبار.

ولمّا كان موضوع سورة (ص) من السّعة وتشعبّ الفروع بمكان، فقد استلزم ذلك تخصيص سورة (الزُّمَر) بعدها، لإكمال شرح ما تضمّنته من أمور. وقد وضّح لنا تعالى في سورة (الزُّمَر) أنّ لا شرع يعدل شرع الله الحكيم، وأنّ استهانة المكذّبين بصفتَي ربّهم (العزيز والحكيم)، لا تستند إلى بُرهان ولا دليل. وعمد تعالى في هذه السورة أيضًا إلى تفنيد افتراءات هؤلاء. مُنبِّهًا أذهانهم إلى قدراته اللامتناهية، وإلى تجلّي معالم ربوبيّته في هذا الكون. وأثبت بذلك تعالى زيف افتراءاتهم ومقاصدها. كما فتح للعُقلاء فهم باب التّوبة. ورسم لأعينهم سِمات المؤمنين ترغيبًا للشّرفاء منهم، ومذكّرًا إيّاهم بما حلّ بالذين كذّبوا رسُلهم من قبل، وناشدهم الإنابة إليه، من قَبل أن يأتيهم العذاب بغتةً وهم لا يشعرون. وعلى هذه الصّورة ألّفت سورتا (ص) و(الزّمر) إطارًا موضوعيًّا جديدًا أيضًا.

ثم أتى، جلّ شأنه، بسورة (غافر)، واستهلّها بحرفَي الاختزال (حـم). وقد ثبت لدينا أنّهما مختزَلان من صفتَي الله (الحميد والمجيد)، كما دلّت على ذلك الآية الثالثة: ﴿غافرِ الذّنْب وقابلِ التّوب شديدِ العقاب ذي الطّول لا إله إلاّ هو إليه المصير﴾. وقد دارت جميع آيات سورة (غافر) حول محورٍ واحد هو إثبات محتوى الآية المذكورة. وقد أثبت، جلّ شأنه، صحّة ما اشتملت هذه الآية عليه، من خلال تاريخ البشر أنفسهم، وأثبت من خلال ذلك أنّه: ﴿ما يجادل في آيات الله

إلاّ الذين كفروا فلا يغُرَّنَّك تقلُّبهم في البلاد﴾ (٤). وفي قوله تعالى: ﴿فلا يغرَّنَّك تقلُّبهم في البلاد﴾ في هذا المقام إشارة إلى أمم الغرب خاصّة الذين يتقلّبون في البلاد بعد تخلّف المسلمين، وهذه الإشارة نفهمها في ضوء التّسلسل الموضوعيّ. فهم أُنذِروا ابتداءً من سورة (الكهف).

ثم أتى، جلّ شأنه، بسورة (فُصِّلت) مُستهَلّة بالحرفَين (حـم) أيضًا، مُختزلَين من (حميد ومجيد). فبحث هاتين الصّفتين في سورة (فُصِّلت) من زاويةٍ جديدة. من زاوية كون الله الحميد والمجيد رحمنَ ورحيمًا. فنصح من هذه الزّاوية المكذِّبين أن يعودوا عن شركهم الذي ابتلوا به، إلى توحيد الله تعالى واستغفاره، وإلاّ فلا مَناص أن يُنزل بهم عذابه الشّديد، ويُلحق بهم الهلاك. وعاد تعالى إلى كشف معايب جديدةٍ لمجتمعهم، مخاطبًا إيّاهم بالأسلوب العلمي الذي يفهمونه. وانتهى من ذلك عند الآية (٤٠) ليؤكّد لهم بقوله تعالى: ﴿. . . وإنّه لكتابٌ عزيزٌ ـ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حميد﴾. وأنّ الأيّام ستكشف عن هذه الحقيقة، وتظهر آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم، حتى يتبيّن لهم أنّ هذا القرآن هو الحقّ من ربّهم.

ثم أتى، جلّ شأنه، بسورة (الشّورى)، وقد استهلّها بالأحرف (حم ـ عسق). وقد ثبت لدينا أنّ هذه الأحرف مختزَلة من (الله الحميد والمجيد، وهو العليم السّميع القدير).

فبحث تعالى في سورة (الشّورى) صفتَيه (الحميد المجيد) من زاويةٍ جديدةٍ أيضًا. من زاوية كون الله تعالى عليمًا بكلّ شيء، وسميعًا لنداء المُستغيثين، وقادرًا على التّصرف وتحقيق مشيئته، عزّ وجلّ، وفي إطار كونه العزيز الحكيم أيضًا. وغمز في الوقت نفسه بالمكذِّبين الذين قالوا اتّخذ الله ولدًا، فأنبأ عن أنّ كتابه سيصبح قرآنًا عربيًّا، أي مُفصحًا عمّا يريده الذي أنزله، وأنّ إلى الله تعالى تصير الأمور.

ثم أتى، جلّ شأنه، بسورة (الزُّخرُف)، مستهلّةً أيضًا بحرفَي (حـم)، وقد سبق أن ثبت لدينا أنّهما مُختزلان من صفتَي الله (الحميد والمجيد). وبحث تعالى في سورة (الزُّخرُف) هاتين الصّفتين من زاويةٍ جديدةٍ، من حيث كون كتابه (قرآنًا عربيًّا) مَهَمّتُه أن يخاطب عقول عباده بمنطقهم العلميّ. فأتى تعالى بالأدلّة التي تثبت ذلك. ثم أوصى رسوله الكريم في الآية (٤٤) أن يستمسك بما يُوحى إليه. ذلك أنّه على صراطٍ مستقيم. وأنّ هذا القرآن المُنزَل عليه ذِكرٌ له ولقومه، وأنّ جماعته المؤمنين به مسؤولون عن الدّعوة إلى هذا الدّين ونشره، على أنّه دين خُلُقٍ

ومعاملة، إلى جانب كونه دين شعائر وعبادات.

كما أشار تعالى في الوقت نفسه إلى تقصير مسلمي عصر الانحطاط، وأنّهم لا بُدّ محتاجون إلى بعثة مثيل مريم لإصلاح أمور الإسلام وأحواله. وكشف تعالى في هذه السّورة عن تعالى بزوال الغربيّين من على المسرح الدّوليّ ليُفسح في المجال بعد ذلك ظهار الإسلام على الدّين كُلّه.

ثم أتى، جلّ شأنه، بسورة (الدّخان)، وقد استهلّها بحرفي (حـم) أيضًا. وقد ثبت لدينا أنّهما حرفان مُختزَلان من اسمي الله (الحميد والمجيد). وبحثت سورة (الدّخان) هاتين الصّفتين من زاوية أنّ هذا الوحي النازل سيصبح ﴿كتابًا مُبينًا﴾. ونبّه تعالى في هذه السّورة إلى أنّ إحياء النّفوس الموتى لا يدخل في مقدرة أحد، وإنّما هو من شأن الله ربّ السّماوات والأرض، سميع ات عباده، والعليم بأحوالهم ومظالمهم. وأنّه لا بدّ أنْ يُنزل الله عقابه الشديد بالمجرمين الظّالمين.

ومن ثَمّ كان زمن نزول الوحي الإلهيّ بهذا الكتاب المبين ليلةً مباركةً، يصدر فيها من الله، عزّ وجلّ، كلُّ أمرٍ حكيم. وهنا كشف تعالى عن الأسباب البعيدة التي أعاقت الشّعوب الغربيّة عن تقبُّل تعاليم الإسلام، منبئًا بأنّهم اختاروا نهج التفكير المادّيّ. فقد باتوا ولا همّ لهم سوى اللهو والمُتعة والعبَث والراحة، وترك سبيل الجدّ، وهجر الحقّ، والإقبال على الباطل. وكشف تعالى في سورة (الدُّخان) هذه عن إشارات إلى حربٍ ذريّةٍ سيخوضونها، تدمِّرهم وتنتهي بزوالهم، ويصبح يتبقّى منهم. والملاحظ أنّ الله تعالى شبّه ما سيحدث بعواقب ما عرض مع فرعون. ثم أنذر تعالى هؤلاء المكذِّبين بأنّه تعالى قضى أن يورِث أراضيهم آخرين، فلا يحزن على زوالهم أحدٌ من الخلق، ولا تبكي عليهم الأرض ولا السّماء، ولا يكونون من المُنظَرين.

ثم أتى، جلّ شأنه، بسورة (الجاثية) مستهلّةً أيضًا بحرفي (حـم). وقد ثبت لدينا أنّ هذين الحرفَين مختزلان من صفتَي الله (الحميد والمجيد).

وقد بحثت سورة (الجاثية) هاتين الصّفتين لله من زاوية تجلّي صفتَي الله (العزيز الحكيم)، في جميع ما فعله تعالى، ويفعله في هذا الكون. ونبّه تعالى الأذهان إلى أنّ آفاق السّماوات والأرض مُفعمةٌ باللّوائح البيّنة والشواهد الصّادقة التي يثبت بها كون الله عزيزًا حكيمًا. وأنذر تعالى في الوقت نفسه كُلّ أفّاكٍ أثيمٍ أصرّ على استكباره واستنكافه عن الإيمان بهذا الكتاب المُنزل من الله العزيز

الحكيم المنيع العليم ببواطن الأمور.

ثم أتى، جلّ شأنه، بسورة (الأحقاف)، وقد أتت مُستهلةً أيضًا بحرفَي (حـم) المرّة السّابعة، وقد ثبت لدينا اختزال هذين الحرفين من صفتي الله (الحميد والمجيد).

وقد تحدّى الله تعالى في هذه السورة المكذّبين أن يأتوا بحُجَج مقبولةٍ تُثبت وجهة الحقّ في استنكافهم عن الإيمان بهذا الكتاب المُنزل من الله العزيز الحكيم. كما طالبهم بإثبات صحّة اعتقادهم أنّ لله ولدًا ممّا خلق. وسألهم أن يشيروا إلى ما خلقتْ آلهتهم إن كانوا صادقين، أو أن يؤيدوا مزاعمهم بما جاء في كُتبٍ سماويّة سابقة، أو بما توصّلوا إليه من علوم. وأعقب تعالى مطالبته المذكورة بتقديمه الأدلّة المعاكسة، وأثبت بُطلان جميع ما يزعمون.

ولما كان موضوع سورة (الأحقاف) واسعًا ومتشعّبًا جدًّا فقد استلزم ذلك أن يُلحِق بها، عزّ وجلّ، ثلاث سوَرٍ هي سوَر (محمّد والفتح والحُجُرات).

ففي سورة (محمّد) (ﷺ) جاء تعالى يحثّ رسوله الكريم على قتال هؤلاء المُعتدين من قومه، وذلك بعد أن كان قد أذِن له بقتالهم في سورة (الحجّ) الآية (٣٩). وفيها أوصى المؤمنين بالطّاعة لله ولرسوله، وإلاّ أبطل كلّ ما يعملون.

وفي سورة (الفتح) بشّر تعالى هؤلاء المؤمنين بما قدّر لهم من العاقبة بنتيجة قتالهم لعدوّهم. بشّرهم بفتحَين عظيمين، لا بنصر واحد. الأوّل في انتصارهم على أعدائهم في حياة رسوله الكريم. أمّا الفتح الآخر، فإنّه سيتحقّق إثر عصر تخلّف المسلمين وانحطاطهم، وبعثة مثيل ابن مريم لمعالجة الوضع الإسلاميّ، وهو من بشرّت به سورة (الزُّخرُف). ولم يُنه الله تعالى سورة (الفتح)، إلاّ بعد أن أتى بأوصاف من سيؤمنون ويكونون حَمَلة تعاليم الإسلام في البعثتين المذكورتين: أصحاب محمّد رسول الله وأصحاب مثيل ابن مريم.

وفي سورة (الحجرات) وجّه تعالى المواعظ والنّصائح والوصايا إلى حَمَلَةِ راية الإسلام من البعثتين المذكورتين. وتُلخّص هذه المواعظ والوصايا بضرورة ألا يتعجّل المؤمن في حُكمه على من يفاجئه بنبأ، وبضرورة التأدّب وحسن الظّن، وعدم تجاوز الحدود التي اتّخذها الله لتصرّف عباده، وتجنّب الاختلاف، وحذّرهم من الاقتتال فيما بينهم، ومن أن يهزأ بعضهم ببعض، ومن التنابذ بالألقاب.

وقد عمد، جلّ شأنه، في آخر سورة (الحُجُرات) إلى مخاطبة النّاس كافّة، ودعاهم للالتزام بالمبادىء السّتّة التي نبّه إليها القرآن الكريم لتكون أساس وحدة العالم بأسره. وبإمكان القارىء الرجوع إليها في موضعها من الكتاب. وحذّر تعالى

المؤمنين أيضًا سوء العاقبة إذا لم يستمسكوا بهذه المبادىء، فقال: ﴿إن الله يعلم غَيب السّماوات والأرض، واللهُ بصيرٌ بما تعملون﴾ (١٨).

على هذه الصّورة ألقت سورة (الأحقاف) والسّور التّابعة لها، أي (محمّد والفتح والحجرات)، إطارًا موضوعيًا واحدًا أيضًا.

ثم أتى، جلّ شأنه، بسورة ﴿ق. . .﴾، واستهلّها بالحرف (ق) الذي ثبت لدينا أنّه مُختزَل من اسم الله (القادر أو القدير). وقد أتى ترتيب هذه السّورة، بما احتوته من علوم ودلالات، في منتهى الرّوعة والحكمة. فقد كشف تعالى في سورة (ق) عن واسع علمه الغيبيّ وقُدُراته، عزّ وجلّ. وكان الحديث عن ذلك فيها يوم نزولها قبل أربعة عشر قرنًا من الزّمان، وكأنّها تتنزّل في أيّامنا هذه. فأنبأ فيها بأنّ وحيه النّازل سيُصبح قرآنًا مجيدًا، بما انطوى عليه من خزائن العلوم التي لا تنضُبُ. ونبّه إلى أن الذين يكذّبونه، إنّما يخبطون في تكذيبهم له خبط عشواء، لجهلهم من جهة، ولاختلاط الأمور عليهم من جهة أخرى. وقدّم في هذه السّورة دليلاً علميًا قاطع الدّلالة، أثبت به واسع علمه الغيبيّ وقدراته التي لا تُحدّ. وأتبع هذا الدّليل العلميّ بدليل تاريخيّ من تاريخ البشر أنفسهم، وعلى المستوى نفسه من القوّة، أثبت به قدراته الواسعة أيضًا. وما إن فرغ من تقديم هذا الدّليل التّاريخيّ الذي أثبت من خلاله قُدرته الفائقة على إحياء النّفوس من بعد موتها، ومحاسبتها ودينونتها، ما إنْ فرغ منه، حتّى أدلى بدليل ثالث من واقع الإنسان نفسه، وبأسلوبٍ علميّ. فبرهن به على أنّ لا مفرّ من يوم الدّينونة والبعث. ثم كشف تعالى للإنسان ما سيؤول إليه حاله يوم البعث الأكبر، إثباتًا منه تعالى لعظيم علمه وقُدراته. وهنا أنذر من يكذّب بيوم البعث الأكبر، ممّن لا يخشَون ربّهم. كما ندّد في معرض كلامه بما وقع في التّوراة من تحريفٍ متعلّقٍ بخلق العالم. ثمّ كشف لرسوله الكريم ما سيواجهه عند فتحه مكّة المكرّمة بعد هجرته منها.

واختتم، جلّ شأنه، سورة (ق) بقوله تعالى: ﴿نحن أعلم بما يقولون، وما أنت عليهم بجبّار، فذكّرْ بالقرآن من يخاف وعيدِ﴾ (٤٥).

وقد اقتضت سعة موضوعِ سورة (ق) وتشعّب فروعه، أنْ يُلحق بها، جلّ شأنه، سبع عشرة سورة، وفقًا لقواعد الاختزال وخطّته القرآنيّة.

وكانت سورة (الذّاريات) أوّل هذه السّور السبع عشرة. وقد استهلّها بالذّاريات التي تعني الرّياح الذاريات الحاملات حملاً ثقيلاً، وعلى صورة قَسَمٍ بها، أي تقديمها شهادة. وكان المقصود بها تشبيه صحابة رسوله الكريم بهذه الرّياح الذّاريات، الأمر الذي يدلّ عليه سياق الكلام وسباقه. فقد شبّه تعالى صحابة

رسوله ومسؤوليتهم عن حمل دعوة الإسلام ونشره في العالم بمسؤوليّة الحمل الثّقيل الذي يحملونه لنقله إلى شتّى أقطار الأرض. وأكّد تعالى في الوقت نفسه أنّه سُينجي هؤلاء الصّحابة من مظالم أعدائهم. كما أوضح المقصد من خلق الإنسان، وناشد تعالى في سورة (الذّاريات) العرب والنّاس عامّة أن يلوذوا بخالقهم. فإن لم يفعلوا، فلهم الويل والهلاك.

وأتى تعالى بعد (الذّاريات) بسورة (الطّور)، فذكّر فيها الذين أشركوا واتّخذوا المسيح بن مريم ابنًا لله بالنبوّءة التي تلقّاها موسى عليه السّلام على جبل الطّور، وهي النبوءة المتعلّقة ببعثة محمّد رسول الله (ﷺ)، مُعلنًا أنّ محمّدًا (ﷺ) هو مصداق هذه النبوءة وها هو الوحي الذي يتلقّاه من ربّه يتّخذ شكل كتاب مسطور، في رقّ منشور، وأنّ الذين سيؤمنون بهذا الرّسول وهذا الكتاب سيعمرُون الكعبة التي أعاد بناءها جدّهم إبراهيم عليه السّلام. وانطلق تعالى ينذر المُكذّبين من هؤلاء التي وردت نبوءة الطّور في كتبهم المقدّسة، والغربيّين منهم خاصّة بالعذاب الذي يتوعّدهم، ويؤكّد لهم أنّ عذاب ربّهم لواقعٌ ما له من دافع. وقد أعطى تعالى هؤلاء فكرةً عمّا سيؤول إليه حالهم بعد نزول هذا العذاب.

ومن ثَمَّ راح تعالى يبشّر المؤمنين بما أعدّه لهم من آلاء ونعماء. ولم يُنه تعالى سورة (الطّور) إلاّ بعد أن بشّر المسلمين باستعادتهم سيادتهم بعد زوال هؤلاء المكذّبين الغربيّين.

وأعقب، عزّ وجلّ، سورة (الطّور) بسورة (النّجم) التي أنبأ فيها عن قُرب أفول نجم هؤلاء المكذّبين وزوالهم من على المسرح الدّوليّ. كما نبّه إلى أنّ زوالهم سيصبح يومئذٍ بمثابة دليلٍ وشهادةٍ سماويّة على صدق محمّد رسول الله ورسالته.

وقد كشف تعالى في سورة (النّجم) هذه عن معراجين روحانيّين عرجهما محمّد رسول الله (ﷺ)، أحدهما يبشره فيه بفتح مكّة وإسلام أهلها، وقد بشّره في المعراج الثاني بزوال نجم هؤلاء المكذّبين من المسيحيّين الغربيّين.

ونبّه تعالى في نهاية سورة (النّجم) إلى أنّ الأمور لن تجري وفقًا لأماني المكذّبين. وبذلك كشف الله، عزّ وجلّ، عن وجه علمه الغيبي الواسع، وعن قدراته المتعلّقة بمستقبل الدّعوة الإسلاميّة.

وأعقب تعالى سورة (النّجم) بسورة (القمر)، فبشّر فيها باقتراب ساعة خَلاص محمّد وأصحابه من مظالم المشركين. كما أنبأه أنّه قد تقرّر في مملكة السّماء زوال الحكم العربيّ الجاهليّ. وكشف الله تعالى من جديد عن واسع غيبه وعظيم قُدراته.

وأتبع، جلّ شأنه، سورة (القمر) بسورة (الرّحمن) التي اشتملت على المُنطلقات النّظريّة التي تساعد الباحثين على حلّ أعقد المسائل التّاريخيّة التي يواجهونها في أبحاثهم. كما لفت في هذه السورة أنظار الباحثين إلى ما هنالك من تشابُهٍ قائم بين النّظام الكوني والنّظام الرّوحي، ليدلّ على وحدة المرجع في هذين النظّامين الصّادرين عن الله الرحمن. ونبّه تعالى إلى أنّ المقصد من هذين النظامين هو أن يعيش الإنسان في ظلّهما بعدلٍ وفي نظامٍ لا إفراط فيه ولا تفريط، بعيدًا عن كلّ ظُلمٍ أو غُبن. وكشف تعالى أنّ القفزة الحضارية التي قفزها الإنسان، بعد أن كان يعيش في الكهوف، ويتّخذ شريعة الغاب، قد تحقّقت، وتمّ التحوّل على أيدي آدم عليه السّلام. ذلك أنّ الشرائع السّماويّة التي تلقّاها أنبياء الله ورسله كانت أساس جميع الحضارات التي عرفتها البشريّة قاطبة.

كما لفت، جلّ شأنه، أنظار الباحثين، في سورة (الرحمن)، إلى ظواهر طبيعيّة يمرّون بها كل يوم مرّ الكرام، فلا يستدلّون منها أنّها من ترتيب ربّهم الرّحمن.

ثم أنذر تعالى أهل المعسكرين الغربيّين أنّ لا مهرَبَ لهم ممّا اتّخذه الله الرحمن بحقّهم، في الوقت الذي كشف لهم عن بعض أهوال ما سيلاقونه من عذاب.

وأنهى تعالى سورة (الرّحمن) بعد أن كشف للمؤمنين المُتّقين عمّا أعدّ الله الرحمن لهم من نعماء. وأثبت من خلال جميع ما ضمّنه تعالى سورة (الرحمن) واسع علمه الغيبي وعظيم قُدُراته التي لا تقف دونها حدود.

وأتبع تعالى سورة (الرّحمن) بسورة (الواقعة) التي أنبأ فيها عمّا سيحلّ من دمار بمَواطن الذين اتخذوا لله ولدًا، مشيرًا إلى أوربة وأمريكة خاصّة، وأنّه لا بدّ أن تقع الحرب بين هؤلاء. وقد نبّه أذهانهم إلى عظمة القرآن الكريم، وإلى ما احتوى عليه من كنوز المعارف والأنباء، الأمر الذي لا يتسنّى لأحدٍ أن يكشف عن خفاياه، إلاّ الذين تطهّرت أفئدتهم، وتنبّهت بصائرهم، فتقربّوا من خالقهم. وهكذا جلا الله تعالى من خلال مضمون سورة (الواقعة) عظيم علمه وعظيم قُدُراته.

وأتبع، جلّ شأنه، سورة (الواقعة)، بسورة (الحديد)، هذه السّورة التي وجّه تعالى خطابه فيها إلى مسلمي زماننا بالذات. هؤلاء الذين تخلّفوا عن ركب الحضارة الإسلامية، وذهبت ريحهم، وهيمنت عليهم الشّعوب الأوربيّة المسيحيّة. فحاول تعالى من خلال هذا الخطاب الموجّه إليهم، أنّ يوقظ فيهم تعظيمهم

لإسلامهم، مذكّرًا إيّاهم بعظيم علمه وقُدُراته. وقد حثّ الله تعالى هؤلاء المُسلمين على تقبُّل مثيل ابن مريم الذي بعثه لمصلحتهم ومصلحة دعوة الإسلام التي تخلّوا عمليًّا عن حملها والعمل على تعاليمها. وحرّك فيهم عقولهم أيضًا، وحثّهم على البذل والعطاء والتّضحية لمصلحة إسلامهم وعزّتهم. كما حثّهم أن يسارعوا إلى مغفرةٍ من ربّهم. وهكذا تجلّى علم الله الغيبيّ وعظيم قُدُراته تعالى، من خلال سورة (الحديد) أيضًا، بكلّ وضوح.

وأتبع تعالى سورة (الحديد) بسورة (المجادلة)، فأكمل فيها مخاطبة مسلمي عصر الانحطاط. وكشف فيها ما سيؤول إليه حالهم من التردّي في الجهالة، والإغراق في التخلّف، وكأنّهم سيصبحون من حيث واقعهم منافقين. وذكّر تعالى هؤلاء بما حاق بالأمم التي انحرفت من قبلهم عن سبيل الله تعالى. ووضع في آخر سورة (المجادلة) هذه معيارًا لهم يميزون به المؤمن من المُنافق. وكشف بذلك عن فائق علمه الغيبيّ، وعظيم قُدُراته.

وأتبع تعالى سورة (المجادلة) بسورة (الحشر). وقد نبّه من خلالها أذهان مُسلمي عصرنا إلى أنّ صدر الإسلام لم يُنه مُعالجة قضية اليهود، إذ أخرجهم من حصونهم وصياصيهم الّتي كانت لهم حول المدينة المنوّرة. بل قدّر الله تعالى أن يحشرهم زمن تخلّف المُسلمين من جديد، ليعالج قضيّتهم من جذورها، ليثبت بذلك واسع علمه الغيبيّ وعظيم قُدراته.

كما نبّه تعالى أذهان المسلمين هؤلاء إلى أنّه لم يكن المقصد من التّعرُّض لقضيّة اليهود من دون حكمة جليلة. بل كان القصد من ذكرهم وذكر المنافقين في هذه السورة إثارة تفكيرهم وإيقاظهم من غفلتهم. وبذلك الأسلوب كشف، جلّ شأنه، عن واسع علمه الغيبيّ وعظيم قُدُراته.

وأتبع تعالى سورة (الحشر) بسورة (المُمتحنة)، وهي سورة مدنيّة، عالج تعالى فيها بيئة المدينة المنوّرة في صدر الإسلام من حيث ترتيب نزولها، وجاء يعالج فيهاأحوال مُسلمي عصرنا من حيث ترتيب تلاوتها وتسلسلها الموضوعي. وركّز تعالى فيها على ضرورة تفريق المؤمن بين من كان على دينه، ومن كان من عدوّه. إذ ينبغي ألّا يوادّهم، لأنّهم أعداء الله وأعداء أمّته.

ثم أتى، جلّ شأنه، بسورة (الصّفّ)، وهي سورة مدنيّة، عالج تعالى فيها بيئة المدينة المنوّرة في صدر الإسلام من حيث ترتيب نزولها، وجاء يعالج بها قضيّة مُسلمي عصرنا من حيث ترتيب تلاوتها وتسلسلها الموضوعي. وركّز تعالى فيها على أنّ من ظواهر مجتمع مسلمي عصر الانحطاط أنّ المسلمين فيه قد ألفوا أن

يقولوا ما لا يفعلون، فباؤوا من جرّاء ما وقعوا فيه من الإنحراف بمقتٍ من الله ربّهم. وهذا على شاكلة ما حدث لليهود من قبلهم. ونبّه تعالى إلى أنّ لهذا الأمر عواقبه الوخيمة عليهم. وهو الأمر الذّي اقتضى منه، سبحانه وتعالى، أن يبعث مثيل ابن مَريم بالبيّنات القرآنية لإصلاح أفكارهم وتنقيح مُعتقداتهم.

ثم أعقب، جلّ شأنه، سورة (الصّفّ) بسورة (الجمعة)، وهذه سورة مدنيّة، عالج تعالى فيها بيئة المدينة المنوّرة في صدر الإسلام، من حيث ترتيب نزولها. وجاء يعالج بها قضيّة المسلمين، ليكونوا بالتّالي (أنصار الله)، وعلى شاكلة ما فعله الحواريّون من قبل. كما حذّرهم من النكوص على أعقابهم، مُنبِّهًا إيّاهم إلى أنهم لن يتخلّصوا من تخلُّفهم إلاّ عن هذا الطّريق الذي انتهجه الله لهم، فيكونوا بذلك (ثُلّة الآخرين) التي أنبأ عنها الله، عزّ وجلّ، من قبل. ويتجلّى بهذا فضل الله العظيم على أمّة سيّد المُرسلين محمّد خاتَم النبيّين (ﷺ). وقد شبّه الله تعالى حال من يقولون ما لا يفعلون من المسلمين بمثل ما شبّه به حال اليهود من قبلهم، حين جَعَلَ مثَلَهم كمثل الحمار يحمل أسفارًا. ثم خاطبهم بخطاب فيه تحدٍّ لهم وابتلاء، بقوله تعالى: ﴿يا أيّها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون النّاس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين ـ ولا يتمنّونه أبدًا بما قدّمت أيديهم والله عليم بالظّالمين.﴾ (٦ ـ ٧).

ثم أتى، جلّ شأنه، بسورة (المنافقون)، وهي سورةٌ مدنيّةٌ أيضًا. عالج تعالى فيها بيئة المدينة المُنوّرة في صدر الإسلام، من حيث ترتيب نزولها، وجاء يعالج بها أحوال مسلمي عصرنا، من حيث ترتيب تلاوتها وتسلسلها الموضوعيّ. وقد شبّه الله فيها حال هؤلاء المسلمين الّذين يقولون ما لا يفعلون، شبّههم بحال المنافقين. فهذا هو سرُّ ترتيب هذه السّورة عقب سورة (الجُمُعة). وقد أنذرهم الله تعالى في ختام هذه السّورة بقوله: ﴿يا أيّها الذين آمنوا لا تُلهِكُم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾.

ثم أتى، جلّ شأنه، بسورة (التّغابُن)، وهي سورة مدنيّةٌ أيضًا، عالج الله تعالى بها بيئة المدينة المنوّرة في صدر الإسلام، من حيث ترتيب نزولها. وجاء تعالى يُعالج بها أحوال مُسلمي عصرنا أيضًا من حيث ترتيب تلاوتها. علمًا بأنّ كلمة التّغابن من غبنه حقّه إذا بخسه إيّاه. والغابن هو الفاتر عن العمل (محيط المحيط).

ونبّه، جلّ شأنه، الأذهان في هذه السورة إلى أنّ البشر انقسموا منذ فجر

تاريخهم إلى فريقٍ مؤمنٍ بوجود الله، إذا ما فكّر فهو ينطلق في تفكيره من نهج روحانيّ. وفريقٍ كافرٍ بوجود الله تعالى، إذا ما فكّر، فهو ينطلق في تفكيره من نهجٍ مادّيٍّ. كما نبّههم من خلال ذلك إلى أنّ عصرهم الّذي هم فيه لم يكن بعيدًا من ذلكم الانقسام. وأنّ الله، عزّ وجلّ، لا يخفى عليه شيء من أمور عباده، وهو عليمٌ بذات الصّدور. ثم ذكّرهم بالمصاير المؤسفة التي صار إليها من كانوا يفكّرون بنهج مادّي، ذكرّهم بهذا من خلال قوله تعالى: ﴿ألم يأتكم نبأ الّذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم، ولهم عذابٌ أليم﴾ (٥). وقصد تعالى من ذلك أن يحثّهم ليكونوا (أنصار الله)، ويتخلّصوا ممّا انتهوا إليه من التردّي، فلا يكونون ممّن يقولون ولا يفعلون.

ثمّ أتى، جلّ شأنه، بسورة (الطّلاق)، وهي سورة مدنيّة عالج تعالى فيها بيئة المدينة المنوّرة في صدر الإسلام من حيث ترتيب نزولها. وجاء يعالج فيها أحوال المسلمين المعاصرين من حيث ترتيب تلاوتها وتسلسلها الموضوعيّ. إشارةً منه، عزّ وجلّ، إلى أنّ الطّلاق سيتفشّى مرضه بينهم لتزلزل نظام الأسرة لديهم. وقد اعتبر تعالى هذه الظّاهرة نتيجةً طبيعيّةً لعتوّهم واستكبارهم ومعصيتهم أوامر ربّهم، عزّ وجلّ.

وقد انتهى، جلّ شأنه، من ذلك ليُناشد هؤلاء المسلمين بقوله تعالى في الآية العاشرة: ﴿. . . فاتّقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا، قد أنزل الله إليكم ذِكرًا ـ رسولاً يتلو عليكم آيات الله مُبيّنات ليُخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظّلمات إلى النور، ومن يؤمن بالله ويعمل صالحًا يُدخله جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا، قد أحسن الله له رزقًا﴾.

ثمّ أتى، جلّ شأنه، بسورة (التّحريم) الّتي أنزلها الله تعالى في المدينة المنوّرة وعالج فيها بيئتها الإسلامية آنذاك في صدر الإسلام، من حيث ترتيب نزولها، وجاء يُعالج بها قضيّة المسلمين المعاصرين من حيث ترتيب تلاوتها وتسلسلها الموضوعيّ.

وقد كان شأن مُسلمي عصر الانحطاط، عند الله، في سورة (التّحريم)، شأن من أنكروا نعمة الإسلام عليهم، حين عادوا يقولون ما لا يفعلون. فخاطبهم بقوله تعالى: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا تُوبوا إلى الله توبةً نصوحًا عسى ربُّكم أن يكفّر عنكم سيّئاتِكم ويُدخلَكم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار يومَ لا يُخزي الله النبيّ والذين آمنوا معه، نورُهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، يقولون ربّنا أتمم لنا نورَنا واغفر لنا، إنّك على كلّ شيء قدير﴾ (٨).

وقد ضرب الله تعالى لهؤلاء المسلمين، بعد ذلك، أمثلةً عديدةً كان الغرض منها تنبيههم إلى أنّ كلّ نفسٍ منهم رهينة بما كسبت، وأنّ الانتماء إلى الرّسول لا يُغني قليلاً أو كثيرًا، إذا كانَ بمجرّد النّسب أو كان بالإيمان قولاً لا فعلاً، ولسانًا لا قلبًا.

ثم أتى، جلّ شأنه، بسورة (المُلك)، المُنزلة في مكّة المكرّمة، والّتي كان الله تعالى قد أنزلها يوم كان المسلمون الأوائل أمسّ ما يكونون حاجةً إلى تقوية عزائمهم. وقد آتت أُكُلَها يومذاك بترتيب النزول.

لكنّ سورة (المُلك)، من حيث ترتيبُ تلاوتها وتسلسلُها الموضوعيّ، قد جاءت تتويجًا للسّور السبع عشرة التّابعة لمضمون سورة (ق) الأمّ.

وقد نبّه تعالى فيها النّاس كافّة، ومسلمي عصر الانحطاط خاصّة، إلى أنّه تعالى هو المالك الحقيقيّ لهذا الكون، وأنّه قادرٌ على كل شيءٍ، مؤكّدًا من خلال ذلك اختزال الحرف (ق) من إسمه (القدير).

وقد أضاف، جلّ شأنه، في سورة (المُلك)، إلى الأدلّة التي تضمّنتها سورة (ق) على عظيم قُدراته، دليلين جديدين. يتعلّق أوّلهما بالنظام الماديّ الكونيّ. ويتعلّق الدّليل الآخر بالنظام الرّوحيّ الكونيّ الموازي للنظام الماديّ. هذين النّظامين اللّذين نبّهت إلى وجودهما سورة (الرحمن) من قبل. فأثبت تعالى بذلك مُلكيته المُطلقة لهذا الكون، وقدرته المطلقة على التصرُّف بكلّ شيء فيه، مذكّرًا من خلال ذلك بأنّه، عزّ وجلّ، هو الذي خلق الموت والحياة ليبلُو البشر أيُّهم أحسنُ عملاً، وأنّه هو العزيز الذي لا يُغالب، وأنّه هو الغفور المتسامح مع عباده.

على هذه الصورة شكلّت سورة (ق) والسوّر السبع عشرة التّابعة لها إطارًا موضوعيًا في حدّ ذاته أيضًا.

ثم أتى، جلّ شأنه، بسورة (القلم). وقد استهلّها بحرف الاختزال (ن) ـ. وقد اختزله تعالى من اسمه (النّصير). وقد أتى به جزءًا من الآية التي استهلّ بها سورة (القلم)، وهي قوله تعالى: ﴿ن والقلمِ وما يسطُرون ـ ما أنت بنعمة ربّك بمجنون﴾، أي أننا (الله النّصير) نشهد على كمال عقل رسولنا وكمال دينه.

والملاحظ أن الله تعالى قدّم بعد هذه الشهادة أربعة أدلّةٍ تثبت هذا الكمال العقليّ والدّينيّ لرسوله الكريم. وبعد تقديم هذه الأدلّة دعا، جلّ شأنه، المكذّبين أن يرقبوا تطوّر الأحداث، فلا يتسرّعوا في أمر رسوله الكريم، مؤكّدًا لهم أنّ تطوُّر الأمور لا بدّ أن يُثبت لهم كمال عقل رسوله وكمال دينه.

وهنا أوصى الله تعالى رسوله الكريم أن يتمسّك بأهداب نهج التفكير الرّوحانيّ، مُعدِّدًا له المحامد التي يسفر عنها هذا النّهج. ومُعدّدًا مساوىء نهج التفكير المادّيّ أيضًا. هؤلاء المادّيّون الذين حرّم الله تعالى عليهم الفلاح في الدنيا والآخرة، وكتب لعاقبتهم أن تبوء بالذلّة والخيبة والخُسران.

ولمّا كان موضوع سورة (القلم) واسعًا جدًّا ومتشعّب الفروع، فقد ألحق تعالى بهذه السّورة تسع سورٍ تُكمل موضوعها شرحًا وتفصيلاً.

وكان أوّل هذه السّور التّسع سورة (الحاقّة)، وتعني النّازلة الثابتة. وقد حذّر تعالى من خلال هذه السورة من اتّهم رسوله بالجنون وفساد العقل. فأتى تعالى فيها بمسألتين ممّا بحثته سورة (القلم). وهاتان المسألتان هما نهجا التفكير الرّوحانيّ والمادّي. وضرب تعالى الأمثلة العديدة على عواقب كلّ نهجٍ منهما.

والسّورة الثانية التابعة لسورة (القلم) هي سورة (المعارج). وقد خصّصها الله تعالى للكلام على الذين كذّبوا بهذا الدّين. والذين أُنْذِروا ابتداءً من سورة (الكهف) الذين قالوا اتّخذ الله ولدًا. وقد اعتبرهم الله، جل شأنه، في زمرة أصحاب نهج التفكير الماديّ.

وانطلق الله تعالى في سورة (المعارج)، يكشف عن وجه عظمة مملكته السّماويّة التي صدر عنها هذا الإنذار الموجّه إلى هؤلاء المكذّبين تبصيرًا لهم بعظمة صاحب هذه المملكة التي أطلقت هذا الإنذار.

كما أوصى الله تعالى في سورة (المعارج) رسوله الكريم بأن يأخذ الأمور بالصّبر الجميل. وصوّر له بعض معالم العذاب الذي سيُنزله بهؤلاء المكذّبين. كما أنبأه في الوقت نفسه بما سيحدث من أثرٍ في تفكير الناجين منهم بعد نزول العذاب.

والسّورة الثالثة التابعة لسورة (القلم) هي سورة (نوح). وقد شبّه الله تعالى غطرسة المكذّبين لرسوله الكريم بغطرسة قوم نوح ممّن انتهجوا نهج التفكير الماديّ في حياتهم. ولوّح بعذابٍ مثيلٍ لعذاب قوم نوح. مع ضمان رعاية المُتّقين من المؤمنين، وحفظهم من شرور هذا العذاب.

والسورة الرابعة التابعة لمضمون سورة (القلم) هي سورة (الجنّ) التي وعظ الله تعالى فيها المكذّبين، بالانتظار وعدم التسرّع في الحكم على من يدّعي أنّه رسول ربّ العالمين. وهذه مسألة وردت مختصرة في سورة (القلم). وقد ركّز تعالى في وعظه على ما لثمار التّمهُّل وعدم التسرُّع من أهميّة، فضرب لهم مثال الوفد الذي جاء يحقّق في صدق محمّد رسول الله (ﷺ) من (نصيبين).

والسورة الخامسة التابعة لسورة (القلم) هي سورة (المُزَّمِّل). والمزمِّل أتى من ازّمل بثوبه تلفَّف. وزمل الشيء حمله. وقد تضمّنت سورة (المُزَّمِّل) التي أنزلها الله تعالى في أوائل سنوات الدعوة الإسلامية في مكّة المكرّمة، تضمّنت النّص على تكليف محمّد رسول الله (ﷺ) حمل مسؤولية إيصال رسالة الإسلام إلى العالم قاطبة. وقد قُصد بترتيبها المعروف من حيث التلاوة الدلالة، من خلال هذا التكليف لهذا الرسول العظيم، على كمال عقله ودينه. وأن إضطلاعه بهذه المسؤولية التي كُلّف حملَها هو مَهَمّةٌ ينوء بحملها أعاظم الرّجال. هذا وقد أمر الله، عزّ وجلّ، رسوله في سورة (المُزَّمِّل) أن يحمل هذه الرسالة، وهو يتحلّى بالصبر الجميل، تجاه ما سيواجهه به مكذّبوه.

والسورة السادسة التابعة لسورة (القلم)، هي سورة (المُدَّثِّر). وقد بحثت هذه السورة ضرورة تنظيم الرسول صفوف المؤمنين، وحثّهم على أن يستزيدوا علمًا. ذلك أنّ التزوُّد بالعلم هو نهج المُتّقين.

كما أمر الله تعالى رسوله الكريم في سورة (المُدَّثِّر) هذه أن يُنذر من يفكّرون بنهجٍ مادّيّ، ومنهم مسيحيّو أوربة خاصّة، وأن يحذِّرهم من عواقب نهج تفكيرهم هذا ونتائجه الوخيمة عليهم. ومن أوخم هذه العواقب أن يحرمهم الله تعالى من نصرته السماويّة وتأييده. وقد أكّد تعالى في هذه السورة إنزال العذاب بهم، وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿فإذا نُقر في النّاقور ـ فذلك يومئذٍ يومٌ عسيرٌ ـ على الكافرين غير يسير﴾.

وقد لجأ تعالى إلى أسلوب الترهيب معهم، وترك باب الإيمان به والتّوبة ممّا يقترفونه مفتوحًا لمن يشاء منهم أن يتّعظ بهذا الترهيب.

كما نبّه، جلّ شأنه، في سورة (المدَّثِّر) إلى أنه قدّر أن يبعث في زمن ظهور هؤلاء المكذِّبين مثيلًا لابن مريم، (قمرًا) يستمد نوره من شمس محمّد خاتَم النبيّين. وبشّر أنّه سيكون بدايةً لإشراق نور الإسلام من جديد. كما بشّر أنّ نهج هذا المثيل سيكون النهج الإسلامي القويم ذاته.

والسورة السابعة التابعة لسورة (القلم) هي سورة (القيامة). وقد أدلى الله تعالى فيها بعلامةٍ بارزةٍ لا بدّ أن تحدث زمن بعثة هذا المثيل لابن مريم. وهذه العلامة هي حدوث خسوف القمر في ليالي الخسوف من شهر رمضان. وكسوف الشمس في أوّل أيام الكسوف من شهر رمضان نفسه. وقد أورد هذه العلامة السّماويّة كتاب الدارقطني للحديث النبويّ أيضًا: «إنّ لمَهدينا آيتين لم تكونا منذ خَلْقِ السّماوات والأرض، ينخسف القمر لأوّل ليلةٍ من رمضان، وتنكسف

الشمس في النّصف منه.» وقد تحقّقت هذه الظاهرة الكونيّة فعلاً عام ١٣١١ للهجرة الموافق لعام ١٨٩٤ للميلاد، شرقيّ الكرة الأرضيّة، في أوربة وإفريقية. وتكرّر حدوثها بعد عام من التاريخ المذكور غربيّ الكرة الأرضيّة. وشهدت بحدوثها المراصد الفلكيّة في أقطارٍ عديدةٍ من العالم.

وقد أكدّ، جل شأنه، بعد حديثه عن هذه الظاهرة الفلكيّة السّماويّة، أنّ زمان ظهورها سيكون بداية عصر البعثة الإسلامية الثانية، وأنّه سيعقُبها نزول العذاب بالمكذِّبين من الغربيّين ولو بعد حين. وتتحوّل الأمور بذلك لخير الإسلام واستئناف انتشار دعوته في العالم بأسره. فإلى هذا ورد قول الله في سورة (القيامة): ﴿وإلى ربّك يومئذٍ المستقرّ﴾.

وقد وصفت الآيات الكريمة حال المكذِّبين الذين سينزل بهم عذاب الله تعالى بألفاظٍ هي في منتهى البلاغة والتأثير النّفسيّ.

وقال الله تعالى، قبل أن يختم سورة (القيامة): ﴿أيحسب الإنسان أن يُتْركَ سُدىً - ألم يكُ من نطفةٍ من مَنيٍّ يُمنى - ثم كان علقةً فخَلَق فسوّى - فجعل منه الزّوجين الذّكر والأنثى - أليس ذلك بقادرٍ على أن يُحيي الموتى﴾ (٣٦)، منبّهًا أذهان الناس من خلال ذلك إلى وجوده تعالى، وإلى تدخّل ربوبيّته في كل شيء، وعلى مرّ الأزمان. وأنّ هذه الرّبوبيّة سيكون لها تجليّاتها أيضًا في ذاك التاريخ.

والسورة الثامنة التابعة لسورة (القلم)، هي سورة (الدّهر). والدّهر لغةً يعني الأبد، بلا خلاف. وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم إشارة إلى أنه، جلّ شأنه، قد خصّص هذه السورة للكلام على الدهريّين، أصحاب نهج التفكير الماديّ.

فاستهلّ الله تعالى سورة (الدهر) بذكر واقعٍ مؤكّد أتى به على جهة السؤال، فقال: ﴿هل أتى على الإنسان حينٌ من الدّهر لم يكن شيئًا مذكورًا﴾. ولفت الأذهان بهذا السؤال إلى بداية تاريخ البشر، حيث كانوا يعيشون عيش الأنعام.

وتنبيهًا لأذهانهم إلى القفزة التي حقّقتها بعثة آدم عليه السلام، حيث انتقل البشر عن طريقه من حياة الكهوف إلى حياة التحضّر والارتقاء بهم عن حياة الأنعام. والأمر الذي قصده تعالى من ذلك هو أن يَلفت أذهان المكذِّبين والغربيّين منهم خاصّة إلى أنهم لم يكونوا ليبلغوا هذا الشأن من الحضارة والرّقيّ لولا تدخّل شرائع السّماء في حياة البشر. هذه الشّرائع التي دفعت تعاليمُها البشر على طريق التقدُّم والحضارة.

وآيات سورة (الدّهر)، أشار تعالى من خلالها إلى أنه ترك للبشر حريّتهم في اختيار نهج التفكير الذي يشاؤون، فلم يشأ تعالى أن يكرههم على نهج تفكير معلوم. وقد تولّد عن هذه الحرّيّة الممنوحة للإنسان نهجان: نهج أصحاب التفكير الروحانيّ، ونهج أصحاب التفكير المادّيّ. وقد شرح الله تعالى بعد ذلك ما أعدّه لأولئك وهؤلاء من جزاء. وذلك بأسلوب هو في غاية البلاغة ودقّة التّعبير.

والملاحَظ أنّ جميع ما ذكرناه حتى الآن أتى به الله تعالى تمهيدًا للموضوع الذي أراد بحثه في سورة (الدّهر)، وهو موضوع الكلام على اليوم الموعود لإنزال العذاب بالمكذّبين الدّهريّين في آخر الزّمان. وقد وعد تعالى هنا بإنقاذ المؤمنين من شرور ذاك العذاب والمحافظة عليهم، وجعل ذلك من معجزاته، عزّ وجلّ، وأضاف قائلاً: ﴿فوقاهم الله شرّ ذلك اليوم ولقّاهم نضرةً وسرورًا﴾ (١١).

كما عرض، جلّ شأنه، لبيان السبب الحقيقيّ الذي يدفع المكذّبين الغربيّين خاصّة إلى انتهاج نهج التفكير الماديّ في حياتهم، فعبّر عن ذلك بقوله تعالى: ﴿إنّ هؤلاء يحبُّون العاجلة ويذرون وراءهم يومًا ثقيلاً﴾ (٢٧)، متناسين أنّ الله تعالى إذا شاء بدّل أمثالهم تبديلاً.

وانتهى تعالى من ذلك كلّه ليقول في الآية ٢٩: ﴿إنّ هذه تذكرة ـ فمن شاء اتخذ إلى ربّه سبيلاً﴾.

والسورة التاسعة التابعة لسورة (القلم) هي سورة (المرسَلات). وقد خصّصها الله، جلّ شأنه، لبيان أوصاف من قدّر لهم تعالى أن يحملوا لواء الإسلام. فشبّههم تعالى بالرياح تحمل الخير إلى جميع الناس، على حين تعصف بزمرة المكذّبين لهذا الدّين القويم.

وقد توعّد الله تعالى مكذّبي آخر الزمان بقوله ﴿إنّما توعدون لواقع﴾ (٧). وأتى تعالى، وبلسان المجاز، ببعض علامات آخر الزمان المذكور الذي سيقع فيه هذا العذاب، معتبرًا إياه يوم الفصل بين الحقّ والباطل، وقال: ﴿لأيّ يومٍ أُجّلتْ ـ ليوم الفصل ـ وما أدراك ما يومُ الفصل ـ ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين.﴾ (١٣ ـ١٥).

وراح تعالى يكرّر وعيده هذا ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين﴾ عشر مرّات في سورة (المرسَلات)، ويصرّف قبل كلّ واحدة منها الآيات. وانتهى من ذلك كلّه ليقول آخر السورة: ﴿فبأي حديثٍ بعده يؤمنون﴾ (٥٠).

والمعنى أنّه يستحيل على العاقل المتدبّر، أن يرى منهاجًا هو أسمى من المنهاج والتّعليم الذي أتى به هذا القرآن العظيم.

على هذه الصورة تكون سورة (القلم) المُستهلّة بالحرف (ن) والسّور التّسع التابعة لها، قد ألّفت آخر إطارٍ موضوعيٍّ من الأطر التي سبق أن مَرّرنا بها.

أما سور جزء (عمّ) فهو، كما أشرت إلى ذلك في مقدّمة هذا الكتاب، خلاصة للقرآن الكريم، كما أنّ سُور المُعوّذات هي الخلاصة الأخيرة الموجزة لهذا الكتاب السّماويّ العظيم.

* * *

صدر للمؤلف

- حقيقة القراءة المعاصرة مجرّد تنجيم (الجزء الأول).
- حقيقة القراءة المعاصرة مجرّد تنجيم (الجزء الثاني).
- حقيقة القراءة المعاصرة مجرّد تنجيم (الجزء الثالث).
- النظريّة القرآنيّة الكونيّة حول خلق العالم.
- الرأي في المرأة والتراث والحريّة.

★ ★ ★

الفهرس

ص

فاتحة الكتاب ٥

الباب الأول

البحث النظري ـ حروف المقطعات

الفصل الأول ـ مناقشة آراء المفسّرين ١٥

الفصل الثاني ـ فنّ الاختزال ٢٢

الفصل الثالث ـ أهميّة فنّ الاختزال ٢٦

الفصل الرابع ـ نهج فنّ الاختزال ٢٩

الفصل الخامس ـ فنّ الاختزال القرآني

عملية تدبُّر ذهنيّة ٣٤

الباب الثاني

البحث التطبيقي ـ حروف الاختزال القرآنيّة

الفصل الأول ـ (الم) من سورة (البقرة) ٣٩

الفصل الثاني ـ (الم) من سورة (آل عمران) ٤٢

الفصل الثالث ـ (المص) وسورة (الأعراف) ٤٣

الفصل الرابع ـ (الر) من سورة (يونُس) ٤٥

الفصل الخامس ـ (الر) من سورة (هود) ٤٩

الفصل السادس ـ (الر) من سورة (يوسُف) ٥١

الفصل السابع ـ (المر) من سورة (الرعد ٥٢

الفصل الثامن ـ (الر) من سورة (إبراهيم) ٥٧

الفصل التاسع ـ (الر) من سورة (الحِجر) ٦١

الفصل العاشر ـ سوَر (النحل والإسراء والكهف) ٦٥

الفصل الحادي عشر ـ (كهيعص) من سورة (مريم) ٦٩

الفصل الثاني عشر ـ (طـه) من سورة (طـه) ٧٢

الفصل الثالث عشر ـ (الأنبياء والحجّ والمؤمنون والنور والفرقان) ٧٦

١ ـ سورة (الأنبياء) ٧٨

٢ ـ سورة (الحج) ٨٠

ص

٣ ـ سورة (المؤمنون) ٨٥
٤ ـ سورة (النور) ٩٠
٥ ـ سورة (الفرقان) ٩٦
الفصل الرابع عشر ـ (طسم) من سورة (الشعراء) ١٠٠
الفصل الخامس عشر ـ (طس) من سورة (النمل) ١٠٥
الفصل السادس عشر ـ (طسم) من سورة (القصص) ١١٠
الفصل السابع عشر ـ (الم) من سورة (العنكبوت) ١١٦
الفصل الثامن عشر ـ (الم) من سورة (الروم) ١١٨
الفصل التاسع عشر ـ (الم) من سورة (لقمان) ١٢٠
الفصل العشرون ـ (الم) من سورة (السجدة) ..... [illegible]
١ ـ سورة (الأحزاب) ..... [illegible]
٢ ـ عودة إلى سورة السجدة ١٣٠
٣ ـ سورة (سبأ) ١٣٢
٤ ـ عودة ثانية إلى سورة السجدة ١٤٠
٥ ـ سورة (فاطر) ١٤٢
٦ ـ استعراض مضامين ١٤٣
الفصل الحادي والعشرون ـ (يس) من سورة (يس) ١٤٥
ـ سورة (الصافّات) ١٤٨
الفصل الثاني والعشرون ـ (ص) من سورة (ص) ١٥٠
ـ سورة (الزُّمَر) ١٥٣
الفصل الثالث والعشرون ـ (حم) من سورة (غافر) ١٥٨
الفصل الرابع والعشرون ـ (حم) من سورة (فُصِّلت) ١٦٤
الفصل الخامس والعشرون ـ (حم ـ عسق) من سورة (الشورى) ١٦٧
الفصل السادس والعشرون ـ (حم) من سورة (الزُّخرُف) ١٧١
الفصل السابع والعشرون ـ (حم) من سورة (الدخان) ١٧٥
الفصل الثامن والعشرون ـ (حم) من سورة (الجاثية) ١٧٨
الفصل التاسع والعشرون ـ (حم) من سورة (الأحقاف) ١٨٠
ـ استعراض مضامين ١٨٢
١ ـ سورة (محمّد) ١٨٤

ص

٢ ـ سورة (الفتح) ١٨٥
٣ ـ سورة (الحُجُرات) ١٨٧
الفصل الثلاثون ـ (ق) من سورة (ق) ١٨٩
١ ـ سورة (الذاريات) ٢٠٢
٢ ـ سورة (الطور) ٢٠٣
٣ ـ سورة (النجم) ٢٠٦
٤ ـ سورة (القمر) ٢٠٩
٥ ـ سورة (الرحمن) ٢١١
٦ ـ سورة (الواقعة) ٢١٦
٧ ـ سورة (الحديد) ٢١٨
٨ ـ سورة (المجادلة) ٢٢١
٩ ـ سورة(الحشر) ٢٢٢
١٠ـ سورة (الممتحنة) ٢٢٤
١١ـ سورة (الصفّ) ٢٢٥
١٢ـ سورة (الجُمُعة) ٢٢٦
١٣ـ سورة (المنافقون) ٢٣١
١٤ـ سورة (التغابُن) ٢٣٢
١٥ـ سورة (الطلاق) ٢٣٣
١٦ـ سورة (التحريم) ٢٣٤
١٧ـ سورة (المُلك) ٢٣٥

الفصل الحادي والثلاثون ـ (ن) من سورة (القلم) ٢٣٨
١ ـ سورة (الحاقّة) ٢٤٤
٢ ـ سورة (المعارج) ٢٤٦
٣ ـ سورة(نوح) ٢٥٠
٤ ـ سورة(الجنّ) ٢٥١
٥ ـ سورة (المزّمّل) ٢٥٤
٦ ـ سورة (المدّثّر) ٢٥٧

٧ ـ سورة (القيامة) ٢٥٩
٨ ـ سورة (الدهر) ٢٦١
٩ ـ سورة (المرسَلات) ٢٦٧

الباب الثالث

مجمل بحوث فنّ الاختزال ٢٧٣

★ ★ ★